الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء العشرون

[سورة يوسف، الآية: ٩٤]- [سورة الحجر، الآية: ١٥]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)} [يوسف : ٩٤]

التفسير:

ولما خرجت القافلة من أرض «مصر» ، ومعهم القميص قال يعقوب لمن حضره: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تسفهوني وتسخروا مني، وتزعموا أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور.

قوله تعالى:{وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ} [يوسف : ٩٤]، أي:" ولما خرجت القافلة من أرض «مصر» ومعهم القميص"[١].

قال ابن كثير:" أي : خرجت من مصر"[٢].

قال ابن عباس:" لما خرجت العير"[٣].

عن السدي قال: "{ولما فصلت العير}. من مصر منطلقة إلى الشام"[٤].

قوله تعالى:{قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} [يوسف : ٩٤]، أي:" قال يعقوب لمن حضره: إني لأشمّ رائحة يوسف"[٥].

قال ابن كثير:" يعني : يعقوب ، عليه السلام ، لمن بقي عنده من بنيه : { إِنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..}"[٦].

قال ابن عباس:" وجد يعقوب ريح قميص يوسف وهو منه على مسيرة ثمان ليال"[٧].

وقال ابن عباس ايضا:" وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ستة أيام"[٨].

وفي رواية الضحاك عن ابن عباس، قال:" وجد من مسيرة عشرة أيام"[٩].

عن ابن أبي الهذيل قال: "سئل ابن عباس وأنا إلى جنبه، من كم وجد يعقوب ريح القميص؟، عن قول الله إني لأجد ريح يوسف قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخا، قال ابن أبي الهذيل: وهو ما بين البصرة والكوفة"[١٠].

قال السدي:" فلما فصلت العير من مصر منطلقة إلى الشام وجد يعقوب ريح يوسف وهو قوله: قال أبوهم لبني بنيه {إني لأجد ريح يوسف}"[١١].

قوله تعالى:{لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ} [يوسف : ٩٤]، أي:" لولا أن تسفهوني وتنسبوني إلى الخَرَف"[١٢].

قال ابن كثير:" تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر"[١٣].

قال الطبري:" يعني: لولا أن تعنّفوني، وتعجّزوني، وتلوموني، وتكذبوني.

ومنه قول الشاعر[١٤]:

---

(١) التفسير الميسر: ٢٤٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٠٩/٤.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٥٩):ص٢١٩٧/٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٠):ص٢١٩٧/٧.
(٥) انظر: التفسير الميسر:٢٤٦، وصفوة التفاسير:٦١/٢.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٠٩/٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦١):ص٢١٩٧/٧.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٢):ص٢١٩٧/٧.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٣):ص٢١٩٧/٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٤):ص٢١٩٧/٧.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٥):ص٢١٩٧/٧-٢١٩٨.
(١٢) انظر: التفسير الميسر:٢٤٦، وصفوة التفاسير:٦١/٢.
(١٣) تفسير ابن كثير:٤٠٩/٤.
(١٤)هانئ بن شكيم العدوي، هكذا نسبة أبو عبيدة، انظر: مجاز القرآن:٣١٨/١، وروايته هناك:" عن أمر"، بغير إضافة.

يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودِ

ويقال:"أفند فلانًا الدهر"، وذلك إذا أفسده، ومنه قول ابن مقبل[1]:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فإنَّهُ إذا كُلِّفَ الإفْنَاد بالنِّاسِ أَفْنَدا"[2]

وفي قوله تعالى:{لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ} [يوسف : ٩٤]، وجوه من التفسير:

أحدها : لولا أن تسفهون، قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-[3]، ومجاهد-في إحدى الروايات-[4]، وعطاء[5]، وقتادة[6]، ومنه قول النابغة الذبياني[7]:

إلا سليمان إذ قال المليكُ له قم في البرية فا جددها عن الفنَد

أي أمنعها من الفساد[8].

وقال أبو عبيدة:" «لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ»: أي: تسفّهونى وتعجّزونى وتلومونى، قال [هانىء بن شكيم العدوىّ][9]:

يا صاحبىّ دعا لومى وتفنيدى فليس ما فات من أمر بمردود"[10]

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله:{لولا أن تفندون}، قال: "الذي ليس له عقل ذلك المفند، يقولون لا يعقل، قال: وقال الشاعر:

مهلا فإن من العقول مفندا"[11].

الثاني : معناه لولا أن تكذبون ، قاله سعيد بن جبير[12]، ومجاهد[13]، والضحاك[14]، وهو مروي عن ابن عباس ايضا[15]، ومنه قول الشاعر :

هل في افتخار الكريم من أود أم هل لقول الصديق من فند

أي: من كذب.

وقال عطاء:" تسفهون أو تكذبون"[16].

وقال الفراء:" { لولا أن تفندون}، يقول: تكذبون وتعجزون وتضعفون"[17].

الثالث : لولا أن تهرِّمون. قاله الحسن[18]، ومجاهد[19].

الرابع: لولا أن تضعّفون ، قاله ابن إسحاق[20].

وقال ابن قتيبة:" أي: تعجزون"[1].

---

(١) لم أقف عليه، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره:٢٥٢/١٦.

(٢) تفسير الطبري:٢٥٢/١٦.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٦٦):ص٢١٩٨/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٢٠):ص٢٥٣/١٦.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢١٩٨/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٢٧):ص٢٥٣/١٦.

(٧)ديوانه: ٢٩، من قصيدته التي قالها يذكر النعمان ويعتذر إليه، وقبل البيت:
ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحد
حَدَدْتُ فلانا عن الشر: منعته وحبسته. والفند: الخطأ في الرأى وفي القول.

(٨) انظر: الكشف والبيان:٢٥٥/٥-٢٥٦..

(٩)لم أقف على ترجمته- والبيت فى الطبري ١٦/ ٢٥٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٠.

(١٠) مجاز القرآن:٣١٨/١.

(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٦٩):ص٢١٩٨/٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٣٧):ص٢٥٤/١٦.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٣٩):ص٢٥٥/١٦.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٤٠):ص٢٥٥/١٦.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٤٣):ص٢٥٥/١٦، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٩٦٧):ص٢١٩٨/٧.

(١٦) أخرجه الطبري(١٩٨٤٢):ص٢٥٥/١٦.

(١٧) معاني القرآن:٥٥/٢.

(١٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٤٦):ص٢٥٥/١٦.

(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٤٤):ص٢٥٥/١٦، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٩٦٨):ص٢١٩٨/٧.

(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٣٥):ص٢٥٣/١٦.

والتفنيد : تضعيف الرأي، ذكره الماوردي[٢]، واستشهد بقول الشاعر[٣]:
يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من أمري بمردود
وكان قول هذا لأولاد بنيه، لغيبة بنيه عنه ، فدل هذا على أن الجدَّ أبٌ [٤].
الخامس : يعني: لولا أن تجهلون. قاله مجاهد أيضا[٥]، وبه قال مقاتل[٦].
السادس: لولا أن تلوموني ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[٧].

قال الطبري:" أصل«التفنيد»:الإفساد. وإذا كان ذلك كذلك فالضعف والهرم والكذب وذهاب العقل وكل معاني الإفساد تدخل في التفنيد، لأن أصل ذلك كله الفساد والفساد في الجسم: الهرمُ وذهاب العقل والضعف،وفي الفعل: الكذب واللوم بالباطل، ولذلك قال جرير بن عطية[٨]:
يا عَاذِلِيَّ دَعَا المَلامَ وأَقْصِرَا طَالَ الهَوَى وأَطَلْتُما التَّفْنيدا
يعني: الملامة فقد تبيّن، إذ كان الأمر على ما وصفنا، أنّ الأقوال التي قالها من ذكرنا قولَه في قوله: {لولا أن تفندون} على اختلاف عباراتهم عن تأويله، متقاربةُ المعاني، محتملٌ جميعَها ظاهرُ التنزيل، إذ لم يكن في الآية دليلٌ على أنه معنيٌّ به بعض ذلك دون بعض"[٩].

القرآن

{قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)} [يوسف : ٩٥]

التفسير:

قال الحاضرون عنده: تالله إنك لا تزال في خطئك القديم مِن حب يوسف، وأنك لا تنساه.

قوله تعالى:{قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف : ٩٥]، أي:"قال الحاضرون عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك في محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال الذين قال لهم يعقوب من ولده {إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون}: تالله، أيها الرجل، إنك من حبّ يوسف وذكره لفي خطئك وزللك القديم لا تنساه، ولا تتسلى عنه"[١١].

قال يحيى بن سلام:" يعني: خسرانك القديم من حبّ يوسف"[١٢].

وفي قوله تعالى:{قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف : ٩٥]، وجوه من التفسير:
أحدها : أي: في خطئك القديم ، قاله ابن عباس[١٣]، وابن زيد[١٤].
الثاني : في جنونك القديم ، قاله سعيد بن جبير[١٥].
الثالث : في محبتك القديمة، قاله قتادة[١٦]، وسفيان[١]، وابن جريج[٢].

---

(١) غريب القرآن:٢٢٢٢٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٧٧/٣.
(٣)لم أقف على ترجمته- والبيت نسبه أبو عبيدة:٣١٨/١، لهانئ بن شكيم العدوىّ، والبيت في الطبري ١٦/ ٢٥٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٠.
(٤) انظر: النكت والعيون:٧٧/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٢١):ص٢٥٣/١٦.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٠/٢.
(٧) انظر: النكت والعيون:٧٧/٣.
(٨)ديوانه: ١٦٩، من قصيدة له طويلة، ورواية البيت خطأ في الديوان، صوابه ما هھنا،" وأقصرا"، بالراء، من" الإقصار"، وهو الكف عن فعل الشيء.
(٩) تفسير الطبري:٢٥٦/١٦.
(١٠) انظر: التفسير الميسر:٢٤٦، وصفوة التفاسير:٦١/٢.
(١١) تفسير الطبري:٢٥٦/١٦.
(١٢)لتصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:٣٤٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٤٩):ص٢٥٧/١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٥٦):ص٢٥٧/١٦.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٧١):ص٢١٩٨/٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٥٠):ص٢٥٧/١٦، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٩٧٣):ص٢١٩٨/٧-٢١٩٩.

الرابع : أي: إنك لمن ذكر يوسف في الباطل الذي أنت عليه. قاله محمد بن إسحاق(٣).
الخامس: في شقائك القديم، يعني: في شقاء من حب يوسف وذكره فما تنساه وقد أتى عليه أربعون سنة. قاله مقاتل(٤)، ومنه قول لبيد(٥):

تمنى أن تلاقي آل سلمى بحطمة والمنى طرف الضِّلال

وفي قائل ذلك قولان(٦):
أحدهما : بنوه ، ولم يقصدوا بذلك ذماً فيأثموا.
والثاني : بنو نبيه وكانوا صغاراً .
وقال قتادة:" أي:من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمةً غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبيّ الله ﷺ"(٧).
وعن الحسن، في قول الله :"{تالله إنك لفي ضلالك القديم}. قال: عقوقا"(٨). أي: أن قولهم هذا عقوق.

القرآن

{فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)} [يوسف : ٩٦]

التفسير:
فلما أن جاء من يُبشِّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ، وطرح قميص يوسف على وجهه فعاد يعقوب مبصرًا، وعمَّه السرور فقال لمن عنده: ألمْ أخبركم أني أعلم من الله ما لا تعلمونه من فضل الله ورحمته وكرمه؟
قوله تعالى:{فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ} [يوسف : ٩٦]، أي:" فلما أن جاء من يُبشِّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ"(٩).
قوله تعالى:{أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا} [يوسف : ٩٦]، أي:" طرح قميص يوسف على وجهه فعاد يعقوب مبصرًا"(١٠).
قال القرطبي:" أي: على عينيه، {فارتد بصيرا}"(١١).
قال مقاتل:" يعني: فرجع بصيرا بعد البياض"(١٢).
قال الصابوني:" لما حدث له من السرور والانتعاش"(١٣).
وقيل:معناه:" بصيراً بخبر يوسف"(١٤).
قال القرطبي:"وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يثيبه به، فقال: والله ما أصبت عندنا شيئا، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليك سكرات

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٥٣):ص٢٥٧/١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٥٤):ص٢٥٧/١٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٧٦):ص٢١٩٩/٧.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٠/٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:٧٨/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٧٨/٣.
(٧) أخرجه الطبري(١٩٨٥٠):ص٢٥٧/١٦.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٧٢):ص٢١٩٨/٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٠) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١١) تفسير القرطبي:٢٦١/٩.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٠/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٦٢/٢.
(١٤) النكت والعيون:٧٨/٣.

الموت. قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر"[1].

قوله تعالى:{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف : ٩٦]، أي:" فقال لمن عنده: ألمْ أخبركم أني أعلم من الله ما لا تعلمونه من فضل الله ورحمته وكرمه؟"[2].

وفي قوله تعالى:{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف : ٩٦]، ثلاثة وجوه[3]:

أحدها : إني أعلم من صحة رؤيا يوسف ما لا تعلمون .

الثاني : إني أعلم من قول ملك الموت أنه لم يقبض روح يوسف ما لا تعلمون .

الثالث : إني أعلم من بلوى الأنبياء بالمحن ونزول العراج ونيل الثواب ما لا تعلمون .

فوائد الآيات:[٩٤-٩٦]:

١- آية عظيمة هي حمل الريح ريح يوسف على مسافات بعيدة.
٢- آية أخرى هي ارتداد بصر يعقوب بعد العمى بمجرد أن ألقي القميص على وجهه.
٣- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان علاج العمى في العين، وفي آلية شفاء النبي يعقوب-عليه السلام- من خلال القميص، وجوه:

أحدها: أن قميص يوسف مشتمل على عرقه، ومن ثم أن ذلك العرق سبب شفاء يعقوب بإذن الله تعالى.

إذ تمكن العالم المسلم الاستاذ الدكتور عبد الباسط محمد سيد، الباحث بالمركز القومي للبحوث التابع لوزارة البحث العلمي والتكنولوجيا بجمهورية مصر العربية من الحصول على براءتي اختراع دوليتين الأولى من براءة الاختراع الأوربية عام ١٩٩١م ، والثانية براءة الاختراع الأمريكية عام ١٩٩٣م ، وذلك بعد أن قام بتصنيع قطرة عيون لمعالجة المياه البيضاء استلهاماً من نصوص سورة يوسف.

الثاني: انه عندما ألقى أبناء يعقوب قميص يوسف على وجهه أدرك الشيخ الطاعن في السن أن هذا هو قميص ابنه الذي فقده من عشرات السنين فتفجر على وجهه انفعال عنيف و تقلصت عضلات وجهه لدرجة تسببت في تمزق العضلات الدقيقة الواهية و سقوط عدستي العينين في نفس الوقت مما مكنه من الابصار او حتى سقوط عدسة واحدة ؛ فعين واحدة تكفي للإبصار.

الثالث: إذا كان الحزن سبباً في العمى فلعل عكسه يكون سبباً في زوال العمى وهو شدة الفرح بالعثور على يوسف-عليه السلام-.

الرابع: أن عملية الشفاء كانت معجزة إلهية، خارقة للاسباب الطبيعية.

فإن القاء القميص سبب فى رد البصر..كما ان هز الجذع سبب لسقوط الرطب ..وضرب البحر بالعصا سبب في انشقاقه.

القرآن

{قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧)} [يوسف : ٩٧]

التفسير:

قال بنوه: يا أبانا سل لنا ربك أن يعفو عنا ويستر علينا ذنوبنا، إنا كنا خاطئين فيما فعلناه بيوسف وشقيقه.

قوله تعالى:{قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [يوسف : ٩٧]، أي:" قال بنوه: يا أبانا سل لنا ربك أن يعفو عنا ويستر علينا ذنوبنا"[4].

قوله تعالى:{إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف : ٩٧]، أي:" إنا كنا خاطئين فيما فعلناه بيوسف"[1].

---

(١) تفسير القرطبي:٢٦١/٩.
(٢) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٣) انظر: النكت والعيون:٧٨/٣-٧٩.
(٤) التفسير الميسر:٢٤٧.

وقيل: إنما سألوا أباهم ذلك لأمرين[2]:
أحدهما : أنهم أدخلوا عليه من آلام الحزن ما لا يسقط المأثم عنه إلا بإجلاله .
الثاني : أنه نبيٌّ تجاب دعوته ويعطى مسألته ، فروى ابن وهب عن الليث بن سعد:" إن يعقوب، وإخوة يوسف أقاموا عشرين سنة يطلبون المغفرة مما فعل إخوة يوسف بيوسف لا يقبل ذلك منهم حتى لقي جبريل يعقوب ﷺ فعلمه هذا الدعاء: يا رجاء المؤمنين لا تخيب رجائي، ويا غوث المؤمنين أغثني ويا عون المؤمنين أعني، يا حبيب التوابين تب علي، فاستجيب لهم"[3].
فإن قيل قد تقدمت المغفرة لهم بقول يوسف من قبل:{لا تثريب عليكم} الآية ، فلمَ سألوا أباهم أن يستغفر لهم ؟
فعن ذلك ثلاثة أجوبة[4]:
أحدها : لأن لفظ يوسف عن مستقبل صار وعداً ، ولم يكن عن ماض فيكون خبراً .
الثاني : أن ما تقدم من يوسف كان مغفرة في حقه ، ثم سألوا أباهم أن يستغفر لهم في حق نفسه.
الثالث : أنهم علموا نبوة أبيهم فوثقوا بإجابته ، ولم يعلموا نبوة أخيهم فلم يثقوا بإجابته .
قال القرطبي:" وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله. قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها"[5].

القرآن

{قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)} [يوسف : ٩٨]

التفسير:
قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم، إنه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.
قوله تعالى:{قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف : ٩٨]، أي:" قال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم"[6].
وفي تأخيره الاستغفار لهم وجهان[7]:
أحدهما : أنه أخره دفعاً عن العجيل ووعداً من بعد، فلذلك قال عطاء : " طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. وقال يعقوب سوف أستغفر لكم ربي"[8].
الثاني : أنه أخّره انتظاراً لوقت الإجابة وتوقعاً لزمان الطلب .
وفي تحديد وقت الإجابة ثلاثة أقوال:
أحدها : عند صلاة الليل ، قاله عمرو بن قيس[9].
الثاني : إلى السحَر، قاله ابن مسعود[1]، وإبراهيم التيميّ[2]، وإبراهيم النخعي[3]، وعكرمة، وأبو وأبو جعفر محمد بن علي[4]، وسعيد بن جبير[5]، وقتادة[6]، والسدي[7]، وابن جريج[8]، وبه قال قال مقاتل[9].

---

(١) انظر: صفوة التفاسير:٦٢/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٧٩/٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٩٨٢):ص٢٢٠٠/٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:٧٩/٣.
(٥) تفسير القرطبي:٢٦٢/٩.
(٦) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٧) انظر: النكت والعيون:٨٠/٣.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٥٠):ص٢١٩٥/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٣):ص٢٦٢/١٦.

عن محارب بن دثار، قال: "كان عمٌّ لي يأتي المسجدَ، فسمع إنسانًا يقول: «اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت، وهذا سَحَرٌ، فاغفر لي»، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: {سوف أستغفر لكم ربي}"(١٠).

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: "لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار؟ قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب"(١١).

قال الزجاج:" قال ذلك يعقوب إرادة أن يستغفر لهم في وقت وجه السحر، في الوقت الذي هو لإجابة الدعاء لا أنه ضن بالاستغفار وذلك أشبه بأخلاق الأنبياء، أعني: المبالغة في الاستغفار، وتعمد وقت الإجابة"(١٢).

الثالث : إلى ليلة الجمعة. قاله ابن عباس ورواه عن النبي -ﷺ- مرفوعاً(١٣).

وإنما سألوه عن الاستغفار لهم وإن كان المستحق في ذنوبهم التوبة منها دون الاستغفار لهم ثلاثة أمور(١٤):

أحدها : للتبرك بدعائه واستغفاره .

الثاني : طلباً لاستعطافه ورضاه .

الثالث : لحذرهم من البلوى والامتحان في الدنيا .

قوله تعالى:{إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يوسف : ٩٨]، أي:" إنه هو الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم"(١٥).

قال الطبري:" يقول: إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم {الرحيم}، بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها"(١٦).

قال سعيد بن جبير:" {الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم} يعني: رحيم بالمؤمنين"(١٧).

فوائد الآيتين:[٩٧-٩٨]:

١- الاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة.

٢- أنه من أنواع التوسل المشروع: التوسل بدعاء الصالحين، الذين تقربوا إلى الله جل وعلا بالواجبات ثم بالمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، فنتوسل إلى الله جل وعلا بدعاء الصالحين لا بذواتهم، والدليل على ذلك من الكتاب، قول الله تعالى حاكياً

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٠)-(١٩٨٧١):ص٢٦١/١٦-٢٦٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٢):ص٢٦٢/١٦.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠٠/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠٠/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠٠/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠٠/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠٠/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٤):ص٢٦٢/١٦.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٠/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(١٩٨٧٠):ص٢٦١/١٦.
(١١) الدر المنثور:٥٨٤/٤. وأخرجه الواحدي في التفسير الوسيط(٤٨٠):ص٦٣٤/٢
(١٢) معاني القرآن:١٢٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٥):ص٢٦٢/١٦.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٨٠/٣.
(١٥) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٦) تفسير الطبري:٢٦٣/١٦.
(١٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٨٥):ص٢٢٠٠/٧.

عن إخوة يوسف: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف:٩٧]، فطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ما أخطئوا في حق يوسف عليه السلام.

أما من السنة فحديث عكاشة بن محصن رضي الله عنه وأرضاه، لما قال النبي ﷺ: "سبعون ألفاً يدخلون الجنة"، إلى آخر الحديث، فقام عكاشة بن محصن فقال: "يا رسول الله! ادع الله لي أن أكون منهم، فقال له النبي ﷺ: أنت منهم، فقام رجل آخر، فقال له النبي ﷺ: سبقك بها عكاشة"(١).

٣- وأيضاً الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ أمره إذا رأى أويس القرني أن يطلب منه أن يستغفر له، فهذا دليل على التوسل بدعاء الصالحين.

٤- كرم يعقوب وحسن عفوه وصفحه على أولاده إذ استغفر لهم ربهم فغفر لهم.

٥- جاء معنى «العصيان» بألفاظ كثيرة في القرآن الكريم:

أ ـ الذنب قال تعالى: " فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ }[العنكبوت: ٤٠].

أ- الخطيئة قال تعالى عن اخوة يوسف: {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}[يوسف: ٩٧].

ب- السيئة قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}[هود: ١١٤].

ت- الحُوب قال تعالى: " إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا }[النساء، آية: ٢].

ث- الإثم قال تعالى: " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ}[الإعراف: ٣٣].

ج- الفسوق والعصيان قال تعالى: " وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ }[الحجرات: ٧].

ح- الفساد قال جلّ وعلا: " إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا}[المائدة: ٣٣].

خ- العتو قال تعالى:{فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[الإعراف: ١٦٦].

٦- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو: "الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب عل كل من يتوب ففي الحديث: "إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"(٢). وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم:٣٢].

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته"(٣).

قال الخطابي:"«الغفور»:هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٤).

- و«الرحيم»:أي: "ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء" (٥).

القرآن

---

(١)رواه البخاري (٦٥٤١).

(٢)أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٧) بنحوه، والترمذي في سننه (٥/ ٥٤٨) كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) كتاب الآداب باب فضل العمل، والدارمي (٢/ ٢٣٠) كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله عن أنس، وقال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٠).

(٣)الحق الواضح المبين، السعدي:٧٣، ٧٤، وانظر: أسماء الله الحسنى:٢١٩.

(٤) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(٥) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)} [يوسف : ٩٩]

التفسير:

وخرج يعقوب وأهله إلى «مصر» قاصدين يوسف، فلما وصلوا إليه ضمَّ يوسف إليه أبويه، وقال لهم: ادخلوا «مصر» بمشيئة الله، وأنتم آمنون من الجهد والقحط، ومن كل مكروه.

قوله تعالى:{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} [يوسف : ٩٩]، أي:" فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما"(١).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فلما دخل يعقوب وولده وأهلوهم على يوسف، ضم إليه أبويه"(٢).

عن السدي:"{فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه}، وإخوته وهما أبوه وخالته "(٣).

قتادة، قوله: " {آوى إليه أبويه} [يوسف: ٩٩] قال: أبوه وأمه ضمهما"(٤).

وقال القرطبي:" يعني: بـ«أبويه»: أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين. وقيل: أحيا الله له أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن"(٥).

قوله تعالى:{وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف : ٩٩]، أي:" وقال لهم: ادخلوا «مصر» بمشيئة الله، وأنتم آمنون من الجهد والقحط، ومن كل مكروه"(٦).

قال أبو العالية:" يعني به مصر فرعون"(٧).

وفي قوله تعالى:{وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف : ٩٩]، وجوه:

أحدهما : آمنين من فرعون، وهذا معنى قول أبي العالية(٨).

الثاني : آمنين مما كنتم فيه في باديتكم من الجدب والقحط. قاله الطبري(٩).

الثالث: آمنين من الخوف. قاله مقاتل(١٠).

وفي قوله تعالى:{إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف : ٩٩]، وجهان:

أحدهما : إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر. قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: {ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين}، بها قبل الدخول. وهذا قول السدي(١١).

قال الماوردي: أنه" يعود إلى استيطان مصر، وتقديره استوطنوا مصر إن شاء

قال السدي:" فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر، كلَّم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم، فلما بلغوا مصر قال: {ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين} {فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه}"(١٣).

قال فرقد السبخي: "لما ألقي القميص على وجهه ارتد بصيرًا، وقال: {ائتوني بأهلكم أجمعين}، فحمل يعقوب وإخوة يوسف، فلما دنا أخبر يوسف أنه قد دنا منه، فخرج يتلقاه. قال: وركب معه أهلُ مصر، وكانوا يعظمونه. فلما دنا أحدهما من صاحبه، وكان يعقوب يمشي وهو

---

(١) صفوة التفاسير:٦٢/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٦٤/١٦.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٨٦):ص٢٢٠٠/٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٨٧):ص٢٢٠١/٧.
(٥) تفسير القرطبي:٢٦٣/٩.
(٦) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٨٩):ص٢٢٠١/٧.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١١٩٨٩):ص٢٢٠١/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٦٧/١٦.
(١٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٠/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٧٧):ص٢٦٥/١٦.
(١٢) انظر: النكت والعيون:٨١/٣.
(١٣) أخرجه الطبري(١٩٨٧٧):ص٢٦٥/١٦.

يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا. قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ابنك! قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه، فذهب يوسف يبدؤه بالسلام، فمنع من ذلك، وكان يعقوب أحقّ بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا ذاهب الأحزان عني، هكذا قال:«يا ذاهب الأحزان عني»"(١).

قال حجاج:" بلغني أن يوسف والملك خرجا في أربعة آلاف يستقبلون يعقوب وبنيه"(٢).

وبنيه"(٢).

الثاني : أنه راجع إلى قول يعقوب : سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله آمنين إنه هو الغفور الرحيم}، ويكون اللفظ مؤخراً ، وهو قول ابن جريج(٣).

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقَّاهم، لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجّة واضحةٍ"(٤).

القرآن

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)} [يوسف : ١٠٠]

التفسير:

وأجْلَسَ أباه وأمه على سرير ملكه بجانبه؛ إكرامًا لهما، وحيَّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وتكريمًا، لا عبادة وخضوعًا، وكان ذلك جائزًا في شريعتهم، وقد حَرُم في شريعتنا؛ سدًا لذريعة الشرك بالله. وقال يوسف لأبيه: هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك من قبل في صغري، قد جعلها ربي صدقًا، وقد تفضَّل عليَّ حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية، من بعد أن أفسد الشيطان رابطة الأخوة بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف التدبير لما يشاء، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله.

قوله تعالى:{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ} [يوسف : ١٠٠]، أي:" وأجْلَسَ أباه وأمه على سرير ملكه بجانبه؛ إكرامًا لهما"(٥).

قال الثعلبي:" يعني: أجلسهما عليه"(٦).

قال ابن إسحاق:" يعني: رفع اسمهما"(٧).

قال الزجاج:" {العرش}، السرير"(٨).

قال ابن عباس:" يقول: رفع أبويه على السرير"(٩). وروي عن مجاهد(١٠)، والضحاك(١١)، وقتادة(١٢)، وسفيان(١٣)، والسدي(١٤)، مثل ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٨٧٨):ص٢٦٥/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٨٧٩):ص٢٦٥/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨٠):ص٢٦٦/١٦.
(٤) تفسير الطبري:٢٦٦/١٦.
(٥) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٦) الكشف والبيان:٢٥٩/٥.
(٧) الكشف والبيان:٢٥٩/٥.
(٨) معاني القرآن:١٢٩/٣.
(٩) أخرجه الطبري(١٩٨٩٥):ص٢٦٨/١٦. وقال :" إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه".
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨٥)-(١٩٨٩٢):ص٢٦٧/١٦-٢٦٨.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨٤):ص٢٦٧/١٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٩٤):ص٢٦٨/١٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٩٦):ص٢٦٨/١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨٣):ص٢٦٧/١٦.

وروي عن ابن زيد:" {ورفع أبويه على العرش}، قال: مجلسه"(١).

قال ابن عمر:" اهتز العرش لحب لقاء الله سدا، قال: إنما يعني السرير ورفع أبويه على العرش"(٢).

وفي أبويه قولان :

أحدهما : أنهما أبوه وخالته راحيل، وكان أبوه قد تزوجها بعد أمه فسميت أُماً، وكانت أمه قد ماتت في نفاس أخيه بنيامين، قاله وهب(٣)، والسدي(٤)، وابن زيد(٥).

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن وهب، قال:" ورفع أبويه على العرش قال: أبوه وخالته وكانت توفيت أم يوسف في نفاس أخيه بنيامين"(٦).

عن عمرو بن أبي سلمة، قال: "سألت زيد بن أسلم، عن قول الله تعالى: {ورفع أبويه على العرش}، فقلت: أبلغك أنها خالته؟ قال: قال ذلك بعض أهل العلم، يقولون: إن أمّه ماتت قبل ذلك، وإن هذه خالته"(٧).

الثاني : أنهما أبوه وأمه وكانت باقيه إلى دخول مصر ، قاله الحسن(٨)، وابن إسحاق(٩).

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق ؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في«أبوين»، إلا أن يصح ما يقال من أنّ أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحُجة يجب التسليم لها، فيسلّم حينئذ لها"(١٠).

قوله تعالى:{وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف : ١٠٠]، أي:" وحيَّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وتكريمًا، لا عبادة وخضوعًا"(١١).

قال ابن عباس:" يقول: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته"(١٢).

وفي قوله تعالى:{وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف : ١٠٠]، وجوه:

أحدها : أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له.

قال قتادة : كانت تحية من قبلكم، كان بها يحيِّي بعضهم بعضًا، فأعطى الله هذه الأمة السلام، تحية أهل الجنة، كرامةً من الله تبارك وتعالى عجّلها لهم، ونعمة منه"(١٣).

قال محمد بن إسحاق : "تحمّل - يعني يعقوب- بأهله حتى قدموا على يوسف، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه، دخلوا على يوسف، فلما رأوه وقعوا له سجودًا، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان، أبوه وأمه وإخوته"(١٤).

وقال قتادة أيضا:" وكانت تحية الناس يومئذ أن يسجد بعضهم لبعض"(١٥).

قال سفيان:" كانت تحيةً فيهم"(١٦).

قال ابن جريج:" كانت تلك تحيّتهم، كما تصنع ناسٌ اليوم"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٨٩٧):ص٢٦٩/١٦.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٩٣):ص٢٢٠١-٢٢٠٢.

(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠١/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨١):ص٢٦٧/١٦، وتفسير ابن أبي حاتم(١١٩٩١):ص٢٢٠١/٧

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٩٨):ص٢٦٩/١٦.

(٦) تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٠١/٧. والخبر غير مرقوم بالمطبوع!

(٧) أخرجه الطبري(١٩٨٩٨):ص٢٦٩/١٦.

(٨) انظر: النكت والعيون:٨٢/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٨٨٢):ص٢٦٧/١٦.

(١٠) تفسير الطبري:٢٦٧/١٦.

(١١) التفسير الميسر:٢٤٧.

(١٢) أخرجه الطبري(١٩٨٩٩):ص٢٦٩/١٦.

(١٣) اخرجه الطبري(١٩٩٠١):ص٢٦٩/١٦.

(١٤) أخرجه الطبري(١٩٩٠٠):ص٢٦٩/١٦.

(١٥) أخرجه الطبري(١٩٩٠٢):ص٢٦٩/١٦.

(١٦) أخرجه الطبري(١٩٩٠٣):ص٢٧٠/١٦.

قال ابن زيد:" ذلك السجود لشرَفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادةٍ"[٢].

عن عدي بن حاتم :"{وخروا له سجدا}، قال: كانت تحية من كان قبلكم، فأعطاكم الله السلام مكانها"[٣].

قال الفراء:" سجود تحية وطاعة لا لربوبية"[٤].

قال الزجاج:" كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم"[٥].

قال الحارث بن أسد المحاسبي:" إنما سجدوا له تحية وإكراما لا عبادة له ثم رفعهما على سريره بعدما سجدوا له وأجلسهم معه على فراشه كذلك فسرها المفسرون"[٦].

قال النحاس:" هو سجود على غير عبادة وإن كان قد نهي المسلمون عن هذا فإنه على ماروي أنها تحية كانت لهم"[٧].

قال الثعلبي:" كانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، لأن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى وإنما هو الانحناء والتواضع على طريق التحية والتعظيم والتسليم إلا على جهة العبادة والصلاة، وهذا قول الأعشى بن ثعلبة[٨]:

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

وقال آخر[٩]:

فضول أزمتها لأمها أسجدت سجود النصارى لأربابها

وقيل: السجود في اللغة الخضوع كقول النابغة[١٠]:

بجَمْع تضل البُلْقُ في حَجَراته ترى الأكْم منه سجدا للحوافر

أي متطامنة ذليلة"[١١].

وقال الحسن : "بل أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا"[١٢].

قال الطبري:" وإنما عنى من ذكر بقوله:"إن السجود كان تحية بينهم"، أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض. ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديمًا قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة[١٣]:

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٠٤):ص٢٧٠/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٠٦):ص٢٧٠/١٦.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٩٩٥):ص٢٢٠٢/٧.
(٤) معاني القرآن:٨٨/٢.
(٥) معاني القرآن:١٢٩/٣.
(٦) فهم القرآن:٤٨٢.
(٧) معاني القرآن:٤٥٨/٣.
(٨)الصحاح: ٢/ ٧٥٨.
(٩) الصحاح: ٢/ ٤٨٤، تفسير القرطبي: ١/ ٢٩١ وفيه لأحبارها بدل لأربابها.
(١٠) البيت منسوب لزيد الخيل، ويروى: بجيش، البلق: جمع أبلق، وهو الفرس المحجل، الحجرات: الناحية، الأكم: جمع أكمة، وهي تل أشد ارتفاعا مما حوله ودون الجبل. يصف كثرة هذا الجيش وأن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر. ورد البيت في الطبري في "تفسيره" ١/ ٣٦٥، "المعاني الكبير" ٢/ ٨٩٠، و"الأضداد" لابن الأنباري: ص ٢٩٥، و"الزاهر" ١/ ١٤١، "معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن" ٢/ ٥٤٢، و"تأويل مشكل القرآن": ص ٤١٧، و"الصحاح" (سجد) ٢/ ٤٨٣، و"اللسان" ٤/ ١٩٤٠، والقرطبي في "تفسيره" ١/ ٢٤٨، والبيضاوي في "تفسيره" ١/ ٢١، "البحر المحيط" ١/ ٥١، "الدر المصون" ١/ ٢٧٤.
(١١) الكشف والبيان:٢٥٩/٥.
(١٢) انظر: النكت والعيون:٨٢/٣.
(١٣)ديوان: ٣٩، وهذا البيت من قصيدته في تمجيد قيس بن معد يكرب، وكان خرج معه في بعض غاراته، فكاد الأعشى أن يؤسر، فاستنقذه قيس، فذكر ذلك فقال: فَيَا لَيْلَةً لِيَ فِي لَعْلَعٍ ... كَطَوْفِ الغَرِيبِ يَخَافُ الإسَارَا فلمَّا أَتَانا............ ... .
و" لعلع" مكان بين الكوفة والبصرة. يذكر في البيت الأول قلقه وشدة نزاعه وحيرته، لما تأخر قيس، وقد كاد

فَلَمَّا أَتَانَا بُعَيْدَ الكَرَى   سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا عَمَارَا"[1]

والقول الثاني : أنهم سجدوا لله عز وجل، والمعنى: خرّوا لله سجدا، فقوله: {له}، كناية عن الله تعالى. حكاه الثعلبي والماوردي عن ابن عباس[2].

قال الماوردي:"وكان يوسف في جهة القبلة فاستقبلوه بسجود ، وكان سجودهم شكراً، ويكون معنى قوله:{وخروا}، أي: سقطوا، كما قال تعالى: {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِم} [النحل : ٢٦]، أي: سقط"[3].

قال الجصاص:" قيل إنهم سجدوا لله شكرا له على ما أنعم به عليهم من الاجتماع مع يوسف على الحال السارة وأرادوا بذلك التعظيم ليوسف فأضاف السجود إلى يوسف مجازا كما يقال صلى للقبلة وصلى إلى غير القبلة يعني إلى تلك الجهة"[4].

قال ثعلبة : "خروا يعني مروا، ولم يرد الوقوع والسقوط على الأرض، نظيره قوله تعالى: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان : ٧٣]، إنما أراد لم يمروا كذلك، [قال]مجاهد: بمعنى المرور"[5].

والقول الثالث : أن السجود ها هنا الخضوع والتذلل ، ويكون معنى قوله تعالى :{خروا}، أي: بدروا. ذكره الماوردي[6].

قوله تعالى:{وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف : ١٠٠]، أي:" وقال يوسف لأبيه: هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك من قبل في صغري، قد جعلها ربي صدقًا"[7].

قال الثعلبي:" قال يوسف عند ذلك -واقشعر جلده-: {هذا تأويل رءياي من قبل قد جعلها ربي حقا}، وهو قوله: {إني رأيت أحد عشر كوكبا}"[8].

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن يعقوب-عليهما السلام-، ومدة تحقيق الرؤيا، على أقوال:

أحدها : أنه كان بينهما مائتان وعشرون سنة. حكاه الثعلبي عن الكلبي[9].

الثاني: ثمانين وسبعة أعوام. حكي ذلك عن ابن إسحاق بن يسار[10].

الثالث: أنه كان بيهما ثلاث وثمانون سنة. قاله الحسن-في إحدى الروايات-[11].

الرابع: أنه كان بينهما ثمانون سنة ، قاله الحسن أيضا[12]، وقتادة، وجسر بن فرقد[13]، وفضيل بن عياض[14].

هو يقع في أسر العدو، فلما جاء قيس استنقذه ومن معه، فسجدوا له وحيوه. و" العمار" مختلف في تفسير قيل: هو العمامة أو القلنسوة، وقيل الريحان يرفع للملك يحيا به، وقيل: رفعنا أصواتنا بقولنا:" عمرك الله".

(١) تفسير الطبري:٢٧١/١٦.

(٢) انظر: الكشف والبيان:٢٥٩/٥، والنكت والعيون:٨٢/٣.

(٣) النكت والعيون:٨٢/٣.

(٤) أحكام القرآن:٣٩٥/٤.

(٥) الكشفو البيان:٢٥٩/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون:٨٢/٣.

(٧) التفسير الميسر:٢٤٧.

(٨) الكشف والبيان:٢٥٩/٥.

(٩) انظر: الكشف والبيان:٢٥٩/٥.

(١٠) انظر: الكشف والبيان:٢٦٠/٥.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢٦):ص٢٧٤/١٦.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢٢):ص٢٧٣/١٦.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢٣):ص٢٧٣/١٦.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢٤):ص٢٧٤/١٦.

قال الحسن:" كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض يومئذ عبدٌ أحبَّ إلى الله من يعقوب"[1].

وقال الحسن ايضا:" ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان بين ذلك وبين لقائه يعقوب ثمانون سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة"[2].

الخامس: سبعون سنة. حكي عن عبدالله بن شداد[3].

السادس: سبع وسبعون سنة. حكاه الثعلبي[4].

السابع: كان بينهما أربعون سنة ، قاله سليمان[5]، وعثمان[6]، وعبدالله بن شداد-وهو المشهور عنه-[7].

قال عبد الله بن شداد: "وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة، وإليها ينتهي أقصى الرؤيا"[8].

الثامن : ست وثلاثون سنة ، قاله سعيد بن جبير[9].

التاسع : اثنتان وعشرون سنة. ذكره الماوردي[10].

والعاشر : أنه كان بينهما ثماني عشرة سنة ، قاله ابن إسحاق[11].

قال ابن إسحاق:" ذكر لي، والله أعلم، أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمان عشرة سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأنّ يعقوب بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه"[12].

فإن قيل : فإن رؤيا الأنبياء لا تكون إلا صادقة فهلاّ وثق بها يعقوب وتسلى ؟ ولم: {قال يا بُني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً}، وما يضر الكيد مع سابق القضاء ؟

قيل عن هذا جوابان[13]:

أحدهما : أنه رآها وهو صبي فجاز أن تخالف رؤيا الأنبياء المرسلين .

الثاني : أنه حزن لطول المدة في معاناة البلوى وخاف كيد الإخوة في تعجيل الأذى .

قوله تعالى:{وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ} [يوسف : ١٠٠]، أي:" وقد تفضَّل عليَّ حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية"[14].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه، مخبرًا عن قيل يوسف: وقد أحسن الله بي في إخراجه إياي من السجن الذي كنت فيه محبوسًا. وفي مجيئه بكم من البدو. وذلك أن مسكن يعقوب وولده، فيما ذكر، كان ببادية فلسطين"[15].

قال عمرو: "أخبرنا شيخ لنا أن يعقوب كان ببادية فلسطين"[1].

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٢٢):ص٢٧٣/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٢٥):ص٢٧٤/١٦.
(٣) انظر: الكشف والبيان:٢٥٩/٥.
(٤) انظر: الكشف والبيان:٢٥٩/٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٩١٧)-(١٩٩٢٠):ص٢٧٣/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٠٨):ص٢٧١/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٩٩١٠):ص٢٧٢/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(١٩٩١٦):ص٢٧٢/١٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:٨٢/٣.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٨٣/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٣٠):ص٢٧٥/١٦.
(١٢) أخرجه الطبري(١٩٩٣٠):ص٢٧٥/١٦.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٨٣/٣.
(١٤) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٥) تفسير الطبري:٢٧٥/٦.

قال قتادة:" وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان، أهل مواشٍ وبرّية"[٢].

قال ابن جريج:" كانوا أهل بادية وماشية"[٣].

قال ابن إسحاق:" كان منزل يعقوب وولده، فيما ذكر لي بعض أهل العلم، بالعَرَبات من أرض فلسطين، ثغور الشأم. وبعضٌ يقول بالأولاج من ناحية الشِّعْب، وكان صاحب بادية، له إبلٌ وشاء"[٤].

قال عبد الله بن شداد: "اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانًا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم. وخرجوا من مصر يوم أخرجهم فرعون وهم ست مائة ألف ونَيّف"[٥].

قال عبدالله:" خرج أهل يوسف من مصر وهم ست مائة ألف وسبعون ألفًا، فقال فرعون: {إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} [سورة الشعراء: ٥٤]"[٦].

قال مسروق:" دخل أهل يوسف مصر وهم ثلاث مائة وتسعون من بين رجل وامرأة"[٧].

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف : ١٠٠]، أي:" من بعد أن أفسد الشيطان رابطة الأخوة بيني وبين إخوتي"[٨].

قال الطبري:" يعني: من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجَهِل بعضنا على بعض"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} [يوسف : ١٠٠]، أي:" إن ربي لطيف التدبير لما يشاء"[١٠].

قال الطبري:" يقول: إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودة والرِّق والإسار"[١١].

قال البيضاوي: أي:"لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها"[١٢].

قال قتادة:" لطف بيوسف وصنع له حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته"[١٣].

قوله تعالى:{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف : ١٠٠]، أي:" إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله"[١٤].

قال الطبري:" {إنه هو العليم}، بمصالح خلقه وغير ذلك، لا يخفى عليه مبادي الأمور وعواقبها، {الحكيم}، في تدبيره"[١٥].

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٣٢):ص٢٧٥/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٣٢):ص٢٧٥/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(١٩٩٣٤):ص٢٧٦/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(١٩٩٣١):ص٢٧٥/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(١٩٩٣٥):ص٢٧٦/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(١٩٩٣٦):ص٢٧٦/١٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٩٩٣٨):ص٢٧٦/١٦.
(٨) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٩) تفسير الطبري:٢٧٧/١٦.
(١٠) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١١) تفسير الطبري:٢٧٧/١٦.
(١٢) تفسير البيضاوي:١٧٧/٣.
(١٣) أخرجه الطبري(١٩٩٣٩):ص٢٧٧/١٦.
(١٤) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٥) تفسير الطبري:٢٧٧/١٦.

قال البيضاوي: " {إنه هو العليم} بوجود المصالح والتدابير. {الحكيم} الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة"(١).

روي: "أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: أمرني جبريل عليه السلام قال: أو ما تسأله قال: أنت أبسط مني إليه فاسأله فقال جبريل: الله أمرني بذلك. لقولك: وأخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتني"(٢).

فوائد الآيتين:[٩٩-١٠٠]

١- مشروعية الخروج خارج المدينة لاستقبال أهل الكمال والفضل كالحجاج مثلا.
٢- صدق رؤيا يوسف عليه السلام إذ تمت حرفيا فجلس يوسف على عرشه وخر له أبواه وإخونه ساجدين.
٣- قد يتأخر تأويل الرؤيا عشرات السنين إذ تأخرت رؤية يوسف أربعين سنة.
٤- تجليات الألطاف الإلهية والرحمات الربانية في هذه القصة في مظاهر عجيبة.

القرآن

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)} [يوسف : ١٠١]

التفسير:

ثم دعا يوسف ربه قائلا ربِّ قد أعطيتني من ملك «مصر» ، وعلَّمتني من تفسير الرؤى وغير ذلك من العلم، يا خالق السموات والأرض ومبدعهما، أنت متولي جميع شأني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، وألحقني بعبادك الصالحين من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

قوله تعالى:{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ} [يوسف : ١٠١]، أي:" ثم دعا يوسف ربه قائلا ربِّ قد أعطيتني من ملك «مصر»"(٣).

وفي قوله تعالى:{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ} [يوسف : ١٠١]، وجوه(٤):

أحدها : أن الملك هو احتياج حساده إليه ، قاله ابن عطاء(٥).

الثاني : أراد تصديق الرؤيا التي رآها .

الثالث : أنه الرضا بالقضاء والقناعة بالعطاء .

الرابع : أنه أراد مُلْك الأرض. قال الماوردي:" وهو الأشهر، وإنما قال من الملك لأنه كان على مصر من قبل فرعون"(٦).

قال الطبري:" يعني: من ملك مصر"(٧).

قوله تعالى:{وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف : ١٠١]، أي:" وعلمتني من تفسير الرؤيا"(٨).

قال الطبري:" يعني من عبارة الرؤيا، تعديدًا لنعم الله عليه، وشكرًا له عليها"(٩).

وفي قوله تعالى:{وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف : ١٠١]، وجهان:

أحدهما : عبارة الرؤيا . قاله مجاهد(١٠).

---

(١) تفسير البيضاوي:١٧٧/٣.
(٢) تفسير البيضاوي:١٧٧/٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:٨٥/٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:٨٥/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٨٥/٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(٨) صفوة التفاسير:٦٢/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٠٨):ص٢٢٠٣/٧، وتفسير الطبري(١٩٩٤٥):ص٢٨٠/١٦.

الثاني : الإخبار عن حوادث الزمان ، حكاه ابن عيسى[١].

عن أبي الأعيس قال: "لما قال يوسف :{رب قد آتيتني من الملك}، حتى بلغ {توفني مسلما}، شكر الله له فزاده في عمره ثمانين عاما"[٢].

قوله تعالى:{فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف : ١٠١]، أي:" يا خالق السموات والأرض ومبدعهما"[٣].

قال ابن عباس:" بديع السموات والأرض"[٤].

قال قتادة:" خالق السموات والأرض"[٥].

قال الطبري:" يقول: يا فاطر السموات والأرض، يا خالقها وبارئها"[٦].

قوله تعالى:{أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ} [يوسف : ١٠١]، أي:" أنت متولي جميع شأني في الدنيا والآخرة"[٧].

قال الطبري:" يقول: أنت وليي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء بنصرك، وتغذوني فيها بنعمتك، وتليني في الآخرة بفضلك ورحمتك"[٨].

قوله تعالى:{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا} [يوسف : ١٠١]، أي:" توفني إليك مسلمًا"[٩].

قال الطبري:" يقول: اقبضني إليك مسلمًا"[١٠].

وفي قوله تعالى:{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا} [يوسف : ١٠١]، وجهان:

أحدهما : يعني: توفني على طاعتك، واغفر لي إذا توفَّيتني، قاله الضحاك[١١].

الثاني : على ملة الإسلام .

حكى الحسن أن البشير لما أتى يعقوب قال له يعقوب عليه السلام : على أي دين خلفت يوسف ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمت النعمة .

قوله تعالى:{وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف : ١٠١]، أي:" وألحقني بعبادك الصالحين من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار"[١٢].

قال الطبري:" يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف : ١٠١]، وجهان:

أحدهما : بأهل الجنة ، قاله عكرمة[١٤].

الثاني : بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، قاله وهب بن منبه[١٥]، والضحاك[١٦].

قال ابن عباس:" اشتاق إلى لقاء ربه، وأحبَّ أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفَّاه ويُلْحِقه بهم. ولم يسأل نبيّ قطّ الموتَ غير يوسف"[١].

---

(١) انظر: النكت والعيون:٨٥/٣.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٠٧):ص٢٢٠٣/٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٠٩):ص٢٢٠٤/٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠١٠):ص٢٢٠٤/٧.
(٦) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(٧) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٨) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٠) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٤٦):ص٢٨٠/١٦.تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠١٤):ص٢٢٠٤/٧
(١٢) التفسير الميسر:٢٤٧.
(١٣) تفسير الطبري:٢٧٨/١٦.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠١٥):ص٢٢٠٤/٧.
(١٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٢١):ص٢٢٠٥/٧-٢٢٠٦.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٨٥/٣.

قال قتادة:" لما جَمَع شمله، وأقرَّ عينه، وهو يومئذ مغموس في نَبْت الدنيا وملكها وغَضَارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله. وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قطّ الموت قبل يوسف"(٢).

قال مجاهد:" أن يوسف النبي ﷺ، لما جمع بينه وبين أبيه وإخوته، وهو يومئذ ملك مصر، اشتاق إلى الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق، فقال: {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين}"(٣).

قال ابن إسحاق:"قال يوسف حين رأى ما رأى من كرامة الله وفضله عليه وعلى أهل بيته حين جمع الله له شمله، وردَّه على والده، وجمع بينه وبينه فيما هو فيه من الملك والبهجة: {يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًّا} ، إلى قوله: {إنه هو العليم الحكيم} . ثم ارعوى يوسف، وذكر أنّ ما هو فيه من الدنيا بائد وذاهب، فقال: {رب قد قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفّني مسلمًا وألحقني بالصالحين}"(٤).

قال ابن عباس:" أول نبي سأل الله الموت يوسف"(٥).

قال قتادة:" ولم يتمنَّ الموت أحد قطُّ، نبي ولا غيره إلا يوسف"(٦).

عن أبي عمران الجوني، قال: "والله لو كان قتلُ يوسف مضى لأدخلهم الله النارَ كُلَّهم، ولكن الله جل ثناؤه أمسك نفس يوسف ليبلغ فيه أمره، ورحمة لهم. ثم يقول: والله ما قصَّ الله نبأهم يُعيّرهم بذلك إنهم لأنبياء من أهل الجنة، ولكن الله قصَّ علينا نبأهم لئلا يقنط عبده"(٧).

عن سعيد بن عبد العزيز:" أن يوسف ﷺ لما حضرته الوفاة قال: يا إخوتاه إني لم أنتصر من أحد ظلمني في الدنيا، وإني كنت أحب أن أظهر الحسنة وأخفي السيئة، فذاك زادي من الدنيا، يا إخوتاه: إني أشركت آبائي في أعمالهم فأشركوني معهم في قبورهم، وأخذ عليهم بالميثاق، فلم يفعلوا حتى بعث الله موسى ﷺ فسأل، عن قبره فلم يجد أحدا يخبره إلا امرأة يقال لها شارح بنت شير بن يعقوب، فقالت: أدلك عليه على أن أشترط عليك قال: ذلك لك، قال: أصير شابة كلما كبرت قال: ذلك لك، قالت: وأكون معك في درجتك يوم القيامة فكأنه امتنع فأمر أن يمضي لها ذلك ففعل. فدلته عليه فأخرجه قال: فكانت كلما كانت مثل بنت خمسين سنة صارت مثل ابنة ثلاثين سنة حتى عمرت نسرين: ألف وستمائة سنة أو ألف وأربعمائة وحتى أدركها سليمان بن داود عليهما السلام فتزوجها"(٨).

عن أنس بن مالك، قال: "إن الله تبارك وتعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه، خَلا ولده نَجِيًّا، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى! قال: فيغرُّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعدٌ، قالوا: يا أبانا، أتيناك في أمر لم نأتك في أمرٍ مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله! حتى حرّكوه، والأنبياء أرحم البرية، فقال: مالكم يا بَنِي؟ قالوا: ألستَ قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى! قالوا: أفلستما قد عفوتُما؟ قالا بلى! قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنّا شيئًا إن كان الله لم يعفُ عنا! قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من عند الله بأنه قد عفا عمّا

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٤١):ص١٦/٢٧٩-٢٨٠.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٤٢):ص١٦/٢٨٠.
(٣) أخرجه الطبري(١٩٩٤٤):ص١٦/٢٨٠.
(٤) أخرجه الطبري(١٩٩٤٧):ص١٦/٢٨٠.
(٥) أخرجه الطبري(١٩٩٤٠):ص١٦/٢٧٨-٢٧٩.
(٦) أخرجه الطبري(١٩٩٤٣):ص١٦/٢٨٠.
(٧) أخرجه الطبري(١٩٩٤٩):ص١٦/٢٨٢.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠١٩):ص٧/٢٢٠٥.

صنعنا، قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرّةَ عَينٍ في الدنيا لنا أبدًا. قال: فقام الشيخ واستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف،، فلم يُجَبْ فيهم عشرين سنة، قال صالح المرّي: يخيفهم. قال: حتى إذا كان رأس العشرين، نزل جبريل ﷺ على يعقوب عليه السلام، فقال: إن الله تبارك وتعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتَقَد مواثيقهم من بعدك على النبوّة"(١).

قال السدي:"لما حضر الموتُ يعقوبَ، أوصى إلى يوسف أن يدفنه عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات، نُفِخ فيه المُرّ وحمل إلى الشأم. قال: فلما بلغوا إلى ذلك المكان أقبل عيصا أخو يعقوب فقال: غلبني على الدعوة، فوالله لا يغلبني على القبر! فأبى أن يتركهم أن يدفنوه. فلما احتبسوا، قال هشام بن دان بن يعقوب ، وكان هشامٌ أصمَّ لبعض إخوته: ما لجدّي لا يدفن! قالوا: هذا عمك يمنعه! قال: أرونيه أين هو؟ فلما رآه، رفع هشام يده فوجأ بها رأس العيص وَجْأَةً سقطت عيناه على فخذ يعقوب، فدفنا في قبر واحد"(٢).

الفوائد:

١- مشروعة دعاء الله تعالى والتوسل إليه بأسمائه وصفاته.
٢- مشروعيه العزوف عن الدنيا والرغبة عنها عند حصولها والتمكن منها.
٣- فضل الشوق إلى الله والحنين إلى رفقة الصالحين في الملكوت الأعلى.
٤- مشروعية سؤال الموت إن لم يكن لضر أو ملل من العبادة، أو رغبة في الراحة لحديث " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد متمنيا فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لي"(٣)، وقوله -ﷺ-:" لا يتمن أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا"(٤).

ولكن شوقا إلى الله تعالى والالتحاق بالصالحين، عزوفا عن هذه الدار وشوقا إلى الأخرى دار السلام.

٥- ومن الفوائد: إثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو «الولي»: أي:" الناصر. ينصر عباده المؤمنين، كقوله -سبحانه-: { الله وَلِي الذِيْن آمَنوا يخرجهم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النور } [البقرة:٢٥٧]، وكقوله تعالى: { ذلِكَ بِأن الله مَوْلَى الذينَ آمَنوا، وَأن الكَافِرِيْنَ لاَ مَوْلَى لهمْ} [محمد:١١]، المعنى: لا ناصر لهم. -والله أعلم- والولي أيضا المتولي للأمر والقائم به. كولي اليتيم، وولي المرأة في عقد النكاح عليها، وأصله من الولي؛ وهو القرب"(٥).

القرآن

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)} [يوسف : ١٠٢]

التفسير:

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٤٨):ص٢٨١/١٦. في سنده: صالح المري"، هو" صالح بن بشير بن وداع المري"، منكر الحديث، قاص متروك الحديث، وفيه أيضا: " يزيد الرقاشي"، هو" يزيد بن أبان الرقاشي"، قاص، متروك الحديث.

وهذا خبر هالك، من جراء هذين القاصين المتروكين، صالح المري، ويزيد الرقاشي.

(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٥٠):ص٢٨٢/١٦.

(٣)أخرجه الطيالسى (ص ٢٦٨، رقم ٢٠٠٣) ، وأحمد (١٠١/٣، رقم ١١٩٩٨) ، وعبد بن حميد (ص ٤١١، ٤١١، رقم ١٣٩٨) ، والبخارى (٢٣٣٧/٥، رقم ٥٩٩٠) ، ومسلم (٢٠٦٤/٤، رقم ٢٦٨٠) ، وأبو داود (١٨٨/٣، رقم ٣١٠٩) ، والترمذى (٣٠١/٣، رقم ٩٧٠) ، والنسائى (٣/٤، رقم ١٨٢٠) ، وابن ماجه (١٤٢٥/٢، رقم ٤٢٦٥) ، وابن حبان (٢٤٨/٣، رقم ٩٦٨).

(٤)أخرجه أحمد (٣٥٠/٢، رقم ٨٥٩٢) ، ومسلم (٢٠٦٥/٤، رقم ٢٦٨٢) .

(٥) شأن الدعاء:٧٨.

ذلك المذكور من قصة يوسف هو من أخبار الغيب نخبرك به -أيها الرسول- وحيًا، وما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف حين دبَّروا له الإلقاء في البئر، واحتالوا عليه وعلى أبيه. وهذا يدل على صدقك، وأن الله يُوحِي إليك.

قوله تعالى:{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} [يوسف : ١٠٢]، أي:" ذلك المذكور من قصة يوسف هو من أخبار الغيب نخبرك به -أيها الرسول- وحيًا"(١).

قال ابن كثير:" يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام : هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ، { نُوحِيهِ إِلَيْكَ } ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك"(٢).

قوله تعالى:{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ} [يوسف : ١٠٢]، أي:" وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب"(٣).

قال البغوي:" أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، {إذ أجمعوا أمرهم} أي: عزموا على إلقاء يوسف في الجب"(٤).

قال ابن كثير:"حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم، { إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ } أي : على إلقائه في الجب "(٥).

قال القرطبي:" أي: مع إخوة يوسف {إذ أجمعوا أمرهم} في إلقاء يوسف في الجب"(٦).

عن قتادة: " {وما كنت لديهم} [آل عمران: ٤٤] يعني محمدا ﷺ، يقول: ما كنت عندهم"(٧)، {إذ أجمعوا أمرهم} ، أي: ألقوه في غيابة الجب "(٨).

قوله تعالى:{وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف : ١٠٢]، أي:" وهم يحتالون ويمكرون بيوسف وبأبيه ليرسله معهم"(٩).

قال قتادة:" أي: بيوسف "(١٠).

قال عطاء الخراساني:" فهم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف"(١١).

قال البغوي: أي: "بيوسف"(١٢).

قال القرطبي:" أي: بيوسف في إلقائه في الجب. وقيل:{يمكرون}، بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم، أي: ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها"(١٣).

قال ابن كثير:أي:" به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك ، وإنزالا عليك ، كما قال تعالى : { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : ٤٤]وقال تعالى : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [القصص : ٤٤]إلى أن قال : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } [القصص : ٤٦] وقال { وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [القصص : ٤٥] وقال { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإ الأعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا

---

(١) التفسير الميسر:٢٤٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٤١٨/٤.
(٣) صفوة التفاسير:٦٣/٢.
(٤) تفسير البغوي:٢٨٢/٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٤١٨/٤.
(٦) تفسير القرطبي:٢٧١/٩.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٢٥):ص٢٢٠٦/٧.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٢٦):ص٢٢٠٦/٧.
(٩) صفوة التفاسير:٦٣/٢.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٢٧):ص٢٢٠٦/٧.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٢٨):ص٢٢٠٦/٧.
(١٢) تفسير البغوي:٢٨٢/٤.
(١٣) تفسير القرطبي:٢٧١/٩.

نَذِيرٌ مُبِ } [ص : ٦٩ ، ٧٠]، يقرر تعالى أنه رسوله ، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم"(١).

قال البيضاوي:" المعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك فتعلمته منه"(٢).

الفوائد:

١- أن الحوادث التاريخية غيب بالنسبة لمن لم يعلمها، لذلك قال الله تعالى للنبي - ﷺ - بعد أن ذكر قصة يوسف-عليه السلام: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} أي: ما أخبر به القرآن عما مضى من أحوال الأمم الماضية.

٢- أن علم الغيب صفة مختصة بالله تعالى، وأن الأنبياء عليهم السلام، والأولياء، والملائكة، والجن، لا يعلمون المغيبات؛ فالله تعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة، وهو وحده علام الغيوب، وعنده وحده مفاتيح الغيب، وهو وحده يعلم الأمور الخمسة المذكورة في آخر سورة لقمان؛ وهو وحده يعلم السر وأخفى، وهو وحده يعلم ما في الصدور، وهو وحده لا تخفى عليه خافية.

٣- أن قصة يوسف-عليه السلام- من معجزات النبي -ﷺ-:

فإنه تعالى ذكر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن مفصلة؛ لتكون آية، بل آيات على نبوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وبيان ذلك: أنه كان أميا لم يقرأ شيئا من كتب الأولين، ولا درس شيئا من تاريخهم، ولا خط من ذلك شيئا بيمينه حتى يرتاب في أمره ويتهم بأنه تكلم بما قرأ أو درس، قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} ، بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها، لم تخطر له ببال، ولم تقرع له سمعا قبل أن يوحي الله بها إليه، ويذكرهم له في محكم كتابه، قال تعالى في مطلع سورة يوسف: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} ، وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ} .

ولم لم تكن قصة يوسف بالأمر الذي اشتهر في العرب، وتناولوه بالحديث فيما بينهم، بل كانت غيبا بالنسبة إليهم، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته، ولا شهد مكرهم به، ولا كيدهم له فيتهم بأنه تكلم بأمر شهده أو انتشر بين قومه، قال تعالى لنبيه محمد في ختام قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} .

ولا يسع أحدا أن يقول إنه عرف تفاصيل القصة من اليهود، فإن السورة مكية، واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها، ولم يعرف عنه أنه اتصل بهم قبل الهجرة، ولا دارسهم شيئا من العلوم، ولو كان تم شيء من ذلك لانكشف أمره لطول العهد وكثرة الخصوم وحرج قومه من دعوته، وسعيهم جهدهم في الكيد له والصد عنه وحرصهم على تشويه سمعته والقضاء عليه وعلى دعوته حتى رموه بالسحر والكهانة والجنون، واتهموه زورا بالكذب، وهو في قرارة أنفسهم الصادق الأمين، وتبادلوا الرأي فيما يوقعونه من حبسه أو طرده من بينهم وتشريده، وانتهى أمرهم بالاتفاق على قتله، فأنجاه الله من كيدهم، وكتب له الهجرة إلى المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ

---

(١) تفسير ابن كثير:٤١٨/٤.

(٢) تفسير البيضاوي:١٧٨/٣.

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} ، فقوم هذا شأنهم معه لا يخفى عليهم أمره وهو يعيش بين أظهرهم وهو له بالمرصاد، فلو وجدوا سبيلا عليه باتصاله باليهود والأخذ عنهم لسارعوا إلى فضيحته، والتشنيع عليه بذلك ولم يضطروا إلى الافتراء عليه، ولا إلى التفكير في قتله أو تشريده ولا إلى نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة ولم يلجئوا إلى اتهامه تهمة تحمل ردها في طيها، فقد اتهموه برجل أعجمي بمكة وادعوا أنه يعلمه، فسفه الله أحلامهم وألقمهم الحجر، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} .

وليست قصة يوسف خبرا مقتضبا عبر عنه بالجملة أو الجملتين، فيقال إن صدقه في الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق، بل هي قصة كثيرة العجائب متشعبة الموضوعات، وقعت بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة، فمن رؤيا صادقة إلى مؤامرة، ثم نجاة يتبعها بيع، ثم إيواء ... إلى مراودة يتبعها هم، ثم عصمة من الفحشاء ... إلى سجن فيه دعوة إلى التوحيد مع رفق وحسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل يتبع ذلك خروجه عليه السلام من السجن بريئا من التهمة، وتولية شئون الدولة واجتماع إخوته به مع معرفته لهم وإنكارهم إياه، وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وما جرى من الأحداث..... إلى أن انتهى ذلك بتعريفه لهم بنفسه وعفوه عنهم، وحضور أبويه إليه على خير حال إلى غير ذلك من التفاصيل التي يعرفها البصير بكتاب الله.. وقد سيقت القصة مفصلة في جميع نواحيها مستوفاة في جميع فصولها في أدق عبارة وأحكم أسلوب.. أفيعقل بعد ذلك أن يقال إن صدقه عليه الصلاة والسلام فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها على هذا النهج الواضح والطريق السوي وليد الصدفة والاتفاق.

وختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالا إلى القصد الذي من أجله سيقت القصة، وهو أن تكون آية على نبوة محمد ﷺ. وصدقه فيما جاء به من التشريع، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل به الوحي مستقى من المشكاة التي أخذ منها الأنبياء، فليس حديثا مفترى ولكنه تصديق لما بين يديه من كتب المرسلين، وتفصيل لما يحتاج إليه المكلفون من التشريع في معاشهم ومعادهم، وجماع الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أفيمكن أن تكون هذه القيادة الرشيدة بهذا التشريع المستقيم من إنسان أمي عاش في أمة أمية من عند نفسه دون وحي من الله؟ كلا إنها العناية الربانية والرسالة الحقة، والوحي الصادق المبين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون رحمه للعالمين {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(١).

القرآن

{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)} [يوسف : ١٠٣]

التفسير:

وما أكثرُ المشركين من قومك -أيها الرسول- بمصدِّقيك ولا متبعيك، ولو حَرَصْتَ على إيمانهم، فلا تحزن على ذلك.

قوله تعالى:{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف : ١٠٣]، أي:" ليس أكثر الخلق ولو حرصتَ على إيمانهم وبالغتَ في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر"(٢).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وما أكثر مشركي قومك، يا محمد، ولو حرصت على أن يؤمنوا بك فيصدّقوك، ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك، بمصدِّقيك ولا مُتَّبِعيك(١).

---

(١) انظر: فتادى الشيخ عبدالرزاق عفيفي:١٨٩-١٩٢.

(٢) صفوة التفاسير:٢/٦٣.

قال الزجاج:" معناه: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء"(٢).

قال النسفي:" أراد العموم أو أهل مكة، أي: وما هم بمؤمنين ولواجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم"(٣).

عن سعيد بن جبير، قوله: " {بمؤمنين}، قال: مصدقين "(٤).

قال الخازن:" الخطاب للنبي ﷺ والمعنى وما أكثر الناس يا محمد لو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله ﷺ لذلك فقيل له إنهم لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له"(٥).

قال ابن الأنباري: "إن قريشا واليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحا شافيا وهو يؤمل أن يكون ذلك سببا لإسلامهم، فخالفوا ظنه، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعزاه الله تعالى بهذه الآية"(٦).

الفوائد:

١- بيان حكم الله في الناس وهو أن أكثرهم لا يؤمنون فلا يحزن الداعي ولا يكرب.

٢- سنة الله في الخلق: أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل؛ لقوله تعالى: {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين}، وقوله: وقليل من عبادي الشكور}[السبأ:١٣]، ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرا، والمنكر معروفا.

٣- أن المنفي في قوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}: هداية التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله وحده وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى:٥٢]، فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه.

٤- ومن الفوائد: نبات الشرك بعد الطوفان: إذ غسل الأرض الطوفان من وضر الشرك والعصيان، فلم يبق يومئذ على وجهها إلا ناصع الإيمان، ثم تعاقبت الأجيال، حتى حنت الطباع إلى معتاد الضلال، ففاء الشرك بعد الزوال، وأرسل الله المرسلين مبشرين ومنذرين، {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ... } [يوسف: ١٠٣]، وبعد الطوفان بأزمان ظهرت ببابل من أرض العراق أمة الكلدان التي منها النبط قوم إبراهيم عليه السلام، فكانوا يعرفون الله ويعبدونه ويشركون به الكواكب ويتخذون لها الأصنام تماثيل.

القرآن

{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)} [يوسف : ١٠٤]

التفسير:

وما تطلب من قومك أجرة على إرشادهم للإيمان، إن الذي أُرسلتَ به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون.

قوله تعالى:{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [يوسف : ١٠٤]، أي:" وما تطلب من قومك أجرة على إرشادهم للإيمان"(٧).

---

(١) تفسير الطبري:٢٨٤/١٦.
(٢) معاني القرآن:١٣٠/٢.
(٣) تفسير النسفي:١٣٧/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٢٩):ص٢٢٠٦/٧.
(٥) تفسير الخازن:٥٥٩/٢.
(٦)انظر: زاد المسير: ٤ / ٢٩٣، البحر المحيط: ٥ / ٣٥٠.
(٧) التفسير الميسر:٢٤٨.

قال الزجاج:" أي: وما تسالهم على القرآن وتلاوته وهدايتك إياهم من أجر"[1].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: وما تسأل، يا محمد، هؤلاء الذين ينكرون نبوتك، ويمتنعون من تصديقك والإقرار بما جئتهم به من عند ربك، على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان وطاعةِ الرحمن من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثوابًا، فيقولوا لك: إنما تريد بدعائك إيّانا إلى اتباعك لننزلَ لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعًا منك لأمر ربك، ونصيحةً منك لهم، وأن لا يستغشُّوك"[2].
قال ابن كثير:" أي : وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي : من جُعَالة ولا أجرة على ذلك ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحا لخلقه"[3].
عن ابن عباس، قوله: " {عليه من أجر}، يقول: عرض من أعراض الدنيا"[4].
قوله تعالى:{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [يوسف : ١٠٤]، أي:" إن الذي أُرسلتَ به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون"[5].
قال الزجاج:" أي: ما هو إلا تذكرة لهم، بما هو صلاحهم ونجاتهم من النار ودخولهم الجنة، وإنذارهم وتبشيرهم، فكل الصلاح فيه"[6].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما هذا الذي أرسلك به ربك، يا محمد، من النبوة والرسالة إلا عظة وتذكير للعالمين، ليتعظوا ويتذكَّروا به "[7].
قال الثعلبي:" يعني: القرآن والوحي {إلا ذكر}: عظة وتذكير للعالمين[8].
قال ابن كثير:" أي : يتذكرون به ويهتدون ، وينجون به في الدنيا والآخرة "[9].
قال القرطبي:" يعني القرآن والوحي، {إلا ذكر}، أي: عظة وتذكرة {للعالمين}"[10].
قال أبو العالية:" الإنس عالم والجن عالم، وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض والأرض أربع زوايا، ففي كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته تبارك وتعالى"[11].
الفوائد:
١- دعوة الله ينبغي أن نقدم إلى الناس مجانا، وأجر الداعي على الله تعالى الذي يدعو إليه.
٢- أن الأغراض الدنيوية ليست من شيم الأنبياء.

القرآن

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)} [يوسف : ١٠٥]

التفسير:
وكثير من الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته منتشرة في السموات والأرض، كالشمس والقمر والجبال والأشجار، يشاهدونها وهم عنها معرضون، لا يفكرون فيها ولا يعتبرون.

---

(١) معاني القرآن:١٣٠/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٤/١٦.
(٣) تفسير ابن كثير:٤١٨/٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٣٠):ص٢٢٠٧/٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٦) معاني القرآن:١٣٠/٢-١٣١.
(٧) تفسير الطبري:٢٨٤/١٦-٢٨٥.
(٨) الكشف والبيان:٢٦٢/٥.
(٩) تفسير ابن كثير:٤١٨/٤.
(١٠) تفسير القرطبي:٢٧١/٩.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٣١):ص٢٢٠٧/٧.

قوله تعالى:{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف : ١٠٥]، أي:" وكم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته، الكائنة في السماوات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب"(١).

قال الطبري:" يقول جل وعز: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض"(٢).

قال الزجاج:" أي: من علامة ودلالة تدلهم على توحيد الله، من أمر السماء وأنها بغير عمد لا تقع على الأرض، وفيها من مجرى الشمس والقمر ما فيها، وفيها أعظم البرهان والدليل على أن الذي خلقها واحد، وأن لها خالقأ، وكذلك فيما يشاهد في الأرض من نباتها وبحارها وجبالها"(٣).

قال ابن ابي زمنين:" أي: وكم من علامة ودليل {في السماوات والأرض} أي: في خلق السموات والأرض تدلهم على توحيد الله"(٤).

قوله تعالى:{يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف : ١٠٥]، أي:" يشاهدونها وهم عنها معرضون، لا يفكرون فيها ولا يعتبرون"(٥).

قال الطبري:" يقول: يعاينونها فيمرُّون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربّها، وأن الألوهةَ لا تنبغي إلا للواحد القهَّار الذي خلقها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها"(٦).

قال الزجاج:" أى: لا يفكرون فيما يدلهم على توحيد الله - عز وجل -"(٧).

قال ابن ابي زمنين:" أي: لا يتعظون بها"(٨).

قال ابن كثير:"وقد ذم الله سبحانه وتعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}، ومدح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض قائلين: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}"(٩).

عن قتادة: "{وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها}، وهي في مصحف عبد الله:«يَمْشُونَ عَلَيْهَا»، السماء والأرض آيتان عظيمتان"(١٠).

الفوائد:

١- ذم الغفلة وعدم التفكر في الآيات الكونية.

٢- أنَّ الذي يدركُ هذه الآياتِ الدالةِ على بديع صنع الله هم أولو الألباب، أي: أصحابُ العقول الزاكية الوافية، أمَّا الكفرة الفجرة فإنهم يمرون على هذه الآيات، ولا يعتبرون بها، ولا يتعظون {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: ١٠٥].

٣- الرزية كل الرزية الإعراض عن الآيات والتغافل عن المشاهدات والمبصرات والمسموعات والمحسوسات.

---

(١) صفوة التفاسير:٦٣/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٥٨/١٦.
(٣) معاني القرآن:١٣١/٣.
(٤) تفسير ابن ابي زمنين:٣٤١/٢.
(٥) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٦) تفسير الطبري:٢٥٨/١٦.
(٧) معاني القرآن:١٣١/٣.
(٨) تفسير ابن ابي زمنين:٣٤١/٢.
(٩)تفسير ابن كثير ١٦١/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(١٩٩٥٣):ص٢٨٥/١٦.

فإن الآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون، معروضة للأبصار والبصائر. في السماوات وفي الأرض. يمرون عليها صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار. وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها. بارزة تواجه العيون والمشاعر. موحية تخايل للقلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق.

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها. لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد. لحظة تأمل في الخضم الزاخر، والعين الفوارة، والنبع الروي. لحظة تأمل في النبتة النامية، والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم. لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام .. لحظة تأمل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب ..

إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب. ولكنهم «يمرون عليها وهم عنها معرضون» .. لذلك لا يؤمن الأكثرون![1] الأكثرون![1]

القرآن

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)} [يوسف : ١٠٦]

التفسير:

وما يُقِرُّ هؤلاء المعرضون عن آيات الله بأن الله خالقهم ورازقهم وخالق كل شيء ومستحق للعبادة وحده إلا وهم مشركون في عبادتهم الأوثان والأصنام. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

قوله تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف : ١٠٦]، أي:" ولا يؤمن أكثر هؤلاء المعرضون عن آيات الله إلا إذا أشركوا مع الله غيره"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما يُقِرُّ أكثر هؤلاء - الذين وصَفَ عز وجل صفتهم بقوله: {وكأين من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون} بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء- {إلا وهم مشركون}، في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابًا، وزعمهم أنَّ له ولدًا، تعالى الله عما يقولون"[3].

وفي قوله تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف : ١٠٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: عني به المشركون، إذ أنهم يجمعون بين الإيمان بالله، أي: بوجوده، وأنه الخالق الرزاق المحيي المميت، ثم مع ذلك يشركون في عبادته فسرها بذلك ابن عباس[4]، وعكرمة[5]، وعامر[6]، وعطاء[7]، ومجاهد[8]، والضحاك[9]، وقتادة[10]، وابن زيد[11]، وغيرهم.

قال مجاهد:" إيمانهم قولهم: الله خالقُنا، ويرزقنا ويميتنا"[1]، "فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه"[2].

---

(١) انظر: الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل:٥٦٦.

(٢) انظر: صفوة التفاسير:٦٣/٢.[بتصرف]

(٣) تفسير الطبري:٢٨٦/١٦.

(٤)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٥٦):ص٢٨٦/١٦.

(٥)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٥٥):ص٢٨٦/١٦.

(٦)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٦٦):ص٢٨٨/١٦.

(٧)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٧٢):ص٢٨٩/١٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٦٠):ص٢٨٧/١٦.

(٩)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٧٠):ص٢٨٩/١٦.

(١٠)انظر: تفسير الطبري(١٩٩٦٧):ص٢٨٨/١٦.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٧٣):ص٢٨٩/١٦.

قال ابن عباس:" إذا قيل لهم: مَن خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون"(٣).

قال عامر وعكرمة:" يعلمون أنه ربُّهم، وأنه خلقهم، وهم يشركون به"(٤).

قال عكرمة:" تسألهم: مَن خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض، فيقولون: الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره"(٥).

وقال عكرمة أيضا:" فإذا سئلوا عن الله وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له ولدًا، وأشركوا به"(٦).

عن جابر، عن عكرمة، ومجاهد، وعامر: "أنهم قالوا في هذه الآية: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، قال: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض، فهذا إيمانهم، ويكفرون بما سوى ذلك"(٧).

عن قتادة، قوله: "{وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، في إيمانهم هذا. إنك لست تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته"(٨).

وقال قتادة أيضا:" لا تسأل أحدًا من المشركين: مَنْ رَبُّك؟ إلا قال: رَبِّيَ الله! وهو يشرك في ذلك"(٩).

وعن ابن عباس:" قوله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، يعني: النصارى يقول: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، [سورة لقمان: ٢٥/ سورة الزمر:٣٨] ، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة الزخرف: ٨٧] ، ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ ليقولن: الله، وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره، ويسجدون للأنداد دونه"(١٠).

قال النضر بن عربي: "فمن إيمانهم أن يقال لهم من ربكم فيقولون: الله ومن يدبر السموات والأرض؟ فيقولون الله. ومن يرسل عليهم المطر فيقولون الله ومن ينبت الأرض؟ فيقولون الله، ثم هم بعد ذلك مشركون فيقولون: إن لله ولدا ويقولون: ثالث ثلاثة"(١١).

وقال الضحاك:"كانوا يشركون به في تلبيتهم"(١٢).

قال عطاء:" يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يشركون به"(١٣).

قال ابن زيد:" ليس أحدٌ يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء: ٧٥-٧٧] ؟ قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول:"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"؟ المشركون كانوا يقولون هذا"(١٤).

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٦٠):ص٢٨٧/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(١٩٩٦٢):ص٢٨٧/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(١٩٩٥٦):ص٢٨٦/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(١٩٩٥٥):ص٢٨٦/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(١٩٩٥٥):ص٢٨٦/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(١٩٩٥٩):ص٢٨٧/١٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٩٩٦٦):ص٢٨٨/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(١٩٩٦٧):ص٢٨٨/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(١٩٩٦٨):ص٢٨٨/١٦.
(١٠) أخرجه الطبري(١٩٩٦٩):ص٢٨٨/١٦-٢٨٩.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٣٧):ص٢٢٠٨/٧.
(١٢) أخرجه الطبري(١٩٩٧٠):ص٢٨٩/١٦.
(١٣) أخرجه الطبري(١٩٩٧٢):ص٢٨٩/١٦.
(١٤) أخرجه الطبري(١٩٩٧٣):ص٢٨٩/١٦.

الثاني: أنه في المنافقين يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى، قاله الحسن[١].

سئل الحسن، عن هذه الآية: {وما يؤمن أكثرهم بالله، إلا وهم مشركون}، قال: "ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك"[٢].

عن محمود بن لبيد ، أن رسول الله ﷺ قال : "إن أخْوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر". قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : "الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"[٣].

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك"[٤].

الثالث : هو أن يشبه الله تعالى بخلقه، قاله السدي[٥].

الرابع : أنه يشرك في طاعته كقول الرجل لولا الله وفلان لهلك فلان ، وهذا قول أبي جعفر[٦].

عن زكريا بن زرارة ثنا أبي قال: "سألت أبا جعفر محمد بن علي، عن قوله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، قال أبو جعفر: شرك طاعة قول الرجل: لولا الله وفلان، لولا الله وكلب بني فلان"[٧].

الخامس: أنه تعليق الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

روي عن عاصم الأحول، عن عزرة قال: "دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ }"[٨].

و«السّير»: من الجلد ونحوه، ما يشقّ منه مستطيلاً

قال ابن كثير:" وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله ، كما روى حماد بن سلمة..."[٩]. ثم ذكر الأثر.

عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلة شرْك"[١٠].

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : "كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحُمْرَة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطا ، قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رُقِي لي فيه. قالت : فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياءٌ عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك". قالت ، قلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ قال : إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده ،

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٣٦):ص٧/٢٢٠٧-٢٢٠٨.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٣٦):ص٧/٢٢٠٧-٢٢٠٨.

(٣)المسند (٥/٤٢٨) وحسنه الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام، رواه البغوي في شرح السنة (١٤/٣٣٣) من طريق علي بن حجر ، عن إسماعيل بن جعفر به.

(٤)المسند (٤/٢١٥).

(٥) انظر: النكت والعيون:٣/٨٧.

(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٣٩):ص٧/٢٢٠٨.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٣٩):ص٧/٢٢٠٨.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٤٠):ص٧/٢٢٠٨.

(٩) تفسير ابن كثير:٤/٤١٨.

(١٠)المسند (١/٣٨١) وسنن أبي داود برقم (٣٨٨٣) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٥٣٠).

فإذا رقيتها كف عنها : إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ : "أذهب البأس رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سَقَمًا"(١).

عن عيسى بن عبد الرحمن قال : "دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم وهو مريض نعوده ، فقيل له : تَعَلَّقت شيئا ؟ فقال : أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ : "من تَعَلَّق شيئا وُكِلَ إليه"(٢).

إليه"(٢).

عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : "من علَّق تميمة فقد أشرك" وفي رواية : "من تَعَلَّق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودَعَةً فلا ودع الله له"(٣).

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "قال الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشِرْكه" (٤).

وفي الحديث: "الطيَرة شرك، وما منَّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل"(٥).

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : "من ردته الطيرة عن حاجة ، فقد أشرك". قالوا : يا رسول الله ، ما كفارة ذلك ؟ قال : "أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك"(٦).

والسادس: أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد-ﷺ-، فلا يصح إيمانهم حكاه ابن الأنباري(٧).

الفوائد:

٤- بيان حقيقة ثابتة وهي أن غير أهل التوحيد وإن آمنوا بالله ربا خالقا رازقا مدبرا أكثرهم يشركون به غيره في بعض صفاته وعباداته.

٥- إنما التوحيد المطلوب توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية وإن توحيد الله أن يعبد وحده فلا يخاف إلا هو ولا يدعي إلا هو.

والعبادة تجمع غاية الحب والذل والتوحيد يتضمن إثبات نعوت الكمال لله والإخلاص له، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة : ٥](٨).

القرآن

{أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)} [يوسف : ١٠٧]

التفسير:

فهل عندهم ما يجعلهم آمنين أن ينزل بهم عذاب من الله يعُمُّهم، أو أن تأتيهم القيامة فجأة، وهم لا يشعرون ولا يُحِسُّون بذلك.

قوله تعالى:{أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ} [يوسف : ١٠٧]، أي:" أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبةً من عذاب الله تغشاهم وتشملهم؟"(٩).

---

(١)المسند (٣٨١/١).

(٢)المسند (٣١٠/٤) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٠٧٢) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى به ، وقال الترمذي : "وحديث عبد الله بن حكيم إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن حكيم لم يسمع النبي ﷺ ، وكان في زمن النبي ﷺ يقول : "كتب إلينا رسول الله ﷺ".

(٣)المسند (١٥٦/٤) وقال المنذري في الترغيب (٣٠٧/٤) : "رجاله ثقات".

(٤)) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٥)المسند (٣٨٩/١) وسنن أبي داود برقم (٣٩١٠).

(٦)المسند (٢٢٠/٢) ورواه ابن السنى في عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٣) من طريق ابن وهب ، عن ابن لهيعة به ، فصح الحديث بحمد الله.

(٧) انظر: النكت والعيون:٨٧/٣.

(٨) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال:١٤٨.

(٩) صفوة التفاسير:٦٣/٢.

قال الطبري:" أفأمن هؤلاء الذين لا يقرُّون بأن الله ربَّهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيرَه {أن تأتيهم غاشية من عذاب الله} تغشاهم من عقوبة الله وعذابه، على شركهم بالله"(١).

قال الزجاج:" أي: أن يأتيهم ما يعجزهم من العذاب"(٢).

عن قتادة، قوله: "{أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله}، أي: عقوبة من عذاب الله"(٣).

قال مجاهد:" يعني: عذابا يغشاهم فيهلكهم"(٤).

قوله تعالى:{أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف : ١٠٧]، أي:" أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟"(٥).

قال الطبري:" أو تأتيهم القيامة فجأةً وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربِّهم، فيخلدهم الله عز وجل في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها"(٦).

قال الزجاج:" {بغتة}، أي: فجأة، و{بغتة} مصدر منصوب على الحال، تقول لقيتة بغتة وفجأة، ومعناه: من حيث لم أتوقع أن ألقاه"(٧).

عن مجاهد قوله: {بغتة}، قال: فجأة. آمنين"(٨).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه يلوكها لا يسيغها، ولا يلفظها، وعلى رجلين قد نشرا ثوباهما يتبايعانه، فلا يطويانه ولا يتبايعانه"(٩).

قال عكرمة:" لا تقوم الساعة حتى ينادي مناد: يا أيها الناس أتتكم الساعة، أتتكم الساعة ثلاثا"(١٠).

الفوائد:

١- التحذير من العقوبات المترتبة على الشرك والمعاصي.
٢- تقرير عقيدة البعث الآخر.
٣- أن الساعة تأتي بغتة.

القرآن

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)} [يوسف : ١٠٨]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: هذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده، على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي، وأنزِّه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء، ولستُ من المشركين مع الله غيره.

قوله تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [يوسف : ١٠٨]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: هذه طريقتي"(١١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته {سبيلي}، وطريقتي ودعوتي"(١٢).

---

(١) تفسير الطبري:٢٩٠/١٦.
(٢) معاني القرآن:١٣١/٣.
(٣) أخرجه الطبري(١٩٩٧٩):ص٢٩١/١٦.
(٤) تفسير مجاهد:٤٠١.
(٥) صفوة التفاسير:٦٣/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٩٠/١٦.
(٧) معاني القرآن:١٣١/٣.
(٨) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٤٦):ص٢٢٠٩/٧.
(٩) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٤٤):ص٢٢٠٩/٧.
(١٠) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٤٥):ص٢٢٠٩/٧.
(١١) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٢) تفسير الطبري:٢٩١/١٦.

وفي قوله تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [يوسف : ١٠٨]، وجهان:
أحدهما : هذه دعوتي ، قاله ابن عباس(١)، والربيع بن أنس(٢).
الثاني : هذه هذا أمري وسنّتي ومنهاجي، قاله عبد الرحمن بن زيد(٣). والمراد بها تفسيران(٤):
أحدهما : الإخلاص لله تعالى بالتوحيد .
الثاني : التسليم لأمره فيما قضاه .
قوله تعالى:{أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف : ١٠٨]، أي:" أدعو إلى عبادة الله وحده، على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي"(٥).
قال الطبري: "أي:"أدعو إلى الله وحده لا شريك له {على بصيرة}، بذلك، ويقينِ عليمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضًا من اتبعني وصدقني وآمن بي"(٦).
وفي قوله تعالى:{أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف : ١٠٨]، وجهان:
أحدهما : على هدى ، قاله قتادة(٧).
الثاني : على حق ، وهو قول عبد الرحمن بن زيد(٨).
قال ابن زيد:" وحقٌّ والله على من اتّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكِّر بالقرآن والموعظة، ويَنْهَى عن معاصي الله"(٩).
الثالث: معناه: أبلغ الرسالة ولا أملك الهداية. حكاه الماوردي(١٠).
قوله تعالى:{وَسُبْحَانَ اللَّهِ} [يوسف : ١٠٨]، أي:" وأنزِّه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء"(١١).
قال الزمخشري:" وأنزهه من الشركاء(١٢).
قال الطبري: " يقول له تعالى ذكره: وقل، تنزيهًا لله، وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه"(١٣).
قال ابن كثير:" أي : وأنزه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه ، عن أن يكون له شريك أو نظير ، أو عديل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة ، أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيرا ، { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الإسراء : ٤٤](١٤).
قوله تعالى:{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف : ١٠٨]، أي:" ولستُ من المشركين مع الله غيره"(١٥).
قال الطبري:" يقول: وأنا بريءٌ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم منّي"(١٦).

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٤٧):ص٢٢٠٩/٧.
(٢) انظر تفسير الطبري(١٩٩٨١):ص٢٩٢/١٦.
(٣) انظر تفسير الطبري(١٩٩٨٢):ص٢٩٢/١٦، وتفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٤٨):ص٢٢٠٩/٧
(٤) انظر: النكت والعيون:٨٨/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٦) تفسير الطبري:٢٩١/١٦.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٤٩):ص٢٢٠٩/٧
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٥٠):ص٢٢٠٩/٧
(٩) أخرجه الطبري(١٩٩٨٢):ص٢٩٢/١٦.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٨٨/٣.
(١١) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٢) الكشاف:٥٠٩/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٢٩١/١٦.
(١٤) تفسير ابن كثير:٤٢٢/٤.
(١٥) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٦) تفسير الطبري:٢٩١/١٦.

قال ابن وهب: سمعت مالكا إذ جاءه بعض أهل الأهواء يقول: "أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، ثم قرأ: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة}الآية"(١).

قال الإمام الشاطبي:" فهذا شأن من تقدم، من عدم تمكين زائغ القلب أن يسمع كلامه"(٢).

الفوائد:

١- أن سبيل الله هو الإسلام بدليل قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ}.

٢- أن سبب الضلال العدول عن الصراط المستقيم، الذي أمرنا الله باتباعه، عن عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه- قال:"خط لنا رسول الله ﷺ يوما، وخط لنا سليمان خطا طويلا، وخط عن يمينه وعن يساره، فقال: «هذه سبيل الله»، ثم خط لنا خطوطا عن يمينه ويساره، وقال: «هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذه الآية: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل} يعني الخطوط {فتفرق بكم عن سبيله}"(٣).

٣- فضل نشر العلم والدعوة إلى الإسلام.

٤- تعين الدعوة إلى الله تعالى على كل مؤمن تابع للرسول ﷺ.

٥- تعين العلم اليقيني للداعي إلى الله إذ هو البصيرة المذكورة في الآية.

٦- وجوب توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

القرآن

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)} [يوسف : ١٠٩]

التفسير:

وما أرسلنا من قبلك -أيها الرسول- للناس إلا رجالا منهم ننزل عليهم وحينا، وهم من أهل الحاضرة، فهم أقدر على فهم الدعوة والرسالة، يصدقهم المهتدون للحق، ويكذبهم الضالون عنه، أفلم يمشوا في الأرض، فيعاينوا كيف كان مآل المكذبين السابقين وما حلَّ بهم من الهلاك؟ ولَثواب الدار الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها للذين آمنوا وخافوا ربهم. أفلا تتفكرون فتعتبروا؟

قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف : ١٠٩]، أي:" وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا من أهل المُدن والأمصار"(٤).

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين، ولم يكونوا من الملائكة، {من أهل القرى}، يعني: منسوبين إليها"(٥).

---

(١)ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (١/ ١٧٢)، ورواه الإمام ابن بطة في الإنابة الكبرى (١/ ٤٠٤)، ٤٠٤)، وذكره أيضا في الإبانة الصغرى (ص١٥١)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٤)، وذكره ابن أبي زيد القيرواني في الجامع (ص١٢٥)، والجميع لم يذكر استشهاده بالآية سوى القاضي عياض.

(٢) الإعتصام:٢٢٨/١.

(٣)رواه الإمام أحمد في المسند عن ابن مسعود (١/ ٤٣٥ ـ ٤٦٥)، ورواه الإمام الدارمي في المقدمة من سننه سننه (١/ ٧٨)، ورواه الإمام المروزي في السنة عنه (ص١٠)، ورواه الإمام الآجري في الشريعة (ص١٠)، ورواه ابن جرير في تفسيره عند الآية (٨/ ٨٨)، ورواه الإمام اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٠ ـ ٨١)، ورواه الإمام ابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، ورواه الإمام الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٩)، قال: صحيح الإسناد لم يخرجاه، وراه ابن عاصم في السنة (١/ ١٣)، وحسن الشيخ الألباني إسناده في تعليقه على السنة، وكذلك في تعليقه على المشكاة (١/ ٥٨).

(٤) انظر: صفوة التفاسير:٦٣/٢.

(٥) بحر العلوم:٢١٣/٢.

قال الزمخشري:" {إلا رجالا} لا ملائكة، لأنهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة... {من أهل القرى}، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة"(١).

قال ابن عباس:" أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم "(٢).

قال قتادة:" وما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود(٣)"(٤).

قال الحسن: "لم يبعث الله نبيا من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن"(٥).

قال الواحدي:" قال المفسرون: أهل الأمصار أحدّ فطنًا وأعلم وأشدّ تيقظًا، إذ سكن البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، وقد قال النبي - ﷺ -: «من بدا جفا، ومن أتبع الصيد غفل، ومن لزم أبواب الملوك افتتن»(٦)، وفي هذا رد لإنكارهم نبوته، يقول: لم يبعث قبلك إلا رجالاً، فكيف تعجبوا من إرسالنا إياك، ومن قبلك من الرسل كانوا على مثل حالك، ومن قبلهم من الأمم المكذبة كانوا على مثل حالهم، فأهلكناهم"(٧).

قال الشوكاني:" هذا رد على من قال: {لولا أنزل عليه ملك}، أي: لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالا لا ملائكة، فكيف ينكرون إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن، وهذا يرد على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة(٨):

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا"(٩)

قرأ عاصم في رواية حفص: نوحي إليهم بالنون. وقرأ الباقون بالياء يوحى إليهم، ومعناهما واحد(١٠).

قوله تعالى:{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [يوسف : ١٠٩]، أي:" أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك؟"(١١).

قال الشوكاني:" أي: أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب(١٢).

---

(١) الكشاف:٥٠٩/٢.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٥١):ص٢٢١٠/٧.

(٣)قوله" أهل العمود"، العمود (بفتح العين) : وهو الخشبة القائمة في وسط الخباء، والأخبية بيوت أهل البادية، فقوله" أهل العمود"، يعني أهل البادية، كما يدل عليه السياق هنا.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٥٢):ص٢٢١٠/٧.

(٥) انظر: تفسير ابن ابي زمنين:٣٤٢/٢، وزاد المسير" ٤/ ٢٩٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٧٤، والمحرر الوجيز: ٨/ ٩٦

(٦)أخرجه أحمد في "المسند" ٢/ ٣٧١، ٢/ ٤٤٠، عن أبي هريرة، وفي ٤/ ٢٩٧ عن البراء، وصحح أحمد شاكر إسناده تحت رقم: (٨٨٢٣)، ١٧/ ٢٤، وانظر: "صحيح الجامع" (٦١٢٣)، (٦١٢٤).

(٧) التفسير البسيط:٢٦٤/١٢.

(٨) البيت في الكشاف:٥٠٩/٢، والبجر المحيط في التفسير:٢٩٦/٤، وروح البيان:٣٣٢/٤، وفتح القدير للشوكاني:٧٢/٣، وغيرها.

وسجاح: علم امرأة من سجح إذا سمح وعفا، وهي بنت المنذر، كانت شريفة في قومها بنى حنيفة، فادعت النبوة، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها، ثم حاربه أبو بكر رضى الله عنه فقتل على يدي وحشى قاتل حمزة، فأسلمت بعده وحسن إسلامها.

(٩) فتح القدير:٧٢/٣.

(١٠) انظر: بحر العلوم:٢١٣/٢.

(١١) صفوة التفاسير:٦٣/٢.

(١٢) فتح القدير:٧٢/٣.

قال الواحدي:" يعني: المشركين المنكرين لنبوة محمد - ﷺ -، يقول: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا} إلى مصارع الأمم المكذبة فيعتبروا بهم"[١].

قال البيضاوي:" من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها"[٢].

قال الحسن:" فينظروا كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله"[٣].

قوله تعالى:{وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} [يوسف : ١٠٩]، أي:" ولَثواب الدار الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها للذين آمنوا وخافوا ربهم"[٤].

قال البيضاوي:" الحياة الآخرة. خير للذين اتقوا الشرك والمعاصي"[٥].

قال الشوكاني:" المراد بهذه الدار: الجنة، أي: هي خير للمتقين من دار الدنيا [٦].

عن ابن عباس، قوله: " {ولدار الآخرة خير} [يوسف: ١٠٩] يقول: باقية"[٧].

عن عكرمة، قوله: " {ولدار الآخرة} [يوسف: ١٠٩] يقول: الجنة"[٨].

وقرئ: «وللدار الآخرة»[٩].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يوسف : ١٠٩]، أي:" أفلا تتفكرون فتعتبروا؟"[١٠].

قال البغوي:" فتؤمنون"[١١].

قال البيضاوي:" يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير"[١٢].

قال الآلوسي:" فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة فتتوسلوا إليها بالاتقاء"[١٣].

وقرأ نافع وعاصم ويعقوب:«أفلا تعقلون»، بالتاء الفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحتية[١٤].

الفوائد:

١- إن الله سبحانه لم يبعث نبيّاً: بدوياً، ولا جِنّيّاً، ولا امرأة، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: من الآية١٠٩] .

فالنبي - ﷺ - وشيوخ الصحابة - رضي الله عنهم - من أهل القرى أي من المدن: مكة، والمدينة ... فهم حاضرة وليسوا بادية، وقد قال - ﷺ -: "إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه"[١٥].

---

(١) التفسير البسيط:٢٦٤/١٢.
(٢) تفسير البيضاوي:١٧٩/٣.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٥٣):ص٢٢١٠/٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٥) تفسير البيضاوي:١٧٩/٣.
(٦) فتح القدير:٧٢/٣.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٥٤):ص٢٢١٠/٧.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٥٦):ص٢٢١٠/٧. هكذا الترقيم بالمطبوع!!
(٩) انظر: فتح القدير: ٧٢/٣.
(١٠) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١١) تفسير البغوي:٢٨٥/٤.
(١٢) تفسير البيضاوي:١٧٩/٣.
(١٣) روح المعاني:٦٥/٧.
(١٤) انظر: فتح القدير: ٧٢/٣.
(١٥) أخرجه أحمد(١٢٦٤٨):ص٩٠/٢٠-٩١، عن انس :" أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: " إن زاهرا باديتنا، ونحن حاضروه ". وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلا دميما، فأتاه النبي ﷺ يوما وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ، حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: " من يشتري العبد؟ " فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسدا، فقال النبي ﷺ: " لكن عند الله لست بكاسد أو قال: " لكن عند الله أنت غال ".

٢- الآية فيها الرد على من وصْفُ النبي - ﷺ - بأنه بدوي، فإن وصفه عليه الصلاة والسلام بالبدوي، مُناقضةٌ للقرآن الكريم فهو - ﷺ - من حاضرة العرب لا من باديتها.
٣- الرسالة من خصوصيات الرجال وليس في النساء رسولة، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن من النساء نبية. منهم: القرطبي وابن حزم وغيرهما.

والذي عليه جمهور العلماء: أن الذكورية شرط في الرسالة والنبوة، وعليه فإنه ليس من النساء نبيه[١]، واستدلوا بقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ}.

ويستدل بهذه الآية بأن مريم -عليها السلام- ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا}، وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصا لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكرياء عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله {وأوحينا إلى أم موسى} [القصص: ٧][٢].

وقد تناول السعدي هذه المسألة وبيّن أن النساء ليس منهن نبية فقال عند قوله تعالى: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}[المائدة:٧٥]، فقال"....وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية بل أعلى أحوالها الصديقية وكفى بذلك فضلاً وشرفاً، وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين في الرجال كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ}"[٣].
٤- بيان ثمرات التوحيد والتقوى في الدنيا والآخرة.

القرآن

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)} [يوسف : ١١٠]

التفسير:

ولا تستعجل -أيها الرسول- النصر على مكذبيك، فإن الرسل قبلك ما كان يأتيهم النصر عاجلا لحكمة نعلمها، حتى إذا يئس الرسل من قومهم، وأيقنوا أن قومهم قد كذبوهم ولا أمل في إيمانهم، جاءهم نصرنا عند شدة الكرب، فننجي من نشاء من الرسل وأتباعهم، ولا يُرَدُّ عذابنا عمَّن أجرم وتجرَّأ على الله. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} [يوسف : ١١٠]، أي:" يئس الرسل من إيمان قومهم"[٤].

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أيسوا من إيمان قومهم أن يؤمنوا"[٥].

قال الطبري:أي:" الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقوهم فيما أتوهم به من عند الله"[٦].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك ، كما في

---

(١) انظر: تفسير ان كثير: ٤٩٦/٢، وفتح الباري لابن حجر ٤٤٧/٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب:٢١٧/٨.
(٣) تفسير السعدي:٣٢٦/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٦٤/٢.
(٥) بحر العلوم:٢١٣/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٩٦/١٦.

قوله تعالى : { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة : ٢١٤][١].

وفي قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} [يوسف : ١١٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها : من قومهم أن يؤمنوا، قاله ابن عباس[٢]، وسعيد بن جبير[٣]، وأبو الصخر[٤]، وابن زيد[٥].

قال ابن عباس وسعيد بن جبير:" من أن يسلم قومهم"[٦].

وقال ابن عباس:" لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومُهم"[٧].

قال مجاهد:" يعني: "من قومهم أن يستجيبوا لهم"[٨].

قال ابن زيد:" استيئس الرسل أن يؤمن لهم قومهم"[٩].

قال مقاتل:" من إيمان قومهم، أوعدتهم رسلهم العذاب في الدنيا، بأنه نازل بهم"[١٠].

وقال ابو الصخر: "يقول: حتى إذا استيئس الرسل من إيمان ما وعدوا به، {جاءهم نصرنا} [يوسف: ١١٠] الآية"[١١].

الثاني : أن يعذب قومهم ، قاله مجاهد[١٢].

والثالث: استيأسوا من نصر قومهم. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا[١٣].

قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف : ١١٠]، أي:" وأيقنوا أن قومهم قد كذبوهم ولا أمل في إيمانهم"[١٤].

قال ابن عباس:" ظن قومهم أنهم جاؤوهم بالكذب"[١٥].

وقال ابن عباس ايضا:" وظنَّ قومُهم أن الرسل قد كَذَبوهم فيما وعدوا وكذبوا"[١٦].

قال سعيد بن جبير:" وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبُوا"[١٧].

روي أن مسلم بن يسار، سأل سعيد بن جبير ؛ فقال: "يا أبا عبد الله، آية بلغت مني كل مبلغ: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا}، فهذا الموتُ، أن تظنّ الرسل أنهم قد كُذِبوا، أو نظنّ أنهم قد كَذَبوا، مخففة! قال: فقال سعيد بن جبير: يا أبا عبد الرحمن، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظن قومُهم أن الرسل كذبتهم {جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}. قال: فقام مسلم إلى سعيد، فاعتنقه وقال: فرّج الله عنك كما فرّجت عني"[١٨].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٢٤/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٥٧):ص٢٢١١/٧.
(٣) .انظر: تفسير الطبري(١٩٩٨٩):ص٢٩٧/١٦
(٤)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٦٤):ص٢٢١٢/٧.
(٥)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٦٥):ص٢٢١٢/٧.
(٦) انظر: قول ابن عباس في تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٥٩):ص٢٢١١/٧، ووانظر: قول سعيد بن جبير في تفسير الطبري(١٩٩٨٩):ص٢٩٧/١٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٩٩٨٧):ص٢٩٦/١٦.
(٨) تفسير مجاهد: ٤٠٢.
(٩) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٥):ص٢٢١٢/٧.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٣/٢.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٤):ص٢٢١٢/٧.
(١٢) انظر: النكت والعيون:٣/ ٨٩، وزاد المسير:٤٧٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٩٦):ص٢٩٨/١٦.
(١٤) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٥) أخرجه الطبري(١٩٩٩٣):ص٢٩٧/١٦.
(١٦) أخرجه الطبري(١٩٩٩٥):ص٢٩٨/١٦.
(١٧) اخرجه الطبري(١٩٩٨٩):ص٢٩٧/١٦.
(١٨) أخرجه الطبري(٢٠٠٠٩):ص٣٠١/١٦.

وفي قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف : ١١٠]، وجوه من القراءة والتفسير[١]:
والتفسير[١]:
الوجه الأول: {كُذِبُوا}، بضم الكاف وكسر الذال وتشديدها، قرأ بها الحرميّان وأبو عمرو وابن عامر، والمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فيكون الظن ها هنا بمعنى «اليقين»، هذا قول الحسن[٢]، وعطاء[٣]، وقتادة[٤].
وفي هذه القراءة تفسيران[٥]:
التفسير الأول: وظنوا أي أيقنوا- يعني الرسل- أن الأمم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعد إيمانه، والظن لمعنى اليقين. وهذا معنى قول قتادة[٦].
التفسير الثاني: معناه: حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومه أن يصدقوهم، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم استبطاء النصر.
الوجه الثاني: «كذبوا» خفيفة، قرأ بها عاصم، وحمزة، والكسائي، والمعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من النصر.
وذكروا في هذه القراءة وجهان:
الوجه الاول: أي: ظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم في النصر ووعيد العقاب.
الوجه الثاني: معناه: أن الرسل كانوا بشرا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا، قال تعالى: {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله} [البقرة: ٢١٤]. وهذا القول منسوب إلى "ابن عباس، وابن مسعود، وابن جبير"[٧].
قال السمين الحلبي:" وهذا ينبغي ألا يصح عن هؤلاء فإنها عبارة غليظة على الأنبياء عليهم السلام، وحاشى الأنبياء من ذلك"[٨].
قال الزجاج:" وقد قال بعضهم: وظنوا أنهم قد أخلفوا[٩]، أي: ظن الرسل، وذلك بعيد في في صفة الرسل"[١٠].
يروى عن عائشة أن النبي - ﷺ – "لم يوعد شيئا أخلف فيه"[١١].
عن عروة بن الزبير، " أنه سأل عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها، قال: أرأيت قول الله تعالى: {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} أ«كذبوا»، أم «كذبوا» بالتخفيف؟ فقالت: بل «كذبوا»، تعني بالتشديد، فقلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، وما هو بالظن، فقالت: أجل لعمري لقد استيقنوا ذلك، فقلت: فلعلها: {وظنوا أنهم قد كذبوا} [يوسف: ١١٠]، فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: وما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا وصدقوهم، وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظن الرسل أن أتباعهم عندما كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك"[١٢].

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٣٢/٣، والسبعة في القراءات:٣٥١-٣٥٢، والنكت والعيون:٨٩/٣، وزاد المسير:٤٧٧/٢.
(٢) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٣) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٤) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٥) انظر: مختصر تفسير البغوي:٤٦٨/٤.
(٦) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٧) انظر: الدر المصون:٥٦٦/٦، ومختصر تفسير البغوي:٤٦٨/٤.
(٨) الدر المصون:٥٦٦/٦.
(٩) انظر نحو هذا المعنى في تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٦١):ص٢٢١١/٧.
(١٠)معاني القرآن:١٣٢/٣ .
(١١)معاني القرآن:١٣٢/٣ .
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٠):ص٢٢١١/٧.

عن عبد الرحمن بن معاوية، عن ابن عباس: "{وظنوا أنهم قد كُذِبوا}، خفيفة، وتأويلها عنده: وظن القومُ أن الرسل قد كذبوا"[1].

والوجه الثالث: «كذبوا» بفتح الكاف والذال خفيفة، قرأ بها أبو رزين[2]، ومجاهد[3]، والضحاك[4]، والمعنى: ظن قومهم أيضا أنهم قد كذبوا.

قال ابو حيان:أي:" وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما قالوا عن الله من العذاب و«الظن» على بابه"[5].

قال ابن عباس:" وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبت فيما جاءت به"[6].

عن يحيى بن سعيد، قال: " جاء رجل إلى القاسم بن محمد، فقال: إن محمد بن كعب القرظي، يقول: هذه الآية: " {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} فقال القاسم: فأخبره عني، إني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} تقول: «كذبتهم أتباعهم»"[7].

وقال ابن زيد:" ظن قومهم المشركون: إن قد كذبوا ما وعدهم الله من نصرهم إياهم عليهم وأخلفوا"[8].

قال السمين الحلبي: قوله: {كذبوا} قرأ الكوفيون» كذبوا «بالتخفيف والباقون بالتثقيل، فأما قراءة التخفيف فاضطربت أقوال الناس فيها، وروي إنكارها عن عائشة رضي الله عنها قالت:«معاذ الله لم يكن الرسل لتظن ذلك بربها»[9]، وهذا ينبغي أن لا يصح عنها لتواتر هذه القراءة.

وقد وجهها الناس بأربعة أوجه:

أجودها: أن الضمير في{وظنوا} عائد على المرسل إليهم لتقدمهم في قوله: {كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} [يوسف: ١٠٩]، ولأن الرسل تستدعي مرسلا إليه. والضمير في«أنهم» و«كذبوا»عائد على الرسل، أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، أي: كذبهم من أرسلوا إليه بالوحي وبنصرهم عليهم.

الثاني: أن الضمائر الثلاثة عائدة على الرسل.

قال الزمخشري في تقرير هذا الوجه:« حتى إذا استيئسوا من النصر وظنوا أنهم قد كذبوا، أي: كذبهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون أو رجاؤهم لقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهموا ألا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا»[10] انتهى.

فقد جعل الفاعل المقدر: إما أنفسهم، وإما رجاؤهم، وجعل «الظن» بمعنى «التوهم» فأخرجه عن معناه الأصلي وهو ترجح أحد الطرفين، وعن مجازه وهو استعماله في المتيقن.

الثالث: أن الضمائر كلها أيضا عائدة على الرسل، و«الظن» على بابه من الترجيح، وإلى هذا نحا ابن عباس وابن مسعود وابن جبير، قالوا: والرسل بشر فضعفوا وساء ظنهم، وهذا ينبغي

---

(١) أخرجه الطبري(١٩٩٩٩):ص٢٩٨/١٦.
(٢) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٣) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٤) انظر: زاد المسير:٤٧٧/٢.
(٥) البحر المحيط:٣٣٦/٦.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٢):ص٢٢١١/٧.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٣):ص٢٢١١/٧.
(٨) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٥):ص٢٢١٢/٧.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٠):ص٢٢١١/٧.
(١٠) الكشاف:٥١٠/٢.

ألا يصح عن هؤلاء فإنها عبارة غليظة على الأنبياء عليهم السلام، وحاشى الأنبياء من ذلك، ولذلك ردت عائشة وجماعة كثيرة هذا التأويل، وأعظموا أن تنسب الأنبياء إلى شيء من ذلك.

قال الزمخشري: «إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف بربهم؟»[١]

قلت(السمين): ولا يجوز أيضا أن يقال: خطر ببالهم شبه الوسوسة؛ فإن الوسوسة من الشيطان وهم معصومون منه.

وقال الفارسي أيضا: «إن ذهب ذاهب إلى أن المعنى: ظن الرسل الذين وعد الله أممهم على لسانهم قد كذبوا فيه فقد أتى عظيما [لا يجوز أن ينسب مثله] إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عباد الله، وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا؛ لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد ولا مبدل لكلماته»[٢].

وقد روي عن ابن عباس أيضا أنه قال: «معناه وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر وقال: كانوا بشرا وتلا قوله تعالى: {وزلزلوا حتى يقول الرسول} [البقرة: ٢١٤].

الرابع: أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسل إليهم، أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من النبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العقاب قبل، وهذا هو المشهور من تأويل ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد قالوا: ولا يجوز عود الضمائر على الرسل لأنهم معصومون. ويحكى أن ابن جبير حين سئل عنها قال: نعم إذا استيئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم» فقال الضحاك بن مزاحم وكان حاضرا: «لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا».

وأما قراءة التشديد فواضحة وهو أن تعود الضمائر كلها على الرسل، أي: وظن الرسل أنهم قد كذبهم أممهم فيما جاؤوا به لطول البلاء عليهم، وفي صحيح البخاري عن عائشة: «أنها قالت: هم أتباع الأنبياء الذي آمنوا بهم وصدقوا طال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن قومهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك»[٣].

قلت(السمين الحلبي): وبهذا يتحد معنى القراءتين، والظن هنا يجوز أن يكون على بابه، وأن يكون بمعنى اليقين وأن يكون بمعنى التوهم حسبما تقدم.

وقرأ ابن عباس والضحاك ومجاهد «كذبوا» بالتخفيف مبنيا للفاعل، والضمير على هذه القراءة في «ظنوا» عائد على الأمم وفي {أنهم قد كذبوا} عائد على الرسل، أي: ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما وعدوهم به من النصر أو من العقاب، ويجوز أن يعود الضمير في «ظنوا» على الرسل وفي {أنهم قد كذبوا} على المرسل [إليهم]، أي: وظن الرسل أن الأمم كذبتهم فيما وعدوهم به من أنهم يؤمنون به، والظن هنا بمعنى اليقين واضح.

ونقل أبو البقاء أنه قرئ مشددا مبنيا للفاعل، وأوله: بأن الرسل ظنوا أن الأمم قد كذبوهم.

وقال الزمخشري: بعد ما حكى قراءة المبني للفاعل «ولو قرئ بهذا مشددا لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم»[٤]، فلم يحفظها قراءة وهي غريبة، وكان قد جوز في القراءة المتقدمة أن الضمائر كلها تعود على الرسل، وأن يعود الأول على المرسل إليهم وما بعده على الرسل فقال: «وقرأ مجاهد «كذبوا» بالتخفيف على البناء للفاعل على: وظن الرسل

---

(١) الكشاف:٥١٠/٢.

(٢) الحجة للقراء السبعة:٤٤٣/٤.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٠):ص٢٢١١/٧.

(٤) الكشاف:٥١٠/٢.

أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة: إما على تأويل ابن عباس، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثرا قالوا لهم: قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم أو: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا»[١]"[٢].

قوله تعالى:{جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف : ١١٠]، أي:" جاءهم نصرنا عند شدة الكرب"[٣].

عن ابن عباس:" {جاءهم نصرنا}، قال: العذاب "[٤].

وفي قوله تعالى:{جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف : ١١٠]، وجهان:

أحدهما : جاء الرسل نصر الله تعالى. قاله ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، وابن زيد[٧].

الثاني : جاء قومهم عذاب الله تعالى، وهو قول ابن عباس أيضا[٨].

قال الزمخشري:" المعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب"[٩].

قوله تعالى:{فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ} [يوسف : ١١٠]، أي:" فننجي من نشاء من الرسل وأتباعهم"[١٠].

قال ابن عباس:" فننجي الرسل ومن نشاء"[١١].

وقرئ:«فننجى من نشَاء»، بنونين الأولى مَضْمُومَة والثانية سَاكِنة والياء التي في « فننجى»، سَاكِنة[١٢].

وروى نصر بن على عَن أَبِيه عَن أَبى عَمْرو «فنجي من نشَاء»، يدغم، قال ابو بكر: وَهَذَا غلط فى قَوْله يدغم لَيْسَ هَذَا موضعا يدغم فِيهِ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهَا محذوفة النُّون الثَّانِيَة فى الْكتاب وهى فى اللَّفْظ بنونين الأولى متحركة وَالثَّانِيَة سَاكِنة وَلَا يجوز إدغام المتحرك فى السَّاكِن لِأَن النُّون الثَّانِيَة سَاكِنة والساكن لَا يدغم فِيهِ متحرك وَكَذَلِكَ النُّون لَا تُدْغَم فى الْجِيم فَمن قَالَ يدغم فَهُوَ غلط[١٣].

وقرأ ابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر وحفص: «فنجي من نشاء»، مشددة الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة على مالم يسم فاعله وروى الحسن بن اليتيم عن أبى حفص عمرو بن الصباح عن أبى عمر عن عاصم «فنجي» بنون واحدة، وروى هبيرة عن حفص عن عاصم فننجى بنونين مضمومة وخفيفة، قال أبو بكر: وهذا غلط[١٤].

وقرأ ابن محيصن: «فنجا»، والمراد ب من نشاء المؤمنون، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله {ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}[١٥].

قوله تعالى:{وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف : ١١٠]، أي:" ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم"[١].

---

(١) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.
(٢) الدر المصون:٥٦٦/٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٧):ص٢٢١٢/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٩٧):ص٢٩٨/١٦، وتفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٦٦):ص٢٢١٢/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٣٦):ص٣١٠/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠١٥):ص٣٠٢/١٦.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٦٧):ص٢٢١٢/٧.
(٩) الكشاف:٥١٠/٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٨):ص٢٢١٢/٧.
(١٢) انظر: السبعة في القراءات:٣٥٢.
(١٣) انظر: السبعة في القراءات:٣٥٢.
(١٤) انظر: السبعة في القراءات:٣٥٢.
(١٥) انظر: الكشاف:٥١٠/٢.

قال ابن عباس:" وذلك أن الله، بعث الرسل فدعوا قومهم وأخبروهم أنه من أطاع الله نجي، ومن عصاه عذب وغوى"[2].

الفوائد:

١- بيان سنة الله تعالى في تأخر النصر على رسله وعباده المؤمنين زيادة في الإعداد والتمحيص ثم يأتي نصر الله فيعز أولياء الله ويذل أعداءه.

٢- أن مهمة الرسل هى الوقوف فى وجه هذا الظلام الزاحف، والتصدى لتلك القوى العاتية من قوى الشر والعدوان، وأنهم مطالبون بأن يثبتوا، ويصبروا، ويصابروا. فإن نصر الله آت لا ريب فيه.

٣- التنديد بالإجرام وهو الإفساد للعقائد والأخلاق والشرائع والأحكام.

٤- أن ما يقع في القلب من خواطر الشيطان لا يضر، بل هو صريح الإيمان إذا كان مع الكراهة أخذا من قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} الآية.

القرآن

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)} [يوسف : ١١١]

التفسير:

لقد كان في نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك وما حلَّ بالمكذبين عظة لأهل العقول السليمة. ما كان هذا القرآن حديثًا مكذوبًا مختلَقًا، ولكن أنزلناه مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية، وبيانًا لكل ما يحتاج إليه العباد من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه وغير ذلك، وإرشادًا من الضلال، ورحمة لأهل الإيمان تهتدي به قلوبهم، فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي.

سبب النزول:

قال الثعلبي:" روى بن جبير عن الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وكان فيها يخزونك من تلبي: فأجب يا الله لولا أن بكرا دونك بني غطفان وهم يلونك، ينزل الناس ويخزونك، ما زال منا غنجا يأتونك، وكانت تلبية حرمهم: خرجنا عبادك الناس طرف وهم تلادك، وهم قديما عمروا بلادك، وقد تعادوا فيك من يعادك، وكانت تلبية قريش: [اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك][3] ، وكانت تلبية حمدان وغسان وقضاعة وجذام وتلقين وبهرا: نحن عبادك اليماني إنا نحج ثاني [على الطريق الناجي نحن نعادي] جئنا إليك حادي[4] . فأنزل الله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، يعني: في التلبية.

وقال: لما سمع المشركون ما قبل هذه الآية من الآيات قالوا: فإنا نؤمن بالله الذي خلق هذه الأشياء ولكنا نزعم أن له شريكا، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[5].

قوله تعالى:{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف : ١١١]، أي:" لقد كان في نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك وما حلَّ بالمكذبين عظة لأهل العقول السليمة"[6].

عن ابن عباس، في قوله: " {عبرة}، قال: معرفة، {لأولي الألباب}، قال: لذوي العقول"[7].

---

(١) صفوة التفاسير:٢/٦٤.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٦٩):ص٧/٢٢١٣.

(٣)يادة عن أخبار مكة للأزرقي: / ١٩٤، وتاريخ دمشق: ١٩/ ٥٠١.

(٤)ذكر اليعقوبي تلبية كل قبيلة من العرب مفصلا فليراجع تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٥ وفيها اختلاف عما ذكره المصنف هنا.

(٥) الكشفو البيان:٥/٢٦٢.

(٦) التفسير الميسر:٢٤٨.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٠):ص٧/٢٢١٣.

عن مجاهد: " {عبرة لأولي الألباب}، يعني: ليوسف وإخوته"[١].
قال الزمخشري:" الضمير في {قصصهم} للرسل، وينصره قراءة من قرأ :«في قصصهم» بكسر القاف. وقيل: هو راجع إلى «يوسف وإخوته»"[٢].
قوله تعالى:{مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} [يوسف : ١١١]، أي:" ما كان هذا القرآن حديثًا مكذوبًا مختلَقًا"[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما كان هذا القول حديثًا يختلق ويُتَكذَّب ويُتَخَرَّص"[٤].
ويُتَخَرَّص"[٤].
قال ابن ابي زمنين:" أي: يختلق ويصنع؛ هذا جواب لقول المشركين: {إن هذا إلا إفك افتراه}، أي: كذب اختلقه محمد"[٥].
قال الواحدي:" أي: ما كان هذا القرآن حديثا يتقوله بشر"[٦].
قال قتادة:" «الفرية»: الكذب"[٧].
وفي قوله تعالى:{مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} [يوسف : ١١١]، وجهان:
أحدهما : يعني: القرآن ، قاله قتادة[٨]، واختاره الزمخشري[٩].
الثاني : لما كان قبله من الخبر عنه، قاله ابن إسحاق[١٠]، واختاره السمعاني[١١].
قال السمعاني:" يعني: قصة يوسف"[١٢].
قوله تعالى:{وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يوسف : ١١١]، أي:" ولكن أنزلناه مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية"[١٣].
قال ابن ابي زمنين:" من التوراة والإنجيل" [١٤].
قال الزمخشري:" أى: قبله من الكتب السماوية"[١٥].
قال الواحدي:" أي: يصدق ما قبله من التوراة والإنجيل بموافقة الأخبار"[١٦].
قال الطبري:" يقول: ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، يصدِّق ذلك كله ويشهد عليه أنّ جميعه حق من عند الله"[١٧].
وفي قوله تعالى:{وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يوسف : ١١١]، وجهان[١٨]:
أحدهما : أنه مصدَّق لما قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ، وهذا تأويل من زعم أنه القرآن.
قال قتادة:" فالقرآن يصدق الكتب التي قبله ويشهد عليها "[١].

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧١):ص٢٢١٣/٧.
(٢) الكشاف:٥١١/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٤) تفسير الطبري:٣١٤/١٦.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٤٣/٢.
(٦) التفسير الوسيط:٦٣٩/٢.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠٠٤٢):ص٣١٤/١٦.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٧٢):ص٢٢١٣/٧.
(٩) انظر: الكشاف:٥١١/٢.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٧٣):ص٢٢١٣/٧.
(١١) انظر: تفسير السمعاني:٧٤/٣.
(١٢) تفسير السمعاني:٧٤/٣.
(١٣) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٤) تفسير ابن أبي زمنين:٣٤٣/٢.
(١٥) الكشاف:٥١١/٢.
(١٦) التفسير الوسيط:٦٣٩/٢.
(١٧) تفسير الطبري:٣١٤/١٦.
(١٨) انظر: النكت والعيون:٩٠/٣.

الثاني : يعني: ولكن يصدّقه ما قبله من كتب الله تعالى ، وهذا قول من زعم أنه القصص.

قوله تعالى:{وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} [يوسف : ١١١]، أي:" وبيانًا لكل ما يحتاج إليه العباد من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه وغير ذلك"(٢).

قال ابن ابي زمنين:" أي: تبيين {كل شيء} من الحلال والحرام والأحكام" (٣).

قال السمعاني:" يعني: من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهو أيضًا تفصيل كل ما بالعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته"(٥).

قال الواحدي: أي: "يحتاج إليه من أمور الدين"(٦).

قال ابن كثير:" من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور على الجلية ، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات"(٧).

عن قتادة، قوله: " {وتفصيل كل شيء}، حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته""(٨).

قوله تعالى:{وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف : ١١١]، أي:" وإرشادًا من الضلال، ورحمة لأهل الإيمان تهتدي به قلوبهم، فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي"(٩).

قال الواحدي: أي: " وهدى بيانا {ورحمة لقوم يؤمنون} يصدقون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم"(١٠).

قال السمعاني:" معناه: بيان ونعمة لقوم يؤمنون"(١١).

قال ابن كثير:" تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلالة إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد "(١٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهو بيان أمره، ورشاده لمن جهل سبيل الحق فعمي عنه، إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته، {ورحمة} لمن آمن به وعمل بما فيه، ينقذه من سخط الله وأليم عذابه، ويورّثه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيم المقيم {لقوم يؤمنون}، يقول: لقوم يصدِّقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده، وأمره ونهيه، فيعملون بما فيه من أمره، وينتهون عما فيه من نهيه"(١٣).

عن أبي سعيد، في قوله: " {ورحمة} [يوسف: ١١١] أن جعلكم من أهل القرآن "(١٤).

عن أبي العالية، في قوله: " {ورحمة} [يوسف: ١١١] قال: رحمته القرآن "(١٥).

عن ابن إسحاق: " {وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [الأعراف: ٢٠٣] أي: مغفرة لما ارتكبوا "(١).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٢):ص٢٢١٣/٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٤٨.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٣٤٣/٢.
(٤) تفسير السمعاني:٧٤/٣.
(٥) تفسير الطبري:٣١٤/١٦.
(٦) التفسير الوسيط:٦٣٩/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٢٧/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٥):ص٢٢١٣/٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٤٨.
(١٠) التفسير الوسيط:٦٣٩/٢.
(١١) تفسير السمعاني:٧٤/٣.
(١٢) تفسير ابن كثير:٤٢٧/٤.
(١٣) تفسير الطبري:٣١٤/١٦-٣١٥.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم:٢٢١٣/٧. والخبر غير مرقم بالمطبوع!!
(١٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٧):ص٢٢١٤/٧.

عن محمد بن إسحاق ايضا: "{وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [الأعراف: ٢٠٣] أي: مغفرة لما ارتكبوا فيه من الحدث ولما اختلفوا فيه من الحديث عنه، والقطيعة، ومعرفة بقدر الله ولطفه، وما خلص إلى يوسف ويعقوب من رحمته بعد البلاء الذي ابتلاهما به حتى رد كل واحد منهما إلى صاحبه، وعرف كل امرئ ممن بغى عليه ذنبه وجرمه، وإقرارا له بفضله وعلمه وتجاوزه وقلة تثريبه عليهم فيما صنعوا به"(٢).

١- بيان فضل القرآن وما فيه من الهدى والرحمة لمن طلب ذلك منه.
٢- المؤمنون باعتبار أنهم أحياء هم الذين ينتفعون بهداية القرآن ورحمته.
٣- تعظيم الإسلام لعمل العقل في سبيل الوصول إلى الحقائق بطرق شتى منها:

أ- الثناء على أصحاب العقل الذين يستعملونه في الحكم على الأشياء والتعامل معها: فالله سبحانه يخاطب أصحاب العقول حينما يذكر أحكامه لأنهم هم الذين يفهمون أنها أحكام عدل وحق {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ١٧٩].

ب- تخصيصهم بالخطاب حينما يأمر بشيء، وذلك لأنهم يسارعون إلى امتثال أمر الله، والنهوض به، يقول سبحانه: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة : ١٩٧]، فقد خص أولي الألباب بعد حث جميع العباد على التقوى(٣).

ت- مدحهم بأنهم هم الذين يتذكرون موجبات الهدى، ودلائله، وينتفعون بها خلاف اللاهين الغافلين، يقول سبحانه {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة : ٢٦٩، آل عمران: ٧، المثر: ٥٦].

ث- الثناء عليهم بأنهم هم الذين يعتبرون بقصص التاريخ وحوادث الحياة، فيتخذون منها عبرة، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف : ١١١]، وقال سبحانه بعد قصة لوط وقومه: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [العنكبوت : ٣٥].

ج- جعله مدخلاً تأسيسياً لإثبات أخطر قضايا الدين وهي العقيدة: فقد جعل القرآن هذا العقل إذا تجرد عن الهوى والمصلحة والتأثر بالمحيط الخارجي الفاسد هو الطريق الموصل إلى الحق، وإثبات صحة العقيدة، وصدق النبوة يقول سبحانه: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ : ٤٦].

وإنها لدعوة جليلة إلى إعمال الذهن، وتشغيل الطاقة العقلية، لتقتنع بالحق فتأخذ به، وتعرف الزيف فترفضه، لا دعوة إلى إطفاء مصباح العقل، والاعتقاد على عمى فيما لا يقبله العقل كما في المسيحية الكنسية(٤).

«آخر تفسير سورة (يوسف)، والحمد لله وحده»

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٨):ص٢٢١٤/٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٧٩):ص٢٢١٤/٧.
(٣) انظر: فتح القدير: ٢٠١/١.

(٤) انظر: نقص أصولب العقلانيين:٣٤/٣-٣٥.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «الرعد»

سورة «الرعد»: هي السورة الثالثة عشر في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة «محمد»(١)، وعدد آياتها (٤٧) سبع وأربعون عند الشاميين، و(٤٣)ثلاث وأربعون عند الكوفيين، و(٤٤) أربع وأربعون عند الحجازيين، و(٤٥) وخمس وأربعون عند البصريين. وكلماتها (٨٦٥) ثمان مائة وخمس وستون. وحروفها (٣٥٠٦)ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف(٢).

والآيات المختلف فيها خمس: « {جَدِيدٍ } [الرعد : ٥]، {النُّور} [الرعد : ١٦]، {الْبَصِيرُ} [الرعد : ١٦]، و{سُوءُ الْحِسَابِ } [الرعد : ١٨]، {مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد : ٢٣]» .

وفواصل آياتها يجمعها قولك «نقر دعبل»، منها على «العين» آية واحدة: { إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد : ٢٦]، وما على «النون» فقبل «النون» «واو»، وسائر الآيات التى على «الباء» فقبلها «ألف»؛ نحو {مَآبٍ} [الرعد : ٣٦/٢٩] ، {مَتَابِ} [الرعد : ٣٠]، سوى : {الْقُلُوبُ} [الرعد : ٢٨]؛ فقبلها «واو»(٣).

- **أسماء السورة:**
- **اسمها التوقيفي: سورة «الرعد»:**

سورة«الرعد»، هو الاسم الذي اشتهرت به من عهد السلف، وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد الرسول-ﷺ-، إذ لم يختلفوا في اسمها، فهو توفيقي، وبذلك كتبت في المصاحف وكتب التفسير والحديث.

وقد ورد عند السلف تسميتها بذلك، وذلك كما يأتي:

- عن ابن عباس-رضي الله عنهما-:" نزلت سورة الرعد بالمدينة"(٤).
- عن ابن الزبير-رضي الله عنه-، قال:" نزلت الرعد بالمدينة"(٥).
- عن جابر بن زيد - رضي الله عنه - قال: "كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة «الرعد»، فإن ذلك يخفف عن الميت فإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه"(٦).

ووجه تسميتها بسورة«الرعد»، لورود ذر الرعد فيها، وذلك في قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد : ١٣].

قال ابن عاشور:" وإنما سميت بإضافتها إلى «الرعد» لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} [الرعد : ١٣]، فسميت بالرعد، لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة"(٧).

- **مكية السورة ومدنيتها:**

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على أقوال:

---

(١) انظر: الكشاف: ٥١١/٢.
(٢)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٦٢.
(٣)انظر: المصد نفسه والصحيفة نفسها.
(٤) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى ابي الشيخ وابن مردويه.
(٥)أورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى ابن مردويه.
(٦) الدر المنثور:٥٩٩/٤.
(٧) التحرير والتنوير:٧٥/١٣.

أحدها: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-[١]، وابن زبير-في إحدى الروايات-[٢]، والحسن[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، وعكرمة[٥]، وعطاء[٦]، وجابر[٧]، وقتادة -في إحدى الروايات-[٨]، وبه قال ابن قتيبة[٩]، والزمخشري[١٠]، والفيروزآبادي[١١]، وابن كثير[١٢]، وغيرهم.

والثاني: أنها مكية إلا آيتين منها، وهما:{ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [الرعد : ٣١]، وقوله: { {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد : ٤٣]. وهذا القول رواه أبو صالح عن ابن عباس[١٣].

الثالث: أنها مدنية كلها. وهذا قول ابن عباس -في رواية عطاء الخراساني-[١٤]، وابن الزبير[١٥]، و جابر بن زيد[١٦]، ومقاتل[١٧]، وبه قال السيوطي[١٨] وعزاه القرطبي إلى الكلبي[١٩].

الرابع: أنها مدنية، إلا آية واحدة مكية، وهي قوله: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ} [الرعد : ٣١]. وهذا القول مروي عن قتادة[٢٠].

الخامس: أنها مدنية، إلا آيتين منها، ثم اختلفوا في المكي منها على قولين:

أحدهما: أن الآيتين اللتين نزلتا بمكة، هما: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ} [الرعد : ٣١]، إلى آخر الآيتين. وهذا القول مروي عن ابن عباس[٢١]، وقتادة[٢٢].

والثاني: أن المكي منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد : ١٢]، وقوله تعالى:{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد : ١٤]. حكاه ابن الجوزي عن بعضهم[٢٣].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى النحاس، وقال ابن الجوزي: "رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس". [انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢].
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر.
(٣) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢، وتفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٤) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢.
(٥) انظر: تفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٦) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢، وتفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٧) انظر: تفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٨) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢.
(٩) انظر: غريب القرآن:٢٢٤.
(١٠) انظر: الكشاف:٥١١/٢.
(١١) البصائر:٢٦٢/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن كثير:٤٢٨/٤.
(١٣) انظر: الكشف والبيان:٢٦٧/٥، وزاد المسير:٤٧٩/٢.
(١٤) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى ابي الشيخ وابن مردويه.
(١٥)أورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى ابن مردويه.
(١٦) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢.
(١٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٥٧/٢.
(١٨) انظر: الدر المنثور:٥٩٩/٤.
(١٩) انظر: تفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٢٠)أورده السيوطي في الدر المنثور:٥٩٩/٤، وعزاه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.
(٢١) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢، وتفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٢٢) انظر: تفسير القرطبي:٢٧٨/٩.
(٢٣) انظر: زاد المسير:٤٧٩/٢.

قال ابن عطية:" الظاهر- عندي- أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني"(١).

قال ابن عاشور:" أشبه آياتها بأن يكون مدنيا"(٢).

قال سيد قطب:" إن افتتاح السورة، وطبيعة الموضوعات التي تعالجها، وكثيراً من التوجيهات فيها.. كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية- وليست مدنية كما جاء في بعض الروايات والمصاحف- وأنها نزلت في فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدي من المشركين"(٣).

- **مناسبة سورة«الرعد» مع سورة «يوسف»:**

من وجوه المناسبة بين السورتين:

١- ترتبط سورة يوسف بما جاء بعدها؛ وهي سورة الرعد، ارتباطًا جليّاً، حيث إن الهدف من ذكر قصص الأنبياء -عليهم السلام- ودعوتهم لأقوامهم في القرآن الكريم هو التأثير في الناس وهدايتهم، وكذلك ذِكر آيات الله -تعالى- في الكون والحثّ على التفكّر والتدبّر في خلق الله تعالى، كما ورد في سورة الرعد، فهي تهدف إلى التأثير في الناس وهدايتهم أيضاً، وقد كان من أوائل الآيات في سورة الرعد، قوله تعالى :{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [الرعد : ٢].

٢- ومن وجوه المناسبة: أنه سبحانه وتعالى أجمل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية، فقال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف : ١٠٥]، فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ثم فصلها هنا أتم تفصيل، فقال في مطلع هذه السورة: {المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} [الرعد : ١ - ٤].

٣- ومنها: اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ووصفه بالحق وافتتاح هذه بمثل ذلك وهو من تشابه الأطراف،.قال تعالى في خاتمة سورة يوسف: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف : ١١١]، إذ وصف القرآن بالحق من خلال نفي الافتراء، ثم وصفه بأربع صفات جديدة كنتيجة للإبانة :تصديق الكتب السابقة، وتفصيل كل شيء، وهدى، ورحمة ولكن لمن؟ لقوم يؤمنون.

وفي سورة الرعد صف القرآن بالكتاب الذي لا يستحق كتاب في الوجود اسم الكتاب سواه في أول سورة الرعد، فقال تعالى: {المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)} [الرعد : ١]، كما جاء في خواتميها بيان النتيجة، وهي فرح من عرف قيمته به، وإنكار المتحزبين المتعصبين من مناوئيه: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} [الرعد : ٣٦].

---

(١) المحرر الوجيز:٢٩٠/٣.
(٢) التحرير والتنوير:٧٦/١٣.
(٣) في ظلال القرآن:٢٠٦٦/٤.

٤- إنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفتها.
٥- إنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكتب الخزي على الكافرين، والنصر لرسله والمؤمنين، وفى ذلك تسلية لرسوله ﷺ وتثبيت لقلبه(١).

- **أغراض السورة ومقاصدها**

تبدأ سورة «الرعد» بقضية عامة من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتمل عليه، وتلك هي قاعدة بقية القضايا، من توحيد لله، والإيمان بالبعث، والعمل صالح في الحياة. فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله، وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله ﷺ. هذا على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل، فقد تضمنت السورة المقاصد الآتية: (٢)

١- بينت السورة أن هذا القرآن عميق التأثير في النفس البشرية، حتى لتكاد تسير به الجبال، وتُقطَّع به الأرض، ويُكلم به الموتى؛ لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية .
٢- أكدت السورة أن هذا الكتاب هو وحده الحق؛ وأن الإعراض عنه، والتكذيب به، والتحدي، وبطء الاستجابة، ووعورة الطريق.. كلها لا تغير شيئاً من تلك الحقيقة الكبرى، طبيعة المواجهة التي كان المشركون يتحدون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحدون بها هذا القرآن .
٣- التوجيه الرباني لرسول الله ﷺ أن يجهر في مواجهة الإعراض والتكذيب، والتحدي، وبطء الاستجابة، ووعورة الطريق بالحق الذي معه كاملاً؛ وهو أنه لا إله إلا الله، ولا رب إلا الله، ولا معبود إلا الله، وأن الله هو الواحد القهار، وأن الناس مردودون إليه، فإما إلى جنة، وإما إلى نار. وكل هذه الحقائق كان ينكرها المشركون، ويتحدون الرسول فيها .
٤- كشفت السورة لأصحاب الدعوة إلى الله عن طبيعة منهج هذه الدعوة، وأن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين، وألا يخفوا منها شيئاً، وألا يؤجلوا منها شيئاً. وفي مقدمة هذه الحقائق: أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله، ومن ثم فلا دينونة، ولا طاعة، ولا خضوع، ولا اتباع إلا لله. فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تُعلن أيًّا كانت المعارضة والتحدي؛ وأيًّا كان الإعراض من المكذبين والتولي؛ وأيًّا كانت وعورة الطريق وأخطارها.
٥- أظهرت السورة أن المنهج القرآني في الدعوة يجمع بين الحديث عن كتاب الله المتلو، وهو هذا القرآن، وبين كتاب الكون المفتوح؛ بما فيه من دلائل شاهدة بسلطان الله وتقديره وتدبيره. كما يضم إلى هذين الكتابين سجل التاريخ البشري، وما يحفظه من دلائل ناطقة بالسلطان والتقدير والتدبير أيضاً. ويواجه البشرية بهذا كله، ويأخذ عليها أقطارها جميعاً؛ وهو يخاطب حسها وقلبها وعقلها جميعاً .
٦- أوضحت السورة بجلاء نماذج من طبيعة النبوة والرسالة؛ وحدود النبي والرسول؛ لتخليص العقول والأفكار من رواسب الوثنيات كلها؛ وتحريرها من تلك الأساطير التي أفسدت عقائد أهل الكتاب من قبل؛ وردتها إلى الوثنية بأوهامها وأساطيرها!
٧- بينت السورة أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلام إنما هي البلاغ، وأن أمر هذا الدين ليس إليه هو، ومآل هذه الدعوة ليس من اختصاصه! إنما عليه البلاغ، وليس عليه هداية الناس، فالله وحده هو الذي يملك الهداية، سواء حقق الله بعض وعده له من مصير القوم، أو أدركه الأجل قبل تحقيق وعد الله، فهذا أو ذاك لا يغير من طبيعة

---

(١) انظر: تفسير المراغي:٦٠/١٣.
(٢) انظر: اسلام ويب.[موقع الكتروني].

مهمته. فالبلاغ يظل هو قاعدة عمل الرسول، ويظل كذلك قاعدة عمل الدعاة لهذا الدين بعده.

٨- أرشدت السورة الدعاة أن ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر، وأن ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس، ولا أن يستبطئوا وعد الله للمهتدين ووعيده للمكذبين، إنما عليهم البلاغ فحسب، أما حساب الناس في الدنيا، أو في الآخرة، فهذا ليس من شأن العباد، إنما هو من شأن رب العباد !

٩- قررت السورة كلمة الفصل في العلاقة بين اتجاه الإنسان وحركته، وبين تحديد مآله ومصيره؛ وبينت أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته في هذه الحياة؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص.

١٠- قررت السورة سُنَّة اجتماعية، وهي أن مشيئة الله في تغيير حال قوم، إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم أنفسهم، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييراً شعوريًّا وعمليًّا، فإذا غيَّر القوم ما بأنفسهم اتجاهاً وعملاً غير الله حالهم، وَفْق ما غيروا هم من أنفسهم. فإذا اقتضى حالهم أن يريد الله بهم السوء، مضت إرادته، ولم يقف لها أحد، ولم يعصمهم من الله شيء، ولم يجدوا لهم من دونه ولياً ولا نصيراً. فأما إذا هم استجابوا لربهم، وغيروا ما بأنفسهم بهذه الاستجابة، فإن الله يريد بهم الحسنى، ويحقق لهم هذه الحسنى في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، فإذا هم لم يستجيبوا، أراد بهم السوء، وكان لهم سوء الحساب، ولم تغن عنهم فدية، إذا جاءوه غير مستجيبين يوم الحساب.

١١- قررت السورة حقيقة مهمة، وهي أن الله سبحانه يقضي بالهدى لمن ينيب إليه؛ وهذه الحقيقة تدل على أنه سبحانه إنما يضل من لا ينيب، ومن لا يستجيب، ولا يضل منيباً، ولا مستجيباً؛ وذلك وفق وعده سبحانه في قوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت : ٦٩]، فهذه الهداية وذلك الإضلال هما مقتضى مشيئته سبحانه بالعباد، هذه المشيئة التي تجري وتتحقق من خلال تغيير العباد ما بأنفسهم، والاتجاه إلى الاستجابة، أو الإعراض .

١٢- بينت السورة أنه سبحانه لو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى، أو لقهرهم على الهدى، ولكنه سبحانه شاء أن يخلقهم مستعدين للهدى، أو للضلال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان : ٣]، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد : ١٠]؛ ولم يشأ بعد ذلك أن يقهرهم على الهدى، ولا أن يقهرهم على الضلال! إنما جعل مشيئته بهم تجري من خلال استجابتهم، أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى، وموجبات الإيمان.

١٣- قررت السورة كلمة الفصل في دلالة الكفر وعدم الاستجابة لهذا الحق الذي جاء به هذا الدين، على فساد الكينونة البشرية، وتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فيها، واختلال طبيعتها، وخروجها عن سواء السبيل.

١٤- بيان أن الذين لا يستجيبون للحق الذي جاءهم به القرآن، هم بشهادة الله سبحانه عميٌ، وصمٌّ، وبكمٌ في الظلمات، وأنهم لا يتفكرون، ولا يعقلون. وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله، وتتصل بما هي عارفة له، ومصطلحة عليه بفطرتها السليمة، فتسكن، وتستريح .

١٥- أرشدت السورة إلى أن ثمة علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض، وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

١٦- بينت السورة أن الذين لا يستجيبون لعهد الله، ولا يعلمون الحق الذي جاء من عنده ، هم الذين يفسدون في الأرض؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق، ويستجيبون له، هم الذين يصلحون في الأرض، وتزكو بهم الحياة.

١٧- قررت السورة بكل وضوح أن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب، الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - ﷺ - هو الحق، ومن ثم يوفون بعهد

الله، ويعبدونه وحده، ويدينون له وحده، ولا يتلقون عن غيره، ولا يتبعون إلا أمره ونهيه، ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه، ويخافون سوء الحساب، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل حركة؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة؛ ويقيمون الصلاة؛ وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان.

١٨- بينت السورة أن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله، وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله؛ ومجرد الاعتراف بشرعية منهج، أو وضع، أو حكمٍ من صنع غير الله، هو بذاته مناقض لمنهج الله؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه.

هذه بعض المقاصد البارزة التي قررتها هذه السورة، وهي بالتأكيد تتضمن مقاصد غير ما ذكرنا، تتبين من خلال التأمل في السورة، والوقوف على مراميها السامية، ومقاصدها الجليلة.

- **فضائل السورة:**

إن سورة «الرعد» احدى سور القرآن الكريم التي تدل على قدرة الله عز وجل في كونه، وقد روي، ومما وردت به الروايات من فضائل هذه السورة:

- أخرج ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز عن جابر بن زيد - رضي الله عنه - قال: "كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة «الرعد»، فإن ذلك يخفف عن الميت فإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه"[١].
- عن أبي هريرة رفع الحديث: أنه كان إذا سمع الرعد، قال:"سبحان من « {يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ}»[٢]".
- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل"[٣].
- وعن ابن عباس-رضي الله عنهما-:" من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي «يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلي ديته"[٤].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

---

(١) الدر المنثور:٥٩٩/٤.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٢٦٠):ص٣٨٩/١٦، ورواه البخاري في الأدب المفرد، موقوفا على كعب بن مالك.
ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف: (١٨٤/٢).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٩٧).
(٣) الكشف والبيان:٢٦٧/٥.
(٤) تفسير البغوي:٣٠٣/٤.

القرآن

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)} [الرعد : ١]

التفسير:

(المر) سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

هذه آيات القرآن الرفيعة القدر، وهذا القرآن المنزل عليك -أيها الرسول- هو الحق، لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به مِن عند نفسك، ومع هذا فأكثر الناس لا يصدِّقون به ولا يعملون.

سبب النزول:

قال مقاتل:"{المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق}، لقول كفار مكة: إن محمدا تقول القرآن من تلقاء نفسه، {ولكن أكثر الناس}، يعني: أكثر كفار {لا يؤمنون} بالقرآن أنه من الله"[١].

قوله تعالى:{المر} [الرعد : ١]، الله أعلم بمراده.

روي عن ابن عباس :"{المر}، قال: أنا الله أرى"[٢].

عن الحسين بن واقد عن مطير في قوله: "{المر}، قال: المر التوراة"[٣].

عن مجاهد: "{المر}: فواتح يفتتح بها كلامه"[٤].

قوله تعالى:{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الرعد : ١]، أي:" هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب"[٥].

وفي قوله تعالى:{ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الرعد : ١]، أربعة وجوه:

أحدها : الزبور، وهو قول مطر[٦].

الثاني : التوراة والزبور. رواه أبو بكر عن الحسين[٧].

الثالث: التوراة والإنجيل والزبور. قاله قتادة[٨].

الرابع: التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد[٩].

قوله تعالى:{وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ} [الرعد : ١]، أي:" والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردّد"[١٠].

قال الطبري:" القرآن، فاعمل بما فيه واعتصم به"[١١].

قال الزجاج:" أي: والقرآن المنزل عليك الحق"[١٢].

قال الثعلبي:" يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق فاعتصم به واعمل بما فيه"[١٣].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٦٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٠٤٤):ص١٦/٣٢٠، وتفسير ابن ابي حاتم(١٢٠٨٠):ص٧/٢٢١٥.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٨١):ص٧/٢٢١٥.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٠٤٦):ص١٦/٣٢٠.
(٥) صفوة التفاسير:٢/٦٨.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٨٢):ص٧/٢٢١٥.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٨٣):ص٧/٢٢١٥.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٠٨٤):ص٧/٢٢١٥.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٤٨):ص١٦/٣٢٠.
(١٠) صفوة التفاسير:٢/٦٨.
(١١) تفسير الطبري:١٦/٣٢٠.
(١٢) معاني القرآن:٣/١٣٥.
(١٣) الكشف والبيان:٥/٢٦٧.

عن قتادة قوله: "{والذي أنزل إليك من ربك}، هذا القرآن"[1]. وروي عن مجاهد نحوه[2].

عن أبي بكر عن الحسين والذي أنزل إليك من ربك الحق قال: القرآن الحق كله"[3].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [الرعد : ١]، أي:" ومع وضوحه وجلائه كذّب به أكثر الناس"[4].

قال الطبري:" ولكن أكثر الناس من مشركي قومك لا يصدقون بالحقّ الذي أنزل إليك من ربك، ولا يقرّون بهذا القرآن وما فيه من محكم آيه"[5].

قال ابن كثير:" أي : مع هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق"[6].

وفي المراد بـ{أكثر الناس}، قولان[7]:

أحدهما : أكثر اليهود والنصارى، لأن أكثرهم لم يسلم.

وقال مقاتل:" يعني: أكثر كفار"[8].

الثاني : أكثر الناس في زمان رسول الله -ﷺ-.

الفوائد:

١- تقرير عقيدة الوحي الإلهي ونبوة محمد ﷺ.
٢- ذم المكذبين بالقرآن.
٣- في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، إشارة إلى قلة الخير وكثرة الشر.
٤- الآية تدل على أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين؛ قال تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، وبذلك فإن أهل النار هم الأكثر؛ كما بين ذلك في آيات كثيرة وأحاديث؛ كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف : ١٠٣] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [الصافات : ٧١].

وقد بينت الأحاديث الصحيحة أن نصيب النار تسعة وتسعون وتسعمائة من الألف، وأن نصيب الجنة واحد من الألف [9].

وفي القرآن الكريم أن أهل النار يدخلونها جماعة جماعة، قال تعالى: { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا } [الأعراف : ٣٨].

القرآن

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)} [الرعد : ٢]

التفسير:

الله تعالى هو الذي رفع السموات السبع بقدرته من غير عمد كما ترونها، ثم استوى -أي علا وارتفع- على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، وذلّل الشمس والقمر لمنافع العباد، كلٌّ منهما يدور في فلكه إلى يوم القيامة. يدبّر سبحانه أمور الدنيا والآخرة، يوضح لكم الآيات الدالة على قدرته وأنه لا إله إلا هو؛ لتوقنوا بالله والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده وتُخْلصوا العبادة له وحده.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٨٥):ص٢٢١٥/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٤٩)"ص٣٢١/١٦.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٨٦):ص٢٢١٥/٧.
(٤) صفوة التفاسير:٦٨/٢.
(٥) تفسير الطبري:٣٢٢/١٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٢٨/٤.
(٧) انظر: النكت والعيون:٩١/٣.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٦/٢.
(٩)انظر: صحيح البخاري ١٩٥/٧-١٩٦. وصحيح مسلم ٢٠١/١.

قوله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد : ٢]، أي:" الله تعالى هو الذي رفع السموات السبع بقدرته من غير عمد كما ترونها"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الله، يا محمد، هو الذي رفع السموات السبع بغير عَمَد ترونها، فجعلها للأرض سقْفًا مسموكًا، و"العَمَد" جمع"عمود"، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء، كما قال النابغة[٢]:

وَخَيِّسِ الجِنَّ إنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُون تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالعَمَدِ"[٣].

قال القرطبي:" لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرت"[٤].

قال ابن كثير:" يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السماوات بغير عمَد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية ، بما فيها ، وبينها وبينها خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال الله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } [الطلاق : ١٢] وفي الحديث : «ما السماواتُ السبع وما فيهنّ وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلاة ، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة »[٥]، وفي رواية : «والعرش لا يقدر قدره إلا الله ، عز وجل ، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو من ياقوتة حمراء»[٦]"[٧].

وفي قوله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد : ٢]، وجهان:

أحدهما : يعني بِعُمد لا ترونها، قاله ابن عباس[٨]، ومجاهد[٩].

قال ابن عباس: "لها عمد على جبل قاف"[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:٢٤٩.

(٢)ديوانه: ٢٩، ومجاز القرآن ١: ٣٢٠، وشمس العلوم لنشوان الحميري: ٣٧، وغيرها كثير، من قصيدته المشهورة التي اعتذر فيها للنعمان، لما قذفوه بأمر المتجردة، يقول قبله: ولاَ أَرَى فَاعلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ ... ولاَ أُحَاشِي مِنَ الأقْوامِ مِنْ أَحَدِ

إلاَّ سُلَيْمَانَ إذْ قَالَ الإلهُ لَهُ ... قُمْ فِي البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عن الفَنَدِ

وقوله:" وخيس الجن"، أي: ذللها ورضها. و" الصفاح"، حجارة رقاق عراض صلاب.

و" تدمر" مدينة بالشام. قال نشوان الحميري في شمس العلوم:" مدينة الشأم مبنية بعظام الصخر، فيها بناء عجيب، سميت بتدمر الملكة العمليقية بنت حسان بن أذينة، لأنها أول من بناها. ثم سكنها سليمان بن داود عليه السلام بعد ذلك. فبنت له فيها الجن بناء عظيمًا، فنسبت اليهود والعرب بناءها إلى الجن، لما استعظموه".

وهذا نص جيد من أخبارهم وقصصهم في الجاهلية.

(٣) تفسير الطبري:٣٢٢/١٦.

(٤) تفسير القرطبي:٢٧٩/٩.

(٥) قطعة من حديث طويل، أخرجه ابن حبان (٧٦/٢، رقم ٣٦١) ، وأبو نعيم فى الحلية (١٦٦/١).

(٦)رواه ابن عبد البر في التمهيد (٧/٤) من طريق أبي بكر الهذلي عن عكرمة قال : قلت لابن عباس : أرأيت أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت : "آمن شعره وكفر قلبه ؟" قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟... الحديث.

(٧) تفسير ابن كثير:٤٢٨/٤-٤٢٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٥١)-(٢٠٠٥٢)، (٢٠٠٥٧)، (٢٠٠٥٨):ص٣٢٣/١٦-٣٢٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٥٣)-(٢٠٠٥٥):ص٣٢٣/١٦-٣٢٤.

(١٠) .

قال القرطبي:" على هذا القول: العمد قدرته التي يمسك بها السماوات والأرض، وهي غير مرئية لنا"(١).

وقال ابن عباس:"هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر، ذكره الغزنوي"(٢).

ومن تأوَّل ذلك كذلك، قصد مذهب تقديم العرب الجحدَ من آخر الكلام إلى أوله، كقول ابن هرمة(٣):

وَلا أرَاهَا تَزَالُ ظَالِمَةً   تُحْدِثُ لِي نَكْبَةً وتَنْكَؤُهَا

يريد: أراها لا تزال ظالمة، فقدم الجحد عن موضعه من"تزال"، وكما قال الآخر(٤):

إذَا أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حَالٌ مِنَ امْرِئٍ   فَدَعْهُ وَوَاكِلْ حَالَهُ وَاللَّيَالِيَا

يَجِئْنَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ صَالحٍ بِهِ   وَإنْ كَانَ فِيما لا يَرَى النَّاسُ آلِيَا

يعني: وإن كان فيما يرى الناس لا يألو(٥).

الثاني : أنها مرفوعة بغير عمد، قاله قتادة وإياس بن معاوية.

قال الزجاج:" لما ذكر أنهم لا يؤمنون عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق عز وجل - فقال: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد}، وفي ذلك من القدرة والدلالة ما لا شيء أوضح منه أن السماء محيطة بالأرض متبرية منها، {بغير عمد}: والمعنى: بغير عمد وأنتم ترونها كذلك، ويجوز أن تكون: {ترونها} من نعت «العمد»، المعنى: بغير عمد مرئية، وعلى هذا تعمدها قدرة الله عز وجل"(٦).

وفي رفع السماء وجهان(٧):

أحدهما : رفع قدرها وإجلال خطرها ، لأن السماء أشرف من الأرض .

الثاني : سمكها حتى علت على الأرض .

قوله تعالى:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد : ٢]، أي:" ثم علا على العرش علوا يليق بجلاله وعظمته من غير تجسيم ولا تكييفٍ ولا تعطيل"(٨).

قال الإمام ابن كثير:" يُمَرَّر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا"(٩).

قال الطبري:" يعني: علا عليه"(١٠).

عن أبي العالية في قوله: "{ثم استوى}، يقول: ارتفع"(١١). وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله(١).

---

(١) تفسير القرطبي:٢٧٩/٩.

(٢) تفسير القرطبي:٢٧٩/٩.

(٣)شرح شواهد المغني ٢٧٧، ٢٧٩ من تسعة أبيات، ومعاني القرآن للفراء في تفسير الآية، والأضداد لابن الأنباري: ٢٣٤.

وقد زعموا أنه قيل لابن هرمة: إن قريشًا لا تهمز، فقال: لأقولن قصيدة أهمزها كلها بلسان قريش، وأولها: إنَّ سُلَيْمي والله يكْلَؤهَا ... ضَنَّتْ بِشَيء مَا كَان يَرْزَؤُها

وعَوَّدَتْنِي فِيما تُعَوِّدُنِي ... أَظْمَاءُ وِرْدٍ ما كُنْتُ أجزَؤُهَا

ولا أرَاهَا تَزَال ظَالِمةً ... .

(٤) لم أتعرف على قائله، والبيت في معاني القرآن للفراء في تفسير الآية، والأضداد لابن الأنباري: ٢٣٤، وتفسير الطبري:٣٢٥/١٦، وقوله:" واكل حاله"، أي: دع أمره لليالي. من" وكل إليه الأمر"، أي: صرف أمره إليه. وقوله:" يجئن على ما كان من صالح به"، أي يقضين على صالح أمره ويذهبنه. و" الآلي"، المقصر.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٣٢٤/١٦-٣٢٥.

(٦) معاني القرآن:١٣٦/٣.

(٧) انظر: النكت والعيون:٩٢/٣.

(٨) انظر: التفسير الميسر:٢٤٩، وصفوة التفاسير:٦٨/٢.

(٩) تفسير ابن كثير:٤٣٠/٤.

(١٠) تفسير الطبري:٣٢٥/١٦.

(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١١):ص١٩٢٥/٦، و(١٢٠٩٣):ص٢٢١٦/٧.

عن قتادة، في قول الله: " {ثم استوى على العرش}، قال: يوم السابع "[٢]

عن الحكم بن أبان قال: "سمعت عكرمة يقول إن الله بدء خلق السماوات والأرض وما بينهما يوم الأحد، ثم استوى على العرش يوم الجمعة في ثلاث ساعات، فخلق في ناحية منها الشموس كي يرغب الناس إلى ربهم في الدعاء والمسألة، وخلق في ناحية النتن الذي يسقط على ابن آدم إذا مات لكي يقبر"[٣].

عن كعب الأحبار، قال: " إن الله عز وجل لما خلق الخلق استوى على العرش فسبحه يعني: العرش "[٤].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد : ٢]، وجوه:

أحدها : معناه: استوى أمره على العرش، قاله الحسن[٥]، وابن ابي زمنين[٦].

الثاني: يعني: استقر على العرش، قاله مقاتل[٧].

وقال مقاتل:" كل شيء فى القرآن: {واستوى}، يعنى: ابن اثنتين وثلاثين سنة، واستقر"[٨].

وهذا من تجسيم مقاتل، لأن الاستقرار إنما يكون بعد حركة سابقة، والحركة والسكون من صفات الحوادث، والله لا يوصف بصفة من صفات الحوادث. فالحدوث نقص، والنقص على الله- تعالى- محال.

قال الرازي:" ليس المراد منه كونه مستقرا على العرش، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهدا معلوما وأن أحدا ما رأى أنه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرا على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله، بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز. وأيضا فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة، وذلك يوجب التغير وأيضا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجا مضطربا ثم صار مستويا وكل ذلك على الله محال، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني أن من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه"[٩].

والثالث: معناه: استولى على العرش ، واحتجوا بقول الشاعر[١٠]:

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقِ[١١]

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٩٢٥/٦، و:٢٢١٦/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٩٤):ص٢٢١٦/٧.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٢):ص١٩٢٥/٦. قطعة من الخبر السابق.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٩٦):ص٢٢١٧/٧.

(٥) انظر: النكت والعيون:٢٢٩/٢.

(٦) انظر: تفسير ابن ابي زمنين:٤٨٥/١.

(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٢/٢.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٩٩/٥.

(٩) مفاتيح الغيب:٥٢٦/١٨.

(١٠)الشاهد بدون نسبة فى "الصحاح" ٦/ ٢٣٨٥ (سوا)، و"تفسير الماوردي" ٢/ ٢٢٩، و"الأسماء والصفات" للبيهقي ٢/ ٣٠٩، و"زاد المسير" ٣/ ٢١٣، والقرطبي ٧/ ٢٢٠، و "رصف المباني" ص ٤٣٤، و"اللسان" ٤/ ٢١٦٣ (سوا)، و"الخازن" ٢/ ٣٣٩، و"الدر المصون" ١/ ٢٤٣، ونسب في "تاج العروس" ١٩/ ٥٥١ (سوا)، إلى الأخطل، وفي هذه المراجع (قد استوى)، وقال شيخ الإسلام في "الفتاوى" ٥/ ١٤٦: (لم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه، وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة) اهـ. ونسبه ابن كثير في "البداية والنهاية" ٩/ ٧ إلى الأخطل، وقال: (الأخطل نصراني، والاستدلال به باطل من وجوه كثيرة) اهـ. وهو ليس في ديوان الأخطل والواحدي نسبه هنا وفي "الوسيط" ١/ ١٩٢ (إلى البعيث) وانظر: "مختصر الصواعق المرسلة" ٣/ ٨٩٠، ٨٩٨.

(١١) قال الآلوسي معلقا على البيت:" وأين استواء- بشر على العراق- من استواء الرحمن على العرش، ونهاية الأمر يحتاج إلى القول بأن المراد استيلاء يليق بشأن الرحمن جل شأنه فليقل من أول الأمر قبل تحمل مؤنة هذا

وهذا قول أهل التأويل من المعتزلة والجهمية والحرورية وغيرهم، وقد اتفق أهل العلم على إبطاله(١).

قال الإمام الأشعري:" وليس استواؤه على العرش استيلاء كما قال أهل القدر؛ لأنه عز وجل لم يزل مستولياً على كل شيء"(٢).

كما رد عليهم الدارمي وأبطل تأويلهم لذلك بقوله: "فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله حتى خص العرش بالذكر من بين الأمكنة والاستواء ...ثم قال: هذا محال من الحجج وباطل من الكلام لا تشكون أنتم - إن شاء الله - في بطوله واستحالته، غير أنكم تغالطون به الناس"(٣).

وقد رَدَّ ابن الأعرابي -وهو من أئمة اللغة- على مَنْ فَسَّر الاستواء بـ «الاستيلاء» هنا، بقوله: ".. لا يقال: استولى على الشيء، إلا أن يكون له مضادّ، فإذا غلب أحدُهما، قيل: استولى .."(٤).

والله تعالى لا منازع له في مُلْكه. ورَدَّه كذلك الخليل بن أحمد. ذكَرَ ذلك الكرمي(٥).

قال السمعاني:" أوّل المعتزلة الاستواء بالاستيلاء...وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف، أنهم قالوا في هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"(٦).

ومنهج السلف الصالح إزاء صفة الاستواء، وغيرها من صفات الباري تعالى: أن تمر كما جاءت، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل؛ فيثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، إثباتًا منزهًا عن التشبيه، منزهًا عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو مُعطّل، ومَنْ شبهه باستواء المخلوق على المخلوق، فهو مُمَثِّل. وقد قال الإمام مالك بن أنس، لَمَّا سُئل عن كيفية الاستواء، فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٧)، وقد وَرَدَ مثلُ ذلك عن أم سلمة رضي الله عنها، وربيعة الرأي(٨).

التأويل استواء يليق بشأن من عز شأنه وتعالى عن إدراك العقول سلطانه، وهذا أليق بالأدب وأوفق بكمال العبودية وعليه درج صدر الأمة وساداتها- وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها- وإليها دعا أئمة الحديث في القديم والحديث حتى قال محمد بن الحسن كما أخرجه عنه اللالكائي: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه، وورد عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له ضبيع: قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله ضبيع فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه- وفي رواية- فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة ثم تركه حتى برئ فدعا به ليعود فقال: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين". روح المعاني:٢/٨٥-٨٦.

(١)انظر: "الإبانة" ص ٣٦، و"الأسماء والصفات" ٢/ ٣٠٦ - ٣٠٨، و"الفتاوى" ٥/ ١٤٣ - ١٤٩، و"مختصر العلو" للألباني ص ٢٦.

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الابواب:١٣١.

(٣)انظر الرد على الجهمية :١٨.

(٤)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي: ٣/ ٤٤٢.

(٥) انظر: قاويل الثقات: ١٢٤.

(٦) تفسير السمعاني:٢/١٨٨.

(٧)رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والإمام أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، والإمام البيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٠٨) وقد جود الإمام ابن حجر طريق ابن وهب عند البيهقي فقال: وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب ... فذكره. الفتح (١٣/ ٤٠٦ - ٤٠٧). وقد ذكره ابن أبي زيد القيرواني في الجامع (ص١٢٣)، والقاضي عياض في المدارك (١/ ١٧٠ - ١٧١).

(٨)انظر: "شرح أصول الاعتقاد" ٣/ ٤٤٠ - ٤٤٣. وانظر مادة (سوا) في "تهذيب اللغة" ٢/ ١٧٩٤، "الصحاح" ٦/ ٢٣٨٥ - ٢٣٨٦، "اللسان" ٤/ ٢١٦٠، "القاموس المحيط" ١٢٩٧، "قاموس القرآن" للدامغاني:

قال الإمام الشوكاني:" مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه"(١).

قال الإمام القرطبي:" قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} هذه مسألة الاستواء، وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بينا أقوال العلماء فيها في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى»، وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولا. والأكثر من المتقدمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم، لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيز، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للمتحيز، والتغير والحدوث. هذا قول المتكلمين، وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة، لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة، بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم المخلوقات، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم- أي في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة. وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها"(٢).

قال الإمام ابن كثير:" وأما قوله تعالى : { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك ، والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : ١١] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري - : «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى"(٣).

وقال سفيان بن عيينة: "كل شيئ وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف ولا مثل"(٤).

وقال أبو بكر المروذي: "سألت أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤية، والإسراء، وقصة العرش، فصححه أبو عبد الله وقال: تلقتها العلماء بالقبول، تمر الأخبار كما جاءت"(٥).

وقال محمد بن الحسن الشيباني ـ صاحب أبي حنيفة ـ :"اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل، من غير تفسير ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه

٢٥٥، "تاج العروس" للزبيدي: ١/ ١٧٩. وانظر حول موضوع صفة الاستواء: "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة: ٣٩٤، "الرد على الجهمية" للدارمي: ص ٤٠، "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد" للبيهقي: ص ١١٦، "الأسماء والصفات" للبيهقي: ٢/ ٣٠٣، "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" ٥/ ١٤٦، ٣٦٥، ٤٠٤، ٥١٩ ـ ٥٢٠ "العقائد السلفية" لأحمد بن حجر: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥، ١٦٤ ـ ١٦٧، "رسائل في العقيدة" لمحمد بن عثيمين: ٧٠.

(١) فتح القدير:٢/٢٤٠.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٢١٩.

(٣) تفسير ابن كثير:٣/٤٢٦-٤٢٧.

(٤)أخرجه الدارقطني في كتاب الصفات ص٤١، والصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١٢٠/١، وابن قدامة في ذم التأويل ص١٩، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم ((٧٣٦)) ٤٣١/٣.

(٥)رواه مختصراً ابن قدامة في ذم التأويل ص٢١، ورواه بتمامه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة ٥٦/١.

النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم لم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم[1] فقد فارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شيئ"[2].

وقال عباد بن العوام: "قدم علينا شريك بن عبد الله، فقلنا: إن قوماً ينكرون هذه الأحاديث: " إن الله ينزل إلى سماء الدنيا " والرؤية وما أشبه هذه الأحاديث فقال: إنما جاء بهذه الأحاديث من جاء بالسنن في الصلاة، والزكاة، والحج، وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث"[3].

وفي{الْعَرْشِ}[الأعراف : ٥٤]، ثلاثة أقوال[4]:

أحدها : أنه المُلْك كني عنه بالعرش والسرير كعادة ملوك الأرض في الجلوس على الأسرة ، حكاه ابن بحر[5].

والثاني : أنه السموات كلها لأنها سقف ، وكل سقف عند العرب هو عرش ، قال الله تعالى :{خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [الكهف : ٤٢] [الحج : ٤٥]، أي: على سقوفها .

والثالث : أنه موضع في السماء في أعلاها وأشرفها ، محجوب عن ملائكة السماء .

قال ابن عباس:" وإنما سمي العرش عرشا لارتفاعه"[6].

قال سعد الطائي: "العرش ياقوتة حمراء"[7].

قال وهب بن منبه :"إن الله خلق العرش من نوره"[8].

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الرعد : ٢]، أي:" وذلَّل الشمس والقمر لمنافع العباد"[9].

قال الطبري:" يقول: وأجرى الشمس والقمر في السماء، فسخرهما فيها لمصالح خلقه، وذلَّلَهما لمنافعهم، ليعلموا بجريهما فيها عدد السنين والحساب، ويفصلوا به بين الليل والنهار"[10].

قوله تعالى:{كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [الرعد : ٢]، أي:" كلٌّ منهما يدور في فلكه إلى يوم القيامة"[11].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكوَّر الشمس، ويُخْسف القمر، وتنكدر النجوم"[1].

---

(١)جهم بن صفوان من أهل خراسان ينسب إلى سمرقند وزمنه ومحتده الكوفة، وكنى أبا محرز، وكان مولى لبني راسب من الأزد، أخذ الكلام عن الجعد بن درهم وكان فصيحاً، وكان صاحب مجادلات ومخاصمات في مسائل الكلام التي يدعو إليها، وكان أكثر كلامه في الإلهيات.

انظر تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي ص١٠.

قال المقريزي: حدث مذهب الجهم بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به، فإنه نفى أن يكون لله تعالى صفة، وأورد على أهل الإسلام شكوكاً آثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولد عنها بلاء كبير، وكان قبيل المائة من سني الهجرة، فكثر أتباعة على أقواله التي تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته، وتمالؤا على إنكارها وتضليل أهلها، وحذروا من الجهمية وعادوهم في الله، وذموا من جلس إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله.

الخطط ٢٥٧/٢.

(٢)رواه ابن قدامة في ذم التأويل ص١٣-١٤، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم ((٧٤٠)) ٤٣٢/٣، والذهبي في العلو ص١١٣.

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي:٢٢٠، ولم أجده بهذا اللفظ، ورواه بلفظ مقارب الدارقطني في الصفات ص٤٣، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨٥/٨.

(٤) انظر: النكت والعيون:٢٣٠/٢.

(٥) انظر: النكت والعيون:٢٣٠/٢.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٥٧٨):ص١٤٩٧/٥.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٥٧٩):ص١٤٩٧/٥.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٥٨٠):ص١٤٩٧/٥.

(٩) التفسير الميسر:٢٤٩.

(١٠) تفسير الطبري:٣٢٦/١٦.

(١١) التفسير الميسر:٢٤٩.

عن مجاهد: "{وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى}، قال: الدنيا"(٢).

قال عكرمة:" سعة الشمس سعة الأرض كلها، وزيادة ثلث، وسعة القمر سعة الأرض مرة، وإن الشمس إذا غربت دخلت تحت العرش، فسبحت لله، حتى إذا هي أصبحت استعفت ربها من الخروج، فقال لها الرب: «ولم ذاك والرب أعلم» فقالت: إني إذا خرجت عبدت، فقال لها الرب: «اخرجي فليس عليك من ذلك شيء حسبهم جهنم، أبعثها عليهم مع ثلاثة عشر ألف ملك يقودونها حتى يدخلوهم فيها»"(٣).

قوله تعالى:{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [الرعد : ٢]، أي:" يدبِّر سبحانه أمور الدنيا والآخرة"(٤).

قال الزجاج:أي:" يحكمه"(٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يقضي الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّر ذلك كله وحده، بغير شريك ولا ظهير ولا معين سُبْحانه"(٦).

قال ابن كثير:" أي : يدبر أمر الخلائق ، {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ } [سبأ : ٣] ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلّطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعمران والقفار ، { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود : ٦]. { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام : ٥٩]"(٧).

عن مجاهد قوله: "{يدبر الأمر}، قال: يقبضه وحده"(٨).

قوله تعالى:{يُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الرعد : ٢]، أي:" يوضح لكم الآيات الدالة على قدرته وأنه لا إله إلا هو"(٩).

قال الزجاج:" أي: يبين الآيات التي تدل على قدرته على بعثكم"(١٠).

قال الطبري:" يقول: يفصل لكم ربُّكم آيات كتابه، فيبينها لكم احتجاجًا بها عليكم، أيها الناس"(١١).

عن السدي: " {يفصل الآيات}، أما «نفصل»: فنبين "(١٢).

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [الرعد : ٢]، أي:" لتوقنوا بالله والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده وتُخْلصوا العبادة له وحده"(١٣).

قال الطبري:" يقول: لتوقنوا بلقاء الله، والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك"(١٤).

قال الزجاج:" لأنهم كانوا يجحدون البعث، فاعلموا أن الذي خلق السماوات وأنشأ الإنسان ولم يكن شيئا، قادر على إعادته"(١٥).

---

(١) تفسير الطبري:٣٢٦/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٠٦١)كص٣٢٦/١٦.
(٣)أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٩٧):ص٢٢١٧/٧ .
(٤) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٥) معاني القرآن:١٣٦/٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٢٦/١٦.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤٦/٤.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٠٦٢):ص٣٢٧/١٦، و تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢١٦):ص١٩٢٦/٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٤٩.
(١٠) معاني القرآن:١٣٦/٣.
(١١) تفسير الطبري:٣٢٧/١٦.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٠٩٩):ص٢٢١٧/٧.
(١٣) التفسير الميسر:٢٤٩.
(١٤) تفسير الطبري:٣٢٧/١٦.
(١٥) معاني القرآن:١٣٦/٣.

عن قتادة: "{لعلكم بلقاء ربكم توقنون} ، وإن الله تبارك وتعالى إنما أنزل كتابه وأرسل رسله، لنؤمن بوعده، ونستيقن بلقائه"(١).

الفوائد:

١- أن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، استوى عليه كما بينه في كتابه، في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤] وقوله: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً} [الفرقان: ٥٩] في آيات أخر، والرسول ﷺ ، ذكره فيما نقل عنه، من غير أن يكيف استواءه عليه، أو يجعل لفعله، وفهمه، أو وهمه سبيلاً إلى إثبات كيفيته، إذ الكيفية عن صفات ربنا منفية.
قال إمام المسلمين في عصره أبو عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، في جواب من سأله عن كيفية الاستواء: " الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وأراك صاحب بدعة"، ثم أمر بإخراج السائل"(٢).
٢- انحصار الخلق كل الخلق فيه تعالى فلا خالق إلا هو، والأمر كذلك فلا آمر ولا ناهي غيره. هنا قال عمر: من بقي له شيء فليطلبه إذ لم يبق شيء ما دام الخلق والأمر كلاهما لله.
٣- تقرير ألوهية الله تعالى وأنه الإله الحق.
٤- إثبات العرش، لقد جاء ذكر عرش الرحمن في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً(٣).

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)} [الرعد : ٣]

التفسير:

وهو سبحانه الذي جعل الأرض متسعة ممتدة، وهيأها لمعاشكم، وجعل فيها جبالا تُثبِّتُها وأنهارًا لشربكم ومنافعكم، وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، فكان منها الأبيض والأسود والحلو والحامض، وجعل الليل يغطي النهار بظلمته، إن في ذلك كله لَعظات لقوم يتفكرون فيها، فيتعظون.

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} [الرعد : ٣]، أي:" وهو سبحانه الذي جعل الأرض متسعة ممتدة، وهيأها لمعاشكم"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله الذي مَدَّ الأرض، فبسطها طولا وعرضًا"(٥).

قال الزجاج:" روي في التفسير أنها كانت مدورة فمدت، ومعناه بسط الأرض"(٦).

عن الأوزاعي، قال: قال عبد الله بن عمرو: "الدنيا مسيرة خمسمائة عام أربع مائة خراب، ومائة عمران ، في أيدي المسلمين مدة ذلك مسيرة سنة"(٧).

قال وهب بن منبه: "ما العمارة في الدنيا في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء"(٨).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٠٦٥):ص٣٢٧/١٦.

(٢)رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والإمام أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥ - ٣٢٦)، والإمام البيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٠٨) وقد جود الإمام ابن حجر طريق ابن وهب عند البيهقي فقال: وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب ... فذكره. الفتح (١٣/ ٤٠٦ - ٤٠٧). وقد ذكره ابن أبي زيد القيرواني في الجامع (ص١٢٣)، والقاضي عياض في المدارك (١/ ١٧٠ - ١٧١).

(٣) انظر: الجزء(١٨)، فوائد الآية: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)} [يونس : ٣].

(٤) التفسير الميسر:٢٤٩.

(٥) تفسير الطبري:٣٢٨/١٦.

(٦) معاني القرآن:١٣٧/٣.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٠٢):ص٢٢١٨/٧.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٠٤):ص٢٢١٨/٧.

قوله تعالى:{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا} [الرعد : ٣]، أي:" وجعل فيها جبالا تُثبِّتُها وأنهارًا لشربكم ومنافعكم"(١).

قال الزجاج:" أي: جبالا ثوابت"(٢).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وجعل في الأرض جبالا ثابتة... [و] أنهارًا من ماء، و«الرواسي»: جمع«راسية»، وهي الثابتة، يقال منه: أرسيت الوتد في الأرض: إذا أثبته، كما قال الشاعر(٣):

بِهِ خَالِدَاتٌ مَا يَرِمْنَ وهَامِدٌ وَأَشْعَثُ أرْسَتْهُ الوَلِيدَةُ بِالفِهْرِ

يعني: أثبتته"(٤).

عن قتادة، قوله: " {رواسي}، أي: جبال"(٥).

عن عطاء، قال: "أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس"(٦).

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: " لما خلق الله الأرض جعلت تميد فجعل الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: هل من خلقك يا رب أشد من الجبال؟ فقال: الحديد، فقالت: يا رب فهل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، فقالت: فهل من خلقك أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالت: يا رب، فهل في خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح، قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله "(٧).

قوله تعالى:{وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [الرعد : ٣]، أي:" وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين"(٨).

قال الزجاج:" جعل فيها نوعين، والزوج الواحد الذي ليس له قرين"(٩).

قال الطبري:" عنى بقوله: {زوجين اثنين}، نوعين وضربين"(١٠).

قوله تعالى:{يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [الرعد : ٣]، أي:" وجعل الليل يغطي النهار بظلمته"(١١).

قال الطبري:" يقول: يجلِّل الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه"(١٢).

قال قتادة:" أي: يلبس الليل النهار"(١٣).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الرعد : ٣]، أي:" إن في ذلك كله لَعظات لقوم يتفكرون فيها، فيتعظون"(١٤).

---

(١) التفسير الميسر:٢٤٩.

(٢) معاني القرآن:١٣٧/٣.

(٣) البيت للاحوص، انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢١، واللسان (رسا) ، وروايته" سوى خالدات" و" ترسيه الوليدة". و" الخالدات"، و" الخوالد" صخور الأثافي، سميت بذلك لطول بقائها بعد دروس أطلال الديار.: ما يرمن"، ما يبرحن مكانهن، من" رام المكان يريمه"، إذا فارقه. و" الهامد" الرماد المتلبد بعضه على بعض. و" الأشعث"، الوتد، لأنه يدق رأسه فيتشعث ويتفرق، و" الوليدة": الجارية، و" الفهر" حجر ملء الكف، يدق به.

(٤) تفسير الطبري:٣٢٨/١٦.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٠٧):ص٢٢١٩/٧.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٠٦):ص٢٢١٨/٧.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٠٥):ص٢٢١٨/٧.

(٨) التفسير الميسر:٢٤٩.

(٩) معاني القرآن:١٣٧/٣.

(١٠) تفسير الطبري:٣٢٩/١٦.

(١١) التفسير الميسر:٢٤٩.

(١٢) تفسير الطبري:٣٢٩/١٦.

(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٠٦٦):ص٣٢٩/١٦.

(١٤) التفسير الميسر:٢٤٩.

قال الطبري:أي:" إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لَدلالات وحججًا وعظات، لقوم يتفكرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبَّرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحدثه من غير شيء تبارك وتعالى، وأن القدرة التي أبدع بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه وابتداع ما شاء ابتداعَه بها"[(١)].

عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ :"تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله"[(٢)].

الفوائد:

١- ثبات الأرض واستقرارها، قال تعالى:{ وَهُوَ الَّذِي مد الأَرْض}، وفي الحديث الشريف:" لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد، قالت: يا رب فهل فى خلقك شىء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب فهل فى خلقك شىء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء، قالت: يا رب فهل فى خلقك شىء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالت: يا رب فهل فى خلقك شىء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم تصدق بيمينه ويخفيها من شماله"[(٣)].

٢- فضيلة التفكر في الآيات الكونية.

القرآن

{وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} [الرعد : ٤]

التفسير:

وفي الأرض قطع يجاور بعضها بعضًا، منها ما هو طيِّب يُنبتُ ما ينفع الناس، ومنها سَبِخة مِلْحة لا تُنبت شيئًا، وفي الأرض الطيبة بساتين من أعناب، وجعل فيها زروعًا مختلفة ونخيلا مجتمعًا في منبت واحد، وغير مجتمع فيه، كل ذلك في تربة واحدة، ويشرب من ماء واحد، ولكنه يختلف في الثمار والحجم والطعم وغير ذلك، فهذا حلو وهذا حامض، وبعضها أفضل من بعض في الأكل، إن في ذلك لَعلامات لمن كان له قلب يعقل عن الله تعالى أمره ونهيه.

قوله تعالى:{وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} [الرعد : ٤]، أي:" في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض"[(٤)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وفي الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقرب بعضها من بعض بالجوار، وتختلف بالتفاضل مع تجاورها وقرب بعضها من بعض، فمنها قِطْعة سَبَخَةٌ لا تنبت شيئًا في جوار قطعة طيبة تنبت وتنفع"[(٥)].

قال ابن كثير:" أي : أراضٍ تجاور بعضها بعضا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سَبَخة مالحة لا تنبت شيئا.. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ،

---

(١) تفسير الطبري:٣٣٠/١٦.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١١١):ص٢٢١٩/٧.

(٣)أخرجه أحمد (١٢٤/٣، رقم ١٢٢٧٥) ، وعبد بن حميد (ص ٣٦٥، رقم ١٢١٥) ، والترمذى (٤٥٤/٥، رقم ٣٣٦٩) وقال: غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه، وأبو يعلى (٢٨٦/٧، رقم ٤٣١٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٤٤/٣، رقم ٣٤٤١) ، وأبو الشيخ فى العظمة (١٣٥٣/٤، رقم ٨٧٢٧٦) ، والضياء (١٥٢/٦، رقم ٢١٤٨) .

ومن غريب الحديث: "تميد": تتحرك وتضطرب.

(٤) صفوة التفاسير:٦٩/٢.

(٥) تفسير الطبري:٣٣٠/١٦.

فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات. فهذه بصفتها ، وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه"[١].

عن قتادة قوله: "{متجاورات}، أي: قريب بعضها من بعض"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} [الرعد : ٤]، وجهان:

أحدهما : أن المتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

وقال قتادة:" قُرًى قَرُبت متجاورات بعضها من بعض"[٣].

عن أبي عياض: "{قطع متجاورات}، قال: قرى"[٤].

الثاني : أي متجاورات في المدى ، مختلفات في التفاضل . وفيه وجهان[٥]:

أحدهما : أن يتصل ما يكون نباته مراً .

الثاني : أن تتصل المعذبة التي تنبت بالسبخة التي لا تنبت، قاله ابن عباس[٦]، ومجاهد[٧]، والضحاك[٨].

قال اب عباس:" يريد بذلك الطيبة العذبة التي تخرج نباتها بإذن ربها، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج وهما أرض واحدة وماؤهما شيء ملح عذب. ففضلت إحداهما على الأخرى في الأكل"[٩].

وعن مجاهد :"{وفي الأرض قطع متجاورات}، قال: ملح وعذوبة"[١٠].

قوله تعالى:{وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ} [الرعد : ٤]، أي:" وفي الأرض الطيبة بساتين من أعناب"[١١].

قوله تعالى:{وَزَرْعٌ} [الرعد : ٤]، أي:" وجعل فيها زروعًا مختلفة"[١٢].

قوله تعالى:{وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [الرعد : ٤]، أي:" ونخيلا مجتمعًا في منبت واحد، وغير مجتمع فيه"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [الرعد : ٤]، أربعة أقوال:

أحدها : أن «الصنوان»: المجتمع، و«غير الصنوان»: المفترّق(غير مجتمع). وهذا قول البراء[١٤]، وسعيد بن جبير[١٥]، وبه قال ابن جرير الطبري[١٦]. قال الشاعر[١٧]:

العلم والحلم خُلّتا كرَمٍ   للمرءِ زين إذا هما اجتمعا
صنوانٍ لا يستتم حسنها   إلا بجمع ذا وذاك معا

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٣١/٤.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١١٨):ص٢٢٢٠/٧.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٠٧٦):ص٣٣٢/١٦
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١١٥):ص٢٢٢٠/٧.
(٥) انظر: النكت والعيون:٩٣/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٧٠)-(٢٠٠٧٢):ص٣٣١/١٦-٣٣٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٦٧)-(٢٠٠٦٩): ص٣٣١/١٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٧٨):ص٣٣٢/١٦.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١١٢):ص٢٢١٩/٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١١٤):ص٢٢١٩/٧.
(١١) التفسير الميسر:٢٤٩.
(١٢) التفسير الميسر:٢٤٩.
(١٣) التفسير الميسر:٢٤٩.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٨٧):ص٣٣٥/١٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٨٣):ص٣٣٤/١٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/١٦.
(١٧) البيت غير منسوب في النت والعيون:٩٣/٣، وتفسير السمعاني:٧٨/٣، وتفسير القرطبي:٢٨٢/٩.

عن البراء:{صنوان}:النخلتين الملتزقتين"[١]، "{وغير صنوان}: المتفرق"[٢].
الثاني : أن «الصنوان»: النخلات يكون أصلها واحداً ، و«غير الصنوان»: أن تكون أصولها شتى ، قاله ابن عباس[٣]، والبراء بن عازب[٤]، ومجاهد[٥]، والضحاك[٦]، وقتادة[٧].
قال ابن عباس:" يعني: بالـ«صنوان»: النخلة يخرج من أصلها النخلات، فيحمل بعضه ولا يحمل بعضه، فيكون أصله واحدا ورءوسه متفرقة"[٨].
قال قتادة:" أما«الصنوان»: فالنخلتان والثلاث أصولُهن واحدة وفروعهن شتى، «وغير صنوان»: النخلة الواحدة"[٩].
قال ابن زيد :"«الصنوان»: النخلتان أو الثلاث يكنَّ في أصل واحد، فذلك يعدُّه الناس صنوانًا"[١٠].
عن معمر قال: حدثني رجل: "أنه كان بين عمر بن الخطاب وبين العباس قول، فأسرع إليه العباس، فجاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألم تر عباسًا فعل بي وفعل! فأردت أن أجيبه، فذكرتُ مكانه منك فكففت: فقال: يرحمك الله، إنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه"[١١].
عن مجاهد: أن النبي ﷺ قال: "لا تؤذوني في العباس فإنه بقية آبائي، وإنّ عمّ الرجل صنو أبيه"[١٢].
الثالث : أن «الصنوان»: الأشكال، و«غير الصنوان»: المختلف ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[١٣].
الرابع : أن «الصنوان»: الفسيل يقطع من أمهاته ، وهو معروف ، و«غير الصنوان»: ما ينبت من النوى ، وهو غير معروف حتى يعرف ، وأصل النخل الغريب من هذا ، قاله علي بن عيسى[١٤].
وقرأ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر ونافع وابن عامر وحمزة والكسائى: «وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صنوان غير صنوان» بالخفض عطفًا بذلك على«الأعناب»، بمعنى: وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ، وجناتٌ من أعناب ومن زرع ونخيل[١٥].
قوله تعالى:{ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ} [الرعد : ٤]، أي:" يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه"[١٦].
قوله تعالى:{وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد : ٤]، أي:" ومع وجود أسباب التشابه نفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا، ورائحة وطعما، وحلاوة وحموضة"[١٧].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٢٠):ص٢٢٢٠/٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٢٤):ص٢٢٢١/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٩٥):ص٣٣٦/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٨٨)، و(٢٠٠٨٩):ص٣٣٥/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٠٠):ص٣٣٧/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٠٢):ص٣٣٧/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٠٤):ص٣٣٨/١٦.
(٨) اخرجه الطبري(٢٠٠٩٥):ص٣٣٦/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠١٠٤):ص٣٣٨/١٦.
(١٠)أخرجه الطبري(٢٠١٠٦):ص٣٣٨/١٦.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠١٠٧):ص٣٣٨/١٦
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠١٠٩):ص٣٣٩/١٦
(١٣) انظر: النكت والعيون:٩٤/٣.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٩٤/٣.
(١٥) انظر: السبعة في القراءات:٣٥٦، وتفسير الطبري:٣٣٤/١٦.
(١٦) تفسير المراغي:٦٨/١٣.
(١٧) تفسير المراغي:٦٨/١٣.

قال سعيد بن جبير:" الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملا من بعض، وبعضه حلو، وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض"[١].

قال السعدي:أي:" لونا وطعما ونفعا ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلأ وهذه الثمرة حلوة وهذه مرة وهذه بين ذلك. فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟"[٢].

عن ابن عباس في قوله:"{ونفضل بعضها على بعض في الأكل}، قال: هذا حامض وهذا حلو، وهذا قل وهذا فارسي"[٣].

قال الضحاك:" بعضها أفضل من بعض حملا"[٤].

قال مقاتل:{ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ}، " يعني: في الحمل، فبعضها أكبر حملا من بعض"[٥].

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد : ٤]، أي:" إن في ذلك لَعلامات لمن كان له قلب يعقل عن الله تعالى أمره ونهيه"[٦].

قال مقاتل:" يعني: ما ذكر من صنعه لعبرة {لقوم يعقلون}، فيوحدون ربهم "[٧].

قال السعدي:" أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلا ولا يعون له قيلا"[٨].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد : ٤]، وجهان:

أحدهما : أن في اختلاف ذلك اعتبار يدل ذوي العقول على عظيم القدرة ، وهو معنى قول الضحاك[٩].

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد ، قاله الحسن[١٠]، ومجاهد[١١].

الفوائد:

١- بين القرآن الكريم أنَّ اختلاف النباتات في الطعم رغم الاتحاد في التربة والماء من العلامات الباهرة لمن عقل وتدبر.
٢- فضيلة العقل للاهتداء به إلى معرفة الحق وإتباعه للإسعاد والإكمال.
٣- فساد الادعاء بأنّ الشيء وُجِدَ بذاته من غير سبب:

فلو كانت الطبيعة هي الخالق كما يقولون؛ لكانت قوانينها واحدة، المريض لا بُدَّ أن يموت، والصحيح لا يمرض، والنبات الذي يسقى بماء واحد لا يختلف طعم ثمره؛ لكننا نرى العكس، أحيانًا نرى المريض يشفى، والصحيح يموت بدون مرض أو علة، ونرى الزرع والنبات في ساحة واحدة يمتص غذاء في الأرض من تراب واحد، ويسقى بماء واحد، ولكن الثمر قد يختلف في المذاق والألوان والروائح والمنافع والمضار، فهل

(١) أخرجه الطبري(٢٠٠٨٣):ص٣٣٤/١٦.
(٢) تفسير السعدي:٤١٢.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٢٧):ص٢٢٢١/٧.
(٤) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٢٨):ص٢٢٢١/٧.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٧/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٧/٢.
(٨) تفسير السعدي:٤١٢.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٢٨):ص٢٢٢١/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠١١٣):ص٣٤٠/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١١٢):ص٣٣٩/١٦-٣٤٠.

هذا كله من صنع الطبيعة الصمّاء أو المادة العمياء؟ وهل هذا هو العلم الذي يقولون به؟ وأيم الله لإن هذا هو الجهل بعينه وليس بالعلم.

القرآن

{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)} [الرعد : ٥]

التفسير:

وإن تعجب -أيها الرسول- من عدم إيمانهم بعد هذه الأدلة فالعجب الأشدُّ من قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا نُبعث من جديد؟ أولئك هم الجاحدون بربهم الذي أوجدهم من العدم، وأولئك تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم القيامة، وأولئك يدخلون النار، ولا يخرجون منها أبدًا.

قوله تعالى:{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد : ٥]، أي:" وإن تعجب -أيها الرسول- من عدم إيمانهم بعد هذه الأدلة فالعجب الأشدُّ من قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا نُبعث من جديد؟"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وإن تعجب} يا محمد، من هؤلاء المشركين المتَّخذين ما لا يضرُّ ولا ينفع آلهةً يعبدونها من دوني، فعجب قولهم: {أئذا كنا ترابا} وبَلِينا فعُدِمنا{أئنا لفي خلق جديد} إنا لمجدَّدٌ إنشاؤنا وإعادتنا خلقًا جديدًا كما كنا قبل وفاتنا!! تكذيبًا منهم بقدرة الله، وجحودًا للثواب والعقاب والبعث بعد الممات"[٢].

قال قتادة:" إن عجبت يا محمد، {فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد}، عجب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت"[٣].

قال ابن زيد:" إن تعجب من تكذيبهم، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال، فأراهم من حياة الموتى في الأرض الميتة، إن تعجب من هذه فتعجَّب من قولهم: {أئذا كنا ترابًا أئنا لفي خلق جديد} أو لا يرون أنا خلقناهم من نطفة؟ فالخلق من نطفة أشدُّ أم الخلق من ترابٍ وعظام؟"[٤].

عن السدي: "{أإذا كنا ترابا}: فكانت اللحوم رفاتا"[٥].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ} [الرعد : ٥]، أي:" أولئك هم الجاحدون بربهم الذي أوجدهم من العدم"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين أنكروا البعث وجَحدُوا الثواب والعقاب وقالوا: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} هم الذين جحدوا قدرة ربِّهم وكذبوا رسوله"[٧].

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ} [الرعد : ٥]، أي:" وأولئك تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم القيامة"[٨].

قال الطبري:" وهم الذين في أعناقهم الأغلال يوم القيامة في نار جهنم"[٩].

قال الحسين:" إن الأنكال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب، ولكنها جعلت في أعناقهم لكي إذا طفا بهم اللهب أرسبتهم في النار"[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٢) تفسير الطبري:٣٤٦/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠١٢٨):ص٣٤٦/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠١٢٩):ص٣٤٦/١٦-٣٤٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٣٣):ص٢٢٢٢/٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٧) تفسير الطبري:٣٤٩/١٦-٣٥٠.
(٨) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٩) تفسير الطبري:٣٥٠/١٦.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٣٤):ص٢٢٢٢/٧.

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الرعد : ٥]، أي:" وأولئك يدخلون النار، ولا يخرجون منها أبدًا"[١].

قال الطبري:" يقول: هم سكان النار يوم القيامة، {هم فيها خالدون}، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها"[٢].

قال ابن كثير:" أي : ماكثون فيها أبدا ، لا يحولون عنها ولا يزولون"[٣].

عن أبي مالك قوله: "{أصحاب النار}: يعذبون فيها"[٤].

عن ابن عباس قوله: "{هم فيها خالدون}، أي: خالد أبدا"[٥]. وروي عن السدي نحو ذلك[٦].

الفوائد:

١- تقرير أصول العقيدة الثلاثة: التوحيد والنبوة البعث والجزاء الآخر.
٢- صوارف الإيمان والتي هي كالأغلال ير التقليد الأعمى، والكبر والعناد.
٣- ذم المذكبين بالبعث والنشور وتوعّدهم.
٤- قد يدل التعجب على بغض الله للفعل الذي هو محل التعجب ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا}[الرعد:٥]، وقوله سبحانه: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}[الصافات:١٢]، وقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ}[البقرة:٢٨]، وقوله: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}[النساء:٢١]، وقوله: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ} [آل عمران:١٠١].

القرآن

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)} [الرعد : ٦]

التفسير:

ويستعجلك المكذِّبون بالعقوبة التي لم أعاجلهم بها قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات، وقد مضت عقوبات المكذبين مِن قبلهم، فكيف لا يعتبرون بهم؟ وإن ربك -أيها الرسول- لَذو مغفرة لذنوبِ مَن تاب مِن ذنوبه من الناس على ظلمهم، يفتح لهم باب المغفرة، ويدعوهم إليها، وهم يظلمون أنفسهم بعصيانهم ربهم، وإن ربك لشديد العقاب على مَن أصرَّ على الكفر والضلال ومعصية الله.

سبب النزول:

اختلفوا فيمن نزلت الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في كفار مكة، سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، استهزاء منهم بذلك، حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس[٧].

والثاني: أنها نزلت: في مشركي العرب، قاله قتادة[٨].

والثالث: أنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، قاله مقاتل[٩].

---

(١) التفسير الميسر:٢٤٩.
(٢) تفسير الطبري:٣٥٠/١٦.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٣٢/٤.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢١٣٥):ص٢٢٢٢/٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢١٣٦):ص٢٢٢٢/٧.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٢٢٢٢/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٧) انظر: زاد المسير:٤٨٣/٢.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٣٧):ص٢٢٢٣/٧.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٧/٢-٣٦٨.

قوله تعالى:{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد : ٦]، أي:" ويستعجلك المكذِّبون بالعقوبة التي لم أعاجلهم بها قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات"[١].

قال الفراء:" يقول: يستعجلونك بالعذاب وهم آمنون له"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {ويستعجلونك} يا محمد، مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: ٣٢]"[٣].

قال الواحدي:" يعني: مشركي مكَّة حين سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً يقول: ويستعجلونك بالعذاب الذي لم أعاجلهم به وهو قوله: {قبل الحسنة} يعني: إحسانه إليهم في تأخير العقوبة عنهم إلى يوم القيامة"[٤].

قال القرطبي:" أي: لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب"[٥].

قال ابن كثير:" أي : هؤلاء المكذبون { بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } أي : بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله : { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ } [الحجر : ٦ - ٨] وقال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } [العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤] وقال : { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } [المعارج : ١] وقال : { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ } [الشورى : ١٨]{ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } [ص : ١٦] أي : حسابنا وعقابنا ، كما قال مخبرا عنهم : { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : ٣٢] فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله ، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم"[٦].

قال السمعاني:" «الاستعجال»: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء (وقته) ، وقد كان الله تعالى أخر عقوبة الاصطلام عن المشركين كرامة للنبي. والسيئة هاهنا هي العقوبة، والحسنة: العافية، ومعناه: أنهم يطلبون العقوبة بدلا من العافية، وقد دل على هذا قوله تعالى: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء} وقوله تعالى: {سأل سائل بعذاب واقع}"[٧].

قال الشوكاني:" وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء، كقولهم: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِك} [الأنفال : ٣٢]"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد : ٦]، أربعة وجوه:

أحدها : يعني بالعقوبة قبل العافية ، رواه معمر عن قتادة[٩].

قال قتادة:" هؤلاء مشركوا العرب استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيم}"[١٠].

وروي عن السدي قوله: "{ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة}، قال: حين سألوا العذاب"[١١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٢) معاني القرآن:٥٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٣٥٠/١٦.
(٤) الوجيز:٥٦٦.م٢٨٤
(٥) تفسير القرطبي:٩.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٣٣/٤.
(٧) تفسير السمعاني:٧٨/٣-٧٩.
(٨) فتح القدير:٨١/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٣١):ص٣٥١/١٦، وتفسير ابن ابي حاتم(١٢١٣٨):ص٢٢٢٣/٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٣٧):ص٢٢٢٣/٧.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٣٩):ص٢٢٢٣/٧.

الثاني : بالشر قبل الخير، رواه سعيد عن قتادة[1].
الثالث : بالكفر قبل الإجابة . رواه القاسم بن يحيى[2].
والرابع: بالقتال قبل الاسترشاد. أفاده الماوردي[3].
قوله تعالى:{وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} [الرعد : ٦]، أي:" وقد مضت عقوبات المكذبين مِن قبلهم، فكيف لا يعتبرون بهم؟"[4].
قال الفراء:" وهم يرون العقوبات المثلات في غيرهم ممن قد مضى، هي «المثلات» وتميم تقول: «المثلات»"[5].
قال الواحدي:" وقد مضت من قبلهم العقوبات في الأمم المُكذِّبة فلم يعتبروا بها"[6].
قال البغوي:" أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات"[7].
قال الطبري:" وهم يعلمون ما حَلَّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه، فمن بين أمة مسخت قردة وأخرى خنازير، ومن بين أمّة أهلكت بالرَّجْفة، وأخرى بالخسف، وذلك هو «المثلات» التي قال الله جل ثناؤه:{وقد خلت من قبلهم المثلات}، و{المثلات}: العقوبات المنكِّلات، والواحدة منها:«مَثُلة»"[8].
قال ابن كثير:" أي : قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم "[9].
عن أبي مالك قوله: "{خلت}، يعني: مضت"[10].
عن قتادة، قوله: "{وقد خلت من قبلهم المثلات}، وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم"[11].
وفي قوله تعالى:{وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} [الرعد : ٦]، ثلاثة وجوه:
أحدها : الأمثال التي ضربها الله تعالى لهم، قاله مجاهد[12]، وأبو صالح[13].
قال مجاهد:" «المثلات»: الذي مَثَّل الله به الأممَ من العذاب الذي عذَّبهم، تولَّت المثلات من العذاب، قد خلت من قبلهم، وعرفوا ذلك، وانتهى إليهم ما مَثَّلَ الله بهم حين عصَوه وعَصوا رُسُله"[14].
الثاني : أنها العقوبات التي مثل الله تعالى بها الأمم الماضية ، قاله ابن عباس[15].
وقال ابن زيد:" «المثلاث»: التي مثل الله لم من الأمم من العذاب الذي عذبهم نزلت بهم المثلات من العذاب قد خلت من قبلهم وعرفوا ذلك وانتهى ما مثل الله بهم حين عصوه وعصوا رسله"[16].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٣٠):ص٣٥١/١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون:٩٥/٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:٩٥/٣.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٥) معاني القرآن:٥٩/٢.
(٦) الوجيز:٥٦٦.
(٧) تفسير البغوي:٢٩٦/٤.
(٨) تفسير الطبري:٣٥٠/١٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٣٣/٤.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٤٠):ص٢٢٢٣/٧.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠١٣٠):ص٣٥١/١٦.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٤٢):ص٢٢٢٣/٧.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٢٢٣/٧. حكاه دون ذكر الإسناد.
(١٤) أخرجه الطبري(٢٠١٣٥):ص٣٥١/١٦-٣٥٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٤١):ص٢٢٢٣/٧.
(١٦)أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٤٣):ص٢٢٢٣/٧ .

روي عن سليم قال: "سمعت الشعبي يقول في قوله: {وقد خلت من قبلهم المثلاث}، قال: القردة والخنازير هي «المثلات»"[1].

الثالث : أنها العقوبات المستأصلة التي لا تبقى معها باقية كعقوبات عاد وثمود حكاه ابن الأنباري[2].

قال السمعاني:" الأكثرون [على]: أن المثلات العقوبات"[3].

قوله تعالى:{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} [الرعد : ٦]، أي:" وإن ربك -أيها الرسول- لَذو مغفرة لذنوبِ مَن تاب مِن ذنوبه من الناس على ظلمهم، يفتح لهم باب المغفرة، ويدعوهم إليها، وهم يظلمون أنفسهم بعصيانهم ربهم"[4].

قال الواحدي:" بالتَّوبة، يعني: يتجاوز عن المشركين إذا آمنوا"[5].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن ربك يا محمد لذو سترٍ على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس، فتاركٌ فضيحته بها في موقف القيامة، وصافحٌ له عن عقابه عليها عاجلا وآجلا، {على ظلمهم}، يقول: على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله"[6].

عن ابن عباس:"{وإن ربك لذو مغفرة للناس}، يقول: ولكنّ ربَّك"[7].

عن عماد بن زيد عن علي بن زيد قال: "تلا مطرف هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}، ثم قال مطرف: لو يعلم الناس قدر رحمة الله وعفو الله وتجاوز الله ومغفرة الله لقرت أعينهم"[8].

قوله تعالى:{وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد : ٦]، أي:" وإن ربك لشديد العقاب على مَن أصرَّ على الكفر والضلال ومعصية الله"[9].

قال الواحدي:" يعني: لمَنْ أصرَّ على الكفر"[10].

قال الطبري:أي:" لمن هلك مُصِرًّا على معاصيه في القيامة، إن لم يعجِّل له ذلك في الدنيا، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة، وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهرَ خبرٍ، فإنه وعيدٌ من الله وتهديدٌ للمشركين من قوم رسول الله ﷺ، إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم قبل حُلول نقمة الله بهم"[11].

قال سعيد بن المسيب: "لما نزلت هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب}، قال رسول الله ﷺ: لولا عقوبة الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد"[12].

عن علي بن زيد بن جدعان قال: "تلا مطرف هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب}، ولو يعلم الناس قدر عقوبة الله ونقمة الله وبأس الله، ونكال الله ما رقى لهم دمع ولا قرت أعينهم بشيء"[13].

الفوائد:

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠١٣٦):ص٣٥٢/١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون:٩٥/٣.
(٣) تفسير السمعاني:٧٩/٣.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٥) الوجيز:٥٦٦.
(٦) تفسير الطبري:٣٥٢/١٦.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠١٣٧)ص٣٥٢/١٦.
(٨) أخره ابن ابي حاتم(١٢١٤٤):ص٢٢٢٤/٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٠.
(١٠) الوجيز:٥٦٦.
(١١) تفسير الطبري:٣٥٢/١٦.
(١٢) أخره ابن ابي حاتم(١٢١٤٥):ص٢٢٢٤/٧.
(١٣) أخره ابن ابي حاتم(١٢١٤٦):ص٢٢٢٤/٧.

١- دلّ قوله تعالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}، على حصول الغفران قبل التوبة.
٢- عدم تكفير أحد من أهل القبلة بأي ذنب ما لم يستحلّ ذلك الذنب إلى: الكتاب، والسنة، والإجماع.

قال رسول الله-ﷺ-:" يدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النَّار النَّار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودّوا فيُلقون في نهر الحيا أو الحياة - شكّ مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية"(١).

أجمع أهل السنة والجماعة على أن المعاصي صغرت أم كبرت إذا كانت دون الشرك لا تؤدِّي بذاتها إلى الحكم على المسلم بالكفر، إنما يكون الكفر بسبب استحلال المعصية بتحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلّ الله تعالى، وهذه مسألة لا يختلف فيها اثنان من العلماء، فالله تعالى يقول: {إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[النساء:٤٨، ١١٦]، والله المستعان(٢).

٣- مذهب أهل السنة: أن الموحدين لا يكفرون بفعل شيء من المعاصي الصغائر والكبائر، وإذا عملوا الكبائر وتابوا لم تضرهم وإن ماتوا قبل التوبة منها فأمرهم إلى الله إن شاء عذبهم عليها وإن شاء غفرها لهم، وإن عذب العباد على الصغائر لم يكن ظالما لهم بذلك(٣).

وقالت المرجئة: "لا يوصف الله بأنه يعذب عباده على ذنب غير الكفر"(٤).

---

(١)أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، برقم ٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم ١٨٤.

(٢)انظر: الحكم وقضية تكفير المسلم، ص١٨٦.

(٣) انظر: قول أهل السنة في: التوحيد لابن خزيمة ص (٣٥٣ - ٣٥٥) ، الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص (٨٩ - ١) مقالات الإسلاميين ٣٤٧/١ العقيدة الطحاوية مع شرحها ص (٤١٦ - ٤١٧)، وانظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار:٦٦٦/٣.

(٤)المرجئة: يطلق هذا الوصف على كل من أخر العمل عن الإيمان، وهو مشتق من الإرجاء وهو على معنيين:

١- الإرجاء بمعنى التأخير.

٢- الإرجاء بمعنى إعطاء الرجاء.

ويصدق الوصف عليهم بكلا المعنيين، لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان ولأنهم يعطون الرجاء للفاسق، وعلى هذا الأخير يتفقون مع السلف فإن الفاسق تحت المشيئة.

والمرجئة أصناف عدهم أبو الحسن الأشعري على التفصيل اثنتي عشرة فرقة وهم: (١) الجهمية (٢) أبو الحسن الصالحي (٣) أصحاب يونس السمري (٤) قول يونس وأبي شمر (٥) أصحاب أبي ثوبان (٦) النجارية وهم الحسين بن محمد النجار وأصحابه (٧) أصحاب غيلان (٨) أصحاب محمد بن شبيب (٩) أبو حنيفة وأصحابه (١٠) أصحاب أبي معاذ التومني (١١) أصحاب بشر المريسي (١٢) الكرامية أصحاب محمد بن كرام وهذه الإثنا عشر فرقة ترجع إلى ثلاثة أصناف كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهي:

أولا: الذين يقولون الإيمان مجرد ما في القلب، ومنهم من يدخل أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة، حيث هو قول أصحاب أبي شمر ويونس السمري والغيلانية أصحاب غيلان بن مروان الدمشقي، وأصحاب محمد بن شبيب، ومنهم من لا يدخل أعمال القلوب كجهم ومن اتبعه والصالحي وهو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه.

ثانيا: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا قول هو المشهور عن أهل الفقه كأبي حنيفة وأصحابه في هذا النجارية وبشر المريسي.

وقد قسمت المرجئة إلى تقسيم غير المذكور هنا وذلك باعتبار مذاهب الفرق في غير الإيمان، كتقسيم الشهرستاني إياهم إلى مرجئة الخوارج، مرجئة القدرية، مرجئة الجبرية، المرجئة الخالصة، وهي ترجع في الواقع إلى ما تقدم ذكره عن شيخ الإسلام. أما الحكم على الفاسق في الآخرة فأكثرهم على أنه تحت المشيئة إلا قولا ذكره الأشعري ولم يذكر قائليه وهو: إنه ليس في أهل الصلاة وعيد إنما الوعيد في المشركين، ثم قال: وزعم هؤلاء أنه لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع الإيمان عمل ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة،

وقالت الخوارج: "من أذنب متعمدا كفر بالله سواء فعل صغيرة أو كبيرة"[1].

وقالت المعتزلة والقدرية: "لا يجوز أن يعذب الله العباد على الصغائر وإن عذبهم عليها ظلمهم، ومن فعل كبيرة فإنه يخلد في النار، ولا يوصف الله بأنه يغفر الكبائر"[2].

٤- ومن الفوائد أيضا: الجمع بين الخوف والرجاء، فإذا تذكر المؤمن عذاب الله تعالى خاف خوفاً شديداً وأكثر من الأعمال الصالحة، وإذا تذكر سعة رحمة الله تعالى رجاها وعمل الأعمال الصالحة التي تدفعه إلى رضى الله تعالى وتؤهله لأن يكون من أوليائه.

القرآن

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)} [الرعد : ٧]

التفسير:

ويقول كفار «مكة» : هلا جاءته معجزة محسوسة كعصا موسى وناقة صالح، وليس ذلك بيدك -أيها الرسول- فما أنت إلا مبلِّغ لهم، ومخوِّف مِن بأس الله. ولكل أمة رسول يرشدهم إلى الله تعالى.

قوله تعالى:{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الرعد : ٧]، أي:" ويقول المشركون من كفار قريش هلاَّ أُنزل على محمد معجزة تدل على صدقه"[3].

قال قتادة:" قول مشركي العرب"[4].

قال الطبري:" يعنون علامةً وحجةً له على نبوّته وذلك قولهم: {لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ كَنز أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [سورة هود: ١٢] "[5].

ونسب هذا القول الشهرستاني لأصحاب يونس السمري، حيث زعموا أن سوى المعرفة من الطاعة فليس من الإيمان، ولا يضر تركها حقيقة الإيمان ولا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصا واليقين صادقا ونحوه حكى ذلك أيضا عن العبيدية أصحاب عبيد المكبت أنهم قالوا: ما دون الشرك مغفور لا محالة وأن العبد إذا مات على توحيده لم يضره ما افترق من الآثام واجترح من السيئات، ولعل هؤلاء الذين عناهم المصنف بقوله هنا: "لا يوصف الله بأنه يعذب عباده على ذنب غير الكفر" والله أعلم انظر: مقالات الإسلاميين ٢١٣/١ - ٢٢٣ - ٢٢٧ الملل والنحل بهامش الفصل ١٨٦/١ - ١٩٥ الفرق بين الفرق ص (٢٠٢ - ٢٠٧) الفتاوى ١٩٥/٧.

(١)والناظر فيم ذكر عنهم من أقوال في مرتكب الكبيرة يجدهم على عدة أقوال:

أولا: التكفير على الصغيرة في حالة الإصرار، وبه قال طائفة من الإباضية، وبه قال النجدات وقالوا: إذا لم يصر على الكبيرة فهو مسلم.

ثانيا: التكفير على كل ذنب صغير أو كبير، وهذا يحكى عن اليزيدية منهم، ولعل هؤلاء الذين عناهم المصنف بقوله هنا.

ثالثا: التكفير على ارتكاب الكبيرة، وبه قال الأزارقة والمكرميه من الثعالبة والصفرية والبهيسية وأكثر الخوارج.

رابعا: أن ارتكاب الكبائر كفر نعمة لا كفر شرك وبه قال الإباضية.

خامسا: طائفة من الصفرية قالوا: ما كان من الذنوب عليه حد فيسمى به كالزنا والقذف فيقال زان قاذف، وما كان من الكبائر ليس فيه حد كترك الصلاة فيقال كفر، وفي الحالتين لا يسمى مؤمنا.

سادسا: من واقع ذنبا لا يكفر حتى يرفع إلى الوالي ويحد في ذنبه وقبل ذلك لا يسمى مؤمنا ولا كافرا وبه قال بعض البهيسية وفرقة من الصفرية، والله أعلم.

انظر: مقالات الإسلاميين ١٧٤/١ - ١٩٨، الفرق بين الفرق ص (٨٢ - ١٠٩) ، الملل والنحل بهامش الفصل ١٦٤/١ - ١٨١، الفصل لابن حزم ٢٢٩/٣ - ١٩٠/٤.

(٢)المعتزلة والزيدية على أن الذنوب منها صغائر وكبائر. أما الصغائر فإن صاحبها مستحق أن تكفر عنه في مقابل ماله من ثواب. وأما الكبائر فإنها لا تكفر عن صاحبها بل يجب أن يعاقب عليها. انظر: شرح الأصول الخمسة ص (٦٦ - ٦٣٢) ، مصباح العلوم بعرفة الحي القيوم ص (١٩ - ٢٠) ،تاريخ الفرقة الزيدية ص (٣٢٨ - ٣٢٩) ، الملل بهامش الفصل ٥٦/١.

(٣) صفوة التفاسير:٧٠/٢.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٤٧):ص٢٢٢٤/٧.

(٥) تفسير الطبري:٣٥٣/١٧.

قوله تعالى:{إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ} [الرعد : ٧]، أي:" وليس ذلك بيدك -أيها الرسول- فما أنت إلا مبلِّغ لهم، ومخوِّف مِن بأس الله"[١].

قال الطبري:" يقول الله له: يا محمد {إنما أنت منذر} لهم، تنذرهم بأسَ الله أن يحلّ بهم على شركهم"[٢].

قال ابن عباس:" هو المنذر وهو الهاد، يعني: النبي ﷺ"[٣].

قوله تعالى:{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد : ٧]، أي:" ولكل أمة رسول يرشدهم إلى الله تعالى"[٤].

قال مقاتل:" يعني: لكل قوم فيما خلا داع مثلك يدعو إلى دين الله، يعني: الأنبياء"[٥].

قال الطبري:" يقول ولكل قوم إمام يأتمُّون به وهادٍ يتقدمهم، فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ، وأصله من«هادي الفرس»، وهو عنقه الذي يهدي سائر جسده"[٦].

قال قتادة:" لكل قوم داع يدعوهم إلى الله"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد : ٧]، ثمانية أقوال:

أحدها : أنه الله تعالى، فهو هادي كل قوم، قاله ابن عباس[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، ومجاهد[١٠]، والضحاك[١١].

الثاني : ولكل قومٍ هادٍ، أي: نبي يهديهم إلى الله، قاله مجاهد[١٢]، وقتادة[١٣]، وابن زيد[١٤]، وبه قال ابن قتيبة[١٥].

الثالث : ولكل قوم هاد، معناه: ولكل قوم قادة وهداة ، قاله أبو صالح[١٦]، ويحيى بن رافع[١٧].

الرابع : ولكل قوم هاد ، أي: داع. قاله ابن عباس[١٨]، والحسن[١٩].

الخامس : أي: نبي وداع إلى الله يدعوهم بما يعطى من الآيات لا بما يريدون ويتحكمون فيه . قاله الزجاج[٢٠].

السادس: أن «الهادي»: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل، قاله أبو العالية[٢١].

السابع : أنه عليّ بن ابي طالب. وهذا القول مروي عن ابن عباس ايضا[٢٢].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٢) تفسير الطبري:٣٥٣/١٧.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٤٨):ص٢٢٢٤/٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٨/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣٥٣/١٧.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠١٣٨):ص٣٥٣/١٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٦):ص٣٥٥/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٢)-(٢٠١٤٤):ص٣٥٤/١٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٥):ص٣٥٤/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٧):ص٣٥٥/١٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٨)-(٢٠١٥٤):ص٣٥٥/١٦-٣٥٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٤٧):ص٣٥٥/١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٥٦):ص٣٥٦/١٦.
(١٥) انظر: تأويل مشكل القرآن:٢٤٨.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٥٧)، و(٢٠١٥٨):ص٣٥٦/١٦.
(١٧)انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦٠):ص٣٥٦/١٦-٣٥٧ .
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦٢):ص٣٥٧/١٦.
(١٩) انظر: النكت والعيون:٩٦/٣.
(٢٠) انظر: معاني القرآن:١٤٠/٣.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٥٦):ص٣٥٦/١٦.
(٢٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦١):ص٣٥٧/١٦.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "لما نزلت {إنما أنت منذر ولكل قوم هاد}، وضع ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر{ولكل قوم هاد}، وأومأ بيده إلى منكب عليّ، فقال: أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون بَعْدي"(١).

الثامن: معناه: ولكل قوم سابق بعلم يسبقهم إلى الهدى ، حكاه ابن عيسى(٢).

قال الطبري:" جائز أن يكون ذلك هو الله الذي يهدي خلَقه ويتَّبع خلقُه هداه ويأتمون بأمره ونهيه، وجائز أن يكون نَبِيَّ الله الذي تأتمُّ به أمته، وجائز أن يكون إمامًا من الأئمة يُؤْتَمْ به، ويتّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه، وجائزٌ أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خيرٍ أو شرّ، وإذ كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: إن محمدًا هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وإن لكل قوم هاديًا يهديهم فيتّبعونه ويأتمُّون به"(٣).

الفوائد:

١- إثبات نبوة سيدنا محمد -ﷺ-.
٢- أن القرآن الكريم لم يعتبر ما طلبه المشركون من الآيات هو الأصل في برهان النبوة، بل لفت عقول الناس ليستدلوا على صدق النبي ﷺ من خلال ما آتاهم به من معجزة بيانه، مع أنه رجل أمي لم يقرأ، ولم يكتب.
٣- نظراً لأنّ المشركين لم يقتنعوا بما جاءهم من الحق، وأخذوا يلحون على الرسول صلى الله عليه وسلم بطلب نزول الآيات الحسية، فإنّ القرآن الكريم يرجع ذلك أولاً إلى تقرير مشيئة الله تعالى وقدرته العظيمة، بعدم استجابة التحدي، كما بينته الآية الكريمة.
٤- أنّ الهادي هو الله تعالى.

القرآن

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)} [الرعد : ٨]

التفسير:

الله تعالى يعلم ما تحمل كلُّ أنثى في بطنها، أذكر هو أم أنثى؟ وشقي هو أم سعيد؟ ويعلم ما تنقصه الأرحام، فيسقط أو يولد قبل تسعة أشهر، وما يزيد حمله عليها. وكل شيء مقدَّر عند الله بمقدار من النقصان أو الزيادة لا يتجاوزه.

قوله تعالى:{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد : ٨]، أي:" الله تعالى يعلم ما تحمل كلُّ أنثى في بطنها، أذكر هو أم أنثى؟ وشقي هو أم سعيد؟"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وإن تعجب فعجبٌ قولهم أئذا كنا ترابًا أئنا لفي خلق جديد} منكرين قدرة الله على إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالا بعد حال"(٥).

عن عكرمة ومجاهد :"{يعلم ما تحمل كل أنثى}، قال: حملها تسعة أشهر"(٦).

وفي قوله تعالى:{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد : ٨]، وجهان:

أحدهما: يعلم أذكر هو أم أنثى. قاله سعيد(٧)، وابن ابي نجيح(٨)، ومقاتل(٩).

ومنه قوله تعالى: { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } [لقمان : ٣٤].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠١٦١):ص٣٥٧/١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون:٩٦/٣.
(٣) تفسير الطبري:٣٥٨/١٦.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٥) تفسير الطبري:٣٥٨/١٦.
(٦)أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٦٠):ص٢٢٢٦/٧ .
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٥٨):ص٢٢٢٦/٧.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٥٩):ص٢٢٢٦/٧.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٨/٢.

الثاني: يعلم أصالح هو أَم طالح. أفاده الماوردي[1].

قوله تعالى:{وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد : ٨]، أي:" وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه، وما تزداد على الأشهر التسعة"[2].

قال الطبري:" يقول: وما تنقص الأرحام من حملها في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض، {وما تزداد} في حملها على الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض"[3].

وفي قوله تعالى:{وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد : ٨]، خمسة وجوه من التفسير:

أحدها : {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بالسقط الناقص، {وَمَا تَزْدَادُ} بالولد التام ، قاله ابن عباس[4].

وقال الحسن: "غيضوضتها: السقط"[5]. وفي رواية:" «الغيض»: ما دون التسعة الأشهر"[6].

وقال قتادة:" :"«الغيض»، السَّقْط، {وما تزداد}، فوق التسعة الأشهر"[7].

عن ابن عباس قوله: "{الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام} ، يعني السِّقْط، {وما تزداد} ، يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص. فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك بعلمه"[8].

الثاني : {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بالوضع لأقل من تسعة أشهر ، {وَمَا تَزْدَادُ} بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، قاله ابن عباس[9]، وسعيد بن جبير[10]، والضحاك[11]، وعطية العوفي[12].

عن الضحاك، قال ابن عباس: "ما تزداد على تسعة وما نقص عن التسعة. وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين وولدتني وقد خرجت ثنيتي"[13].

وفي رواية عن الضحاك : " ولدت لسنتين، وقد نبتت ثناياي"[14].

قال الضحاك:" ما دون التسعة أشهر فهو غيض"[15]، "ما فوق التسعة فهو زيادة"[16].

الثالث : {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بانقطاع الحيض في الحمل، {وَمَا تَزْدَادُ} بدم النفاس بعد الوضع[17].

قال مكحول:"الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكارا لمكانه فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثدي أمه، فيأكله فإذا هو بلغ قال هو الموت

---

(١) انظر: النكت والعيون:٩٦/٣.
(٢) صفوة التفاسير:٧٠/٢.
(٣) تفسير الطبري:٣٥٨/١٦-٣٥٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦٣)، و(٢٠١٦٤):ص٣٥٩/١٦.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٦٥):ص٢٢٢٧/٧.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠١٩٠):ص٣٦٣/١٦.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٢٠١٩٤):ص٣٦٤/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠١٦٤):ص٣٥٩/١٦.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٦٢):ص٢٢٢٦/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦٥):ص٣٥٩/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٨٤):ص٣٦٢/١٦-٣٦٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٩٢):ص٣٦٤/١٦.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢١٦٢):ص٢٢٢٦/٧.
(١٤) اخرجه الطبري(٢٠١٩٩):ص٣٦٥/١٦.
(١٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٦٤):ص٢٢٢٧/٧.
(١٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٦٧):ص٢٢٢٧/٧.
(١٧) انظر: النكت والعيون:٩٧/٣.

أو القتل، قال: أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتددت وعقلت. قلت: هو الموت أو القتل أين لي بالرزق. ثم قرأ مكحول: {يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار}"(١).

الرابع : {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بظهور الحيض من أيام على الحمل ، وفي ذلك نقص في الولد، {وَمَا تَزْدَادُ} في مقابلة أيام الحيض من أيام الحمل. قاله ابن عباس(٢)، وسعيد بن جبير(٣)، ومجاهد(٤)، وعكرمة(٥).

عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: "{وما تغيض الأرحام}، قال: «تغيض الأرحام»: أن ترى المرأة الدم في حملها فذلك تزداد في التسعة أشهر"(٦).

قال سعيد بن جبير:" إذا رأت المرأة الدمَ على الحمل، فهو«الغيض» للولد. يقول: نقصانٌ في غذاء الولد، وهو زيادة في الحمل"(٧).

قال عكرمة:" كلما غاضت بالدم، زاد ذلك في الحمل"(٨).

وقال عكرمة:" غيض الرحم: الدم على الحمل كلما غاض الرحم من الدم يومًا زاد في الحمل يومًا حتى تستكمل وهي طاهرةٌ"(٩).

الخامس : {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} من ولدته قبل، {وَمَا تَزْدَادُ} من تلده من بعد، حكاه السدي(١٠)، وقتادة(١١).

قوله تعالى:{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد : ٨]، أي:" وكل شيء مقدَّر عند الله بمقدار من النقصان أو الزيادة لا يتجاوزه"(١٢).

قال ابن أبي زمنين:" أي: بقدر"(١٣).

قال البغوي:" أي: بتقدير وحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه"(١٤).

قال الطبري:" لا يجاوز شيء من قَدَره عن تقديره، ولا يقصر أمر أراده فَدَبَره عن تدبيره، كما لا يزداد حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحمل، ولا يُقصِّر عما حُدّ له من القدر"(١٥).

وفي قوله تعالى:{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد : ٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها : في الرزق والأجل، قاله قتادة(١٦).

قال قتادة:" إي والله، لقد حفظ عليهم رزقهم وآجالهم، وجعل لهم أجلا معلومًا"(١٧).

الثاني : فيما تغيض الأرحام وما تزداد. حكاه الماوردي عن الضحاك(١٨).

وعن ابن عباس:" يعني قوله: {وكل شيء عنده بمقدار}، يعني: ذلك يعلمه"(١٩).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٠):ص٢٢٢٧/٧.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٦١):ص٢٢٢٦/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٩٥):ص٣٦٤/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٦٦)-(٢٠١٧٣)، و(٢٠١٧٦)-(٢٠١٧٧):ص٣٦٠/١٦-٣٦٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠١٧٨)-(٢٠١٨٠)، و(٢٠١٨٢)، و(٢٠١٨٣):ص٣٦٢/١٦.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٦١):ص٢٢٢٦/٧.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠١٩٥):ص٣٦٤/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠١٧٨):ص٣٦٢/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠١٨٠):ص٣٦٢/١٦.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٣٦٥/١٦.
(١١)انظر: تفسير الطبري(٢٠١٩٦):ص٣٦٤/١٦ .
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٠.
(١٣) تفسير ابن ابي زمنين:٣٤٧/٢.
(١٤) تفسير البغوي:٢٩٨/٤.
(١٥) تفسير الطبري:٣٥٩/١٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٠١):ص٣٦٥/١٦.
(١٧) أخرجه الطبري(٢٠٢٠١):ص٣٦٥/١٦.
(١٨) انظر: النكت والعيون:٩٧/٣.
(١٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧١):ص٢٢٢٨/٧.

والثالث: أن كل شيء عنده من ثواب وعقاب بمقدار الطاعة والمعصية. أفاده الماوردي(١).

القرآن

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)} [الرعد : ٩]

التفسير:

الله عالم بما خفي عن الأبصار، وبما هو مشاهَد، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، المتعالي على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

قوله تعالى:{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الرعد : ٩]، أي:" الله عالم بما خفي عن الأبصار، وبما هو مشاهَد"(٢).

قال ابن عباس:" السر والعلانية"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه، وما شاهدتموه، فعاينتم بأبصاركم، لا يخفى عليه شيء، لأنهم خلقه وتدبيره"(٤).

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. ويقال: عالم بما كان، وبما لم يكن. ويقال: عالم السر والعلانية(٥).

قال الواحدي:" {عالم الغيب} ما غاب عن جميع خلقه {والشهادة} وما شهده الخلق(٦).

قوله تعالى:{الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد : ٩]، أي:" العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المستعلي على كل شيء بقدرته المنزَّه عن المشابهة والمماثلة"(٧).

قال الطبري:" {الكبير} الذي كل شيء دونه، {المتعال} المستعلي على كل شيء بقدرته"(٨).

قال ابن أبي زمنين: " {الكبير} يعني: العظيم، {المتعال} عما قال المشركون"(٩).

قال الواحدي:" {الكبير} العظيم القدر، {المتعال} عمّا يقوله المشركون" (١٠).

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد"(١١).

القرآن

{سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)} [الرعد : ١٠]

التفسير:

يستوي في علمه تعالى مَن أخفى القول منكم ومَن جهر به، ويستوي عنده مَن استتر بأعماله في ظلمة الليل، ومن جهر بها في وضح النهار.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: أنزل الله تبارك وتعالى في عامر وأربد وما كانا هما به من النبي ﷺ: { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ}الآية"(١٢).

قوله تعالى:{سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ} [الرعد : ١٠]، أي:" يستوي في علمه تعالى مَن أخفى القول منكم ومَن جهر به"(١).

---

(١) انظر: النكت والعيون:٩٧/٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٣):ص٢٢٢٨/٧.
(٤) تفسير الطبري:٣٦٦/١٦.
(٥) بحر العلوم:٢١٩/٢.
(٦) الوجيز:٥٦٦.
(٧) صفوة التفاسير:٧٠/٢.
(٨) تفسير الطبري:٣٦٦/١٦.
(٩) تفسير ابن ابي زمنين:٣٤٧/٢.
(١٠) الوجيز:٥٦٦.
(١١) بحر العلوم:٢١٩/٢.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٤):ص٢٢٢٨/٧.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: معتدلٌ عند الله منكم، أيها الناس، الذي أسر القول، والذي جهر به"(٢).
قال الواحدي:" الجاهر بنطقه والمُضمر في نفسه"(٣).
قال السمعاني والبغوي:" معناه: يستوي في علم الله المسر بالقول والجاهر به"(٤).
قال الحسن:" يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر"(٥).
قال قتادة:" كل ذلك سواء عنده السر عنده علانية والظلمة عنده ضوء"(٦).
قوله تعالى:{وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد : ١٠]، أي:" ويستوي عنده مَن استتر بأعماله في ظلمة الليل، ومن جهر بها في وضح النهار"(٧).
عن قتادة :"{ومن هو مستخف بالليل}، أي: في ظلمة الليل"(٨).
قال الفراء:{َسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، " أي: ظاهر بالنهار. يقول: هو يعلم الظاهر والسر وكل عنده سواء"(٩).
قال أبو عبيدة:" سالك فى سربه، أي: مذاهبه ووجوهه، ومنه قولهم: أصبح فلان آمنا فى سربه، أي فى مذاهبه وأينما توجه، ومنه: انسرب فلان"(١٠).
قال ابن قتيبة:" أي: متصرف في حوائجه. يقال: سرب يسرب. وقال الشاعر(١١):
أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم ... ونحن خلعنا قيده فهو سارب
أي: ذاهب"(١٢).
قال الزجاج:" أي: من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار، ومن هو {سارب بالنهار}، أي: من هو ظاهر بالنهار في سربه، يقال: خل له سربه أي طريقه، فالمعنى الظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات، والجاهر بنطقه، والمضمر في نفسه علم الله فيهم جميعا سواء، وذكر قطرب وجها آخر، ذكر أنه يجوز أن يكون {مستخف بالليل} ظاهرا بالليل، وهذا في اللغة جائز، ويكون مع هذا {وسارب بالنهار}، أي: مستتر، يقال: انسرب الوحشي إذا دخل في كناسه.
-قال الزجاج-: والأول بين، وهو أبلغ في وصف علم الغيب"(١٣).
قال الطبري:" والذي هو مستخفٍ بالليل في ظلمته بمعصية الله، {وسارب بالنهار}، يقول: وظاهر بالنهار في ضوئه، لا يخفى عليه شيء من ذلك. سواء عنده سِرُّ خلقه وعلانيتهم، لأنه لا يستسرّ عنده شيء ولا يخفى، يقال منه:"سَرَبَ يَسْرَبُ سُرُوبًا" إذا ظهر، كما قال قيس بن الخطيم(١٤):

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٢) تفسير الطبري:ذ٣٦٦/٦.
(٣) الوجيز:٥٦٧.
(٤) تفسير السمعاني:٨٠/٣، وتفسير البغوي:٢٩٩/٤.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٥):ص٢٢٢٨/٧.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٦):ص٢٢٢٨/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٩):ص٢٢٢٩/٧.
(٩) معاني القرآن:٦٠/٢.
(١٠) مجاز القرآن:٣٢٣/١.
(١١)البيت للأخنس بن شهاب التغلبي، كما في اللسان ٤٤٥/١ وروايته "وكل أناس قاربوا" وبعده: "قال ابن بري: قال الأصمعي: هذا مثل، يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النقلة إلى غيره، وقاربوا قيد فحلهم، أي حبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها. ونحن أعزاء نقتري الأرض نذهب فيها حيث شئنا، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه".
(١٢) غريب القرآن:٢٢٥.
(١٣) معاني القرآن:١٤١/٣-١٤٢.
(١٤)ديوانه: ٥، واللسان (سرب) وغيرها كثير. ويروى" سربت" بالباء الموحدة أيضًا وقوله:" غير سروب"، أي: غير مبعدة في مذهبك، أو كما قال أبو جعفر في تفسيره بعد.

أَنَّى سَرَيْتِ وَكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ وَتُقَرِّبُ الأَحْلامُ غَيْرَ قَرِيب

يقول: كيف سريت بالليل [على] بُعْد هذا الطريق، ولم تكوني تبرُزين وتظهرين؟ وكان بعضهم يقول: هو السَّالك في سَرْبه: أي في مذهبه ومكانه"(١).

قال الواحدي:"والظَّاهر في الطُّرقات والمستخفي في الظُّلمات، علمُ الله سبحانه فيهم جميعاً سواءٌ، والمستخفي معناه: المختفي والسَّارب: الظَّاهر المارُّ على وجهه"(٢).

قال السمعاني:" قوله: {ومن هو مستخف بالليل}، أي: مستتر بظلمة الليل وقوله: {وسارب بالنهار}، أي: ظاهر ذاهب بالنهار، و«السرب»: الطريق"(٣).

قال القتيبي: "«سارب بالنهار»، أي: متصرف في حوائجه"(٤).

وفي قوله تعالى:{وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد : ١٠]، وجهان:

أحدهما : يعلم من استخفى بعمله في ظلمة الليل، ومن أظهره في ضوء النهار.

قال الحسن:" «السارب»: النادي بالنهار"(٥).

وقال الحسن:" يعلم من الليل ما يعلم من النهار، ويعلم من النهار ما يعلم من الليل"(٦).

عن مجاهد: قوله: "{ومن هو مستخف بالليل}، قال: راكب رأسه بالمعاصي"(٧)، "{وسارب بالنهار}، قال: ظاهر بالنهار بالمعاصي"(٨).

عن ابن عباس قوله: "{وسارب بالنهار}، قال إذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بري من الإثم"(٩).

وقال مقاتل:" يقول: من هو مستخف بالمعصية في ظلمه الليل، ومنتشر بتلك المعصية بالنهار معلن بها، فعلم ذلك كله عند الله- تعالى- سواء"(١٠).

الثاني : يرى ما أخفته ظلمة الليل كما يرى ما أظهره ضوء النهار ، بخلاف المخلوقين الذين يخفي عليهم الليل أحوال أهلهم . قال الشاعر (١١):

وَلَيْلٍ يَقُولُ المَرْءُ مِنْ ظُلُمَاتِه سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ العُيُونِ وَعُورُهَا

و«السارب»: هو المنصرف الذاهب ، مأخوذ من :السُّروب في المرعى ، وهو بالعشي، والسروج بالغداة(١٢).

فوائد الآيات:[٨-١٠]

١- سعة علم الله تعالى.
٢- لقد استوى في علم الله السرّ والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة.
٣- بإرادته سبحانه وتعالى تتعلق مصائر الأمور.
٤- أن القدر يدل بمنطوقه ومفهومه على قدرة الرب سبحانه وعلى تقديره للأشياء بنظام وإتقان وإحكام، وكل من تتبع نصوص القرآن يجدها تدور على هذا البيان، فالقضاء في سائر استعمالاته هو بمعنى الفراغ من الشيء، فالقضاء والقدر معناهما أن الله سبحانه قد أوجد هذا العالم مقدرا بمقادير متقنة مضبوطة محكومة بسنن لا تقبل التغيير ولا

---

(١) تفسير الطبري:ذ٣٦٦/٦-٣٦٧.
(٢) الوجيز:٥٦٧.
(٣) تفسير السمعاني:٨٠/٣.
(٤) تفسير البغوي:٢٩٩/٤.
(٥) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٨٠):ص٢٢٢٩/٧.
(٦) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٧):ص٢٢٢٨/٧.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٧٨):ص٢٢٢٩/٧.
(٨) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٨٢):ص٢٢٢٩/٧.
(٩) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٨١):ص٢٢٢٩/٧.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٦/٢.
(١١) انظر: حماسة ابن الشجري: ٢٠٤، والبيت غير منسوب في تفسير الطبري:٢٥٦/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٣٦٦/١٦-٣٥٧، والنكت والعيون:٩٧/٣-٩٨.

التبديل وأنه قد فرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تعديل ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل : ٨٨] .

٥- أن الله تعالى جعل للمخلوقات أقداراً، لا تُحَصِّل المخلوقات ما هي عليه بلا ترتيبٍ سابق، بلا تقدير سابق، وتقدير الأقدار لهم يشمل الأمور الآتية:

- الأول: تقدير ما به تمام خلقهم، فإنَّ الله - عز وجل - قَدَّرَ لكل مخلوق خِلقَةْ يكون عليها، ووصوله إلى غاية هذه الخِلْقَة أيضا يحتاج إلى تقدير، فالجنين لا يخرج من بطن أمه إلا وقد سبقه تقدير تفصيلي لكل المراحل التي سيمر بها وما يَعرِضُ له من كمال أو نقص، كما قال - عز وجل - {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد:٨] .
- الثاني: أنَّ مقادير المخلوقات مُقَدَّرَة في الصفات التي تكون عليها المخلوقات من الغرائز والأحوال التي يسميها الآخرون الأعراض، فكل الأعراض التي تَعرِضُ على الذوات الله - عز وجل - قَدَّرَهَا، فَقَدَّرَ الألوان بتفصيلاتها، وقَدَّرَ الصفات من الحرارة واليبوسة، وقَدَّرَ الذكاء، وقَدَّرَ تفصيلات الحياة التي في المخلوق بجميع أحواله، سواء في ذلك المخلوقات التي حياتها بالروح، أو المخلوقات التي حياتها بالنماء، أو المخلوقات الجامدة عن الحركة الظاهرة.
- الثالث: قَدَّرَ الله - عز وجل - على المكلَّفين من مخلوقاته ما هم عليه من الشقاوة ومن السّعادة ومن الهدى ومن الضلال، ولهذا قال {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى:٢-٣] ، فَرَتَّبَ الهداية بعد التقدير لأنه عنى بالتقدير هنا المرتبتين الأُوليين؛ لأنه جعلها بعد قوله {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} يعني جعل الخلق على نهايته يعني سَوَّاه، يعني جعله على نهايته المقدرة له، ثم قال {وَالَّذِي قَدَّرَ} يعني لِمَا خلق من الأشياء الغريزية والخلقية فهدى للطريقين.

إذا تبين لك ذلك فالله سبحانه وتعالى قَدَّرَ للأشياء المقادير.

٦- ومن أسمائه تعالى«الكبير»«المتعالي»:

- «الكبير»: "هو الموصوف بالجلال، وكبر الشأن، فصغر دون جلاله كل كبير. ويقال: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين"(١).
- «المتعالي»: "هو المتنزه عن صفات المخلوقين، تعالى أن يوصف بها، وارتفع عن مساواتهم في شيء منها، وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه"(٢).

القرآن

{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)} [الرعد : ١١]

التفسير:

لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون ما يصدر عنه من خير أو شر. إن الله سبحانه وتعالى لا يغيِّر نعمة أنعمها على قوم إلا إذا غيَّروا ما أمرهم به فعصوه. وإذا أراد الله بجماعةٍ بلاءً فلا مفرَّ منه، وليس لهم مِن دون الله مِن والٍ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه.

سبب النزول:

قال عطاء بن يسار: "أنزل الله في عامر وأربد ما كانا هما به من النبي صلى الله عليه وسلم قوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}"(١).

---

(١) شأن الدعاء:٦٦.
(٢) شأن الدعاء:٨٩.

قوله تعالى:{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد : ١١]، أي:" لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون ما يصدر عنه من خير أو شر"(٢).

قال التستري:" يعني: ملائكة الليل والنهار يعقب بعضهم بعضا يحفظونه من أمر الله مقاديره على عبده من خير وشر، ويشهدون له بالوفاء، وعليه بالجفاء يوم القيامة"(٣).

قال الثعلبي:" «التعقيب»: العود بعد المبدأ، قال الله: { وَلَمْ يُعَقِّبْ} [النمل : ١٠- القصص: ٣١] "(٤).

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى:{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} [الرعد : ١١]، على أربعة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، وهذا القول منسوب إلى ابن عباس(٥)، وبه قال أبي الجوزاء(٦)، وابن زيد(٧).

حكي الثعلبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: "{له معقبات}، يعني: محمد -عليه السلام- من الرحمن حراس من بين يديه ومن خلفه، {يحفظونه من أمر الله}، يعني: من شر الجن والإنس ومن شر طارق الليل والنهار"(٨).

قال ابن زيد:" أتى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ. فقال له عامر: ما تجعل لي إن أنا تبعتك. قال: أنت [فارس؟](٩) أعطيك [أعنة](١٠) الخيل قال: قط، قال: فما تبتغي؟ قال: لي الشرق ولك الغرب. قال: لا.. قال: فلي الوبر ولك المدر قال: لا. قال: لأملأنها عليك خيلا ورجالا. قال: يمنعك الله ذلك ابنا قيلة- يريد الأوس والخزرج- قال: مخرجا. فقال عامر لأربد إن كان الرجل لنا يمكنا لو قتلناه ما انتطحت فيه عنزان ولرضوا بأن يعقله لهم وأحبوا السلم وكرهوا الحرب إذا رأوا أمرا قد وقع. فقال له الآخر: إن شئت فتشاورا. وقال: ارجع فإنما أشغله عليك بالمجادلة، وكن أنت وراءه واضربه بالسيف ضربة واحدة فكانا كذلك، وأخذ وراء النبي ﷺ والآخر يجادله. فقال: اقصص علينا قصصك. قال: ما تقول. قال: قرآنك. قال: فجعل يجادله ويستبطيه حتى قال له: مالك خمشت قال: وضعت يدي على قائم السيف فيبست فما قدرت أن أخلي ولا أمري ولا أحركها، قال: فخرجنا فلما كانا بالحرة سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فخرجا إليه على كل واحد منهما لامته ورمحه بيده وهو متقلد سيفه فقالا لعامر بن الطفيل: يا أعور الخبيث أنت الذي يشترط على رسول الله ﷺ...... قال: فلولا أنك في إمارة رسول الله فما رمت المنزل حتى يضرب عينيك، ولكن لا تسعلوها وكان أشد الرجلين عليه أسيد بن حضير فقال: من هذا؟. قالوا: هذا أسيد بن حضير. فقال له: لو كان أبوه حيا لم يفعل بي هذا. ثم قال عامر لأربد: اخرج أنت يا أربد إلى ناحية عدية وأخرج أنا إلى نجد فنجمع الرجال فنلتقي عليه. فخرج أربد حتى إذا كان بالرقم بعث الله عليه سحابة من الصيف فيها صاعقة فأحرقته. فخرج عامر حتى إذا كان بوادي يقال له: الجريد(١١) أرسل الله عليه الطاعون فجعل يصيح يا عامر أغدة كغدة البكر تقتلك. يا عامر غدة كغدة البكر تقتلك ومرت أيضا في بيت سلولية وهي امرأة من قيس. قال: فذلك قول الله: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩٤):ص٢٢٣٢/٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٣) تفسير التستري:٨٤.
(٤) الكشف والبيان:٢٧٤/٥.
(٥) انظر: الكشف والبيان:٢٧٦/٥، وزاد المسير: ٤٨٦/٢ .
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٨٥):ص٢٢٢٩/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٥٠):ص٣٧٩/١٦-٣٨١.
(٨) الكشف والبيان:٢٧٦/٥.
(٩)طمس بالأصل انظر الدر ٤/ ٦١٦.
(١٠)اضافه عن الدر: ٤/ ٦١٦.
(١١)في الطبري (الجرير): (٢٠٢٥٠):ص٣٨٠/١٦.

جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}(١)، لرسول الله ﷺ { يَحْفَظُونَهُ} تلك المعقبات { مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} هذا مقدم ومؤخر لرسول الله معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه قال: تلك المعقبات من أمر الله"(٢).

وزاد في رواية الطبري:" وقال لهذين: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} فقرأ حتى بلغ: {يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء} الآية، فقرأ حتى بلغ: {وما دُعاء الكافرين إلا في ضلال} . قال وقال لبيد في أخيه أربد، وهو يبكيه(٣):

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَد

فَجّعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِال ... فَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ"(٤).

قال الطبري:" وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قولٌ بعيد من تأويل الآية، مع خلافِه أقوالَ من ذكرنا قوله من أهل التأويل، وذلك أنه جعل«الهاء» في قوله: {له معقبات} من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يجر له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذكرٌ، إلا أن يكون أراد أن يردّها على قوله: {إنما أنت منذر ولكل قوم هاد له معقبات} فإن كان ذلك، فذلك بعيدٌ، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ"(٥).

والثاني: إلى الملك من ملوك الدنيا، رواه الضحاك عن ابن عباس(٦).

والثالث: إلى الإنسان، قاله الزجاج(٧).

والرابع: إلى الله تعالى، ذكره ابن جرير الطبري(٨)، وأبو سليمان الدمشقي(٩)، وبه قال الثعلبي(١٠).

قال الطبري:" فكونها عائدة على«مَنْ» التي في قوله: {ومَنْ هو مستخف بالليل} أقربُ، لأنه قبلها والخبر بعدها عنه، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم، أيها الناس من أسرّ القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخف بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وساربٌ يذهب ويجيء في ضوء النهار ممتنعًا بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: (يحفظونه من أمر الله}"(١١).

وفي «المعقبات»، قولان:

---

(١)[الرعد : ١٠ - ١١].

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩٣):ص٢٢٢٩/٧-٢٢٣٠.

(٣)ديوانه قصيدة رقم: ٥، البيت: ٢، ٣ / وسيأتيان في ص: ٣٩٤، وقبل البيتين، وهو أولها: ما إنْ تُعرِّي المَنُونُ مِنْ أَحَدٍ ... لا وَالِدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلدِ

و" الحتوف"، هي الآجال. وقوله:" نوء السماك والأسد"، فإنه يعني السماك الأعزل، ونوؤة أربع ليال في تشرين الأول (شهر أكتوبر) . وهو نوء غزير. وأما" الأسد"، فإنه يعني" زبرة الأسد" ونوؤها أربع ليال في أواخر آب (شهر أغسطس) . ويكون في نوء الزبرة مطر شديد (انظر كتاب الأنواء لابن قتيبة ص: ٥٨، ٥٩ / ٦٤، ٦٥) . وذلك كله في زمن الصيف.

يقول لبيد: كنت أخشى عليه كل حتف أعرفه، إلا هذا الحتف المفاجئ من صواعق الصيف.

وقوله:" فجعني الدهر"، أي أنزل بي الفجيعة الموجعة، والرزية المؤلمة. و" يوم الكريهة"، يوم الشدة في الحرب، حيث تكره النفوس الموت. و" النجد" (بفتح فضم) ، هو الشجاع الشديد البأس، السريع الإجابة إلى ما دعي إليه من خير أو شر، مع مضاء فيما يعجز عنه غيره.

(٤) تفسير الطبري(٢٠٢٥٠):ص٣٧٩/١٦-٣٨١.

(٥) تفسير الطبري:٣٨٢/١٦.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢١٨٦):ص٢٢٢٩/٧-٢٢٣٠.

(٧) انظر: معاني القرآن:١٤٢/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٣٦٩/١٦.

(٩) انظر: زاد المسير:٤٨٦/٢.

(١٠) انظر: الكشف والبيان:٢٧٥٤/٥

(١١) تفسير الطبري:٣٨٢/١٦.

أحدهما: أنها الملائكة، تعقب بالليل والنهار تكتب عمل ابن آدم. قاله ابن عباس[١]، وبه قال مجاهد[٢]، والحسن[٣]، وقتادة[٤]، وعطاء[٥]، وإبراهيم النخعي[٦]، وأبو صالح[٧]، وابن جريج[٨]، جريج[٨]، ومقاتل[٩].

قال عطاء:" فيقال هم الكرام الكاتبون حفظة من الله على ابن آدم أمروا بذلك"[١٠].

قال الزجاج: "أي: للإنسان ملائكة يعتقبون، يأتي بعضهم بعقب بعض"[١١].

وحكي ابن الجوزي عن أكثر المفسرين: "هم الحفظة، اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق، خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر"[١٢].

قال الفراء:" «المعقبات»: الملائكة، ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار يحفظونه"[١٣].

قال أبو عبيدة:" ملائكة تعقّب بعد ملائكة، وحفظة تعقّب بالليل حفظة النهار وحفظة النهار تعقّب حفظة الليل، ومنه قولهم: فلان عقّبنى، وقولهم: عقّبت فى أثره"[١٤].

عن قتادة، قوله: "{له معقبات من بين يديه ومن خلفه}، هذه ملائكة الليل يتعاقبون فيكم بالليل والنهار. وذكر لنا أنهم يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح، وفي قراءة أبيّ بن كعب: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أَمْرِ اللهِ»"[١٥].

قال مجاهد:" ما من عبدٍ إلا له ملك موكَّل يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءَك! إلا شيئًا يأذن الله فيه فيصيبه"[١٦].

عن كنانة العدوي قال: "دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمينٌ على الذي على الشمال، فإذا عملتَ حسنة كُتِبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: اكتب! قال: لا لعله يستغفر الله ويتوب! فإذا قال ثلاثًا قال: نعم اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله، وأقل استحياءَه منّا! يقول الله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: ١٨] ، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله}، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبَّرت على الله قصمك. وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصَّلاة على محمد. وملك قائم على فيك لا يدع الحيّة تدخل في فيك، وملكان على عينيك. فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ آدميّ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، [لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار][١٧] فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل"[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢١٥)-(٢٠٢١٧):ص٣٧١/١٦، في رواية عكرمة، وانظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٨٧):ص٢٢٣٠/٧. في رواية الضحاك عنه.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢١٢)-(٢٠٢١٤):ص٣٧١/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢١٠):ص٢٦٩/١٦-٢٧٠.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢١)، (٢٠٢٢٢):ص٣٧٢/١٦.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٨٨):ص٢٢٣٠/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢١٨)، (٢٠٢٢٠):ص٢٧١/١٦-٢٧٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢٠):ص٣٧٢/١٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢٣):ص٣٧٢/١٦.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٩/٢.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٨٨):ص٢٢٣٠/٧.
(١١) معاني القرآن:١٤٢/٣.
(١٢) زاد المسير:٤٨٥/٣.
(١٣) معاني القرآن:٦٠/٢.
(١٤) مجاز القرآن:٣٢٤/١.
(١٥) أخرجه الطبري(٢٠٢٢١):ص٣٧٢/١٦.
(١٦) أخرجه الطبري(٢٠٢٢٤):ص٣٧٢/١٦-٣٧٣.
(١٧)زيادة من ابن كثير والدر المنثور، ولا غنى عنها.
(١٨) أخرجه الطبري(٢٠٢١١):ص٣٧٠/١٦.

وقال قوم، منهم ابن زيد: هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ، عزم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس على قتله، فمنعه الله منهما، وأنزل هذه الآية .
والقول الثاني: أن المعقبات حراس الملوك الذين يتعاقبون الحرس، وهذا مروي عن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير[١]، وبه قال عكرمة[٢]، والضحاك[٣].
قال الضحاك: "هو السلطان المحترس من الله، وهم أهل الشرك"[٤].
قال الطبري:" وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ من قال:«الهاء»، في قوله: {له معقبات} من ذكر«مَنْ» التي في قوله: {ومَنْ هو مستخف بالليل}، وأن المعقبات من بين يديه ومن خلفه، هي حرسه وجلاوزته، كما قال ذلك من ذكرنا قوله، لأن قوله: {له معقبات} أقرب إلى قوله: {ومن هو مستخف بالليل} منه إلى عالم الغيب، فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنيَّ بذلك هذا، مع دلالة قول الله: {وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له} على أنهم المعنيُّون بذلك، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر قومًا أهل معصيةٍ له وأهلَ ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنْعَة تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أنّ الله تعالى ذكره إذا أراد بهم سوءًا لم ينفعهم حَرَسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم"[٥].
وفي قوله تعالى: قوله تعالى:{يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد : ١١]، وجوه من التفسير:
أحدها: يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون، قاله ابن عباس[٦]، وعكرمة،[٧] وهو قول من قال: هي في المشركين المحترسين من أمر الله.
قال ابن عباس:" يعني: ولّي الشيطان، يكون عليه الحرس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، يقول الله عز وجل: يحفظونه من أمري، فإني إذا أردت بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ"[٨].
والثاني: أن المعنى: حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس[٩]، وسعيد بن جبير[١٠]، ومجاهد[١١]، فيكون تقدير الكلام: هذا الحفظ مما أمرهم الله به.
روي عن ابن عباس قوله: "{يحفظونه من أمر الله}، يقول: بإذن الله، فالمعقبات من أمر الله وهي الملائكة"[١].

الأثر: ٢٠٢١١ - هذا إسناد قد سلف مثله برقم: ١٣٨٦، ١٣٩٥. وهو إسناد مشكل منكر.
" إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري"، وسلف" التستري" وكان في ذلك الموضع في ابن كثير" القشيري"، لا ندري أيهما الصواب، ولم نجد له ذكرًا في شيء من كتب الرجال.
و" علي بن جرير"، لا يدري منه هو أيضًا، كما قلنا فيما سلف، إلا أني أزيد أن ابن أبي حاتم ترجم في الجرح والتعديل:" علي بن جرير البارودي روى عنه ... سئل أبي عن علي بن جرير البارودي، فقال: صدوق"، ولا أظنه هذا الذي في إسنادنا، كأن هذا متأخر، ابن أبي حاتم ٣ / ١ / ١٧٨ وأما" عبد الحميد بن جعفر، فثقة، سلف برقم: ١٣٨٦.
وأما" كنانة العدوي"، فهو" كنانة بن نعيم العدوي"، تابعي ثقة، لم يذكر أنه أدرك عثمان بن عفان أو روى عنه. فهذا حديث فيه نكارة وضعف شديد، وانفرد بروايته أبو جعفر الطبري عن المثنى. انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٣، والدر المنثور ٤/ ٤٨. وقال ابن كثير: إنه حديث غريب جدًا.
(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢٦)، (٢٠٢٢٧):ص١٦/٣٧٣-٣٧٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٢٨):ص١٦/٣٧٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣٠):ص١٦/٣٧٤.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٢٣٠):ص١٦/٣٧٤.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٣٧٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤٢):ص١٦/٣٧٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤٣):ص١٦/٣٧٧.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٢):ص١٦/٣٧٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣١)-(٢٠٢٣٥)، (٢٠٢٣٧):ص١٦/٣٧٥-٣٧٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣٢):ص١٦/٣٧٥.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣٣):ص١٦/٣٧٥.

والثالث: يحفظونه بأمر الله، قاله الحسن، ومجاهد[٢]، وقتادة[٣]، وعكرمة[٤]، ومقاتل[٥].
قال قتادة:" وفي بعض القراءات «بِأَمْرِ اللهِ»"[٦].
قال أبو عبيدة:" «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، أي: بأمر الله يحفظونه من أمره"[٧].
قال الزجاج: " المعنى: حفظهم إياه من أمر الله، أي مما أمرهم الله تعالى به، لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله، كما تقول: يحفظونه عن أمر ا"[٨].
وحكي ابن الجوزي عن اللغويون: أن "الباء تقوم مقام «من»، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض"[٩].
والرابع: يحفظونه من الجن، قاله إبراهيم النخعي[١٠].
وقال مجاهد: "ما من عبد إلا له ملك موكّل يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءَك إلا شيئًا يأذن الله فيصيبه"[١١].
وقال كعب: " لو تجلَّى لابن آدم كلّ سهلٍ وحزنٍ لرأى على كل شيء من ذلك شياطين. لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذًا لتُخُطِّفتم"[١٢].
وقال أبو مجلز: " جاء رجل من مُرادٍ إلى عليّ رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإنّ ناسًا من مراد يريدون قتلك! فقال: إنّ مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر، فإذا جاء القدَرُ خلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حصينة"[١٣].
قال مقاتل:" يحفظونه من أمر الله يعني بأمر الله من الإنس والجن مما لم يقدر أن يصيبه حتى تسلمه المقادير فإذا أراد الله أن يغير ما به لم تغن عنه المعقبات شيئا"[١٤].
والخامس: يحفظونه من الموت. رواه الضحاك عن ابن عباس[١٥].
والسادس: أن في الكلام تقديما وتأخيرا، والمعنى: له معقبات من أمر الله يحفظونه، قاله أبو صالح[١٦]، والفراء[١٧].
قال أبو صالح:" ملائكة الليل، يعقُبُون ملائكة النهار"[١٨].
قال الفراء:" والمعقبات من أمر الله عز وجل يحفظونه، وليس يحفظ من أمره إنما هو تقديم وتأخير والله أعلم، ويكون {يحفظونه} ذلك الحفظ من أمر الله وبأمره وبإذنه عز وجل كما تقول للرجل: أجيئك من دعائك إياي وبدعائك إياي والله أعلم بصواب ذلك"[١٩].
والسابع: يحفظونه لأمر الله فيه حتى يسلموه إلى ما قدر له، ذكره أبو سليمان الدمشقي[٢٠].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩٨):ص٢٢٣٢/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤١):ص٣٧٦/١٦-٣٧٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٣٩):ص٣٧٦/١٦.
(٤) انظر: زاد المسير:٤٨٦/٢.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٩/٢.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٠):ص٣٧٦/١٦.
(٧) مجاز القرآن:٣٢٤/١.
(٨) معاني القرآن:١٤٢/٣.
(٩) زاد المسير:٤٨٦/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤٤):ص٣٧٧/١٦، وتفسير ابن أبي حاتم(١٢١٩٩):ص٢٢٣٢/٧.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٥):ص٣٧٧/١٦-٣٧٨.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٦):ص٣٧٨/١٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٧):ص٣٧٨/١٦.
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٩/٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٠٠):ص٢٢٣٢/٧.
(١٦) انظر: زاد المسير:٤٨٦/٢.
(١٧) انظر: معاني القرآن:٦٠/٢.
(١٨) أخرجه الطبري(٢٠٢٢٠):ص٢٧٢/١٦.
(١٩) معاني القرآن:٦٠/٢.
(٢٠) انظر: زاد المسير:٤٨٦/٢.

واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس: "{يحفظونه من أمر الله}، قال: يحفظونه حتى إذا جاء القدر خلوا عنه"(١).

وقال عكرمة: "يحفظونه لأمر الله"(٢).

والثامن: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، قاله ابن جريج(٣).

قال ابن جريج:" يحفظون عليه من الله"(٤).

قال الطبري:" يعني ابن جريج بقوله:«يحفظون عليه»، الملائكة الموكلة بابن آدم، بحفظ حسناته وسيئاته، وهي«المعقبات» عندنا، تحفظ على ابن آدم حسناته وسيئاته من أمر الله"(٥).

قال الأخفش: "وإنما أنث «المعقبات» لكثرة ذلك منها، نحو النسابة، والعلامة ثم ذكر في قوله: «يحفظونه»، لأن المعنى مذكر"(٦).

قال الفراء:" «المعقبات»: ذكران إلا أنه جميع جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة، كما قال: أبناوات سعد(٧)، ورجالات جمع رجال"(٨).

عن عمرو بن دينار عن ابن عباس :"أنه كان يقرأ: له معقبات من بين يديه: «ورقباء من خلفه»"(٩).

وقرئ :«له معاقيب» جمع :معقب أو معقبة، و«الياء» عوض من حذف إحدى القافين في التكسير(١٠).

وفي هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها عامة في جميع الخلق ، حكاه الماوردي عن الجمهور(١١).

الثاني : أنها خاصة نزلت في رسول الله- ﷺ-حين أزمع عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة أخو لبيد على قتل رسول الله -ﷺ- فمنعه الله عز وجل منهما وأنزل هذه الآية فيه ، قاله ابن زيد(١٢).

عن عبد الله بن الجارود، قال: سمعت الجارود بن أبي سبرة، قال: "دخلت أنا وأبي على ابن عباس بالشام وقد خرج من مستحم له وقد اغتسل قال: وإنه مستلقى يقول: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه}، قال يا أبا سبرة: ليس هناك المعقبات ولكن له المعقبات من بين يديه ورقيب من خلفه"(١٣).

قال الثعلبي:" قال أهل المعاني: إن أوامر الله عز وجل على وجهين أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك ما لا يدفعه أحد ولا يغيره بشر ولا حتى الجن ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظة كقصة يونس -عليه السلام-"(١٤).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : ١١]، أي:" إن الله سبحانه وتعالى لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم إلا إذا غيَّروا ما أمرهم به فعصوه"(١٥).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩٦):ص٢٢٣٢/٧.
(٢) انظر: زاد المسير:٤٨٦/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٤٩):ص٣٧٨/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٢٤٩):ص٣٧٨/١٦.
(٥) .
(٦) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٦٠/٢. ولم أجده في معاني القرآن.
(٧)اسم لأكثر من قبيلة فى العرب، منهم سعد تميم وسعد قيس وسعد هذيل، كما فى القاموس.
(٨) معاني القرآن:٦٠/٢.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩١):ص٢٢٣٠/٧.
(١٠) انظر: الكشاف:٥١٧/٢.
(١١) انظر: النكت والعيون:٩٩/٣.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢١٩٣):ص٢٢٢٩/٧-٢٢٣٠.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢١٩٢):ص٢٢٣٠/٧.
(١٤) الكشف والبيان:٢٧٦/٥.
(١٥)البيت للأعشى كما في "ديوانه" ص ٦٨، وفيه: "يقول القوم" سواء بصيرات .. " وهو في "الأضداد" لابن

قوله تعالى:{وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ} [الرعد : ١١]، أي:" وإذا أراد الله بجماعةٍ بلاءً، فلا يقدر على ردّ ذلك أحد"[١].

قوله تعالى:{وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد : ١١]، أي:" وليس لهم مِن دون الله مِن وال يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم العذاب والمكروه"[٢].

قال ابن قتيبة:" أي: ولي"[٣].

قال الزجاج: " أي: لا يلي أمرهم أحد من دون الله"[٤].

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: ليس لهم من عذابه ولي، ولا قريب يمنعهم، ولا ملجأ يلجئون إليه"[٥].

قال الزمخشري:" ممن يلي أمرهم ويدفعه عنهم"[٦].

قال مقاتل:" يعني: ولي يرد عنهم العذاب"[٧].

قال السدي:" هو الذي يولاهم فينصرهم ويلجيهم إليه"[٨].

الفوائد:

١- الإيمان بالملائكة الكرام الكاتبين، وتقرير عقيدة أن لكل فرد ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار منهم الكرام الكاتبون، ومنهم الحفظة للإنسان من الشياطين والجان.

قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرَّعْدِ: ١١]، وقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الِانْفِطَارِ: ١٠ - ١٢]، {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ - مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧ - ١٨]، {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزُّخْرُفِ: ٨٠]، {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الْجَاثِيَةِ: ٥٩]، {إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [يُونُسَ: ٢١].

وفي الحديث:" إياكم والتعرى فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضى الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم"[٩].

٢- أن الحرس والجلاوزة لمن يستخدمهم لحفظه من أمر الله تعالى لن يغنوا عنه من أمر الله شيئا.

٣- ومن الفوائد: أن المعاصي من العبد صادرة باختياره مع تقديرٍ من الله سابقٍ، وتمكينٍ للعبد لاحقٍ.

٤- من سننه تعالى، سنن التغيير، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوامَا بِأَنْفُسِهِمْ}، فتأمل أيها القارئ في سننِه التي لا تتبدلُ ولا تتغيرُ.

٥- بيان حقيقة الإرادة الكونية والإرادة الدينية:

أ- فالإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية.

يعني: أنه يقدر خيرها وشرها، والإيمان بالقدر كوني وشرعي، فالله هو الذي قدر وجود الخير وقدر وجود الشر، ولم يقل: إن الشر خارج عن قضاء الله، أو عن

الأنباري ص ٤٣، وفيه "يقول القوم"، "الطبري" ١/ ١١١، "البحر المحيط" ١/ ٤٧، "القرطبي" ١/ ١٦٠، "الدر المصون" ١/ ١٠٧.

(١) انظر: التفسير الميسر:٢٥٠، وصفوة التفاسير:٧٠/٢.

(٢) انظر: التفسير الميسر:٢٥٠، وصفوة التفاسير:٧٠/٢.

(٣) غريب القرآن:٢٢٥.

(٤) معاني القرآن:١٤٢/٣.

(٥) بحر العلوم:٢٢٠/٢.

(٦) الكشاف:٥١٧/٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٠/٢.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٠٤):ص٢٢٣٣/٧.

(٩)أخرجه الترمذى (١١٢/٥، رقم ٢٨٠٠) وقال: غريب.

قدره، بل إن الشر واقع بقضاء الله، وهو مخلوق من مخلوقاته، فهذا إبليس مخلوق، بل هو شر والعياذ بالله، وهو مصدر فعل الشر في الناس بوسوسته لهم، ومع ذلك فإن الله عز وجل، لا يحب إبليس، ولا أفعاله، ولا من يستجيب لوسوسته.

ب- والإرادة الدينية: هي المتضمنة لمحبته ورضاه، المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح.

يعني: ليست شاملة لكل المخلوقات، بل في الخير فقط؛ لأن الله يحب الإيمان والعمل الصالح، ويحب المتقين والمحسنين.

ت- نستنتج من الفائدة السابقة: الرد على المعتزلة القائلين: أن الله لا يريد إلا الخير.

نقول: نعم، لا يريد إلا الخير شرعاً، لكن لا تقل: لا يريد إلا الخير كوناً؛ لأن الله تعالى يقول: {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا}، فهؤلاء أراد الله بهم سوءاً.

ثم قال: [وقال الله تعالى:{وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥]، هذه الإرادة الشرعية، ولو كانت هذه الإرادة كونية، لكان لكانت أمور الدنيا ميسرة وليس فيها عسر وضيق، لكن يريد الله بكم اليسر في الشريعة.

وقال في آية الطهارة: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٦]، ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح، قال: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء:٢٦ - ٢٧]، هذه إرادة شرعية، ولو كانت هذه إرادة كونية لتاب الناس كلهم بقوله: {كُنْ فَيَكُونُ}، وكذلك قوله: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} لو كانت هذه الهداية هداية الخلق التي هي خلق الإرادة في قلوبهم، أي: الإرادة الكونية لاهتدى جميع الناس.

ثم قال: [{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء:٢٨]] أي: هذه الشرائع أراد الله منها أن يخفف عنكم.

ولما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهم عنه قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب:٣٣]، والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس، بخلاف من عصاه[(١)].

القرآن

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)} [الرعد : ١٢]

التفسير:

هو الذي يريكم من آياته البرق -وهو النور اللامع من خلال السحاب- فتخافون أن تنزل عليكم منه الصواعق المحرقة، وتطمعون أن ينزل معه المطر، وبقدرته سبحانه يوجد السحاب المحمَّل بالماء الكثير لمنافعكم.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الرعد : ١٢]، أي:" هو الذي يريكم من آياته البرق -وهو النور اللامع من خلال السحاب- فتخافون أن تنزل عليكم منه الصواعق المحرقة، وتطمعون أن ينزل معه المطر"[(٢)].

قال الطبري:" يعني أن الرب هو الذي يري عباده البرق خوفًا للمسافر من أذاه وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع"[(١)].

---

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الشيخ ياسر:٣/٧[دروس صوتية].

(٢) التفسير الميسر:٢٥٠.

قال ابن عباس: "«البرق»، الماء"[٢].
وفي قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الرعد : ١٢]، ثلاثة وجوه:
أحدها : خوفاً للمسافر من أذيته ، وطمعاً للمقيم في بركته ، قاله قتادة[٣]، وبه قال الفراء[٤].
قال مقاتل:" خوفا للمسافر من الصواعق وطمعا للمزارع المقيم"[٥].
الثاني : خوفاً من صواعق البرق ، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط ، قاله الحسن[٦].
روي عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «أن رسول الله -ﷺ- كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك"[٧].
عن الأوزاعي قال: "كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد:"سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة"[٨].
الثالث : خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه. ذكره الماوردي[٩].
قوله تعالى:{وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد : ١٢]، أي:" وبقدرته سبحانه يوجد السحاب المحمَّل بالماء الكثير لمنافعكم"[١٠].
قال الطبري:" ويثير السحاب الثقال بالمطر ويبدؤه"[١١].
عن مجاهد، قوله: "{وينشئ السحاب الثقال}، قال: الذي فيه الماء"[١٢].
قال مقاتل:" وينشئ يعني ويخلق مثل قوله: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآت} [الرحمن : ٢٤]، يعني: المخلوقات، {السحاب الثقال} من الماء"[١٣].
القرآن
{وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)} [الرعد : ١٣]
التفسير:
ويسبِّح الرعد بحمد الله تسبيحًا يدل على خضوعه لربه، وتنزِّه الملائكة ربها مِن خوفها من الله، ويرسل الله الصواعق المهلكة فيهلك بها مَن يشاء من خلقه، والكفار يجادلون في وحدانية الله وقدرته على البعث، وهو شديد الحول والقوة والبطش بمن عصاه.
في سبب نزول الآية أقوال:

---

(١) تفسير الطبري:٣٨٦/١٦-٣٨٧.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٢٥١):ص٣٨٧/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٥٢)، (١٠٢٥٣):ص٣٨٧/١٦.
(٤) انظر: معاني القرآن:٦٠/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٠/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٠٠/٣.
(٧)إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (١٠٠/٢) (٥٧٦٣) قال: حدثنا عفان. والبخاري في الأدب المفرد (٧٢١) قال: حدثنا معلى بن أسد. والترمذي (٣٤٥٠) قال: حدثنا قتيبة. والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٢٨) قال: أخبرنا قتيبة بن سعيد.
ثلاثتهم (عفان، ومعلى، وقتيبة) قالوا: حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن الحجاج بن أرطأة، عن أبي مطر، عن سالم بن عبد الله، فذكره.
* أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٢٧) قال: أخبرنا محمد بن علي بن حرب المروزي، قال: حدثنا سيار بن حاتم، قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن أبي مطر، عن سالم، فذكره. (ليس فيه الحجاج بن أرطاة).
قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٢٦٥):ص٣٩٠/١٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٠٠/٣.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٠.
(١١) تفسير الطبري:٣٨٧/١٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٢٥٤):ص٣٨٨/١٦.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٠/٢.

أحدها: أنها نزلت في كافر من الكفّار ذكر الله تعالى وتقدّس بغير ما ينبغي ذكره به، فأرسل عليه صاعقة أهلكته. قاله علي[١]، و أنس بن مالك[٢]، و عبد الرحمن بن صُحار العبدي[٣]، ومجاهد[٤].

عن عبد الرحمن بن صُحار العبدي: "أنه بلغه أن نبي الله ﷺ بعث إلى جَبَّار يدعوه، فقال:"أرأيتم ربكم، أذهبٌ هو أم فضةٌ هو أم لؤلؤٌ هو؟ " قال: فبينما هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعدت، فأرسل الله عليه صاعقة فذهبت بقِحْف رأسه فأنزل الله هذه الآية: {ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال}"[٥].

وعن أنس بن مالك قال: بعث النبي ﷺ مرةً رجلا إلى رجل من فراعنة العرب، أن ادْعُه لي، فقال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك! قال: اذهب إليه فادعه. قال: فأتاه فقال: رسول الله ﷺ يدعوك! فقال: مَنْ رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ قال: فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه فادعه" قال: فأتاه فأعاد عليه وردَّ عليه مثل الجواب الأوّل. فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه فادعه! قال: فرجع إليه. فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما، إذ بعث الله سحابة بحيالِ رأسه فرَعَدت، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقِحْفِ رأسه، فأنزل الله: {ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال}"[٦].

الثاني: أنها نزلت في رجل من الكفار أنكر القرآن وكذب النبيّ ﷺ، فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته، فأنزل الله عز وجل فيه: {وهم يجادلون في الله، وهو شديد المحال}. وهذا قول قتادة[٧]. قتادة[٧].

الثالث: أنها نزلت في أربد أخي لبيد بن ربيعة، وكان همّ بقتل رسول الله ﷺ هو وعامر بن الطفيل. وهذا قول ابن جريج[٨]، وروي عن ابن زيد نحو ذلك[٩].

قال ابن جريج:" نزلت- يعني قوله: {ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء}- في أربد أخي لبيد بن ربيعة، لأنه قدم أربدُ وعامرُ بن الطفيل بن مالك بن جعفر على النبي ﷺ، فقال عامر: يا محمد أأسلم وأكون الخليفة من بعدك؟ قال: لا! قال: فأكون على أهل الوَبَر وأنتَ على أهل المدَر؟ قال: لا! قال: فما ذاك؟ قال:"أعطيك أعنة الخيل تقاتل عليها، فإنك رجل فارس. قال: أو ليست أعِنّة الخيل بيدي؟ أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا من بني عامر! قال لأربد: إمّا أن تكفينيه وأضربه بالسيف، وإما أن أكفيكه وتضربه بالسيف، قال أربد: اكفنيه وأضربه. فقال ابن الطفيل: يا محمد إن لي إليك حاجة. قال: ادْنُ! فلم يزل يدنو ويقول النبي ﷺ:"ادن" حتى وضع يديه على ركبتيه وحَنَى عليه، واستلّ أربد السيف، فاستلَّ منه قليلا فلما رأى النبي ﷺ بَريقه تعوّذ بآية كان يتعوّذ بها، فيبِسَت يدُ أربد على السيف، فبعث الله عليه صاعقة فأحرقته، فذلك قول أخيه:

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوف وَلا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاك وَالأسَدِ ... فَجَّعنِي الْبَرْقُ والصّوَاعِقُ بال ... فَارِس يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُد"[١٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٦٩):ص١٦/٣٩١-٣٩٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٠):ص١٦/٣٩٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٦٦):ص١٦/٣٩١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٦٧):ص١٦/٣٩١.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٢٦٦):ص١٦/٣٩١.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٢٧٠):ص١٦/٣٩٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧١):ص١٦/٣٩٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٢):ص١٦/٣٩٣-٣٩٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٥٠):ص١٦/٣٧٩-٣٨٠.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٢٧٢):ص١٦/٣٩٣-٣٩٣.

قوله تعالى:{وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} [الرعد : ١٣]، أي:" يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه"(١).

قال الطبري: أي:" ويعظم اللهَ الرعدُ ويمجّده، فيثنى عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدّس"(٢).

قال الصابوني:" وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حقٌّ كما قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]"(٣).

وفي الرعد قولان :

أحدهما : أنه الصوت المسموع، وقد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال (الرعد وعيد من الله فإذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب).

الثاني : أن الرعد ملك ، والصوت المسموع تسبيحه ، قاله عكرمة.

قال مقاتل:" الرعد ملك من الملائكة اسمه الرعد وهو موكل بالسحاب صوته تسبيحه، يزجر السحاب ويؤلف بعضه إلى بعض ويسوقه بتسبيحه إلى الأرض التي أمر الله- تعالى- أن تمطر فيها"(٤).

قوله تعالى:{وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد : ١٣]، أي:" وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه"(٥).

قال الطبري: " يقول: وتسبح الملائكة من خيفة الله ورَهْبته"(٦).

قال البيضاوي:أي:" من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل: الضمير لـ«الرعد»"(٧).

قوله تعالى:{وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ} [الرعد : ١٣]، أي:" ويرسل الله الصواعق المهلكة فيهلك بها مَن يشاء من خلقه"(٨).

قوله تعالى:{وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} [الرعد : ١٣]، أي:" وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث"(٩).

قال الطبري:" يقول: وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعق أصابهم في حال خُصومتهم في الله عز وجل لرسوله ﷺ"(١٠).

قوله تعالى:{وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد : ١٣]، أي:" وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه"(١١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعَتَا وتمادى في كفره"(١٢).

و«المحال»: مصدر من قول القائل: ما حلت فلانًا فأنا أماحله مماحلةً ومِحَالا وفعلت منه: مَحَلت أمحَلُ محْلا إذا عرّض رجلٌ رجلا لما يهلكه ؛ ومنه قوله: وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، ومنه قول أعشى بني ثعلبة(١٣):

---

(١) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٩٠/١٦.
(٣) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٠/٢.
(٥) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٩٠/١٦.
(٧) تفسير البيضاوي:١٨٣/٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٠.
(٩) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٩٤/١٦.
(١١) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٣٩٤/١٦.
(١٣)ديوانه: ١٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢٥، واللسان (محل) ، وغيرها.

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصُنِ المَجْ ... دِ غَزِيرُ النّدَى شَدِيدُ المِحَالِ

هكذا كان ينشده معمر بن المثنى فيما حُدِّثت عن علي بن المغيرة عنه. وأما الرواة بعدُ فإنهم ينشدونه:

فَرْعُ فَرْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصُنِ المَجْ ... دِ كِثِيرُ النَّدَى عَظِيمُ المِحَال

وفسّر ذلك معمر بن المثنى، وزعم أنه عنى به العقوبة والمكر والنَّكال ؛ ومنه قول ذي الرمة[1]:

وَلَبْسٍ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكُلٌّ ... أَعَدَّ لَهُ الشَّغَازِبَ وَالمِحَالِ[2].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد : ١٣]، على أقوال:

أحدها : يعني شديد العداوة ، قاله ابن عباس[3].

الثاني : شديد الحقد، رواه عباد بن منصور عن الحسن[4]، وعكرمة[5].

قال الواحدي:" قال أبو بكر: وهذا على ما بينا من أن غضب الله لما استسر عن المغضوب عليه المعد له، أشبه حقد المخلوق الذي يستر في نفسه، إلى أن المخلوق ينزعج ويتأذى عند الحقد والغضب، والله قد علا عن جميع هذا علوًّا كبيرًا"[6].

الثالث : شديد القوة ، قاله مجاهد[7]، وابن زيد[8].

الرابع : شديد الغضب ، قاله وهب بن منبه[9].

الخامس : شديد القوة والحيلة. قاله قتادة[10].

السادس: شديد الحيلة، قاله السدي[11].

السابع : شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضاً[12].

الثامن : شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط ، قاله الحسن أيضاً[13].

التاسع : شديد الأخذ ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[14]، وبه قال مقاتل[15].

العاشر: أنه: ما أصاب أربد من الصاعقة. قاله عكرمة[16].

و" النبع"، شجر ينبت في قلة الجبل، وهو أصفر العود رزينة، ثقيله في اليد، وإذا تقادم أحمر، وتتخذ منه القسي، فهي أجودها وأجمعها للأرز واللين معًا، و" الأرز" الشدة.

(١)ديوانه: ٤٤٥، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢٦، وأمالي القالي ٢: ٢٦٨، واللسان (شغزب) ، (محل) ، وغيرها. وهو من قصيدته في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهذا البيت من صميم مدحه، يقول بعده: وكُلُّهُمُ ألدُّ أخُو كِظَاظٍ ... أَعَدَّ لِكُلِّ حالِ القومِ حَالا

أبرَّ على الخُصُومِ فليسَ خَصْمٌ ... ولا خَصْمَانِ يغْلبُهُ جِدالا

قَضَيْتَ بِمرَّةٍ فأَصَبْتَ منهُ ... فُصُوصَ الحقِّ فانفصلَ انفصاَلا

و" اللبس" اختلاط الأمر، وهو مشكله، و" الشغازب"، جمع" شغزبة"، وهي الكيد والغرة والحيلة، وأصله اعتقال المصارع رجل آخر برجله ليلقيه ويصرعه. و" أبر" علا، وغلب. و" قضى بمرة"، أي بقوة وإحكام، و" فصوص الحق"، لبه ومعقده. وهذا كلام بارع في الخصومة والقضاء.

(٢) انظر: تفسير الطبري:٣٩٤/١٦-٣٩٥.

(٣) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٣.

(٤) انظر: التفسير البسيط للواحدي:٣١٩/١٢، وزاد المسير:٣١٦/٤، والنكت والعيون:١٠٢/٣.

(٥)أخرجه أبو الشيخ عن عكرمة كما في "الدر" ٤/ ١٠٠.

(٦) التفسير البسيط:٣١٩/١٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٤):ص٣٩٦/١٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٩):ص٣٩٦/١٦.

(٩) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٥):ص٣٩٦/١٦.

(١١) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٨):ص٣٩٦/١٦.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٦):ص٣٩٦/١٦.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٣):ص٣٩٦/١٦.

(١٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٢/٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٧٧):ص٣٩٦/١٦.

الحادي عشر : شديد الانتقام والعقوبة ، قاله سفيان الثوري[1].
الثاني عشر: شديد القدرة والعذاب، و«المحل» في اللغة: الشدة. قاله الزجاج[2].
الثالث عشر: شديد العقوبة والمكر والنكال. قاله أبو عبيدة وأنشد لأعشى[3]:

فرع نبع يهتز في غصن المجـ د كريم الندى عظيم المحال
إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

فقوله: «غرام»، أي: هلاك، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان : ٦٥]، أي: هلاكا وقد ، وقال ذو الرّمّة[4]:

أبرّ على الخصوم فليس خصم ولا خصمان يغلبه جدالا
ولبس بين أقوام فكل أعدّ له الشّغازب والمحالا

و«الشّغزبة»: الالتواء[5].

وقال أبو قتيبة:" {وهو شديد المحال}، أي: الكيد والمكر، وأصل المحال: الحيلة. والحول: الحيلة ، قال ذو الرمة[6]:

وليس بين أقوام فكل أعد له الشغازب والمحالا"[7].

قال أبو منصور الأزهري: "قول القتيبي في قوله عز وجل: (وهو شديد المحال) أي الحيلة - غلط فاحش. وكأنه توهم أن ميم المحال ميم مفعل، وأنها زائدة. وليس كما توهمه؛ لأن "مفعلا" إذا كان من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو والياء مثل: المزود والمحول والمحور والمعير والمزيل والمجول وما شاكلها. وإذا رأيت الحرف على مثال "فعال" أوله ميم مكسورة - فهي أصلية مثل ميم مهاد وملاك ومراس ومحال وما أشبهها ..."[8].

وحكي النحاس عن الحسن:" المكر"[9].

قال النحاس:" وهذه أقوال متقاربة واشبهها بالمعنى والله أعلم أنه: الإهلاك، لأن «المحل»: الشدة، فكأن المعنى: شديد العذاب والإهلاك"[10].

فوائد الآيتين:[١٢-١٣]:

١- أنه تبارك وتعالى - ينشئ السحاب والثقال، ينشئ السحاب الممتلئ بالماء ويصرفه إلى مختلف بقاع الأرض، فتحمل السحابة الماء فتسقي العباد والدواب والأرض.

---

(١) انظر: تفسير سفيان الثوري(٤٤٦: ١٤: ٢٢):ص١٥٢.
(٢) انظر: معاني القرآن:١٤٣/٣.
(٣)ديوانه: ١٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٥، وتفسير الطبري:٣٩٥/١٦، واللسان (محل) ، وغيرها. البيت الأول هو ٣٨، والثاني هو ٤٦ من القصيدة الأولى فى ديوانه، قال الطبري (١٦/ ٣٩٥) : هكذا كان ينشده معمر بن المثنى فيما حدثت عن ابن المغيرة عنه، وأما الرواة بعده فإنهم ينشدونه:
فرع فرع يهتز فى غصن المجد كثير الندى عظيم المحال وفسر ذلك معمر بن المثنى، وزعم أنه عنى به العقوبة ... والنكال، وهو فى السمط ٩٠٧، والقرطبي ٩/ ٢٩٩، واللسان والتاج (محل).
(٤)البيت الأول هو ٧٥، والثاني هو ٧٣ من القصيدة ٥٧ فى ديوانه:٤٤٥.
والأول فى الأغانى ١٦/ ٢٥، واللسان والتاج (خصم) . والثاني فى الطبري ١٦/ ٣٩٥، والقرطبي ٩/ ٣٠٠، واللسان والتاج (شغزب) والشغازب: قال الأصمعي:
الشغزبة: ضرب من الصراع، وهو أن يدخل الرجل رجله بين رجلى صاحبه فيصرعه، وقال بعضهم: الشغازب القول الشديد (شرح الديوان).
(٥) انظر: مجاز القرآن:٣٢٥/١-٣٢٦.
(٦)ديوانه ٤٤٥ ومجاز القرآن ٣٢٦/١ واللسان ٤٨٧/١، ١٤١/١٤ وهو غير منسوب في تفسير الطبري ١٦/ ١٦/ ٣٩٥، وتفسير القرطبي ٣٠٠/٩.
(٧) غريب القرآن:٢٢٦.
(٨)"تهذيب اللغة" (محل) ٤/ ٣٣٥٣، و اللسان ١٤٢/١٤. وقد ذكر هذا النقد أيضا في تفسير القرطبي ٢٩٩/٩. ٢٩٩/٩.
(٩) معاني القرآن:٤٨٤/٣.
(١٠) معاني القرآن:٤٨٤/٣.

٢- أخبرنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ - أن الرعد يسبح بحمده والملائكة من خيفته {ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد: ١٣] فهذا الصوت المدوِّي الذي يأتي من الرعد هو تسبيح بحمد الله، وتسبح {الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ}.
٣- استحباب قول سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته عند سماع الرعد لورود ذلك عن النبي ﷺ بألفاظ مختلفة.

القرآن

{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)} [الرعد : ١٤]

التفسير:

لله سبحانه وتعالى وحده دعوة التوحيد (لا إله إلا الله) ، فلا يُعبد ولا يُدعى إلا هو، والآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تجيب دعاء مَن دعاها، وحالهم معها كحال عطشان يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل إلى فمه فلا يصل إليه، وما سؤال الكافرين لها إلا غاية في البعد عن الصواب لإشراكهم بالله غيره.

قوله تعالى:{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} [الرعد : ١٤]، أي:" لله تعالى تتجه الدعوةُ الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء"(١).

وفي قوله تعالى:{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} [الرعد : ١٤]، اربعة وجوه:

أحدها : أن دعوة الحق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس(٢)، وقتادة(٣)، وابن زيد(٤)، زيد(٤)، ومقاتل(٥).

وروي عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-: قال:" التوحيد"(٦).

الثاني : أنه الله تعالى هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق(٧).

الثالث : أن الإخلاص في الدعاء هي دعوة الحق ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين(٨).

والرابع : أن دعوة الحق دعاؤه عند الخوف لأنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال تعالى: { ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } [الإسراء : ٦٧]، هو أشبه بسياق الآية لأنه قال : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} [الرعد : ١٤]، يعني: الأصنام والأوثان . أفاده الماوردي(٩).

قال الإمام ابن جرير الطبري:" إنما عنى بالدعوة الحق، توحيد الله وشهادةَ أن لا إله إلا الله"(١٠).

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} [الرعد : ١٤]، أي:" والآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تجيب دعاء مَن دعاها، وحالهم معها كحال عطشان يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل إلى فمه فلا يصل إليه"(١١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والآلهة التي يَدْعونها المشركون أربابًا وآلهة، لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهةً بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، إلا كما ينفع

---

(١) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٨٠):ص٣٩٨/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٨٣):ص٣٩٨/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٨٥):ص٣٩٨/١٦.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٣/٢.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٢٨١):ص٣٩٨/١٦.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٠٣/٣.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٠٣/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٠٣/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٣٩٧/١٦.
(١١) التفسير الميسر:٢٥١.

باسط كفيه إلى الماء بسطُه إياهما إليه من غير أن يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه وإشارته إليه وقبضه عليه"(١).

قال قتادة:" هذا مثلٌ ضربه الله لمن اتخذ من دون الله إلهًا أنه غير نافعه، ولا يدفع عنه سوءًا حتى يموت على ذلك"(٢).

قال ابن زيد:" لا ينفعونهم بشيء إلا كما ينفع هذا بكفيه، يعني بَسْطَهما إلى ما لا ينالُ أبدًا"(٣).

وفي معنى هذا المثل وجوه:

أحدها : أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء ليبلغ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب له وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد(٤).

الثاني : أنه كالرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه، قاله ابن عباس(٥).

الثالث : أنه كالرجل قد بلغه العطش حتى كَرَبه الموت وكفاه في الماء قد وضعهما لا يبلغان فاه، يقول الله: لا تستجيب الآلهة ولا تنفع الذين يعبدونها حتى يبلغ كفّا هذا فاه، وما هما ببالغتين فاه أبدًا. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا(٦).

الرابع: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفيه شيء منه. وهذا معنى قول قتادة(٧).

قال قتادة:" هذا مثل ضربه الله ؛ أي: هذا الذي يدعو من دون الله هذا الوثنَ وهذا الحجر لا يستجيب له بشيء أبدًا ولا يسُوق إليه خيرًا ولا يدفع عنه سوءًا حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذارعيه إلى الماء ليبلغ فاه ولا يبلغ فاه ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشًا"(٨).

الرابع: أنه كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه. قاله علي بن ابي طالب-رضي الله عنه-(٩).

وزعم الفراء أن المراد بالماء ها هنا البئر لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء(١٠)، ويشهد له قول لسنان بن فحل الطائي(١١):

فإن الماء ماءُ أبي وجدي وبئري ذو حَفَرْتُ وذو طويت

قال الطبري:" والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض على الماء، قال بعضهم(١٢):

فإنِّي وإيَّاكُمْ وَشَوْقًا إلَيْكُمُ كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسِقْهُ أَنَامِلُه

---

(١) تفسير الطبري:٣٩٩/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٢٩٧):ي٤٠٢/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٢٩٦):ي٤٠٢/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٨٧):ص٤٠٠/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٩٤):ص٤٠١/١٦-٤٠٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٩٥):ص٤٠١/١٦-٤٠٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٩٣):ص٤٠١/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٢٩٣):ص٤٠١/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٨٦):ص٤٠٠/١٦.
(١٠) انظر: معاني القرآن:٦١/٢، ونقل عنه الماوردي في النكت والعيون:١٠٣/٣.
(١١)البيت في الفرائد الجديدة للسيوطي ١/ ١٨٤، وشفاء العليل في إيضاح التسهيل ١/ ٢٢٧، وشرح المفصل ٣/ ١٤٧، والأمالي الشجرية ٢/ ٣٠٦.
(١٢) البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، من قصيدته التي قالها في السجن، وكان أعد حديدة يريد أن يغتال بها عثمان بن عفان رضي الله عنه وشعره في خزانة الأدب ٤: ٨٠، وفي طبقات فحول الشعراء: ١٤٥، وتاريخ الطبري ٥: ١٣٧ / ٧: ٢١٣، والبيت في الخزانة، وفي اللسان (وسق) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ٢٢٦. وقوله:" لم تسقه"، من" وسقت الشيء أسقه وسقًا"، إذا حملته .

يعني بذلك: أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء، لأن القابض على الماء لا شيء في يده. وقال آخر(١):

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كانَ بَيْنِي وبَيْنَها مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءَ بِاليَدِ"(٢)

قوله تعالى:{وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد : ١٤]، أي:" وما سؤال الكافرين لها إلا غاية في البعد عن الصواب لإشراكهم بالله غيره"(٣).

قال الطبري:" يقول: وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة إلا في غير استقامة ولا هدًى، لأنه يشرك بالله"(٤).

الفوائد:

١- دعوة الحق لله وحده فهو المعبود بحق لا إله غيره ولا رب سواه.

إذ عرفت دعوة الرسل بشواهد الأحوال، وأن الإسلام هو إخلاص الوجه والقلب وجميع الأعمال لله تعالى لا يصلح أن يقصد بشيء منها أحد دون الله عز وجل، كما قال تعالى: {له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء} ، إلى قوله: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} ، وقال تعالى: {وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا}[الجن:١٨] .

فتأمل ما ذكر الله تعالى في كتابه في الدعاء، والتشديد في صرفه لغيره، واختصاصه به تعالى خلقه وقد قال تعالى: {من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا}، نعوذ بالله من صرف القلوب عن الحق إلى الباطل(٥).

٢- أن الإستغاثة لا تكون إلا بالله.

٣- أن أصل العبادة تجريد الإخلاص لله وحده وتجريد المتابعة للرسول ﷺ.

٤- حرمان المشركين من دعائهم وسائر عباداتهم.

القرآن

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)} [الرعد : ١٥]

التفسير:

ولله وحده يسجد خاضعًا منقادًا كُلُّ مَن في السموات والأرض، فيسجد ويخضع له المؤمنون طوعًا واختيارًا، ويخضع له الكافرون رغمًا عنهم؛ لأنهم يستكبرون عن عبادته، وحالهم وفطرتهم تكذِّبهم في ذلك، وتنقاد لعظمته الله ظلال المخلوقات، فتتحرك بإرادته أول النهار وآخره.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد : ١٥]، أي:" ولله وحده يسجد خاضعًا منقادًا كُلُّ مَن في السموات والأرض طائعين وكارهين"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإن امتنع هؤلاء الذين يدعون من دون الله الأوثان والأصنام لله شركاء من إفراد الطاعة والإخلاص بالعبادة له= فلله يسجد من في السموات من

(١) هو الأحوص بن محمد الأنصاري، انظر: الزهرة: ١٨٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢٧، وقبله:
فوَاندَمِي إذْ لم أَعُجْ، إذ تقولُ لِي ... تقدَّمْ فَشَيِّعنا إلى ضَحْوةِ الغَدِ
ورواية الزهرة: سِوَى ذِكْرها، كالقابضَ الماءَ باليدِ
وهي رواية جيدة جدًا، خير مما روى أبو عبيدة والطبري. أفاده محقق تفسير الطبري، السيد احمد محمد شاكر.
(٢) تفسير الطبري:٣٩٩/١٦-٤٠٠.
(٣) التفسير الميسر:٢٥١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٣/١٦.
(٥) انظر: كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس:٦٨.
(٦) انظر: التفسير الميسر:٢٥١، وصفوة التفاسير:٧١/٢..

الملائكة الكرام ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، فأما الكافرون به فإنهم يسجدون له كَرْهًا حين يُكْرَهون على السُّجود"(١).

وفي قوله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد : ١٥]، أربعة وجوه من التفسير:

أحدها : {طَوْعًا} سجود المؤمن ، {وَكَرْهًا}: سجود الكافر ، قاله قتادة(٢).

قال ابن قتيبة:" أي: يستسلم من في السموات من الملائكة، ومن في الأرض من المؤمنين طوعا، ويستسلم من فى الأرض من الكافرين كرها من خوف السيف"(٣).

الثاني : {طَوْعًا}: من دخل في الإسلام طائعا، {وَكَرْهًا} من دخل فيه رهبة بالسيف، قاله ابن زيد(٤).

الثالث : {طَوْعًا} من طالت مدة إسلامه فألف السجود، {وَكَرْهًا} من بدأ بالإسلام حتى يألف السجود ، حكاه ابن الأنباري(٥).

الرابع: أن يكون «السجود»: الخضوع لله، فمن الناس من يخضع ويقبل أمر الله فيما سهل عليه، ومنهم من تقبله وإن كان عليه فيه كره. قاله الزجاج(٦).

قوله تعالى:{وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد : ١٥]، أي:" وتسجد ظلالُهم أيضاً لله في أول النار وأواخره"(٧).

قال الفراء:" يقول: كل شخص فظله بالغداة والعشي يسجد معه. لأن الظل يفيء بالعشي فيصير فيئا يسجد، وهو كقوله: { عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل : ٤٨]، في المعنى. والله أعلم"(٨).

قال ابن قتيبة:" وظلالهم بالغدو والآصال مستسلمة"(٩).

قال الزجاج:" أي: وتسجد ظلالهم. وجاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله، وظله يسجد لله، وقيل وظلالهم أشخاصهم، وهذا مخالف للتفسير"(١٠).

قال الطبري:" يقول: ويسجد أيضًا ظلالُ كل من سجد طوعًا وكرهًا بالغُدُوات والعَشَايا. وذلك أن ظلَّ كلِّ شخص فإنه يفيء بالعشيّ، كما قال جل ثناؤه {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [سورة النحل:٤٨]"(١١).

و"الآصال": جمع أصُلٍ، و"الأصُل": جمع"أصيلٍ"، و"الأصيل": هو العشيُّ، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب(١٢):

لَعَمْرِي لأَنْتَ البَيْتُ أُكْرِمَ أَهْلَهُ وَأَقْعُدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ(١٣)

قال الصابوني:" الغرضُ الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّن، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى"(١).

---

(١) تفسير الطبري:٤٠٣/١٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٢٩٨):ص٤٠٣/١٦.

(٣) تاويل مشكل القرآن:٢٣٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٠٠):ص٤٠٣/١٦.

(٥) انظر: النكت والعيون:١٠٤/٣.

(٦) انظر: معاني القرآن:١٤٤/٣.

(٧) صفوة التفاسير:٧١/٢.

(٨) معاني القرآن:٦١/٢.

(٩) تاويل مشكل القرآن:٢٣٧.

(١٠) معاني القرآن:١٤٤/٣.

(١١) تفسير الطبري:٤٠٤/١٦.

(١٢)ديوانه: ١٤١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢٣٩، ٣٢٨، والإنصاف: ٣٠٤، ٣٠٥، والخزانة ٢: ٤٨٩، ٥٦٤، واللسان (أصل) . وللنحاة فيه لجاجة كثيرة.

(١٣) تفسير الطبري:٤٠٥/١٦.

عن ابن عباس، قوله: "{وظلالهم بالغدوّ والآصال}، يعني: حين يفيء ظلُّ أحدهم عن يمينه أو شماله"(٢).

قال مجاهد:" ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظلُّ الكافر يسجد طوعًا وهو كاره"(٣).

قال ابن زيد:" ذُكر أن ظلال الأشياء كلها تسجد له، وقرأ: {سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [سورة النحل:٤٨] . قال: تلك الظلال تسجد لله"(٤).

عن سفيان قال: "كان ربيع بن خُثيم إذا تلا هذه الآية: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا}، قال: بلى يا رَبَّاه"(٥).

الفوائد:

١- الخلق كلهم يسجدون لله طوعا أو كرها إذ الكل خانع خاضع لحكم الله وتدبيره فيه.

٢- أن الكونُ وفطرتُهُ في الخُضُوعِ والطَّاعةِ لله:

فإن جميع الكون بسمائه وأرضه وأفلاكه وكواكبه، ودوابه وشجره ومدره وبره وبحره، وملائكته وجنه وإنسه؛ كله خاضع لله، مطيع لأمره الكوني، قال تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣] ، وقال تعالى: {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٤٩] ، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ} [الحج: ١٨] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥] .

فكُلُّ هذه الكائنات والعوالم مُنقادة لله، خاضعة لسلطانه؛ تجري وفق إرادته وطوع أمره، لا يستعصي عليه منها شيء؛ تقوم بوظائفها، وتؤدي نتائجها بنظام دقيق، وتنزه خالقها عن النقص والعجز والعيب، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤] .

فهذه المخلوقات صامتها وناطقها، وحيها وميتها، كلها مُطيعةٌ لله، مُنقادة لأمره الكوني، وكُلُّها تنزه الله عن النقائص والعيوب بلسان الحال، ولسان المقال. فكلما تدبّر العاقل هذه المخلوقات؛ علم أنها خُلقت بالحق وللحق، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء عن أمر مدبرها؛ فالجميع مُقِرُّون بالخالق بفطرتهم(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "وهم خاضعون مُستسلمون، قانتون مضطرون، من وجوه:

- منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.
- ومنها: خضوعُهُم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته.
- ومنها: دعاؤهم إياهُ عندَ الاضطرار.

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعا، وكذلك لما يقدره من المصائب، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعا، فهو مسلم لله طوعا خاضع له طوعا،

---

(١) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٠١):ص٤٠٤/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٠٢):ص٤٠٤/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٣٠٤):ص٤٠٤/١٦.
(٥) اخرجه الطبري(٢٠٢٩٩):ص٤٠٣/١٦.
(٦) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان:٢٥-٢٦.

والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحسبه سجودا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب"[١].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣] .

قال: "فذكر سبحانه إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد التام؛ سواء أقر المقر بذلك أو أنكره؛ وهم مَدينون له مُدَبَّرون؛ فهمُ مسلمون له طوعًا وكرهًا، وليس لأحد من المخلوقات خروج عمَّا شاءه وقدَّره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكُهُم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع، مفطور فقير محتاج مُتعبدٌ مقهور؛ وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور"[٢] .

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: مشروعية السجود للقارئ والمستمع إذا بلغ هذه الآية {وظلالهم بالغدو والآصال} ويستحب أن يكون ظاهرا مستقبلا القبلة، ويكبر عند الخفض والرفع ولا يسلم.

القرآن

{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)} [الرعد : ١٦]

التفسير:

قل -أيها الرسول- للمشركين: مَن خالق السَّموات والأرض ومدبِّرهما؟ قل: الله هو الخالق المدبر لهما، وأنتم تقرون بذلك، ثم قل لهم ملزمًا بالحجة: أجعلتم غيره معبودين لكم، وهم لا يَقْدرون على نفع أنفسهم أو ضرها فضلا عن نفعكم أو ضركم، وتركتم عبادة مالكها؟ قل لهم -أيها الرسول-: هل يستوي عندكم الكافر -وهو كالأعمى- والمؤمن وهو كالبصير؟ أم هل يستوي عندكم الكفر -وهو كالظلمات- والإيمان -وهو كالنور؟ أم أن أولياءهم الذين جعلوهم شركاء لله يخلقون مثل خَلْقه، فتشابه عليهم خَلْق الشركاء بخلق الله، فاعتقدوا استحقاقهم للعبادة؟ قل لهم -أيها الرسول-: الله تعالى خالق كل كائن من العدم، وهو المستحق للعبادة وحده، وهو الواحد القهار الذي يستحق الألوهية والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع.

قوله تعالى:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الرعد : ١٦]، أي:" قل -أيها الرسول- للمشركين: مَن خالق السَّموات والأرض ومدبِّرهما؟"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله:مَنْ رَبُّ السموات والأرض ومدبِّرها"[٤].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ} [الرعد : ١٦]، أي:" قل: الله هو الخالق المدبر لهما"[٥].

قال الطبري:" فإنهم سيقولون الله. وأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول:«الله»، فقال له: قل، يا محمد: ربُّها، الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله"[٦].

قال الثعلبي:أي:" فسيقولون الله ولا بد لهم من ذلك"[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى:٤٥/١-٤٦.
(٢) مجموع الفتاوى:٢٠٠/١٠
(٣) التفسير الميسر:٢٥١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٥/١٦.
(٥) التفسير الميسر:٢٥١.
(٦) تفسير الطبري:٤٠٥/١٦.
(٧) الكشف والبيان:٢٨٣/٥.

قال الزمخشري:" {قل الله}، حكاية لاعترافهم وتأكيد لم عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله. كقوله: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٨٦) {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون : ٨٦-٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك، فإذا قال: هذا قولي قال: هذا قولك، فيحكى إقراره تقريرا له عليه واستيثاقا منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقينا، أى: إن كعوا عن الجواب[١] فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه"[٢].

قوله تعالى:{قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} [الرعد : ١٦]، أي:" قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة عليهم - أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضُرّ عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟"[٣].

قال الطبري:" ثم قال: فإذا أجابوك بذلك فقل لهم: أفاتخذتم من دون رب السموات والأرض أولياء لا تملك لأنفسها نفعًا تجلبه إلى نفسها، ولا ضرًّا تدفعه عنها، وهي إذ لم تملك ذلك لأنفسها، فمِنْ مِلْكه لغيرها أبعدُ فعبدتموها، وتركتم عبادة من بيده النفع والضر والحياة والموت وتدبير الأشياء كلها"[٤].

قال الثعلبي:أي:" فإذا أجابوك قل أنت أيضا «الله»، ثم قيل لهم إلزاما للحجة {قل أفاتخذتم من دونه أولياء}، يعني: الأصنام يعبدونها من دون الله وهي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ثم نصرف لهم الأفعال"[٥].

قال ابن كثير:" يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى { نَفْعًا وَلا ضَرًّا } أي : لا تحصل منفعة ، ولا تدفع مضرة"[٦].

قوله تعالى:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [الرعد : ١٦]، أي:" لهم -أيها الرسول-: هل يستوي عندكم الكافر -وهو كالأعمى- والمؤمن وهو كالبصير؟"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عَبدُوا من دون الله الذي بيده نفعهم وضرهم ما لا ينفع ولا يضرُّ: {هل يستوي الأعمى} الذي لا يُبصر شيئًا ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يُهدى و{البصير} الذي يهدي الأعمى لمحجة الطريق الذي لا يُبصر؟ إنهما لا شك لغير مستويين. يقول: فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يُبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون الذين لا تعرفون حقا ولا تبصرون رَشَدًا"[٨].

قال مجاهد:" أما {الأعمى والبصير}، فالكافر والمؤمن"[٩].

قوله تعالى:{أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [الرعد : ١٦]، أي:" أم هل يستوي عندكم الكفر -وهو كالظلمات- والإيمان -وهو كالنور؟"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وهل تستوي الظلماتُ التي لا تُرَى فيها المحجة فتُسْلَك ولا يرى فيها السبيل فيُرْكَب والنور الذي تبصر به الأشياء ويجلو ضوءه الظّلام؟ يقول: إن

---

(١)أى: امتنعوا جبنا أو احتبسوا. أفاده الصحاح.
(٢) الكشاف:٥٢٢/٢.
(٣) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٥/١٦.
(٥) الكشف والبيان:٢٨٣/٥.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٤٦/٤.
(٧) التفسير الميسر:٢٥١.
(٨) تفسير الطبري:٤٠٦/١٦.
(٩) اخرجه الطبري(٢٠٣٠٥):ص٤٠٧/١٦.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥١.

هذين لا شك لغير مستويين، فكذلك الكفر بالله، إنما صاحبه منه في حَيرة يضرب أبدًا في غمرة لا يرجع منه إلى حقيقة، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء يعمل على علم بربه، ومعرفةٍ منه بأن له مثيبًا يثيبه على إحسانه ومعاقبًا يعاقبه على إساءته ورازقًا يرزقه ونافعًا ينفعه"[١].

قال مجاهد:" وأما {الظلمات والنور}، فالهدى والضلالة"[٢].

قوله تعالى:{أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ} [الرعد : ١٦]، أي:" أم أن أولياءهم الذين جعلوهم شركاء لله يخلقون مثل خَلْقه، فتشابه عليهم خَلْق الشركاء بخلق الله، فاعتقدوا استحقاقهم للعبادة؟"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخَلَق أوثانُكم التي اتخذتموها أولياء من دون الله خلقًا كخلق الله، فاشتبه عليكم أمرُها فيما خَلقت وخَلَق الله فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك، أم إنما بكم الجهل والذهابُ عن الصواب؟ فإنه لا يشكل على ذي عقل أنّ عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع من الفعل جهلٌ، وأن العبادة إنما تصلح للذي يُرْجَى نفعه ويُخْشَى ضَرَّه، كما أن ذلك غير مشكل خطؤه وجهلُ فاعله، كذلك لا يشكل جهل من أشرك في عبادة من يرزقه ويكفله ويَمُونه، من لا يقدِرُ له على ضررّ ولا نفع"[٤].

عن مجاهد: "{أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه}، حملهم ذلك على أن شكُّوا في الأوثان"[٥].

قال مجاهد: "{أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم}، ضُرِبت مثلا"[٦].

قال ابن كثير:" أي : أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق ، فخلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ؟ أي : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندّ له ولا عدْل له ، ولا وزير له ، ولا ولد ولا صاحبة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله : { مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر : ٣] فأنكر تعالى ذلك عليهم ، حيث اعتقدوا ذلك ، وهو تعالى لا يشفع عنده أحدإلا بإذنه ، { وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } [سبأ : ٢٣] ، { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } [النجم : ٢٦] وقال : { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } [مريم : ٩٣ - ٩٥] فإذا كان الجميع عبيدا ، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله ، فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ، { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف : ٤٩]"[٧].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد : ١٦]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: الله تعالى خالق كل كائن من العدم"[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين إذا أقرُّوا لك أن أوثانهم التي أشركوها في عبادة الله لا تخلق شيئًا، فاللهُ خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء، فما وجه إشراككم ما لا يخلق ولا يضرّ؟"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٤٠٦/١٦.
(٢) اخرجه الطبري(٢٠٣٠٥):ص٤٠٧/١٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٥١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٧/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٠٦):ص٤٠٧/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٣١٠):ص٤٠٨/١٦.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٤٦/٤-٤٤٧.
(٨) التفسير الميسر:٢٥١.

قال الزمخشري:" لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة"(٢).

قوله تعالى:{وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد : ١٦]، أي:" وهو الواحد القهار الذي يستحق الألوهية والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع"(٣).

قال الطبري:" وهو الفرد الذي لا ثاني له {القهار}، الذي يستحق الألوهة والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع"(٤).

قال الزمخشري:" {وهو الواحد}، المتوحد بالربوبية، {القهار}، لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور"(٥).

الفوائد:

١- بطلان الشرك إذ لا دليل عليه من عقل ولا نقل.

٢- وجوب العبادة لله تعالى.

١- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الواحد»، و«القهار»:

- فـ«الواحد»: " هو الذي توحّد بجميع الكمالات، وتفرّد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال، وحمد، وحكمة، ورحمة، وغيرها من صفات الكمال فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته، وقيوميته، وعلمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وجماله، وحمده، وحكمته، ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال، ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب على العبيد توحيده، عقداً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة"(٦).

قال الخطابي:" هو الفرد الذي لم يزل وحده؛ و لم يكن معه آخر. وقيل هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك، والنظير، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة؛ إذ كل شيء سواه يدعى واحدا فهو واحد من جهة غير واحد من جهات، والله -سبحانه- الواحد الذي ليس كمثله شيء، والواحد لا يثنى من لفظه ولا يقال واحدان"(٧).

- ومن أسمائه تعالى«القهار»: و" هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت"(٨).

القرآن

{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)} [الرعد : ١٧]

التفسير:

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للحق والباطل بماء أنزله من السماء، فجَرَت به أودية الأرض بقدر صغرها وكبرها، فحمل السيل غثاء طافيًا فوقه لا نفع فيه. وضرب مثلا آخر: هو المعادن يوقِدون عليها النار لصهرها طلبًا للزينة كما في الذهب والفضة، أو طلبًا لمنافع ينتفعون بها كما في النحاس، فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذي كان مع الماء، بمثل هذا يضرب الله المثل

---

(١) تفسير الطبري:٤٠٨/١٦.

(٢) الكشاف:٥٢٢/٢.

(٣) التفسير الميسر:٢٥١.

(٤) تفسير الطبري:٤٠٨/١٦.

(٥) الكشاف:٥٢٢/٢.

(٦) اسماء الله الحسنى للسعدي:١٦٧، وانظر: التفسير: ٥/ ٦٢١،٦٢٠، وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع =الأخبار :١٦٥.

(٧) شأن الدعاء: ٨٢.

(٨) شان الدعاء:٥٣.

للحق والباطل: فالباطل كغثاء الماء يتلاشى أو يُرْمى إذ لا فائدة منه، والحق كالماء الصافي، والمعادن النقية تبقى في الأرض للانتفاع بها، كما بيَّن لكم هذه الأمثال، كذلك يضربها للناس؛ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

قوله تعالى:{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد : ١٧]، أي:" أنزل تعالى من السماء مطراً، ففجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحَسَبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره"(١).

قال ابن كثير:" أي : مطرا، أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير فوسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علما كثيرا ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها "(٢).

قال الفراء:" ضربه مثلا للقرآن إذا نزل عليهم لقوله: {فسالت أودية بقدرها}، يقول: قبلته القلوب بأقدارها وأهوائها"(٣).

قال ابن قتيبة:" هذا مثل ضربه الله للحق والباطل. يقول: الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، ومثل ذلك مطر جود، أسال الأودية بقدرها: الكبير على قدره، والصغير على قدره"(٤).

عن ابن عباس: "{أودية بقدرها}، قال: الصغير بصغره، والكبير بكبره"(٥).

عن مجاهد: "{أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها}، قال: ما أطاقت ملأها"(٦).

قوله تعالى:{فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} [الرعد : ١٧]، أي:" حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء، ورغوة تظهر على وجه الماء"(٧).

قال ابن عباس:" يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودِمْنة"(٨).

قال ابن كثير:" فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه ، هذا مثل"(٩).

قال ابن قتيبة:" أي: عاليا على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق"(١٠).

قال الفراء:" يذهب لا منفعة له، كذلك ما سكن في قلب من لم يؤمن وعبد آلهته وصار لا شيء في يده"(١١).

عن قتادة:"{رابيًا}، أي: عاليًا"(١٢).

قال ابن زيد:" هذا الزبد لا ينفع"(١٣).

قوله تعالى:{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} [الرعد : ١٧]، أي:" ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس، مما يُسبك في النار طلب الزينةِ أو الأشياء التي يُنتفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل، لا يُنْتفع به كما لا يُنْتفع بَزَبد السيل"(١٤).

---

(١) صفوة التفاسير:٧٤/٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٤.
(٣) معاني القرآن:٦٢/٢.
(٤) تاويل مشكل القرآن:١٩٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٣):ص٤١٤/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٣١٤):ص٤١١/١٦.
(٧) صفوة التفاسير:٧٤/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٣١٢):ص٤١٠/١٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٤.
(١٠) تاويل مشكل القرآن:١٩٦.
(١١) معاني القرآن:٦٢/٢.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٣١٩):ص٤١٢/١٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٢):ص٤١٣/١٦.
(١٤) صفوة التفاسير:٧٤/٢.

قال ابن كثير:" هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة { ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ } أي : ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدًا ، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه ، كما يعلو ذلك زبد منه "[(١)].

قال ابن قتيبة:" ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير ويوقد عليها. يعني الذهب والفضة للحلية، والشبه والحديد للآلة، حيث يعلوها مثل زبد الماء"[(٢)].

عن ابن عباس:" {ومما يوقدون عليه في النار}، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، وللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء"[(٣)].

قال مجاهد: " «المتاع»: الحديد والنحاس والرصاص وأشباهه، {زبد مثله}، قال: خَبَثُ ذلك مثل زَبَد السيل"[(٤)].

قال قتادة:" هو الذهب إذا أدخل النار بقي صَفْوه ونُفِيَ ما كان من كَدَره، وهذا مثل ضربه الله. للحق والباطل...«المتاع»، الصُّفْر والحديد"[(٥)].

عن ابن زيد:" {أو متاع زبد مثله}، هذا لا ينفع أيضًا، قال: وبقي الماءُ في الأرض فنفع الناس، وبقي الحَلْيُ الذي صلح من هذا، فانتفع الناس به"[(٦)].

قال الطبري:" وقيل للنحاس والرصاص والحديد في هذا الموضع"المتاع"، لأنه يستمتع به، وكل ما يتمتع به الناس فهو"متاع"، كما قال الشاعر[(٧)]:

تَمَتَّعْ يا مُشَعَّثُ إنَّ شَيْئًا سَبَقْتَ بِهِ المَمَاتَ هُوَ المَتَاعُ"[(٨)]

قوله تعالى:{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} [الرعد : ١٧]، أي:" كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمَثَل للباطل، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل"[(٩)].

قال ابن كثير:" أي : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل"[(١٠)].

قوله تعالى:{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} [الرعد : ١٧]، أي:" فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزّق ويذهب في جانبَي الوادي"[(١١)].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٤.
(٢) تاويل مشكل القرآن:١٩٦-١٩٧.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣١٢):ص٤١٠/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٣١٤):ص٤١١/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٠):ص٤١٣/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٢):ص٤١٣/١٦-٤١٤.
(٧)هو المشعث العامري، وبهذا البيت سمي" مشعثًا". انظر: الأصمعيات رقم: ٤٨، ومعجم الشعراء: ٤٧٥، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٣٢٨، واللسان (متع) ، وهي أبيات جياد، يقول بعد البيت: بإِصْر يَتَّرِكْنِي الحيُّ يومًا ... رَهينةَ دَارِهِمْ، وَهُمُ سِرَاعُ
وجاءَتْ جَيْألُ وَأبُو بَنِيهَا ... أَحَمُّ المَأْقِيَيْنِ بِهِ خُمَاعُ
فظَلاَّ ينْبِشانِ التُّرْبَ عنِّي ... وما أنَا وَيْبَ غيْرك والسِّباعُ
يقول: ليأتيني الأجل، فيتركني أهلي دفينًا في ديارهم، ثم يسرعون الرحيل. ثم تأتي" جيأل"، وهي أنثى الضباع، ويأتي ذكرها، أسود مأق العين، يخمع ويعرج، فينبشان الترب عني، ولا دفع عندي لما يفعلان.
(٨) تفسير الطبري:٤١٤/١٦.
(٩) صفوة التفاسير:٧٤/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٤.
(١١) صفوة التفاسير:٧٤/٢.

قال ابن كثير:" أي : لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ، لا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به"[١].

قال ابن قتيبة:" أي: يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وبجنبات الوادي، وكذلك خبث الفلز يقذفه الكير. فهذا مثل الباطل"[٢].

عن مجاهد: " {وأما الزبد فيذهب جفاء}، قال: فذلك مثل الحق والباطل"[٣].

قال قتادة:" «الجفاء»: ما يتعلق بالشجر "[٤].

وفي رواية عن قتادة:" يتعلق بالشجر فلا يكون شيئًا. هذا مثل الباطل"[٥].

قوله تعالى:{وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد : ١٧]، أي:" وأمّا ما ينتفع الناس به الماء الصافي، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض"[٦].

قال ابن قتيبة:" وأما ما الماء الذي ينفع الناس وينبت المرعى فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من الفلز يبقى خالصا لا شوب فيه. فهو مثل الحق"[٧].

قال مجاهد:" يعني الماء. وهما مثلان: مثل الحق والباطل"[٨].

قال قتادة:" وهذا يخرج النبات. وهو مثل الحق"[٩].

قال ابن عباس:" فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيءُ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، وبقي كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن تجعل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النّار فتأكل خبَثَه، فيخرج جيّده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق"[١٠].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد : ١٧]، أي:" مِثْلَ المَثَلين السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا"[١١].

قال عطاء:" ضرب الله مثلا للحق والباطل، فضرب مثل الحق كمثل السيل الذي يمكث في الأرض، وضرب مثل الباطل كمثل الزبد الذي لا ينفع الناس"[١٢].

وعن ابن عباس أيضا قوله: "{أنزل من السماء ماء فسالت أوديه بقدرها} فهذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: {فأما الزبد فيذهب جفاء} ، وهو الشك، {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}، وهو اليقين، كما يُجْعل الحَلْيُ في النار فيؤخذ خالصُه ويترك خَبَثُه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك"[١٣].

قال عوف: "بلغني في قوله: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} قال: إنما هو مثل ضربه الله للحق والباطل {فسالت أودية بقدرها} الصغير على قدره، والكبير على قدره، وما

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٤.
(٢) تاويل مشكل القرآن:١٩٧.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣١٤):ص٤١١/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٣١٩):ص٤١٢/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٠):ص٤١٣/١٦.
(٦) صفوة التفاسير:٧٤/٢.
(٧) تاويل مشكل القرآن:١٩٧.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٣١٥):ص٤١١/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٠):ص٤١٣/١٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٣١٢):ص٤١٠/١٦-٤١١.
(١١) صفوة التفاسير:٧٤/٢-٧٥.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٤):ص٤١٤/١٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٣١١):ص٤١٠/١٦.

بينهما على قدره {فاحتمل السيل زبدًا رابيًا} يقول: عظيمًا، وحيث استقرَّ الماءُ يذهب الزبد جفاءً فتطير به الريح فلا يكون شيئًا، ويبقى صريح الماء الذي ينفع الناس، منه شرابهم ونباتهم ومنفعتهم {أو متاع زبد مثله}، ومثل الزبد كلّ شيء يوقد عليه في النار الذهب والفضة والنحاس والحديد، فيذهب خَبَثُه ويبقى ما ينفع في أيديهم، والخبث والزَّبد مثل الباطل، والذي ينفع الناس مما تحصَّل في أيديهم مما ينفعهم المال الذي في أيديهم"(١).

عن الحسن، في قوله: "{أنزل من السماء ماء فسالت أودية} إلى: {أو متاع زبد مثله}، فقال: ابتغاء حلية الذهب والفضة، أو متاع الصُّفْر والحديد. قال: كما أوقد على الذهب والفضة والصُّفْر والحديد فخلص خالصه. قال: {كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} ، كذلك بقاء الحق لأهله فانتفعوا به"(٢).

قال قتادة:" " هذه ثلاثة أمثال ضربَها الله في مثلٍ واحد. يقول: كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جُفاءً لا ينتفع به ولا تُرْجى بركته، كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله كما اضمحل هذا الزبد، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات- قوله: {ومما توقدون عليه في النار} الآية، كما يبقى خالص الذهب والفضة حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله- قوله: {أو متاع زبد مثله} ، يقول: هذا الحديد والصُّفْر الذي ينتفع به فيه منافع. يقول: كما يبقى خالص هذا الحديد وهذا الصُّفر حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي خالصهما"(٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله معقباً على الآية: " فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياة القلوب، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية، لأنّها محلّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً، وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً، وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنَّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنّه يذهب جفاءً، أي: يرمى به، ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال: {وممَّا يوقدون عليه في النَّار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل} [الرعد: ١٧] . فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأولُ للحياة، والثاني للضياء.

وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيراً " وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الَّذي استوقد ناراً فلمَّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون - صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون - أو كصيبٍ من السَّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصَّواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) [البقرة: ١٧-١٩] .

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن، بين وصف الكافر، فقال: " وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها حصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الله - سبحانه - جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه ".

ثم بيّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال: " فالأصل الأول يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٢١):ص١٦/٤١٣.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٣١٣):ص١٦/٤١١.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣١٩):ص١٦/٤١٢.

والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه. والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنّة والنار والثواب والعقاب ".
ثم بيّن أنَّ " على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه "[١].

قال ابن كثير:" قال بعض السلف : كنت إذا قرأتُ مثلا من القرآن فلم أفهمه بَكَيت على نفسي ؛ لأن الله تعالى يقول : { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ }"[٢].

الفوائد:

١- بيان حاجة البشرية إلى الرسل-عليهم السلام-.
٢- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.
٣- ثبات الحق، واضمحلال الباطل سنة من سنن الله تعالى.
٤- ومن الفوائد أن السماء معني العلو وارد في اللغة، بل في القرآن، قال تعالي: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: ١٧]، والمراد بالسماء العلو، لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ، والسحاب في العلو بين السماء والأرض، كما قال الله تعالي: {الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [البقرة: ١٦٤]، فيكون معني {مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي: من في العلو[٣].

القرآن

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)} [الرعد : ١٨]

التفسير:

للمؤمنين الذين أطاعوا الله ورسوله الجنة، والذين لم يطيعوا وكفروا به لهم النار، ولو كانوا يملكون كل ما في الأرض وضِعْفه معه لبذلوه فداء لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة، ولن يُتَقبل منهم، أولئك يحاسَبون على كل ما أسلفوه من عمل سيِّئ، ومسكنهم ومقامهم جهنم تكون لهم فراشًا، وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم.

قوله تعالى:{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [الرعد : ١٨]، أي:" للمؤمنين الذين أطاعوا الله ورسوله الجنة"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دعاهم إلى الإيمان به، وأطاعوه فاتبعوا رسوله وصدّقوه فيما جاءهم به من عند الله، فإن لهم الحسنى، وهي الجنة"[٥].

وفي قوله تعالى:{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [الرعد : ١٨]، وجوه:
أحدها : أنها الجنة، رواه أبي بن كعب عن النبي -ﷺ-، وبه قال قتادة[٦]، ومقاتل[٧].
الثاني : أن «الحسنى» هى كل خير من الجنة فما دونها. قاله ابو عبيدة[٨].
والثالث : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد .
والرابع: أن تكون مضاعفة الحسنات. افاده الماوردي[١].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/٩٣-٩٦.[بتصرف]
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٤٤٧.
(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية:١/٣٩٨.
(٤) التفسير الميسر:٢٥١.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٤١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٢٦):ص١٦/٤١٦.
(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٧٤.
(٨) انظر: مجاز القرآن:١/٣٢٩.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ} [الرعد : ١٨]، أي:" والذين لم يطيعوا وكفروا به لهم النار، ولو كانوا يملكون كل ما في الأرض وضِعْفه معه لبذلوه فداء لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة، ولن يُتَقبل منهم"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيده والإقرار بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمرهم به، ولم يتبعوا رسوله فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أن لهم ما في الأرض جميعًا من شيء ومثله معه ملكًا لهم، ثم قُبِل مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلا من العذاب الذي أعدّه الله لهم في نار جهنم وعوضًا، لافتدوا به أنفسهم منه"(٣).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد : ١٨]، أي:" أولئك يحاسَبون على كل ما أسلفوه من عمل سيِّئ"(٤).

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله لهم سوء الحساب: يقول: لهم عند الله أن يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئا، ولكن يعذبهم على جميعها"(٥).

وفي قوله تعالى:{سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد : ١٨]، ستة اقوال:

أحدها : أن يؤاخذوا بجميع ذنوبهم فلا يعفى لهم عن شيء منها ، قاله شهر بن حوشب(٦)، وإبراهيم النخعي(٧).

قال السجستاني:" سوء الحساب: أن يؤخذ العبد بخطاياه كلها، لا يغفر له منها شيء"(٨).

وروي عن عائشة رضي الله عنها- عن النبي-ﷺ- : مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ"(٩).

وفي رواية أخرى:" من نُوقش الحسابَ عُذِّب"(١٠).

وفي رواية:" "من نُوقش الحساب لم يُغفر له ... "(١١).

الثاني : أنه المناقشة في الأعمال ، قاله أبو الجوزاء(١٢).

الثالث : أنه التقريع والتوبيخ ، حكاه ابن عيسى(١٣).

الرابع : أنه الحساب الذي لا تساهل فيه. قاله ابن زيد(١٤).

قا ابن ابي زمنين:"{سوء الحساب}: شدته"(١٥).

الخامس: ألا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأن كفرهم أحبط أعمالهم، كما قال: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد : ١]. قاله الزجاج(١).

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٠٧/٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٥١.
(٣) تفسير الطبري:٤١٦/١٦.
(٤) التفسير الميسر:٢٥١.
(٥) تفسير الطبري:٤١٧/١٦.
(٦)انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٢٧):ص٤١٧/١٦ .
(٧)انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٢٨):ص٤١٧/١٦ .
(٨) غريب القرآن:٢٧٥.
(٩)المشهور عن عائشة مرفوعًا كما في صحيح البخاري (٤٩٣٩، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦): «من نُوقِش الحساب هلك»، وفي رواية: «عُذِّب». كما سيأتي.
وأخرجه الطبري:٣١٤/١٤. الخبر غير مرقم، والترمذي في سننه- صفة القيامة ٩/ ٢٥٨
(١٠) أخرجه ابن وهب في تفسيره(١٧٣):ص٧٧/١، وعبدالرزاق في تفسيره(٢٤٠٩):ص٦١/٣، والطبري(١٠٥٣٠):ص٢٤٤/٩.
(١١)الحديث بهذا اللفظ: "من نُوقش الحساب لم يُغفر له ... " الحديث، قال في ذخيرة الحفاظ (٤/ ٢٤٢٨): فيه عبيد الله بن أبي زياد القداح وهو ضعيف، وروى الحديث ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٢٧)، وابن المبارك في الزُّهد (١/ ٤٦٦).
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٣١):ص٤٢٠/١٦.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٣.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٣٤):ص٤٢٠/١٦-٤٢١.
(١٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٥٣/٢.

والسادس : أن يكون سوء الحساب ما أفضى إليه حسابهم من السوء وهو العقاب. أفاده الماوردي[٢].

قوله تعالى:{وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [الرعد : ١٨]، أي:" ومسكنهم ومقامهم جهنم تكون لهم فراشًا"[٣].

قال الطبري:" يقول: ومسكنهم الذي يسكنونه يوم القيامة جهنم"[٤].

قال ابن عطية:" «المأوى» : حيث يأوي الإنسان ويسكن"[٥].

قوله تعالى:{وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد : ١٨]، أي:" وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم"[٦].

قال الطبري:" يقول: وبئس الفراش والوطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة"[٧].

قال ابن عطية:" «الْمِهاد»: ما يفترش ويلبس بالجلوس والرقاد[٨].

الفوائد:

١- بيان وعد الله للمستجيبين له بالإيمان والطاعة وهي الجنة.

٢- بيان وعيد الله لمن يستجب له بالإيمان والطاعة.

٣- قسم الله عباده في الحساب قسمين:

- الأول: من يكون حسابه يسيراً وهم أهل اليمين، قال تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: ٧ - ٨].
- الثاني: من يلقى سوء الحساب وهم أهل جهنم، قال تعالى: لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [الرعد: ١٨].

وفي نصوص السنة دلالة على أن المؤمنين في الحساب ثلاثة أصناف:

- فصنف لا يحاسب، وهؤلاء طائفة من أمة محمد ﷺ أخبر عنهم ﷺ، وعدتهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب، ففي الحديث: "عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سواداً سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل: انظر، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب"[٩]. وفي رواية: "هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب"[١٠].

فهذه زيادة فضيلة لهؤلاء أنهم يتقدمون الأمة، وجاء في وصفهم أنهم يدخلون الجنة: "متماسكين آخذ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر"[١١].

وفي حديث آخر أنهم يدخلون زمرة واحدة[١٢]. وفي رواية في الصحيحين: «سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف» شك من الراوي [١٣].

---

(١) انظر: معاني القرآن:١٤٦/٣، وذكره الماوردي دون نسبة في النكت والعيون:١٠٨/٣.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٥١.
(٤) تفسير الطبري:٤١٧/١٦.
(٥) المحرر الوجيز:٣٠٨/٣.
(٦) التفسير الميسر:٢٥١.
(٧) تفسير الطبري:٤١٧/١٦.
(٨) المحرر الوجيز:٣٠٨/٣.
(٩)رواه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما..
(١٠)رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢١٦). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(١١)رواه البخاري (٦٥٥٤)، ومسلم (٢١٩). من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(١٢)رواه مسلم (٢١٧). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٣)رواه البخاري (٦٥٤٣)، ومسلم (٢١٩). من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

ووقع في أحاديث أخرى في غير الصحيحين أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم[1].

- والصنف الثاني: لا يناقشون الحساب، وإنما تعرض أعمالهم ثم يتجاوز لهم عنها، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب» فقالت عائشة: «أو ليس يقول الله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا - فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك"[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "سمعت النبي ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف قلت: يا نبي الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه – «وفي رواية قال: الرجل تعرض عليه ذنوبه ثم يتجاوز له عنها» - أن من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك"[3].

- والصنف الثالث: يناقشون الحساب ويسألون فيه عن أعمالهم، يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته [4]. ومن أمثلة هذا الصنف الذي يناقش الحساب وتوزن حسناته وسيئاته صاحب البطاقة الذي قال فيه ﷺ: "إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فبهت الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء"[5].

فهذه دلائل على تفاضل المؤمنين في الحساب.

وفي هذا الباب تظهر فضيلة خص الله بها أمة محمد ﷺ وهي اختصاصها بشهادتها للأنبياء على أممهم، وبشهادة رسولهم ﷺ عليها، قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣]. وقال عز وجل: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [الحج: ٧٨]. وتكون شهادة هذه الأمة على نحو ما قال صلى الله عليه وسلم: "يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ والوسط: العدل"[6][7].

٤- بيان مطالب أهل النار في الآخرة، فمنها:

---

(١)فتح الباري:١١/ ٤١٠.

(٢)رواه البخاري (١٠٣). من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣)رواه أحمد (٦/ ٤٨) (٢٤٢٦١)، والحاكم (١/ ١٢٥). هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٥/ ١٧٥): أصله في الصحيح، وجود إسناده الألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (٣/ ١٠٠٧).

(٤)الفتاوى: ٣/ ١٤٦.

(٥)رواه الترمذي (٢٨٥٠)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والحاكم (١/ ٤٦، ٥٢٩). قال قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه ابن حجر في ((هداية الرواة)) (٥/ ١٧٣) - كما أشار إلى ذلك في مقدمته -. وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١١/ ١٧٦): إسناده صحيح. وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.

(٦)رواه البخاري (٣٣٣٩). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٧) انظر: مباحث المفاضلة في العقيدة لمحمد بن عبدالرحمن الشظيفي -ص: ٣٩٨.

أ- طلب الفداء: قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}[المائدة: ٣٦، ٣٧].

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض: هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً، ولكن السياق يفترض لهم، ما فوق الخيال في عالم الافتراض، فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك لينجوا به من عذاب يوم القيامة ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم، إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات، منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معهم، ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به ومنظرهم وهم مخيبوا الطلب غير مقبولي الرجاء، ومنظرهم وهم يدخلون النار، ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها، ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء، ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك.

قال تعالى:{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[الرعد، آية: ١٨]. أي: من مات فلن يقبل منه خيراً أبداً ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها [1].

قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ}[آل عمران: ١٠].

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ولكنهما لا يغنيان شيئاً في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه لأنه لا خلاف لميعاد الله وهم فيه " وَقُودُ النَّارِ" .. بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص الإنسان ومميزاته ويصورهم في صورة الحطب والخشب وساء ... " وَقُودُ النَّارِ" لا بل إن الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغني شيئاً في الدنيا[2].

قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الزمر: ٤٧، ٤٨].

إنه الهول الملفوف في ثنايا التعبير الرهيب، فلو أن لهؤلاء الظالمين، لو أن لهؤلاء " مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا" مما يحرصون عليه " وَمِثْلَهُ مَعَهُ" لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة. وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف " وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ" ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه. لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف، فهو الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف ما لا يتوقعون هكذا بلا تعريف ولا تحديد {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}.

وهذه كذلك تزيد الموقف سوءاً، حين يتكشف لهم قبح ما فعلوه، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير وهم في ذلك الموقف الأليم[3].

ب- ومن مطالبهم أيضا: طلب العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٠).
(٢) انظر: في ظلال القرآن :١/ ٣٧٣، مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة رجب بخيت:٢٠.
(٣) انظر: في ظلال القرآن :٥/ ٣٠٥٦.

قال تعالى:{وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الأنعام: ٢٧، ٢٨].

ت- طلب الانتقام من الأولياء:

قال تعالى:{قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}[الأعراف: ٣٨، ٣٩].

ث- طلب الاستنجاد بالشركاء والأولياء:

قال تعالى: {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

وفي قوله تعالى:{ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ}، أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، وقوله: {وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فليه من العذاب والنكال[١].

وقال القرطبي: "فلا أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي، والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمصرخ هو المغيث"[٢].

ج- طلب الخروج من النار:

قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ}[المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٧].

وفي {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم}، يعني: حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم: {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ}، أي: يصرخون ويستغيثون ـ {فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ}، أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم، {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ}، قيل مستكبرين بالبيت يقولون: نحن أهله سامراً وكانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه[٣].

ح- طلب التخفيف من العذاب:

قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

خ- طلب القضاء عليهم:

قال تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}[الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨].

د- طلب سقيا الماء والطعام:

---

(١) انظر: مطالب الظالمين :٨٥.

(٢)تفسير القرطبي :٩/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) انظر: مطالب الظالمين:١١٦، وتفسير ابن كثير :٣/ ٢٥٧.

قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}[الأعراف: ٤٨ - ٥١].

ذ- طلب النور:

قال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[الحديد: ١٣ - ١٤][(١)].

القرآن

{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)} [الرعد : ١٩]

التفسير:

هل الذي يعلم أن ما جاءك -أيها الرسول- من عند الله هو الحق فيؤمن به، كالأعمى عن الحق الذي لم يؤمن؟ إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها " نزلت في أبي جهل لعنه الله وحمزة رضي الله عنه". حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس[(٢)]، وذكره الواحدي[(٣)]، وابن عطية[(٤)]، والبغوي[(٥)].

الثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام. حكاه ابن عطية[(٦)]، والبغوي[(٧)].

ثم قال ابن عطية: "وهي -بعد هذا- مثال في جميع العالم"[(٨)].

قوله تعالى:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [الرعد : ١٩]، أي:" هل الذي يعلم أن ما جاءك -أيها الرسول- من عند الله هو الحق فيؤمن به، كالأعمى عن الحق الذي لم يؤمن؟"[(٩)].

قال الطبري:" قول تعالى ذكره: أهذا الذي يعلم أنّ الذي أنزله الله عليك، يا محمد، حق فيؤمن به ويصدق ويعمل بما فيه، كالذي هو أعمى فلا يعرف موقع حُجَة الله عليه به ولا يعلم ما ألزمه الله من فَرَائصه؟"[(١٠)].

قال ابن ابي زمنين:" أي: أنهما لا يستويان؛ يعني: المؤمن والكافر"[(١١)].

قال ابن عطية: معناه :" التقرير، والمعنى: أسواء من هداه الله فعلم صدق نبوتك وآمن بك، ومن لم يهتد ولا رزق بصيرة فبقي على كفره، فمثل عز وجل ذلك بالعمى.. فالأول حمزة

---

(١) انظر: الإيمان باليوم الآخر، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي: ٢٣-٢٥٠.[بتصرف]
(٢) انظر: زاد المسير:٤٩٢/٢.
(٣) الوجيز:٥٧٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز:٣٠٩/٣.
(٥) انظر: تفسير البغوي:٣٠٩/٤.
(٦) انظر: المحرر الوجيز:٣٠٩/٣.
(٧) انظر: تفسير البغوي:٣٠٩/٤.
(٨) المحرر الوجيز:٣٠٩/٣.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤١٨/١٦.
(١١) تفسير ابن أبي زمنين:٣٥٣/٢.

أو عمار، والثاني أبو جهل، وهو الأعمى. أي: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه"[(١)].

قال قتادة:" هؤلاء قوم انتفعُوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووَعَوْه، قال الله: {كمن هو أعمى}، قال: عن الخير فلا يبصره"[(٢)].

قوله تعالى:{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد : ١٩]، أي:" إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة"[(٣)].

قال الطبري:" يقول: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول، وهي«الألباب» واحدها:«لُبٌّ»"[(٤)].

قال ابن ابي زمنين:" {أولو الألباب} العقول؛ وهم المؤمنون"[(٥)].

قال الزمخشري:" الخطاب للأصحاب وذوي العقول"[(٦)].

قال الواحدي:أي:" يتَّعظ ويرتدع عن المعاصي {أولو الألباب}، يعني: المهاجرين والأنصار"[(٧)].

قال ابن الجوزي:" أي: إنما يتعظ ذوو العقول. والتذكر: الاتعاظ"[(٨)].

الفوائد:

١- المؤمن حي يبصر ويعلم ويعمل والكافر ميت أعمى لا يعلم ولا يعمل.
٢- الاتعاظ بالمواعظ يحصل لذي عقل راجح سليم.
٣- من صفات المؤمن: سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق

إذ لا يستوي من يؤمن بالله واليوم الآخر ويوقن بيوم الحساب والجزاء ولا يغفل عنه، ومن لا يؤمن بالآخرة، أو يؤمن بها ولكنه في لهو وغفلة عنها، لا يستويان أبدا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الآخرة فيوضحه قوله تعالى: {لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون} [الحشر:٢٠].

وأما في الحياة الدنيا فلا يلتقي أبدا من يعلم أن له غاية عظيمة في هذا الحياة، وأن مرده إلى الله عز وجل في يوم الجزاء والحساب والنشور، مع من لا يعلم من هذه الحياة الدنيا إلا ظاهرها، وأنها كل شيء عنده، وهو عن الآخرة من الغافلين. قال تعالى: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب}[الرعد:١٩].

١- فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور؟ فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم
مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نورا ويعمي أعين الخفاش

قال تعالى: {يكاد البرق يخطف أبصارهم}[التغابن]. {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب}[الرعد:١٩].

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نورا، فما له من نور.

---

(١) المحرر الوجيز:٣٠٩/٣.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٢٩):ص٤١٨/١٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٢.
(٤) تفسير الطبري:٤١٨/١٦.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٥٣/٢.
(٦) الكشاف:٢٨٤/٥.
(٧) الوجيز:٥٧٠.
(٨) زاد المسير:٤٩٢/٢.

القرآن

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)} [الرعد : ٢٠]

التفسير:

الذين يوفون بعهد الله الذي أمرهم به، ولا ينكثون العهد المؤكد الذي عاهدوا الله عليه.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ} [الرعد : ٢٠]، أي: " الذين يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلَّف بها عباده"(١).

قال الطبري:أي:" الذين يوفون بوصية الله التي أوصاهم بها"(٢).

قال قتادة:" فعليكم بوفاء العهد، ولا تنقضوا هذا الميثاق، فإن الله تعالى قد نهى وقدَّم فيه أشد التَّقْدمة، فذكره في بضع وعشرين موضعًا، نصيحةً لكم وتقدِمَةً إليكم، وحجة عليكم، وإنما يعظُمُ الأمر بما عظَّمه الله به عند أهل الفهم والعقل، فعظِّموا ما عظم الله. قال قتادة: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته:«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»"(٣).

قوله تعالى:{وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد : ٢٠]، أي:" لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله، وبين العباد"(٤).

قال الطبري:أي:" ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله عليه إلى خلافه، فيعملوا بغير ما أمرهم به، ويخالفوا إلى ما نهى عنه"(٥).

القرآن

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)} [الرعد : ٢١]

التفسير:

وهم الذين يَصِلون ما أمرهم الله بوصله كالأرحام والمحتاجين، ويراقبون ربهم، ويخشون أن يحاسبهم على كل ذنوبهم، ولا يغفر لهم منها شيئًا.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد : ٢١]، أي: وهم الذين" يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين يصلون الرَّحم التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونها"(٧).

قال ابن كثير:"من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف "(٨).

قوله تعالى:{وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} [الرعد : ٢١]، أي:" يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً"(٩).

قال الطبري:" يقول: ويخافون الله في قطعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها وعلى خلافهم أمرَه فيها"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله في ذلك ، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية "(١١).

---

(١) صفوة التفاسير:٧٥/٢.
(٢)تفسير الطبري:٤١٩/١٦ .
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٠):ص٤١٩/١٦-٤٢٠.
(٤) صفوة التفاسير:٧٥/٢.
(٥)تفسير الطبري:٤١٩/١٦ .
(٦) صفوة التفاسير:٧٥/٢.
(٧) تفسير الطبري:٤٢٠/١٦.
(٨) تفسير ابن كثير:٤٥٠/٤.
(٩) صفوة التفاسير:٧٥/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤٢٠/١٦.
(١١) تفسير ابن كثير:٤٥٠/٤.

قوله تعالى:{وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد : ٢١]، أي:" يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار"[١].

قال الطبري:" يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده"[٢].

وفي قوله تعالى:{سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد : ٢١]، وجوه:

أحدها : أن يؤاخذوا بجميع ذنوبهم فلا يعفى لهم عن شيء منها ، قاله شهر بن حوشب[٣]، وإبراهيم النخعي[٤].

الثاني : أنه المناقشة في الأعمال ، قاله أبو الجوزاء[٥].

الثالث : أنه التقريع والتوبيخ ، حكاه ابن عيسى[٦].

الرابع : أنه الحساب الذي لا تساهل فيه. قاله ابن زيد[٧].

الخامس: ألا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأن كفرهم أحبط أعمالهم، كما قال: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد : ١]. قاله الزجاج[٨].

والسادس : أن يكون سوء الحساب ما أفضى إليه حسابهم من السوء وهو العقاب. أفاده الماوردي[٩].

القرآن

{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)} [الرعد : ٢٢]

التفسير:

وهم الذين صبروا على الأذى وعلى الطاعة، وعن المعصية طلبًا لرضا ربهم، وأدَّوا الصلاة على أتمِّ وجوهها، وأدَّوا من أموالهم زكاتهم المفروضة، والنفقات المستحبة في الخفاء والعلن، ويدفعون بالحسنة السيئة فتمحوها، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم العاقبة المحمودة في الآخرة.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد : ٢٢]، أي:" وهم الذين صبروا على الأذى وعلى الطاعة، وعن المعصية طلبًا لرضا ربهم"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين صبروا على الوفاء بعهد الله، وترك نقض الميثاق وصلة الرحم{ابتغاء وجه ربهم}، ويعني بقوله: {ابتغاء وجه ربهم}، طلب تعظيم الله، وتنزيهًا له أن يُخالَفَ في أمره أو يأتي أمرًا كره إتيانه فيعصيه به"[١١].

قال ابن كثير:" أي : عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه "[١٢].

قوله تعالى:{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الرعد : ٢٢]، أي:" وأدَّوا الصلاة على أتمِّ وجوهها"[١٣].

قال الطبري:" يقول: وأدُّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٧٥/٢.
(٢) تفسير الطبري:٤٢٠/١٦.
(٣)انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٢٧):ص٤١٧/١٦ .
(٤)انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٢٨):ص٤١٧/١٦ .
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٣١):ص٤٢٠/١٦ .
(٦) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٣٤):ص٤٢٠/١٦-٤٢١.
(٨) انظر: معاني القرآن:١٤٦/٣، وذكره الماوردي دون نسبة في النكت والعيون:١٠٨/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٣.
(١٠)التفسير الميسر:٢٥٢.
(١١) تفسير الطبري:٤٢١/١٦.
(١٢) تفسير ابن كثير:٤٥٠/٤-٤٥١.
(١٣)التفسير الميسر:٢٥٢.

قال ابن كثير:أي:" بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي "[٢].

عن ابن عباس، قوله: "{وأقاموا الصلاة}، يعني: الصلوات الخمس"[٣].

قوله تعالى:{وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [الرعد : ٢٢]، أي:" وأدَّوا من أموالهم زكاتهم المفروضة، والنفقات المستحبة في الخفاء والعلن"[٤].

قال الطبري:" يقول: وأدَّوا من أموالهم زكاتها المفروضة وأنفقوا منها في السبل التي أمرهم الله بالنفقة فيها {سرًّا} في خفاء {وعلانية} في الظاهر"[٥].

قال ابن كثير:" أي : على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومحاويج ومساكين،{ سِرًّا وَعَلانِيَةً } أي : في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، في آناء الليل وأطراف النهار"[٦].

عن ابن عباس: " {وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية}، يقول: الزكاة"[٧].

قال ابن زيد: "«الصبر»، الإقامة، وقال: «الصبر» في هاتين، فصبرٌ لله على ما أحبَّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، وصبرٌ عمَّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين. وقرأ: {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} [سورة الرعد:٢٤]"[٨].

قوله تعالى:{وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} [الرعد : ٢٢]، أي:" ويدفعون بالحسنة السيئة فتمحوها"[٩].

قال الطبري:" يقول: ويدفعون إساءة من أساء إليهم من الناس، بالإحسان إليهم"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا ، كما قال تعالى : { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [فصلت : ٣٤ ، ٣٥] "[١١].

قال ابن زيد:" يدفعون الشر بالخير، لا يكافئون الشرّ بالشر، ولكن يدفعونه بالخير"[١٢].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد : ٢٢]، أي:" أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم العاقبة المحمودة في الآخرة"[١٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، هم الذين {لهم عقبى الدار}، يقول: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان، من دارهم التي لو لم يكونوا مؤمنين كانت لهم في النار، فأعقبهم الله من تلك هذه، وقد قيل: معنى ذلك: أولئك الذين لهم عقِيبَ طاعتهم ربَّهم في الدنيا، دارُ الجنان"[١٤].

فوائد الآيات:[٢٠-٢٢]:

---

(١) تفسير الطبري:٤٢١/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٥١/٤.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٥):ص٤٢١/١٦.
(٤)التفسير الميسر:٢٥٢.
(٥) تفسير الطبري:٤٢١/١٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٥١/٤.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٥):ص٤٢١/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٦):ص٤٢٢/١٦.
(٩)التفسير الميسر:٢٥٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤٢٢/١٦.
(١١) تفسير ابن كثير:٤٥١/٤.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٧):ص٤٢٢/١٦.
(١٣)التفسير الميسر:٢٥٢.
(١٤) تفسير الطبري:٤٢٢/١٦.

١- فضل هذه الصفات الثمانية المذكورة في هذه الآيات. أولها الوفاء بعهد الله وآخرها درء السيئة بالحسنة.

ففصلت الآيات في ذكر الأعمال الصالحة التي يستحق بها أصحابها الجنة تفصيلاً كثيراً، فذكر في سورة الرعد أنهم استحقوها باعتقادهم أن ما أنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق، وبوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم لله، وخوفهم من سوء الحساب، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والإنفاق سراً وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة.

٢- قرن وصل الرحم وإيتاء الزكاة لوجهه، وجعل ذلك كله من فعل أولي الألباب.

٣- فضيلة الصبر، فليجتهد المسلم في استكمال شروط الصبر التي إذا عمل بها المصاب المسلم حصل على الثواب العظيم، والأجر الجزيل.

وتتلخص هذه الشروط في ثلاثة أمور:

- الشرط الأول: الإخلاص لله - عز وجل - في الصبر؛ لقول الله - عز وجل -: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}، ولقوله - عز وجل - في صفات أصحاب العقول السليمة: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} (٥)، وهذا هو الإخلاص في الصبر المبرّأ من شوائب الرياء وحظوظ النفس.

- الشرط الثاني: عدم شكوى الله تعالى إلى العباد؛ لأن ذلك ينافي الصبر ويخرجه إلى السخط والجزع؛ لحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكني إلى عوّاده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل"[(١)].

ولله دَرُّ الشاعر الحكيم حيث قال[(٢)]:

وإذا عرتك بليّةٌ فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلمُ

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

- الشرط الثالث: أن يكون الصبر في أوانه، ولا يكون بعد انتهاء زمانه؛ لحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «مرَّ النبي - ﷺ - بامرأة تبكي عند قبر فقال: "اتّقِ الله واصبري" [فقالت]: إليك عنّي فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي، فأتت باب النبي - ﷺ - فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"»[(٣)]. أي الصبر الكامل الذي يترتّب عليه الأجر الجزيل؛ لكثرة المشقة فيه، وأصل الصدم الضرب في شيء صلب، ثم استعمل مجازًا في كل مكروه حصل بغتة[(٤)].

٤- أن العقل الصحيح: وهو العقل النقي الصافي غير المنساق لمؤثرات الهوى والشهوة، المهيأ لاحترام الحقائق وقبول الحق،الرافض للوهم والخرافة.

٥- من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله:

لما كان ببديع حكمته، ولطيف رحمته، قضى أن يبتلي النوع الإنساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم، وأمرهم بالصبر على ذلك، وافترضه عليهم تسلية لهم وتقوية على ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب كما قال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠]. فعلى هذا يكون الصبر ثلاثة أنواع: صبر

---

(١)الحاكم في المستدرك، ١/ ٣٤٩ وقال: ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه))، ووافقه الذهبي.

(٢)الفوائد لابن القيم، ص١٦٥، وانظر: الصبر الجميل، لسليم الهلالي، ص٢٨.

(٣)متفق عليه: البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، برقم ١٢٨٣، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، برقم ١٥ (٩٢٦).

(٤)انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٦/ ٤٨١.

على المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر على المقدور، ويشملها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد:٢٢]. وقوله تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل:٤٢]. ولما كان الصبر لا يحصل إلا بالله كما قال: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ} [النحل:١٢٧]. أرشد تبارك وتعالى إلى الجمع بينهما. وقال تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور:٤٨]. قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا وقال النبي ﷺ "والصبر ضياء" [(١)].

وقال عليه السلام: "ما أُعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر" [(٢)]. رواه البخاري ومسلم. وفي حديث آخر "الصبر نصف الإيمان" [(٣)]. وقال عمر: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"[(٤)].

وقال علي بن أبي طالب: " الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد من لا صبر له لا إيمان له "[(٥)].

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة[(٦)].

القرآن

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣)} [الرعد : ٢٣]

التفسير:

تلك العاقبة هي جنات عدن يقيمون فيها لا يزولون عنها، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والذريات من الذكور والإناث، وتدخل الملائكة عليهم من كل باب؛ لتهنئتهم بدخول الجنة.

قوله تعالى:{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [الرعد : ٢٣]، أي:" تلك العاقبة هي جنات عدن يقيمون فيها لا يزولون عنها، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والذريات من الذكور والإناث"[(٧)].

قال الطبري:" جنات عدن يدخلها هؤلاء الذين وصف صفتهم= وهم الذين يوفون بعهد الله، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة، وفعلوا الأفعال التي ذكرها جل ثناؤه في هذه الآيات الثلاث- {ومن صلح من آبائهم وأزواجهم}، وهي نساؤهم وأهلوهم، و{ذرّيّاتهم}، و«صلاحهم» إيمانهم بالله واتباعهم أمره وأمر رسوله عليه السلام.. و{عدن}، معناه: الإقامة التي لا ظَعْنَ معها"[(٨)].

عن مجاهد، قوله: "{ومن صلح من آبائهم}، قال: من آمن في الدنيا"[(٩)].

وعن مجاهد أيضا:" عن مجاهد قوله: {ومن صلح من آبائهم} قال: من آمن من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم"[(١)].

---

(١)رواه مسلم: الطهارة (٢٢٣) ، والترمذي: الدعوات (٣٥١٧) ، وابن ماجه: الطهارة وسننها (٢٨٠) ، وأحمد (٣٤٢/٥، ٣٤٣/٥) ، والدارمي: الطهارة (٦٥٣).

(٢)البخاري: الزكاة (١٤٦٩) ، ومسلم: الزكاة (١٠٥٣) ، والترمذي: البر والصلة (٢٠٢٤) ، والنسائي: الزكاة (٢٥٨٨) ، وأبو داود: الزكاة (١٦٤٤) ، وأحمد (١٢/٣ ، ٤٧/٣، ٩٣/٣) ، ومالك: الجامع (١٨٨٠) ، والدارمي: الزكاة (١٦٤٦).

(٣) رواه الترمذي: الدعوات (٣٥١٩) ، وأحمد (٣٦٣/٥).

(٤) صحيح البخاري، باب الصبر عن محارم الله:ص٩٩/٨، [معلّقاً قبل: ٦٤٧٠]

(٥)أخرجه اللالكائى فى اعتقاد أهل السنة (٨٤٢/٤، رقم ١٥٦٩) .

.

(٦) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:٤٤٠-٤٤١.

(٧)التفسير الميسر:٢٥٢.

(٨) تفسير الطبري:٤٢٣/١٦.

(٩) أخرجه الطبري(٢٠٣٣٨):ص٤٢٣/١٦-٤٢٤.

قال ابن كثير:" «العدن»: الإقامة ، أي : جنات إقامة يخلدون فيها، وقوله : { وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } أي : يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتنانًا من الله وإحسانا ، كما قال تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } [الطور : ٢١]"[٢].

قوله تعالى:{وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد : ٢٣]، أي:" وتدخل الملائكة عليهم من كل باب؛ لتهنئتهم بدخول الجنة"[٣].

قال الطبري:" يقول: تعالى ذكره: وتدخل الملائكة على هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم في هذه الآيات الثلاث في جنات عدن، من كل باب منها"[٤].

قال ابن كثير:" أي : وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة"[٥].

القرآن

{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)} [الرعد : ٢٤]

التفسير:

تقول الملائكة لهم: سلام عليكم، تحية خاصة لكم، سَلِمْتم من كل سوء بسبب صبركم على طاعة الله، فنِعْمَ عاقبة الدار الجنة.

قوله تعالى:{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ} [الرعد : ٢٤]، أي:" تقول الملائكة لهم: سلام عليكم، تحية خاصة لكم، سَلِمْتم من كل سوء بسبب صبركم على طاعة الله"[٦].

قال الطبري:" يقولون لهم: {سلام عليكم بما صبرتم} على طاعة ربكم في الدنيا، وذكر أن لجنات عدن خمسة آلاف باب"[٧].

قال ابن كثير:" فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام"[٨].

عن عبد الله بن عمرو قال: "إن في الجنة قصرًا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة، لا يدخله إلا نبيٌ أو صديق أو شهيدٌ"[٩].

وروي عن الضحاك، في قوله: "{جنات عدن}، قال: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناسُ حولهم بعدد الجنات حوْلها"[١٠].

قال الصابوني:أي:" سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة"[١١].

روي عن أبي عمران الجوني :"أنه تلا هذه الآية: {سلام عليكم بما صبرتم}، قال: على دينكم"[١٢].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٤١):ص١٦/٤٢٣-٤٢٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٤٥١.
(٣)التفسير الميسر:٢٥٢.
(٤) تفسير الطبري:١٦/٤٢٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٤/٤٥١.
(٦)التفسير الميسر:٢٥٢.
(٧) تفسير الطبري:١٦/٤٢٤.
(٨) تفسير ابن كثير:٤/٤٥١.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٢):ص١٦/٤٢٤.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٣):ص١٦/٤٢٤-٤٢٥.
(١١) صفوة التفاسير:٢/٧٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٦):ص١٦/٤٢٧.

عن ابن وهب قال: "قال ابن زيد، في قوله: {سلام عليكم بما صبرتم}، قال: حين صبروا بما يحبه الله فقدّموه. وقرأ: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحرِيرًا} ، حتى بلغ: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [سورة الإنسان:٢-٢٢] وصبروا عما كره الله وحرم عليهم، وصبروا على ما ثقل عليهم وأحبه الله، فسلم عليهم بذلك. وقرأ: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}"[١].

قوله تعالى:{فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد : ٢٤]، أي:" فنِعْمَ عاقبة الدار الجنة"[٢].

عن أبي عمران الجوني في قولهم :"{ فنعم عقبى الدار}، قال: الجنة من النار"[٣].

عن أرطاة بن المنذر قال: "سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له"أبو الحجاج"، يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متّكئًا على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطان من خَدَمٍ، وعند طرف السِّماطين بابٌ مبوَّبٌ، فيقبل المَلَك يستأذن؛ فيقول أقصى الخدم للذي يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذي يليه للذي يليه: ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول: أقربهم إلى المؤمن ائذنوا. ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا. فكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلّم ثم ينصرف"[٤].

عن محمد بن إبراهيم قال: "كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول:«السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، وأبو بكر وعمر وعثمان"[٥].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : "هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟" قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : "أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسدُّ بهم الثغور ، وتُتَّقَى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عبادا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ، وتُسَد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء". قال : "فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، { سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ }"[٦].

أخرج البيهقي عن هاشم بن محمد العمري، قال: "أخذني أبي بالمدينة إلى زيارة قبور الشهداء في يوم جمعة بين طلوع الفجر والشمس فكنت أمشي خلفه فلما إنتهى إلى المقابر رفع صوته فقال {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} قال فأجيب وعليك السلام يا أبا عبد الله فالتفت إلى أبي وقال أنت المجيب يا بني فقلت لا فأخذ بيدي فجعلني عن يمينه ثم أعاد السلام عليهم ثم جعل كلما سلم عليهم يرد عليه حتى فعل ذلك ثلاث مرات فخر أبي ساجدا شكرا لله تعالى"[٧].

فوائد الآيتين:[٢٣-٢٤]:

١- بيان أن الملائكة تهنىء أهل الجنة عند دخولهم وتسلم عليهم.

٢- استدل البعض بالآيتين في بيان فضل الملائكة على البشر، فقال:" مما يدل على فضل الملائكة أن الله تعالى جعل دخولهم على بني آدم في الجنة وتسليمهم عليهم من حملة الثواب الذي وعدهم بحسن أعمالهم، فقال: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم}، فلو كانت الملائكة دونهم لم تكن زيارتهم إياهم نعمة يحتاج إلى

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٧):ص٤٢٧/١٦.

(٢)التفسير الميسر:٢٥٢.

(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٨):ص٤٢٧/١٦.

(٤) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٤):ص٤٢٥/١٦-٤٢٦. في سنده نظر.

(٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٥):ص٤٢٦/١٦-٤٢٧. عن سهيل عن محمد بن إبراهيم التيمي مرسلا ، وهذا معضل.

(٦)المسند (١٦٨/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٩/١٠) : "رجاله ثقات".

(٧) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور(٤٢):ص٢٠٨.

التوصل إليها إلى ترك الشهوات، وإجهاد النفس في الصالحات، فلما كان ذلك لا يوصل إليه إلا بما ذكرنا، بأن الملائكة أفضل وأرفع قدرا، وإن زيارتهم للذين يزورونهم زائدة في أقدارهم معلية لرتبهم والله أعلم"(١).

٣- فضيلة الصبر عن الحلال لوجه الله تعالى جده، إذ يرجى أن يعوضه الله تعالى عما صبر عنه ما هو أطيب وألذ وأنعم وأكثر مما ترك. مع أن المتروك من جنس المنقطع الفاني والموعود من جنس الدار الباقي، وبالله التوفيق(٢).

٤- من النكت البديعة أن الأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له نحو : {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الصافات : ١٠٩]، {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} [الصافات : ٧٩]، {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ} [الرعد : ٢٤](٣).

٥- ومن الفوائد: أن للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) [ص: ٥٠] ، (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) [الرعد: ٢٣] ، وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول: (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) [الزمر: ٧٣] .

وأخبرنا رسولنا - ﷺ - أن أبواب الجنة تفتح في كل عام في رمضان، فعن أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: " إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة "(٤).

وعدد أبواب الجنة ثمانية، وأحد هذه الأبواب يسمى الريّان وهو خاص بالصائمين ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله - ﷺ - قال: " في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم"(٥).

وهناك باب للمكثرين من الصلاة، وباب للمتصدقين، وباب للمجاهدين، بالإضافة إلى باب الصائمين المسمى بالريّان، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: " من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ". فقال أبو بكر: والله ما على أحد من ضرر دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم"(٦).

وسؤال أبي بكر يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير، من صلاة، وصيام، وصدقة وجهاد ونحو ذلك، بحيث يدعي من جميع تلك الأبواب، وقد أخبر الرسول - ﷺ - أن الذي ينفق زوجين في سبيل الله يدعى من أبواب الجنة الثمانية، وأخبر الرسول - ﷺ - أن الذي يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يرفع بصره إلى السماء فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء.

فقد روى مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - ﷺ -: " ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أبو يسبغ) الوضوء، ثم يقول: أشهد

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان: أبو عبدالله الحَلِيمي:٣١٥/١.
(٢) انظر: المصدر نفسه:٣٧٦/٣.
(٣) انظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور:٢٢٥.
(٤)صحيح البخاري: ١٨٩٨. وصحيح مسلم: ١٠٧٩.
(٥)النهاية لابن كثير :٢١٤/٢.
(٦)النهاية لابن كثير: ٢١٤/٢.

أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء "[١].

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن خص الذين لا حساب عليهم بباب خاص بهم دون غيرهم وهو باب الجنة الأيمن، وبقيتهم يشاركون بقية الأمم في الأبواب الأخرى، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة " فيقول الله: يا محمد: أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى " ثم بين في هذا الحديث سعة أبواب الجنة، وأن ما بين جانبي الباب كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى، ففي الحديث السابق المتفق عليه يقول الرسول - ﷺ -: " والذي نفس محمد بيده: إن بين المصراعين من مصاريع الجنة، أو ما بين عضادتي الباب، كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى"[٢].

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن أبواب الجنة تفتح في رمضان، ففي الصحيحين ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وفي رواية: " فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار "[٣].

وورد في بعض الأحاديث" ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ"[٤].

ورواه الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن سلام: " إن ما بين المصراعين فى الجنة مقدار أربعين عاما وليأتين عليه يوم يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظمأ"[٥].

القرآن

{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)} [الرعد : ٢٥]

التفسير:

أما الأشقياء فقد وُصِفوا بضد صفات المؤمنين، فهم الذين لا يوفون بعهد الله بإفراده سبحانه بالعبادة بعد أن أكدوه على أنفسهم، وهم الذين يقطعون ما أمرهم الله بوصله مِن صلة الأرحام وغيرها، ويفسدون في الأرض بعمل المعاصي، أولئك الموصوفون بهذه الصفات القبيحة لهم الطرد من رحمة الله، ولهم ما يسوءهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [الرعد : ٢٥]، أي:" وأما الذين ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأما الذين ينقضون عهد الله، ونقضهم ذلك، خلافهم أمر الله، وعملهم بمعصيته، من بعد ما وثّقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم"[٧].

قال السمعاني والبغوي:" هذا وارد في الكفار"[٨].

---

(١)صحيح مسلم: ٢٣٤.
(٢)النهاية لابن كثير: ٢٢١/٢.
(٣)مشكاة المصابيح: ٦١٢/١.
(٤)أخرجه أحمد (٣/٥، رقم ٢٠٠٣٧) قال الهيثمى (٣٩٧/١٠) : رجاله ثقات.
ومن غريب الحديث: "لكظيظ": أى ممتلئ مزحوم.
(٥)أخرجه الطبرانى (١٦٠/١٣ رقم ٣٨٧) وأخرجه أيضا: من طريقه الضياء (٤٥٦/٩ رقم ٤٣٠) قال الهيثمى الهيثمى (٣٩٧/١٠) : فيه زريك بن أبى زريك، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.
(٦) صفوة التفاسير:٧٦/٢.
(٧) تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(٨) انظر: تفسير السمعاني:٩١/٣، وتفسير البغوي:٣١٤/٤.

قوله تعالى:{وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد : ٢٥]، أي:" ويقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها"[١].

قال الطبري:" يقول: ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد : ٢٥]، وجهان:

أحدهما: معناه: يؤمنون ببعض الأنبياء، ويكفرون بالبعض. قاله السمعاني[٣]، والبغوي[٤].

والثاني: يقطعون الرحم. وهذا قول ابن جرير الطبري[٥].

قال ابن جريج:" بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك ولم تعطه من مالك فقد قطعته»"[٦].

قوله تعالى:{وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [الرعد : ٢٥]، أي:" ويفسدون في الأرض بعمل المعاصي"[٧].

قال الطبري:"فسادهم فيها: عملهم بمعاصي الله"[٨].

قال السمعاني:" يعني: يعملون فيها بالمعاصي"[٩].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} [الرعد : ٢٥]، أي:" أولئك الموصوفون بهذه الصفات القبيحة لهم الطرد من رحمة الله"[١٠].

قال الطبري:"يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البعد من رحمته، والإقصاء من جِنانه"[١١].

قال السمعاني:" « اللَّعْنَةُ»، أي: البعد من رحمة الله"[١٢].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد : ٢٥]، أي:" ولهم ما يسوءهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة"[١٣].

قال الطبري:" يقول: ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة"[١٤].

قال البغوي:" يعني: النار"[١٥].

قال السمعاني:" أي: سوء المنقلب، لأن «المنقلب»: منقلب الناس إلى الدار"[١٦].

قال ابن عباس:" أكبر الكبائر الإشراك بالله، لأن الله يقول: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ} [سورة الحج:٣١]، ونقض العهد، وقطيعة الرحم، لأن الله تعالى يقول: {أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}، يعني: سوء العاقبة"[١٧].

قال مصعب بن سعد: "سألت أبي عن هذه الآية: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف:١٠٣، ١٠٤] ، أهم الحرورية؟ قال: لا ولكن

---

(١) صفوة التفاسير:٧٦/٢.
(٢) تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(٣) انظر: التفسير:٩١/٣.
(٤) انظر: التفسير:٣١٤/٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٣٥٠):ص٤٢٨/١٦-٤٢٩.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٢.
(٨) تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(٩) تفسير السمعاني:٩١/٣.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٢.
(١١) تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(١٢) تفسير السمعاني:٩١/٣.
(١٣) التفسير الميسر:٢٥٢.
(١٤) تفسير الطبري:٤٢٨/١٦.
(١٥) تفسير البغوي:٣١٥/٤.
(١٦) تفسير السمعاني:٩١/٣.
(١٧) أخرجه الطبري(٢٠٣٤٩):ص٤٢٨/١٦.

الحرورية: {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}، فكان سعدٌ يسميهم الفاسقين"(١).
الفوائد:
١- من الفوائد: حرمة الاتصاف بصفات أهل الشقاء وهي نقض العهد، وقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي.
٢- ومنها: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام، أي: الأقارب . وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ :"لا يدخل الجنة قاطع"(١)، يعني قاطع رحم.
٣- ومنها: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} [الروم: ٤١] ؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عزّ وجلّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً} [نوح: ١٠ . ١٢] .
٤- ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الموصوفين الذين نقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض أن لهم اللعنة وسوء المنقلب يوم القيامة.

القرآن

{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)} [الرعد : ٢٦]

التفسير:
الله وحده يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّق على مَن يشاء منهم، وفرح الكفار بالسَّعة في الحياة الدنيا، وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل يتمتع به، سُرعان ما يزول.

قوله تعالى:{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الرعد : ٢٦]، أي:" الله وحده يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّق على مَن يشاء منهم"(٢).

قال القرطبي:" أي: يوسع ويضيق"(٣).

قال ابن كثير:" يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل"(٤).

قال ابن عباس: "إن الله عز وجل خلق الخلق وهو بهم عالم، فجعل الغنى لبعضهم صلاحا والفقر لبعضهم صلاحا، فذلك الخيار للفريقين"(٥).

قوله تعالى:{وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الرعد : ٢٦]، أي:" وفرح الكفار بالسَّعة في الحياة الدنيا"(٦).

قال الثعلبي:" يعني: فرطوا وجهلوا ما عند الله ويطمعون"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٥١):ص٤٢٩/١٦، ورواه البخاري في صحيحه من طريق محمد بن بشار، عن محمد بن بن جعفر، مطولا (الفتح ٨: ٣٢٣)، رواه الحاكم في المستدرك ٢: ٣٧٠، من طريق" إسحاق، عن جرير، عن منصور، عن مصعب بن سعد"، وقال:" هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي، وانظر: في الدر المنثور ٤/ ٢٥٣.

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٧، كتاب الأدب، باب ١١: إثم القاطع، حديث رقم ٥٩٨٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٦، كتاب البر والصلة، باب ٦: صلة الرحمن وتحريم قطيعتها، حديث رقم ٦٥٢٠ [١٨] ٢٥٥٦.

(٢) التفسير الميسر:٢٥٢.

(٣) تفسير القرطبي:٣١٤/٩.

(٤) تفسير ابن كثير:٤٥٣/٤.

(٥) حكاه عنه الفراء في معاني القرآن:٦٣/٢.

(٦) التفسير الميسر:٢٥٢.

قال البغوي:" يعني: مشركي مكة أشروا وبطروا، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام"[٢].

قال القرطبي:" يعني: مشركي مكة، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله، وهو معطوف على {ويفسدون في الأرض}. وفي الآية تقديم وتأخير، التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا"[٣].

قوله تعالى:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد : ٢٦]، أي:" وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل يتمتع به، سُرعان ما يزول"[٤].

قال الطبري:" يقول: وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السَّعة وبُسِط لهم فيها من الرزق ورغد العيش، فيما عند الله لأهل طاعته في الآخرة{إلا متاع} قليل، وشيء حقير ذاهب"[٥].

قال ابن الجوزي:" أي: بالقياس إليها {إلا متاع}، أي: كالشيء الذي يتمتع به، ثم يفنى"[٦].

قال القرطبي:" أي: متاع من الأمتعة، كالقصعة والسكرجة[٧]"[٨].

قال ابن كثير:" ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ } كما قال : { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا } [النساء : ٧٧] وقال { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [الأعلى : ١٦ ، ١٧]"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد : ٢٦]، ثلاثة وجوه:

أحدهما : أي قليل ذاهب ، قاله مجاهد[١٠].

الثاني : زاد الراعي، قاله ابن مسعود[١١]، وابن عباس[١٢]، عبدالرحمن بن سابط[١٣]، والأعمش[١٤].

وروي عن عبد الرحمن بن سابط: " {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}، قال: زاد الراعي، تزوِّده الكفّ من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن"[١٥].

وعن قتادة: " {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}: هي متاع متروك أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله- إن استطعتم- ولا قوة إلا بالله"[١٦].

---

(١) الكشف والبيان:٢٨٧/٥.
(٢) تفسير البغوي:٣١٥/٤.
(٣) تفسير القرطبي:٣١٤/٩.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٢.
(٥) تفسير الطبري:٤٣٠/١٦.
(٦) زاد المسير:٤٩٣/٢.
(٧)السكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهى فارسية.
(٨) تفسير القرطبي:٣١٤/٩.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٥٣/٤-٤٥٤.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٥٣)-(٢٠٣٥٥):ص٤٣٠/١٦.
(١١) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١١٠/٣.
(١٢) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٣١٤/٩.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٥٦):ص٤٣١/١٦، وتفسير ابن ابي حاتم(٤٦١٢):ص٨٣٣/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٤٦١٢):ص٨٣٣/٣.
(١٥)أخرجه الطبري (٨٣١٤): ص ٧/ ٤٥٢.
(١٦)أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦١٣): ص ٣/ ٨٣٣.

والثالث : وما جعلت الحياة الدنيا إلا متاعاً يتزود منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح. أفاده الماوردي[١].

قال السمرقندي قال ابن عباس: " «متاع الغرور مثل القدر والقارورة والسكرجة ونحو ذلك، لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول وتفنى ولا تبقى».

ويقال: هو مثل الزجاج الذي يسرع إليه الكسر، ولا يصلحه الجبر. ويقال: كزاد المسافر، يسرع إليه الفناء فكذلك الدنيا"[٢].

قال الكلبي: "كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب"[٣].

قال الثعلبي: " يعني: منفعة ومتعة، كالفأس والقدر والقصعة، ثم يزول ولا يبقى، قاله أكثر المفسرين"[٤].

عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بم ترجع». وأشار بالسبابة"[٥].

وفي الحديث الآخر: "أن رسول الله ﷺ مر بِجَدْيٍ أسكَّ ميتٍ - والأسك الصغير الأذنين - فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»"[٦].

الفوائد:

١- أبانت الآية بأن سعة الرزق وتضييقه كله فعل الله - تعالى - ومرده إليه لا إلى غيره.
٢- بيان أن الغنى والفقر يتمان حسب علم الله تعالى امتحانا وابتلاء فلا يدلان على رضا الله ولا على سخطه.
٣- أقام الله تعالى في هذه الآية دليلاً محسوساً وملموساً على ربوبيته يحسه العباد بحواسهم، ويلمسونه بين ظهرانيهم، ويشاهدون ذلك بأبصارهم فيوحدوه - سبحانه - ويفردوه بالعبادة، وهذا الدليل هو أنه - سبحانه - الفعال لما يشاء بتوسيعه الرزق على من يشاء من عباده سواء كان صالحاً أو غير صالح، ويضيقه على من يريد من عباده سواء كان صالحاً، أو طالحاً فرزقه - سبحانه - مشترك بين الخلق أجمعين، أما الإيمان والعمل الصالح فيحض به أصلح البرية وهذا أمر ملحوظ في الدنيا، كما أوضحت الآية أن فعله - تعالى - ذلك وتصرفه في العطاء، والسعة، والمنع والتضييق على من يشاء يحمل في طياته العبر، والعظات والحكم البالغات للمؤمنين المنتفعين بالمواعظ والعبر لأنهم يعلمون أن مرد ذلك راجع إلى حكمته ورحمته - تعالى - وأنه العليم بحال عباده فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم لأن بسطه عليهم قد يحملهم ذلك على الفساد والبغي في الأرض ففعله - سبحانه - ذلك مراعاة لإصلاح دينهم الذي هو مصدر سعادتهم وفلاحهم.
٤- حقارة الدنيا وضآلة ما فيها من المتاع.

القرآن

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)} [الرعد : ٢٧]

التفسير:

ويقول الكفار عنادًا: هلا أُنزل على محمد معجزة محسوسة كمعجزة موسى وعيسى. قل لهم: إن الله يضل مَن يشاء من المعاندين عن الهداية ولا تنفعه المعجزات، ويهدي إلى دينه الحق مَن رجع إليه وطلب رضوانه.

---

(١) انظر: النكت والعيون:١١٠/٣.
(٢) بحر العلوم:٤١٢/٦.
(٣) تفسير البغوي:٣١٥/٤.
(٤) الكشف والبيان:٢٢٤/٣.
(٥)المسند (٢٢٨/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).
(٦)رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر ، رضي الله عنه.

قوله تعالى:{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الرعد : ٢٧]، أي:" ويقول الكفار عنادًا: هلا أُنزل على محمد معجزة محسوسة كمعجزة موسى وعيسى"[١].

قال البغوي:أي:" من أهل مكة"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويقول لك يا محمد، مشركو قومك: هلا أنزل عليك آية من ربك، إمّا ملك يكون معك نذيرًا، أو يُلْقَى إليك كنز؟"[٣].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن قيل المشركين : { لَوْلا } أي : هلا { أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } كما قالوا : { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأوَّلُونَ } [الأنبياء : ٥] وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث : أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا ، وأن يجري لهم ينبوعًا ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا فإني أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»[٤]"[٥].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد : ٢٧]، أي:" قل لهم: إن الله يضل مَن يشاء من المعاندين عن الهداية ولا تنفعه المعجزات، ويهدي إلى دينه الحق مَن رجع إليه وطلب رضوانه"[٦].

قال الطبري:" فقل: إن الله يضل منكم من يشاء أيها القوم، فيخذله عن تصديقي والإيمان بما جئته به من عند ربي{ويَهدي إليه من أناب}، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتباعي وتصديقي على ما جئته به من عند ربه، وليس ضلالُ من يضلّ منكم بأن لم ينزل علي آية من ربّي ولا هداية من يهتدي منكم بأنَّها أنزلت عليّ، وإنما ذلك بيَدِ الله، يوفّق من يشاء منكم للإيمان ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن"[٧].

قال ابن كثير:" أي : هو المضل والهادي ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجبهم إلى سؤالهم ؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه ، كما قال : { وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } [يونس : ١٠١] وقال { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ } [يونس : ٩٦ ، ٩٧] وقال { وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } [الأنعام : ١١١] ؛ ولهذا قال : { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } أي : ويهدي من أناب إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه"[٨].

عن قتادة، قوله: "{ويهدي إليه من أناب}، أي: من تاب وأقبل"[٩].

الفوائد:

١- يعتقد السلف أن الله عزوجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

فإن الإيمان نور هاد مضيء يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده، ويصرفه عمن يشاء، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} .

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٢.
(٢) تفسير البغوي:٣١٥/٤.
(٣) تفسير الطبري:٤٣١/١٦.
(٤)رواه أحمد في المسند (٢٤٢/١) من حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما.
(٥) تفسير ابن كثير:٤٥٤/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٢.
(٧) تفسير الطبري:٤٣١/١٦.
(٨) تفسير ابن كثير:٤٥٤/٤.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٣٥٧):ص٤٣٢/١٦.

فالإيمان منحة ربانية يمنها الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين برحمته وبفضله وعطائه، فمن وجده فقد وجد الخير كله، ومن فقده فقد كل شيء، ولم ينفعه أي شيء، قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الحجرات:١٧].

إن الإيمان نعمة عظيمة جليلة في حياة المسلم، تزكي العمر وتبارك الحياة، وتضمن الآخرة، وترفع صاحبها في الدنيا والآخرة؛ لأن فيها الحياة الحقيقية والسعادة الأخروية، وهذه النعمة لا يعرفها إلا من ذاق طعمها، ولا يحس بها إلا من عاشها.

٢- أن هداية الله للناس بمعنى لطفه بهم، وتوفيقهم للعمل الصالح، إنما هى ثمرة جهاد للنفس وإنابة إلى الله، واستمساك بإرشاده ووحيه.

٣- أن سبب الإضلال هو الزيغ، والخروج عن تعاليم الله والكبر، والجبروت، والتعالى على الناس بغير حق، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، والفساد فى الأرض، والكفر واقتراف الآثام.

فهذه هى الأسباب التى أضلت الناس، وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمهم، وأعمى أبصارهم بمقتضى نظامه فى ارتباط الأسباب بمسبباتها.

القرآن

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)} [الرعد : ٢٨]

التفسير:

ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذكره وثوابه تسكن القلوب وتستأنس.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد : ٢٨]، أي:" ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن"(١).

قال قتادة:" يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {ويهدي إليه من أناب} بالتوبة الذين آمنوا"(٣).

وفي قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد : ٢٨]، وجوه:

أحدها : بذكر الله بأفواههم، وأريد به ذكر الله على الإطلاق. وهذا معنى قول قتادة(٤).

الثاني : بنعمة الله عليهم. ذكره الماوردي(٥).

الثالث : بوعد الله لهم، حكاه الماوردي عن ابن عيسى(٦).

و قال مقاتل:" يعني: بما في القرآن من الثواب والعقاب"(٧).

الرابع : بالقرآن ، قاله مجاهد(٨).

قال الطبري" يقول: وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله"(٩).

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان(١٠):

أحدهما: أنها الحب له والأنس به.

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٢.

(٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٥٨):ص٤٣٢/١٦.

(٣) تفسير الطبري:٤٣٢/١٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٥٨):ص٤٣٢/١٦.

(٥) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.

(٦) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٧/٢.

(٨) انظر: النكت والعيون:١١١/٣. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير:٤٩٤/٢، دون نسبة.

(٩) تفسير الطبري:٤٣٢/١٦.

(١٠) انظر: زاد المسير:٤٩٤/٢.

والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم.
قال الزجاج: "أي: إذا ذكر الله بوحدانيته آمنوا به غير شاكين"[١].
قوله تعالى:{أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد : ٢٨]، أي:" ألا فانتبهوا فإن بذكر الله تسكن القلوب وتستأنس"[٢].
قال مقاتل:" يقول: ألا بالقرآن تسكن القلوب"[٣].
قال الطبري" يقول: ألا بذكر الله تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين"[٤].
قال مجاهد:" قيل:" بذكر الله" أي بطاعة الله. وقيل بثواب الله. وقيل: بوعد الله"[٥].
قال الزجاج:" أي: التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غيرمطمئن القلب"[٦].
قال ابن أبي زمنين:" {ألا}: حرف تنبيه وابتداء، والقلوب ها هنا قلوب المؤمنين؛ المعنى: إذ ذكر الله بوحدانيته، آمنوا به غير شاكين"[٧].
قال الجصاص:" يعني والله أعلم ذكر القلب الذي هو الفكر في دلائل الله تعالى وحججه وآياته وبيناته وكلما ازددت فيها فكرا ازددت طمأنينة وسكونا وهذا هو أفضل الذكر لأن سائر الأذكار إنما يصح ويثبت حكمها بثبوته وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:«خير الذكر الخفي»[٨]"[٩].
وقال ابن عباس: "هذا في الحلف، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه"[١٠].
وروي عن مجاهد قوله: "{ألا بذكر الله تطمئن القلوب}، لمحمد وأصحابه"[١١].
عن سفيان بن عيينة في قوله: " {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ}[١٢]، قال: هم أصحاب محمد ﷺ"[١٣].
قال الإمام الشافعي رحمه الله: "إن الله جل ذكره، فرض الإيمان على جوارح بني آدم، فقسمه فيها، وفرقه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها بفرض من الله تعالى: - فمنها: «قلبه» الذي يعقل به، ويفقه، ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح، ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها: «عيناه» اللتان ينظر بهما، و«أذناه» اللتان يسمع بهما، و«يداه» اللتان يبطش بهما، و«رجلاه» اللتان يمشي بهما، و«فرجه» الذي الباه من قبله، و«لسانه» الذي ينطق به، و«رأسه» الذي فيه وجهه.
قال الشافعي:" فأما فرض الله على القلب من الإيمان: فالإقرار، والمعرفة، والعقد، والرضا والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا - ﷺ -، عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب. فذلك ما فرض الله جل

---

(١) معاني القرآن:١٤٧/٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر:٢٥٢، وصفوة التفاسير:٧٦/٢
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٧٧/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٣٢/١٦.
(٥) تفسير القرطبي:٣١٥/٩.
(٦) معاني القرآن:١٤٧/٣.
(٧) التفسير:٣٥٤/٢-٣٥٥.
(٨) الحديث:« خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى».
أخرجه أحمد (١٧٢/١، رقم ١٤٧٧) ، وعبد بن حميد (ص ٧٦، رقم ١٣٧) ، وابن حبان (٩١/٣، رقم ٨٠٩) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٠٦/١، رقم ٥٥٢) . قال الهيثمى (٨١/١٠) : رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة وقد وثقه ابن حبان، وقال: روى عن سعد بن أبى وقاص، قلت: وضعفه ابن معين وبقية رجالهما رجال الصحيح.
(٩) أحكام القرآن:١١٤/١-١١٥.
(١٠) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٣١٥/٩.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠٣٥٩):ص٤٣٣/١٦.
(١٢)[الرعد : ٢٨].
(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٦٠):ص٤٣٣/١٦.

ثناؤه على القلب، وهو عمله، قال – سبحانه وتعالى -: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} الآية - وذكر الآيات التالية ١٠٦ من سورة النحل، و ٢٨ من سورة الرعد، و ٤١ من سورة المائدة، و ٢٨٤ من سورة البقرة"(١).

وقال سهل :" الذكر من العلم السكون، والذكر من العقل الطمأنينة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: إذا كان العبد في طاعة الله فهو الذاكر، فإذا خطر بباله شيء فهو القاطع، وإذا كان في فعل نفسه فحضر بقلبه ما يدله على الذكر والطاعة فهو موضع العقل. ثم قال: كل من ادعى الذكر فهو على وجهين: قوم لم يفارقهم خوف الله عز وجل، مع ما وجدوا في قلوبهم من الحب والنشاط، فهم على حقيقة من الذكر، وهم لله والآخرة والعلم والسنة. وقوم ادعوا النشاط والفرح والسرور في جميع الأحوال، فهم للعدو والدنيا والجهل والبدعة، وهم شر الخلق"(٢).

الفوائد:

١- فضل ذكر الله وسكون القلب إليه.

٢- للذكر آثار نافعة في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها:

أ- الحياة الطيبة الحقيقية: فالحياة هي حياة الروح المتغذية بالوحي الإلهي، المتعلق قلب صاحبها بذكر الله.

ب- القوة في الأبدان وأحياء المعاش والجهاد:

إن الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه.

ت- رقة القلب وخشوعه:

إن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب بالغفلة عنه.

ث- لنجاة من عذاب الله:

قال رسول الله ﷺ: "ما عمل آدمي عملاً قط، أنجى له من عذاب الله من ذكر الله"(٣)، وهذه نهاية الغايات وأعظم المطالب وهي أولى آثار الذكر وثماره، وأجل فوائده في المعاد(٤).

ج- من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكر رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، يقول النبي ﷺ: "ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"(٥).

ح- تكثير الشهود يوم القيامة:

فكل معالم الأرض تأتي شاهدة للذاكرين يوم تحدث الأرض أخبارها، فالجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها، قال ابن مسعود: "إن الجبل لينادي الجبل بإسمه، أمر بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإذا قال نعم استبشر"(٦). استبشر"(٦).

٣- أن الذكر هو ما اشتمل على تلاوة القرآن- وهو أفضلها- وذكر اسم الجلالة، وتسبيح وتقديس واستغفار، ودعاء وصلاة على النبي - ﷺ -، ذكر الله هو تذكره في استحضار جلاله، وعظمته، وقدرته وكل ما له - سبحانه من صفات الجلال والكمال ... فإذا ذكر الإنسان ربه واستحضر جلاله وعظمته كان من هذا الذكر في ظل ظليل من جلال الله وعظمته، وفي حماه ورعايته، وفي عصمته: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران ١٠١].

---

(١) تفسير الإمام الشافعي:٢/٩٨٦-٩٨٧.
(٢) تفسير التستري:٨٥.
(٣)صحيح الجامع للألباني رقم ٥٦٤٤.
(٤) انظر : ذكر الله تعالى:١٧٥.
(٥)البخاري رقم (٦٤٧٩).
(٦)الوابل الصيب:١٠٦.

فالذي يذكر الله وهو موقن به طامع في رحمته معتصم بجلاله محتم بحماه لائذ بفضله عائذ به من هموم الدنيا، ومن ظلم الظالمين وبغي الباغين يكون قريبا منه سامعا دعاءه مستجيبا له قال تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} وقال: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} وقال جل شأنه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (سورة البقرة ١٨٦). وليس ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، هذا الذكر الذي تردده الألسنة ترديدا آليا، دون أن يكون نابعا من القلب، ذافئا بحرارة الإيمان، منطلقا بقوة اليقين، فمثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتا مرددة، أشبه بالجثث الهامدة، لا روح فيه، ولا معقول له ومن هنا تكون آفته فلا يطمئن به قلب، ولا ينشرح له صدر ...

أما الذكر الذي يقول فيه سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} ثم يؤكد بقوله: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} فهو الذكر الذي ينبع عن إيمان، فتهز له المشاعر تثلج به الصدور ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الإيمان على الذكر حتى يكون للذكر أصل يرجع إليه، ومنطلق ينطلق منه وهو الإيمان، ولا يكون الذكر لله إلا إذا كان مشتملا على صفات الكمال والجلال لله عز وجل، فذلك هو الذي يفيض على القلب خشية، وهو الذي يستنير مشاعر الولاء لله، والاخبات له، فتقشعر الجلود وتدمع العيون، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢].

وقوله سبحانه: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} (سورة الحج ٣٤ - ٣٥)، وقوله جل شأنه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٣].

فإذا ذكر المؤمن ربه واستولت عليه تلك المشاعر قرب من الله ودنا من مواقع رحمته، وأحس ببرد السكينة يغمر قلبه، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهب عليه معطرة الأنفاس زاكية الأرواح.

فإذا ذكر الإنسان ربه هذا الذكر الذي يدنيه من ربه، الذي يشهد منه ما يشهده من جلاله وعظمته وقدرته ارتفع عن هذا العالم الترابي واصتصغر كل شيء فيه، فلا يأسى على فائت، ولا يطير فرحا، ولا يأشر بطرا، بما يقع ليديه من حطام هذه الدنيا، وهذا هو الإطمئنان الذي يسكن به القلب وتقر العين حيث لا حزن ولا جزع ولا خوف!!!.

إن الداء الذي يغتال أمن الناس، ويقض مضاجعهم هو ما يدخل عليهم من هموم الدنيا، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها .

وانه لا دواء لهذا الداء إلا باللجوء إلى الله والفزع إليه، وذلك بذكره وذكر سلطانه المبسوط على هذا الوجود، وأمره القائم على كل موجود ألا له الخلق والأمر .... تبارك الله رب العالمين.

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ}. وفي التعبير عن الإيمان بالفعل الماضي (آمنوا) وعن الإطمئنان بفعل المستقبل (تطمئن) في هذا إشارة الى أن الإيمان حال لا يحول عنها المؤمن وانه لا يوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمنا، بخلاف الإطمئنان فإنه غير ملازم للمؤمن في كل حال، وإنما الإطمئنان عند ذكر الله، وكلما ذكر المؤمن ربه يطمئن قلبه إذا كان حاضر القلب[1].

القرآن

(١) انظر: كتاب التوحيد المسمى بـ «التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد»:٢٥٢-٢٥٤.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)} [الرعد : ٢٩]

التفسير:

الذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات لهم فرح وقرة عين، وحال طيبة، ومرجع حسن إلى جنة الله ورضوانه.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الرعد : ٢٩]، أي:" الذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات"[١].

قال الطبري:" الصالحات من الأعمال، وذلك العمل بما أمرهم ربهم"[٢].

قوله تعالى:{طُوبَى لَهُمْ} [الرعد : ٢٩]، أي:" لهم فرح وقرة عين، وحال طيبة"[٣].

وفي تفسير قوله تعالى:{طُوبَى لَهُمْ} [الرعد : ٢٩]، أقوال:

أحدها : أن طوبى اسم من أسماء الجنة ، قاله ابن عباس[٤]، ومجاهد[٥]، وعكرمة[٦].

الثاني: أن طوبى: اسم شجرة في الجنة. قاله أبو هريرة[٧]، وابن عباس أيضا[٨]، وشهر بن حوشب[٩]، ومغيث بن سُمَيّ[١٠]، ووهب بن منبه[١١].

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:" أن رجلا قال له: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها"[١٢].

وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: "{طوبى لهم وحسن مآب}: شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، نبتتْ بالحَلْيِ والحُلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة"[١٣].

عن أبي هريرة قال: "{طوبى لهم}: شجرة في الجنة يقول لها:"تَفَتَّقي لعبدي عما شاء"! فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولُجُمها، وعن الإبل بأزمّتها، وعما شاء من الكسوة"[١٤].

قال مغيث بن سمي:"«طوبى»: شجرة في الجنة، لو أن رجلا ركب قلوصًا جَذَعا أو جَذَعَة، ثم دار بها، لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى يموت هَرِمًا. وما من أهل الجنة منزل إلا فيه غصن من أغصان تلك الشجرة متدلٍّ عليهم، فإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلّى إليهم"[١٥].

قال وهب:" إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ؛ زهرها رِيَاط، وورقها بُرود وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور،

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٣.

(٢) تفسير الطبري:٤٣٣/١٦.

(٣) التفسير الميسر:٢٥٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٤):ص٤٣٦/١٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٩):ص٤٣٧/١٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٨):ص٤٣٧/١٦.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٣٠٣٨٤):ص٤٣٨/١٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٨٣):ص٤٣٧/١٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٨٥):ص٤٣٨/١٦.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٨٨):ص٤٣٨/١٦-٤٣٩.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٩٠):ص٤٣٩/١٦.

(١٢)أخرجه الطبري(٢٠٣٩٥)ص: ١٦ / ٤٤٣-٤٤٤، والإمام أحمد في المسند: ٣ / ٧١، وابن حبان برقم (٢٦٢٥) ص (٦٥٢) من موارد الظمآن، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٩٠.٠٠٠ مطولا. وانظر كنز العمال: ١٤ / ٤٥٧، الدر المنثور: ٤ / ٦٤٤. والحديث من رواية "دراج" (أبو السمح) ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وهو إسناد ضعيف. ونقل الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أن دراجا: روايته منكرة.

(١٣)أخرجه الطبري في التفسير(٢٠٣٩٤)ص: ١٦ / ٤٤٣، وفيه محمد بن زياد الجريري: وهو كذاب خبيث يضع الحديث. وفرات بن أبي الفرات: قال ابن معين عنه: ليس بشيء. انظر تعليق الشيخ محمود شاكر في الموضع السابق.

(١٤)أخرجه الطبري: (٢٠٣٨٤):ص ١٦ / ٤٣٨، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي أيضا: لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور: ٤ / ٦٤٣.

(١٥) أخرجه الطبري(٢٠٣٩٢):ص٤٤٠/١٦-٤٤١.

ووَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهارُ الخمر واللبن والعسل، وهي مجلسٌ لأهل الجنة. فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربّهم، يقودون نُجُبًا مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، وبَرَها كخَزّ المِرْعِزَّى من لينه، عليها رحالٌ ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلِّموا عليه. قال: فيركبونها، قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش نُجُبًا من غير مَهنَة، يسير الرَّجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذُنُ راحلة منها أذُنَ صاحبتها، ولا بَرْكُ راحلة بركَ صاحبتها، حتى إن الشجرة لتتنحَّى عن طرُقهم لئلا تفرُق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم، فيُسْفِر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحُقَّ لك الجلال والإكرام". قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك:"أنا السلام، ومني السلام، وعليكم حقّت رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خَشُوني بغَيْبٍ وأطاعوا أمري".قال: فيقولون:"ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا بالسجود قدَّامك" قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دارُ مُلْك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيّته". فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنيةً ليقول: ربِّ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا" فيقول الله: لقد قصّرت بك اليوم أمنيتُك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحفك بمنزلتي، لأنه ليس في عطائي نكَد ولا تَصْريدٌ". قال: ثم يقول:"اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال". قال: فيعرضون عليهم حتى يَقْضُوهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم بَراذين مقرَّنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفْرَغة، في كل قبة منها فُرُش من فُرُش الجنة مُظَاهَرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، ليس في الجنة لونٌ إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبة إلا قد عَبِقتا به، ينفذ ضوء وجوههما غِلَظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما من دُون القُبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسِّلك الأبيض من ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة، أو أفضل، ويرى هولُهما مثل ذلك. ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبّلانه ويعانقانه، ويقولان له:"والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك"، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة، حتى ينتهي كل رجُل منهم إلى منزلته التي أعدّت له"[١].

الثالث : معنى {طوبى لهم}: حسنى لهم ، قاله قتادة[٢].

الرابع : معناه: نِعَم مالهم ، قاله عكرمة[٣].

الخامس : معناه: خير لهم ، قاله إبراهيم[٤].

السادس : معناه: غبطة لهم، قاله الضحاك[٥].

السابع : معناه: فرحٌ وقُرَّةُ عين، قاله ابن عباس[٦].

الثامن : العيش الطيب لهم، قاله الزجاج[٧].

التاسع : أن طوبى «فُعلى» من الطيب، كما قيل: أفضل وفضلى، ذكره ابن عيسى[٨].

العاشر: معناه: طابت أوقاتهم وطابت نفوسهم. قاله القشيري[٩].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٩٠):ص٤٣٩/١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٠):ص٤٣٥/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٦٣)-(٢٠٣٦٥):ص٤٣٤/١٦-٤٣٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٢)، (١٠٣٧٣):ص٤٣٦/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٦٦)-(٢٠٣٦٨):ص٤٣٥/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٦٩):ص٤٣٥/١٦.
(٧) انظر: معاني القرآن:١٤٨/٣.
(٨) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.
(٩) انظر: لطائف الإشارات:٢٣٠/٢.

قال الماوردي:" وهذه معان أكثرها متقاربة"[١].

قال السمعاني:" الأقوال متقاربة في المعنى"[٢].

قال القرطبي:" والصحيح أنها شجرة، للحديث المرفوع الذي ذكرناه[٣]، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي[٤]، ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]، ومنه نقلناه، وذكره أيضا الثعلبي في في تفسيره، وذكر أيضا المهدوي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة»[٦]، ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي. وقال ابن عباس:«طوبى» شجرة في الجنة أصلها في دار علي، وفي دار كل مؤمن منها غصن[٧]. وقال أبو جعفر محمد بن علي: «سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى:{طوبى لهم وحسن مآب}، قال:" شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة" ثم سئل عنها مرة أخرى فقال:" شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة". فقيل له: يا رسول الله! سئلت عنها فقلت:" أصلها في داري وفروعها في الجنة" ثم سئلت عنها فقلت:" أصلها في دار علي وفروعها في الجنة"، فقال النبي ﷺ:" إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد"»[٨]، وعنه ﷺ:«هي شجرة أصلها في داري وما وما من دار من دوركم إلا مدلى فيها غصن منها»[٩]"[١٠].

وفي أصل هذه الكلمة«طوبى»، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنها كلمة حبشية، وتعني: الجنة. قاله ابن عباس[١١].

الثاني : كلمة هندية، قاله عبدالله بن مسعود[١٢]، والربيع بن انس[١٣]، وسعيد بن مشجوع[١٤].

قال القشيري: "إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين"[١٥].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.

(٢) تفسير السمعاني:٩٣/٣.

(٣) قال القرطبي في التفسير:٣١٦/٩:" ذكر عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البكالي عن عتبة ابن عبد السلمي قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال: فيها فاكهة؟ قال:" نعم شجرة تدعى طوبى" قال: يا رسول الله! أي شجر أرضنا تشبه؟ قال" لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها". قال يا رسول الله! فما عظم أصلها! قال: لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما". وذكر الحديث، وقد كتبناه بكمال في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله".

ولم نقف على الحديث عند عبدالرزاق، واخرجه ابن ابي عاصم في السنة(٧١٦)، والطبراني في الكبير:٣١٣/١٧، وابن عبد البر في التمهيد:٣٢٠/٣-٣٢١، من طريق عبدالرزاق به، وأخرجه الإمام احمد(١٧٦٤٢) من طريق معمر به، إلا أنه قال: عامر بن زيد، وكذلك ذكره ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل:٣٢٠/٦، وابن حبان في الثقات:١٩١/٥.

(٤) انظر: التعريف والإعلام:٨٤.

(٥) التمهيد:٣٢٠/٣.

(٦)أخرجه الطبري في التفسير: ١٦ / ٤٤٣، وفيه محمد بن زياد الجريري وفرات بن أبي الفرات، وهما ضعيفان.

(٧) ذكره الطبري في مجمع البيان:١٧٣/١٣، من طريق الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس، وعزه للثعلبي. للثعلبي.

(٨) ذكره الطبرسي في مجمع البيان:١٧٣/١٣، وهو ضعيف لارساله.

(٩) انظر: مجمع البيان:١٧٢/١٣.

(١٠) تفسير القرطبي:٣١٧/٩.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٤)، (٢٠٣٧٥):ص٤٣٦/١٦.

(١٢) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.

(١٣) انظر:تفسير القرطبي:٣١٦/٩.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧٦):ص٤٣٦/١٦.

(١٥) انظر:تفسير القرطبي:٣١٦/٩.

الثالث: أنها كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك: أي: أصبتَ خيرًا. قاله قتادة[١]، وحكاه الماوردي عن الجمهور[٢].

قوله تعالى:{وَحُسْنُ مَآبٍ} [الرعد : ٢٩]، أي:" ولهم ومرجع حسن إلى جنة الله ورضوانه"[٣].

قال الطبري:" {وحسن مآب}، يقول: وحسن منقلب"[٤].

قال السمعاني:" أي: حسن منقلب"[٥].

قال القرطبي:" آب: إذا رجع"[٦].

عن الضحاك: "{وحسن مآب}، قال: حسن منقلب"[٧].

والقراءة بالرفع في {وحسن مآب}، عطف على {طوبى}، كما تقول: الحمد لله والكرامة، وإن شئت كان نصبا على {طوبى لهم وحسن مآب}[٨].

الفوائد:

١- وعد الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بطوبى وحسن المآب.
٢- أن الإيمان هو التصديق باللسان والجوارح، وفيه الرد على الكرامية يذهبون إلى أن الإيمان هو الإقرار دون التصديق، والأعمال غير داخلة في مسماه[٩].

القرآن

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)} [الرعد : ٣٠]

التفسير:

كما أرسلنا المرسلين قبلك أرسلناك -أيها الرسول- في أمة قد مضت مِن قبلها أمم المرسلين؛ لتتلو على هذه الأمة القرآن المنزل عليك، وحال قومك الجحود بوحدانية الرحمن، قل لهم -أيها الرسول-: الرحمن الذي لم تتخذوه إلهًا واحدًا هو ربي وحده لا معبود بحق سواه، عليه اعتمدت ووثقت، وإليه مرجعي وإنابتي.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال الواحدي: "قال أهل التفسير: نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا كتاب الصلح، فقال رسول الله - ﷺ - لعلي: "اكتب بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"، فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب باسمك اللهم، وهكذا كانت أهل الجاهلية يكتبون فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية"[١٠].

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبيَّ الله ﷺ زَمَنَ الحديبية حين صالح قريشًا كتب:"هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله. فقال مشركو قريش: لئن كنت رسولَ الله ﷺ ثم قاتلناك لقد ظلمناك! ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا يا رسول الله نقاتلهم! فقال: لا ولكن اكتبوا كما يريدون إنّي محمد بن عبد الله. فلما كتب الكاتب:«بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّ الله الرحمن الرحيم»، قالت قريش: أما «الرحمن» فلا نعرفه ؛ وكان أهل الجاهلية

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٣٧١):ص٤٣٥/١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون:١١١/٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٤٤/١٦.
(٥) تفسير السمعاني:٩٣/٣.
(٦) تفسير القرطبي:٣١٧/٩.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠٣٩٦):ص٤٤٤/١٦.
(٨) انظر: معاني القرآن للفراء:٦٣/٢، ومعاني القرآن للزجاج:١٤٨/٣.
(٩)وللاطلاع على رأيهم، تراجع الكتب التالية: الملل والنحل –للشهرستاني: ١/ ١١٣. ومقالات الإسلاميين للأشعري- ١/ ٢٢٣. والفصل في الملل والأهواء والنحل -لابن حزم- ٣/ ١٨٨.
(١٠) أسباب النزول:٢٧٣.

يكتبون:"باسمك اللهم"، فقال أصحابه: يا رسول الله، دعنا نقاتلهم! قال: لا ولكن اكتبوا كما يريدون"(١).

عن مجاهد قال قوله: "{كذلك أرسلناك في أمة قد خلت} الآية، قال: هذا لمّا كاتب رسول الله ﷺ قريشًا في الحديبية، كتب:"بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"، قالوا: لا تكتب"الرحمن"، وما ندري ما"الرحمن"، ولا تكتب إلا"باسمك اللهم".قال الله: (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو) ، الآية"(٢).

الثاني: قال ابن عباس في رواية الضحاك: "نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي - ﷺ - {اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا ... } الآية فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: قل لهم إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته {هو ربي لا إله إلا هو}"(٣).

قوله تعالى:{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ} [الرعد : ٣٠]، أي:" كما أرسلنا المرسلين قبلك أرسلناك -أيها الرسول- في أمة قد مضت مِن قبلها أمم المرسلين"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هكذا أرسلناك يا محمد في جماعة من الناس، يعني إلى جماعةً قد خلت من قبلها جماعات على مثل الذي هم عليه، فمضت"(٥).

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية، {قد خلت من قبلها أمم}، يعني: قد مضت من قبل قومك أمم"(٦).

قال الزمخشري:" مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعنى: أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: {في أمة قد خلت من قبلها أمم}، أى: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء"(٧).

قوله تعالى:{لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الرعد : ٣٠]، أي:" لتتلو على هذه الأمة القرآن المنزل عليك"(٨).

قال الطبري:" يقول: لتبلغهم ما أرسَلْتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك"(٩).

قال الزمخشري:"لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك"(١٠).

قوله تعالى:{وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [الرعد : ٣٠]، أي:" وحال قومك الجحود بوحدانية الرحمن"(١١).

قال الطبري:" يقول: وهم يجحدون وحدانيّة الله، ويكذّبون بها"(١٢).

قال ابن أبي زمنين:" كانوا يقولون: أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه"(١٣).

قال الزمخشري:" هؤلاء أنهم يكافرون {بالرحمن}، بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم"(١٤).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٣٩٧):ص١٦/٤٤٥-٤٤٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٣٩٨):ص١٦/٤٤٦.
(٣) حكاه الواحدي في أسباب النزول:٢٧٩، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٤٤٥.
(٦) بحر العلوم:٢/٢٢٧.
(٧) الكشاف:٢/٥٢٩.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٩) تفسير الطبري:١٦/٤٤٥.
(١٠) الكشاف:٢/٥٢٩.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٣.
(١٢) تفسير الطبري:١٦/٤٤٥.
(١٣) تفسير ابن أبي زمنين:٢/٣٥٥.
(١٤) الكشاف:٢/٥٢٩.

قوله تعالى:{قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الرعد : ٣٠]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: الرحمن الذي لم تتخذوه إلهًا واحدًا هو ربي وحده لا معبود بحق سواه"[١].

قال الطبري:" يقول: إنْ كفر هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم، يا محمد بالرحمن، فقل أنت: الله ربّي (لا إله إلا هو..}"[٢].

قال الزمخشري:" الواحد المتعالي عن الشركاء"[٣].

قوله تعالى:{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [الرعد : ٣٠]، أي:" عليه اعتمدت ووثقت"[٤].

قال البغوي: "اعتمدت "[٥].

قال السمعاني:" عليه اعتمدت وبه وثقت"[٦].

قال الزمخشري:" في نصرتي عليكم"[٧].

قوله تعالى:{وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد : ٣٠]، أي:" وإليه مرجعي وإنابتي"[٨].

قال الطبري:" يقول: وإليه مرجعي وأوبتي"[٩].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: التوبة"[١٠].

قال البغوي:" أي: توبتي ومرجعي"[١١].

قال السمعاني:" يعني: وإليه التوبة"[١٢].

قال الزمخشري:" فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم"[١٣].

و«التوبة»: "هي الندم على ما سلف من الجرائم مع الإقلاع عنها في المستقبل"[١٤].

الفوائد:

١- تقرير التوحيد.
٢- وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته.
٣- وجوب إخلاص العبادة لله.
٤- وجوب التوكل على الله والتوبة إليه.
٥- بيان فضيلة التوكل، حيث أن الله تعالى يكفي عبده إذا توكل عليه، كما في الحديث :"لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصا وتروح بطانا"[١٥].

والتوكل: هو الاعتماد، ولكنه أخص فهو عبادة[١٦].

القرآن

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٢) تفسير الطبري:٤٤٥/١٦.
(٣) الكشاف:٥٢٩/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٥) تفسير البغوي:٣١٨/٤.
(٦) تفسير السمعاني:٩٣/٣.
(٧) الكشاف:٥٢٩/٢.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٩) تفسير الطبري:٤٤٥/١٦.
(١٠) تفسير ابن أبي زمنين:٣٥٥/٢.
(١١) تفسير البغوي:٣١٨/٤.
(١٢) تفسير السمعاني:٩٣/٣.
(١٣) الكشاف:٥٢٩/٢.
(١٤) تفسير السمعاني:٩٣/٣.
(١٥)صحيح. أحمد (٣٧٠)، والترمذي (٢٣٤٤) عن عمر مرفوعا. الصحيحة (٣١٠).
(١٦)أفاده الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في أشرطة فتاوى سلسلة الهدى والنور (ش ٣٢٦).

قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)} [الرعد : ٣١]

التفسير:

يردُّ الله -تعالى- على الكافرين الذين طلبوا إنزال معجزات محسوسة على النبي ﷺ فيقول لهم: ولو أن ثمة قرآنًا يقرأ، فتزول به الجبال عن أماكنها، أو تتشقق به الأرض أنهارًا، أو يحيا به الموتى وتُكَلَّم -كما طلبوا منك- لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، ولما آمنوا به. بل لله وحده الأمر كله في المعجزات وغيرها. أفلم يعلم المؤمنون أن الله لو يشاء لآمن أهل الأرض كلهم من غير معجزة؟ ولا يزال الكفار تنزل بهم مصيبة بسبب كفرهم كالقتل والأسر في غزوات المسلمين، أو تنزل تلك المصيبة قريبًا من دارهم، حتى يأتي وعد الله بالنصر عليهم، إن الله لا يخلف الميعاد.

سبب النزول:

أخرج الواحدي بسنده عن عبد الله بن عطاء، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير، قالت: "سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريش للنبي ﷺ: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخرت له الريح [والجبال] ، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا في باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة [ولا يؤمن مؤمنكم] ، فاخترت باب الرحمة [وأن يؤمن مؤمنكم] وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين. فنزلت: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا}(١)، [حتى قرأ ثلاث آيات] ، ونزلت: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى}، الآية"(٢).

وفي السياق نفسه اخرج ابن وهب عن القاسم بن أبى بزة :"أن قريشا قالوا للنبي: نح عنا هذين الجبلين، وأنشر لنا موتانا وافجر لنا عيون ماء، فأنزل الله: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى}"(٣).

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} [الرعد : ٣١]، أي:" ولو أن ثمة قرآنًا يقرأ، فتزول به الجبال عن أماكنها"(٤).

قال أبو عبيدة: " لو سيّرت به الجبال لسارت"(٥).

قال ابن قتيبة:" أراد: لكان هذا القرآن. فحذف اختصارا"(٦).

قال النحاس:" لو سيرت الجبال بقرآن غير هذا لكان هذا القرآن ستسير به الجبال، فاستغني عن اللفظ بالجواب إذ عرف المعنى"(٧).

---

(١)[الإسراء : ٥٩].

(٢) أسباب النزول:٢٨٠، إسناده ضعيف: عبد الجبار بن عمر الأيلي ضعيف: [تقريب ١/ ٤٦٦] و (مجروحين (مجروحين ٢/ ١٥٨) .

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٨٥) وقال: رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم وكلاهما وثق وقد ضعفهما الجمهور.

(٣) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب(٣٢٩):ص١٤١/١.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.

(٥) مجاز القرآن:٣٣١/١.

(٦) غريب القرآن:٢٢٧.

(٧) معاني القرآن:١٤٢/١-١٤٣.

قال السعدي:" يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: {ولو أن قرآنا} من الكتب الإلهية {سيرت به الجبال} عن أماكنها"(١).
قال الزمخشري:" المعنى: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال عن مقارها، وزعزعت عن مضاجعها"(٢).
قوله تعالى:{أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ} [الرعد : ٣١]، أي:" أو تتشقق به الأرض أنهارًا"(٣).
قال أبو عبيدة: " أو قطّعت به الأرض لتقطعت"(٤).
قال السعدي:أي:" جنانا وأنهارا"(٥).
قال الزمخشري:" حتى تتصدع وتتزايل قطعا"(٦).
قوله تعالى:{أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} [الرعد : ٣١]، أي:" أو خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، ولما آمنوا به"(٧).
قال السعدي:أي:"لكان هذا القرآن"(٨).
قال مقاتل:" يقول: لو أن قرآنا فعل ذلك به قبل هذا القرآن لفعلناه بقرآن محمد- عليه السلام- ولكنه شيء أعطيه رسلي فذلك قوله: {بل لله الأمر جميعا}"(٩).
قال أبو عبيدة: " أو قطّعت به الأرض لتقطعت، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه واستخفافا فى كلامهم، قال [الأخطل](١٠) :

خلا أنّ حيّا من قريش تفضلوا ... على الناس أو أنّ الأكارم نهشلا

وقال [عبد مناف ابن ربع الهذلىّ(١١):

[الطّعن شغشغة والضّرب هيقعة ... ضرب المعوّل تحت الأيّمة العضدا
وللقسىّ أزاميل وغمغمة ... حس الجنوب تسوق الماء والبردا]
حتى إذا اسلكوهم فى قتائدة ... شلّا كما تطرد الجمّالة الشردا"(١٢).

قال الزمخشري:" {أو كلم به الموتى}، فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف، كما قال: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر : ٢١]، هذا يعضد ما فسرت به قوله: {لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك}، من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من القرآن.

---

(١) تفسير السعدي:٤١٨.
(٢) الكشاف:٥٢٩/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٤) مجاز القرآن:٣٣١/١.
(٥) تفسير السعدي:٤١٨.
(٦) الكشاف:٥٢٩/٢.
(٧) صفوة التفاسير:٧٧/٢، والتفسير الميسر:٢٥٣
(٨) تفسير السعدي:٤١٨.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٠/٢.
(١٠)ديوانه ٣٧٢. - وابن يعيش ١/ ١٢٨، والخزانة ٢/ ٣٨٥، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية :٦:٩٨.
(١١)ديوان الهذليين :٢:١٤٠ – ٤٢، وانظر: مجاز القرآن:٣٣١/١. قال أبو عبيدة:" وقوله شغشغة: أي يدخله ويخرجه والهيقعة أن يضرب بالحدّ من فوق والمعوّل: صاحب العالة وهى ظلّة يتخذها رعاة البهم بالحجاز إذا خافت البرد على بهمها، فيقول: فيعتضد العضد من الشجر لبهمه أي يقطعه والدّيمة المطر الضعيف الدائم والأزاميل: الأصوات واحدها أزمل وجمعها أزامل زاد الياء اضطرارا والغماغم: الأصوات التي لم تفهم حسّ الجنوب: صوتها قتائدة طريق. أسلكوهم وسلكوهم واحد". [مجاز القرآن:٣٣١/١-٣٣٢].
وينظر شرحها أيضاً في ديوان الهذليين.
(١٢) مجاز القرآن:٣٣١/١.

وقيل: معناه: ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة الآية.

وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبيا كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود. وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام. أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصى بن كلاب(١)، فنزلت، ومعنى «تقطيع الأرض» على هذا: قطعها بالسير ومجاوزتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله(٢). والمعنى: وهم يكافرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد. وقيل قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهارا وعيونا "(٣).

قوله تعالى:{بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد : ٣١]، أي:" بل لله وحده الأمر كله في المعجزات وغيرها"(٤).

قال مقاتل:" يقول: بل جميع ذلك الأمر كان من الله ليس من قبل القرآن"(٥).

قال السعدي:" فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟"(٦).

قال الشيخ علي الطنطاوي:" قوله- سبحانه: {بل لله الأمر جميعا}، إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله، وأن قدرته- سبحانه- لا يعجزها شيء. أى: إن الله- تعالى- لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التي اقترحوها، ولكن إرادته- سبحانه- لم تتعلق بما اقترحوه، لعلمه- سبحانه- بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات"(٧).

وفي قوله تعالى:{بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد : ٣١]، وجهان(٨):

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها، إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه.

والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار.

---

(١) قال محقق الكشاف:" لم أجده بهذا السياق، وقد روى ابن ربيعة عن أبى أسامة عن مجالد عن الشعبي قال قالت قريش النبي صلى الله عليه وسلم «إن كنت نبيا كما تزعم فباعد بين جبلي مكة- أحسبها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى تزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبى، أو احملنا إلى الشام، أو إلى اليمن، أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلت. فأنزل الله تعالى ولو أن قرآنا- الآية وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبى سعيد قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح» وروى أبو يعلى من حديث الزبير بن العوام يقول «لما نزلت: وأنذر عشيرتك الأقربين صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا آل قريش، فجاءته قريش. فحذرهم وأنذرهم فقالوا: تزعم أنك نبى وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى. فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتنفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل أو ادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أو ادع الله أن يصبر هذه الصخرة التي بجنبك ذهبا فننحت منها ويغنينا قال: فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحى. فلما سرى عنه قال: والذي نفسي بيده، لقد أعطانى ما سألتم ولو شئت كان ولكن أخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم. فنزلت». [الكشاف:٢/٥٣٠، الهامش(١)].

(٢) انظر: معاني القرآن:٢/٦٣.

(٣) الكشاف:٢/٥٢٩.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٨٠.

(٦) تفسير السعدي:٤١٨.

(٧) التفسير الوسيط:٧/٤٨٢.

(٨) انظر: الكشاف:٢/٥٣٠.

قال المراغي: المعنى:" أي بل مرجع الأمور كلها بيد الله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادى له، ومن يهد فما له من مضل، وخلاصة ذلك: إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك، لعلمه أن قلوبهم لا تلين، ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم"(١).

قوله تعالى:{أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد : ٣١]، أي:" أفلم يعلم المؤمنون أن الله لو يشاء لآمن أهل الأرض كلهم من غير معجزة؟"(٢).

قال ابن قتيبة:" أي أفلم يعلم. ويقال: هي لغة للنخع، وقال الشاعر(٣):

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي: ألم تعلموا"(٤).

قوله تعالى:{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ} [الرعد : ٣١]، أي:" ولا يزال الكفار تنزل بهم مصيبة بسبب كفرهم كالقتل والأسر في غزوات المسلمين"(٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {ولا يزال} يا محمد{الذين كفروا}، -من قومك{تصيبهم بما صنعوا} من كفرهم بالله، وتكذيبهم إياك، وإخراجهم لك من بين أظهرهم-{قارعة}، وهي ما يقرعهم من البلاء والعذاب والنِّقم، بالقتل أحيانًا، وبالحروب أحيانًا، والقحط أحيانًا"(٦).

قال ابن قتيبة:" {قارعة}: داهية تقرع أو مصيبة تنزل. وأراد أن ذاك لا يزال يصيبهم من سرايا رسول الله ﷺ"(٧).

قال قتادة:" أي: بأعمالهم أعمال السوء"(٨).

وقال مقاتل:" يقول تصيبهم بما كفروا بالله بائقة وذلك أن النبي- ﷺ- كان لا يزال يبعث سراياه، فيغيرون حول مكة فيصيبون من أنفسهم، ومواشيهم، وأنعامهم، فيها تقديم"(٩).

عن ابن عباس، في قوله: "{ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة}، قال: سَرِيَّة"(١٠). وروي عن سعيد بن جبير(١١)، ومجاهد(١٢)، مثل ذلك.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قوله: "{ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة{، يقول: عذابٌ من السماء ينزل عليهم"(١٣).

وعن مجاهد قوله: "{تصيبهم بما صنعوا قارعة}، تصاب منهم سَرِيَّة، أو تصاب منهم مصيبة"(١٤). قال مجاهد:" السرايا، كان يبعثهم النبي ﷺ"(١٥).

عن عكرمة، في قوله: "{ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم}، قال: نزلت بالمدينة في سرايَا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، {أو تحل}، أنت يا محمد{قريبًا من دارهم}"(١).

---

(١) تفسير المراغي:١٠٥/١٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٣)البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي، كما في مجاز القرآن ٣٣٢/١ وتفسير الطبري ١٠٣/١٣ نقلا عن مجاز القرآن. وهو له في اللسان ١٤٧/٨ وانظر شرحه وتخريجه من كتب أخرى في تأويل مشكل القرآن ١٤٨.
(٤) غريب القرآن:٢٢٧-٢٢٨.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٦) .
(٧) غريب القرآن:٢٢٨.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٤٣١):ص٤٥٨/١٦.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٠/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٤١٨):ص٤٥٦/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٢٩):ص٤٥٨/١٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٣٣):ص٤٥٩/١٦.
(١٣)أخرجه الطبري(٢٠٤٢٣):ص٤٥٧/١٦ .
(١٤) أخرجه الطبري(٢٠٤٢٤):ص٤٥٨/١٦.
(١٥) أخرجه الطبري(٢٠٤٣٤):ص٤٥٩/١٦.

وعن قتادة: "{قارعة}، قال: وَقِيعة"[٢].
وقال ابن زيد:" قارعة من العذاب"[٣].
قوله تعالى:{أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ} [الرعد : ٣١]، أي:" أو تنزل تلك المصيبة قريبًا من دارهم"[٤].
قال الطبري:" يقول: أو تنزل أنت{قريبًا من دارهم}، بجيشك وأصحابك"[٥].
وفي قوله تعالى:{أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ} [الرعد : ٣١]، وجهان:
أحدهما : أو تحل القارعة قريباً من دارهم، قاله الحسن[٦].
الثاني : أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم، قاله ابن عباس[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، ومجاهد[٩]، وقتادة[١٠]، وعكرمة[١١]، وعبدالله بن أبي نجيح[١٢].
قال ابن عباس:" يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتالَه إياهم"[١٣].
وقال مقاتل:" يقول: أو تنزل يا محمد بحضرتهم يوم «الحديبية» قريبين"[١٤].
قوله تعالى:{حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ} [الرعد : ٣١]، أي:" حتى يأتي وعد الله بالنصر عليهم"[١٥].
قال الطبري:أي:"الذي وعدك فيهم، وذلك ظهورُك عليهم وفتحُك أرضَهمْ، وقهرْك إياهم بالسيف"[١٦].
عن ابن عباس: " {حتى يأتي وعد الله}، قال: فتح مكة"[١٧].
عن مجاهد: قوله: "{حتى يأتي وعد الله}، قال: الفتح"[١٨].
قال قتادة:" ووعدُ الله: فتحُ مكة"[١٩].
وعن الحسن، في قوله: "{حتى يأتي وعد الله}، قال: يوم القيامة"[٢٠].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [الرعد : ٣١]، أي:" إن الله لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرهم على أعدائه"[٢١].
قال الطبري:" يقول: إن الله منجزك، يا محمد ما وعدك من الظهور عليهم، لأنه لا يخلف وعده"[٢٢].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٤٢١):ص١٦/٤٥٧.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٤٣٣):ص١٦/٤٥٨-٤٥٩.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٤٣٦):ص١٦/٤٥٩.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٥) .
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٣٧)، (٢٠٤٣٨):ص١٦/٤٥٩-٤٦٠
(٧) اانظر: تفسير الطبري(٢٠٤١٨):ص١٦/٤٥٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٣٠):ص١٦/٤٥٨.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٢٤):ص١٦/٤٥٧-٤٥٨.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٣١):ص١٦/٤٥٨.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٢١)-(٢٠٤٢٢):ص١٦/٤٥٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٢٥):ص١٦/٤٥٨.
(١٣)أخرجه الطبري(٢٠٤٢٣):ص١٦/٤٥٧ .
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٨٠.
(١٥) التفسير الميسر:٢٥٣.
(١٦) .
(١٧) أخرجه الطبري(٢٠٤١٨):ص١٦/٤٥٦.
(١٨) أخرجه الطبري(٢٠٤٢٤):ص١٦/٤٥٨.
(١٩) أخرجه الطبري(٢٠٤٣١):ص١٦/٤٥٨.
(٢٠) أخرجه الطبري(٢٠٤٣٩):ص١٦/٤٦٠.
(٢١) صفوة التفاسير:٢/٧٧.
(٢٢) .

الفوائد:
١- عظمة القرآن الكر يم وبيان فضله.
٢- انقياد الجمادات لعظمة القرآن.
٣- يفهم من الآية أن تكليم الموتى بحيث يسمعون ويجيبون ويهتدون هو أمر خارج عن الأصل، بل إن كان فهو لا يكون لغير القرآن الكريم.
٤- توعد الرب تعالى الكافرين بالقوارع في الدنيا إلى يوم القيامة.
٥- أن حق العباد على الله معناه أنه متحقق لا محالة، لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده، ووعده حق، {إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ، [آل عمران، من الآية٩، والرّعد، من الآية: ٣١] .

القرآن

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)} [الرعد : ٣٢]

التفسير:

وإذا كانوا قد سخروا من دعوتك -أيها الرسول- فلقد سَخِرَتْ أمم من قبلك برسلهم، فلا تحزن فقد أمهلتُ الذين كفروا، ثم أخذتُهم بعقابي، وكان عقابًا شديدًا.

سبب النزول:

قال مقاتل:" أخبروا قومهم بنزول العذاب عليهم في الدنيا فكذبوهم واستهزءوا منهم بأن العذاب ليس بنازل بهم، فلما أخبر النبي- ﷺ- كفار مكة استهزءوا منه فأنزل الله- تعالى- يعزي نبيه- عليه السلام- ليصبر على تكذيبهم إياه بالعذاب :{ولقد استهزئ برسل من قبلك}"(١).

قوله تعالى:{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الرعد : ٣٢]، أي:" وإذا كانوا قد سخروا من دعوتك -أيها الرسول- فلقد سَخِرَتْ أمم من قبلك برسلهم"(٢).

قال السعدي:" يقول تعالى لرسوله -مثبتا له ومسليا- {ولقد استهزئ برسل من قبلك} فلست أول رسول كذب وأوذي"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد إن يستهزئ هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبًا منهم ما جئتهم به، فاصبر على أذاهم لك وامض لأمر ربك في إنذارهم، والإعذار إليهم، فلقد استهزأت أممٌ من قبلك قد خَلَت فمضتْ بُرسلِي"(٤).

قال الماتريدي:" يقول: ولقد استهزأ برسل من قبلك قومهم؛ كما استهزأ بك قومك، يعزي نبيه - ﷺ - ليصبر على تكذيبهم"(٥).

قال السمعاني:" «الاستهزاء»: طلب الهزء، وقد كان الكفار يسألون هذه الأشياء عن طريق الاستهزاء، فأنزل الله تعالى هذه الآية تسلية للنبي، معناه: ولقد استهزئ برسل من قبلك يعني: كما استهزءوا بك، فقد استهزئ برسل من قبلك"(٦).

قوله تعالى:{فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} [الرعد : ٣٢]، أي:" أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ وَدَعة ثم أخذتهم بالعذاب"(٧).

قال السعدي:" أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. {ثم أخذتهم} بأنواع العذاب"(٨).

---

(١) تفسير مقال بن سليمان:٣٨٠/٢.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٣) تفسير السعدي:٤١٨.
(٤) تفسير الطبري:٤٦٠/١٦.
(٥) تأويلات أهل السنة:٣٤٤/٦.
(٦) التفسير:٩٥/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٨) تفسير السعدي:٤١٨.

قال السمعاني:" معناه: فأمهلت وأطلت المدة لهم، ومنه الملوان وهو الليل والنهار. وقوله: {ثم أخذتهم فكيف كان عقاب} معناه: ثم أخذتهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار"(١).

قال مقاتل:" يعنى: فأمهلت للذين كفروا فلم أعجل عليهم بالعقوبة، {ثم أخذتهم بالعذاب}"(٢).

قال ابن قتيبة:" أي: أمهلتهم وأطلت لهم"(٣).

قال الطبري:" فأطلتُ لهم في المَهَل، ومددت لهم في الأجَل، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيّهم وضَلالهم"(٤).

قال ابن عباس: "ليتمادوا في معاصي الله"(٥).

قوله تعالى:{فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [الرعد : ٣٢]، أي:" فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب؟"(٦).

قال مقاتل:" يعني: عذاب"(٧).

قال السمعاني:" فكيف كان [عقابي] لهم"(٨).

قال الطبري:" فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرةً لأولي الألباب؟"(٩).

قال ابن عباس: "يريد كيف رأيت ما صنعت بمن استهزأ برسلي، كذلك أصنع بمشركي قومك"(١٠).

قال السعدي:" كان عقابا شديدا وعذابا أليما، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك"(١١).

و«الإملاء» في كلام العرب، الإطالة، يقال منه: أمْلَيْتُ لفلان، إذا أطلت له في المَهَل، ومنه: المُلاوة من الدهر، ومنه قولهم: تَمَلَّيْتُ حبيبًا، ولذلك قيل لليل والنهار: المَلَوَان لطولهما، كما قال ابن مُقبل(١٢):

أَلا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبُعَانِ ... أَلَحَّ عَلَيْهَا بِالْبِلَى المَلَوَانِ

وقيل للخَرْقِ الواسع من الأرض:مَلا ، كما قال الطرماح(١٣):

فَأَخْضَلَ مِنْهَا كُلَّ بَالٍ وَعَيِّنٍ ... وَجِيفُ الرَّوَايَا بِالمَلا المُتَبَاطِنِ

لطول ما بين طرفيه وامتداده(١٤).

قال الواحدي:" قال المفسرون: الآية تسلية للنبي - ﷺ -، عما يلقى من سفهاء قومه من الكفر والاستهزاء، بأنه قد قيل لأنبياء قبلك مثل هذا، فاصبر كما صبروا حتى أذيق المستهزئين بك العذاب الأليم كسُنّتي في الكذابين المستهزئين"(١٥).

---

(١) التفسير:٩٥/٣.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/٢.
(٣) غريب القرآن:٢٢٨.
(٤) تفسير الطبري:٤٦٠/١٦.
(٥) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط:٣٥٧/١٢.
(٦) صفوة التفاسير:٧٧/٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/٢.
(٨) التفسير:٩٥/٣.
(٩) تفسير الطبري:٤٦٠/١٦-٤٦١.
(١٠) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط:٣٥٧/١٢-٣٥٨.
(١١) تفسير السعدي:٤١٨.
(١٢) ديوانه:٣٣٥.
(١٣)ديوانه: ١٦٨، واضداد الأصمعي وابن السكيت: ٤٤، ١٩٧، وأضداد ابن الأنباري: ٢٥٦، واللسان (عين).
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٤٦١/١٦.
(١٥) التفسير البسيط:٣٥٨/١٢.

الفوائد:
١- الله ﷻ يملي ويمهل ولكن لا يهمل بل يؤاخذ ويعاقب.
٢- عظمة جرم الإستهزاء بشيء من دين الله.
٣- ذم هؤلاء المستهزئين بدين الله، وتوعدهم بأشد الوعيد.

القرآن

{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)} [الرعد : ٣٣]

التفسير:
أفمن هو قائم على كل نفس يُحصي عليها ما تعمل، أحق أن يعبد، أم هذه المخلوقات العاجزة؟ وهم -من جهلهم- جعلوا لله شركاء مِن خَلْقه يعبدونهم، قل لهم -أيها الرسول-: اذكروا أسماءهم وصفاتهم، ولن يجدوا من صفاتهم ما يجعلهم أهلا للعبادة، أم تخبرون الله بشركاء في أرضه لا يعلمهم، أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ من غير أن يكون لهم حقيقة. بل حسَّن الشيطان للكفار قولهم الباطل وصدَّهم عن سبيل الله. ومَن لم يوفِّقه الله لهدايته فليس له أحد يهديه، ويوفقه إلى الحق والرشاد.

قوله تعالى:{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد : ٣٣]، أي:" أفمن هو قائم على كل نفس يُحصي عليها ما تعمل، أحق أن يعبد، أم هذه المخلوقات العاجزة؟"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفَالرَّبُ الذي هو دائمٌ لا يَبيدُ ولا يَهْلِك، قائم بحفظ أرزاق جميع الخَلْق، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يكسبُونه من الأعمال، رقيبٌ عليهم، لا يَعْزُب عنه شيء أينما كانوا، كَمن هو هالك بائِدٌ لا يَسمَع ولا يُبصر ولا يفهم شيئًا، ولا يدفع عن نفسه ولا عَمَّن يعبده ضُرًّا، ولا يَجْلب إليهما نفعًا؟ كلاهما سَواءٌ؟

قال الإمام الطبري: "وحذف الجواب في ذلك فلم يَقُل، وقد قيل {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}: ككذا وكذا، اكتفاءً بعلم السامع بما ذَكَر عما ترك ذِكْره. وذلك أنه لما قال جل ثناؤه: {وَجعلُوا لله شُرَكاء}، عُلِمَ أن معنى الكلام: كشركائهم التي اتخذوها آلهةً. كما قال الشاعر(٢):

تَخَيَّرِي خُيِّرْتِ أُمَّ عَالِ ... بَيْنَ قَصِيرٍ شِبْرُهُ تِنْبَالِ

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٣.

(٢) هو القتال الكلابي، انظر: من رجز رواه صاحب الأغاني ٢٠: ١٦٤ في حديث طويل، أخرجه إحسان عباس فيما جمعه من شعر القتال الكلابي: ٨٣، والتخريج في: ١١٣، ويزاد عليه اللسان (رمل) ، مع اختلاف في روايته." أم عال"، هي" عالية"، امرأة من بني نصر بن معاوية، كانت زوجة لرجل من أشراف الحي، فكان القتال ينسب بها في أشعاره، ورواية الأغاني: * تَخَيَّري خُيِّرْتِ في الرِّجَالِ *
لأن قبله: * لَعَلَّنَا نَطْرُقُ أُمَّ عَالِ *
وفي المطبوع:" قصير شده"، وهو خطأ.
ويقال:" فلان قصير الشبر"، إذا كان متقارب الخطو، وقال الزمخشري: متقارب الخلق.
ورواية الأغاني:" قصير باعه". و" التنبال"، القصير. وبعد هذا البيت: وَأُمُّهُ رَاعِيَةُ الجِمَالِ ... تَبِيتُ بَيْنَ القَتِّ والجِعَالِ
" منخرق السربال"، ممزق السربال، وهو القميص، قال البكري في شرح قول ليلى الأخيلة: وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ القَمِيصُ تَخَالُهُ ... وَسْطَ البُيُوتِ مِنَ الحَيَاء سَقِيمَا
فيه قولان، أحدهما: أن ذلك إشارة إلى جذب العفاة له، والثاني: أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها. والأجود عندي أنهم يمدحون الرجل بأنه ملازم للأسفار والغزو، يعاقب بينهما، فلا يزال في ثياب تبلى، لأنه غير مقيم ملازم للحي، فلا يبالى أن يستجد ثيابًا، وذلك من خلائق الكرم والبأس. وبعد هذا البيت، وهو يؤيد ما قلت: كَرِيمُ عَمٍّ وَكَرِيمُ خَالِ ... مِتْلِفُ مَالٍ ومُفِيدُ مَالِ
وَلا تَزَالُ آخِرَ اللَّيَالِي ... قَلُوصُهُ تَعْثُرُ في النِّقَالِ
و" مفيد مال"، مستفيد مال. ورواية اللسان:" ناقته ترمل في النقال". و" ترمل"، أي تسرع. و" النقال"، المناقلة، وهي أن تضع رجليها مواضع يديها وذلك من سرعتها.

أَذَاكَ أَمْ مُنْخَرِقُ السِّرْبَالِ ... وَلا يَزَالُ آخِرَ اللَّيالِي
مُتْلِفَ مَالٍ وَمُفِيدَ مَالِ

ولم يقل وقد قال:"شَبْرُهُ تِنْبَال"، وبين كذا وكذا، اكتفاء منه بقوله:"أذاكَ أم منخرق السربال"، ودلالة الخبر عن المنخرق السربال على مراده في ذلك"[1].

وفي قوله تعالى:{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد : ٣٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها : أنهم الملائكة الذين وكلوا ببني آدم ، حكاه الماوردي عن الضحاك[2].

الثاني : هو الله القائم على كل نفس بما كسبت، قاله ابن عباس[3]، والضحاك[4]، وقتادة[5]، وابن جريج[6].

قال ابن عباس:" يعني بذلك نفسه، يقول: هو معكم أينما كنتم، فلا يعمل عامل إلا والله حاضِرُه، ويقال: هم الملائكة الذين وُكِلوا ببني آدم"[7].

عن ابن جريج: "{أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}، وعلى رزقهم وعلى طعامهم، فأنا على ذلك قائم، وهم عبيدي، ثم جعلوا لي شُركاء"[8].

قال مقاتل:" يقول: الله قائم على كل بر وفاجر"[9].

قال ابن قتيبة:" هو الله القائم على كل نفس بما كسبت يأخذها بما جنت ويثيبها بما أحسنت"[10].

الثالث : أنها نفسه. ذكره الماوردي[11].

قال التستري:" إن الله قائم عليك في سرك وعلانيتك وحركاتك وسكونك لا تغيب عنه طرفة عين، كما قال: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت [الرعد: ٣٣] . وقال: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم [المجادلة: ٧] الآية، وقال:

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [ق: ١٦] وهو العرق الذي في جوف القلب، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق. فإذا علمت ذلك، ينبغي أن تستحي منه، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس. فذكر العبد قيام الله عز وجل عليه، فتركه إلا دخل قلبه من علم حاله ما لو قسم ما أعطى ذلك العبد على أهل المدينة لسعدوا جميعا وفازوا به، وقد أشار إليه مالك بن أنس[12]- رضي الله عنهما- حيث قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب»[13]"[14].

---

(١) تفسير الطبري:٤٦٢/١٦-٤٦٣.
(٢) انظر: النكت والعيون:١١٤/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤٢):ص٤٦٤/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤٤):ص٤٦٤/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤٠)-(٢٠٤٤١):ص٤٦٣/١٦-٤٦٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤٣):ص٤٦٤/١٦.
(٧) أخرجه الطبري(٢٠٤٤٢):ص٤٦٤/١٦.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٤٤٣):ص٤٦٤/١٦.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨١/٢.
(١٠) غريب القرآن:٢٢٨.
(١١) انظر: النكت والعيون:١١٤/٣.
(١٢)مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣- ١٧٩ هـ) : إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية. من أشهر كتبه الموطأ. (الأعلام ٥/ ٢٥٧).
(١٣)صفوة الصفوة ٢/ ١٧٩، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٢٣ والشطر الأول من القول نسب إلى إبراهيم الخواص في شعب الإيمان ٢/ ٢٤٩، وبعده: (إنما العالم من اتبع العلم واستعمله) ، كما نسب الشطر الأول من القول إلى عبد الله في الحلية ١/ ١٣١، وبعده: (ولكن العلم الخشية).
(١٤) تفسير التستري:٧٥.

قوله تعالى:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد : ٣٣]، أي:" وهم -من جهلهم- جعلوا لله شركاء مِن خَلْقه يعبدونهم، قل لهم -أيها الرسول-: اذكروا أسماءهم وصفاتهم، ولن يجدوا من صفاتهم ما يجعلهم أهلا للعبادة"(١).

قال الضحاك:" ولو سمَّوْهم آلهةً لكذبَوا وقالوا في ذلك غير الحق، لأن الله واحدٌ ليس له شريك"(٢).

قال ابن جريج:" ولو سَمَّوهم كذبوا وقالوا في ذلك مَا لا يعلم الله، مَا من إله غير الله، فذلك قوله: {أم تنبئونه لما لا يعلم في الأرض}"(٣).

وفي قوله تعالى:{قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد : ٣٣]، وجهان(٤):

أحدهما : قل سموهم آلهة على وجه التهديد .

الثاني : يعني قل صفوهم ليعلموا أنهم لا يجوز أن يكونوا آلهة .

قوله تعالى:{أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد : ٣٣]، أي:" أم تخبرون الله بشركاء في أرضه لا يعلمهم"(٥).

قوله تعالى:{أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد : ٣٣]، أي:" أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ من غير أن يكون لهم حقيقة"(٦).

قال الطبري:أي: " مسموع، وهو في الحقيقة باطلٌ لا صحة له"(٧).

وفي قوله تعالى:{أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد : ٣٣]، خمسة وجوه:

أحدها : معناه: بباطل من القول ، قاله قتادة(٨)، ومنه قول الشاعر(٩):

أعَيّرتنا ألبانها ولحومها....وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر

أي: بالحل .

الثاني : بظن من القول ، وهو قول مجاهد(١٠).

الثالث : بباطل من القول وكذب، قاله الضحاك(١١).

الرابع : أن الظاهر من القول هو القرآن ، قاله السدي(١٢).

والخامس: أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ، ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين أم تقولون محتجّين. أفاده الماوردي(١٣).

قوله تعالى:{بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ} [الرعد : ٣٣]، أي:" بل حسَّن الشيطان للكفار قولهم الباطل وصدَّهم عن سبيل الله"(١٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما لله من شريك في السموات ولا في الأرض، ولكن زُيِّن للمشركين الذي يدعون من دونه إلهًا، مَكْرُهم، وذلك افتراؤهُم وكذبهم على الله"(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٤٤٥):ص٣٦٥/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٤٤٧):ص٣٦٥/١٦.
(٤) انظر: النكت والعيون:١١٤/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٧) تفسير الطبري:٤٦٦/١٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٠):ص٤٦٦/١٦.
(٩) البيت غير منسوب في: النكت والعيون:١١٤/٣، وباهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، للنيسابوري:٧٥٣/٢، وتفسير القرطبي:٣٢٣/٩، والبحر المحيط:٣٩٤/٦، وفتح القدير للشوكاني: ١٠٢/٣، وغيرها.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٤٨):ص٤٦٦/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥١):ص٤٦٦/١٦.
(١٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١١٥/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١١٥/٣.
(١٤) التفسير الميسر:٢٥٣.

عن مجاهد قوله: "{بل زين للذين كفروا مكرهم}، قال: قولهم"[٢].

وقرأت عامة قَرَأة الكوفيين: «وَصُدُّوا عن السَّبِيلِ» ، بضم"الصاد"، بمعنى: وصدَّهم الله عن سبيله لكفرهم به[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد : ٣٣]، أي:" ومَن لم يوفِّقه الله لهدايته فليس له أحد يهديه، ويوفقه إلى الحق والرشاد"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن أضلَّه الله عن إصابة الحق والهدى بخذلانه إياه، فما له أحدٌ يهديه لإصابتهما، لأن ذلك لا يُنَال إلا بتوفيق الله ومعونته، وذلك بيد الله وإليه دُون كل أحد سواه"[٥].

قال السعدي:" لأنه ليس لأحد من الأمر شيء"[٦].

الفوائد:

١- تقرير التوحيد إذ الأصنام لا تحفظ ولا ترزق ولا تحاسب ولا تجزي، والله هو القائم على كل نفس فهو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة لا حقيقة لها إلا مجرد أسماء.
٢- استمرار الكفار على كفرهم هو نتيجة تزيين الشيطان لهم ذلك فصدهم عن السبيل.
٣- إجماع الأمة بأن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وإرادته.

القرآن

{لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)} [الرعد : ٣٤]

التفسير:

لهؤلاء الكفار الصادين عن سبيل الله عذاب شاق في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والخزي، ولَعذابهم في الآخرة أثقل وأشد، وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

قوله تعالى:{لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الرعد : ٣٤]، أي:" لهؤلاء الكفار الصادين عن سبيل الله عذاب شاق في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والخزي"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره، لهؤلاء الكفار الذين وَصَف صفَتَهم في هذه السورة، عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتل والإسار والآفاتِ التي يُصيبهم الله بها"[٨].

قال ابن كثير:" ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار : فقال بعد ، إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك:{ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، أي:بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا"[٩].

قوله تعالى:{وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ} [الرعد : ٣٤]، أي:" ولَعذابهم في الآخرة أثقل وأشد"[١٠].

قال السعدي:أي:" من عذاب الدنيا لشدته ودوامه"[١١].

قال الطبري:" يقول: ولتعذيبُ الله إياهم في الدار الآخرة أشدُّ من تعذيبه إيَّاهم في الدنيا"[١٢].

---

(١) تفسير الطبري:٤٦٧/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٤٥٢):ص٤٦٧/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٤٦٧/١٦.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٥) تفسير الطبري:٤٦٨/١٦.
(٦) تفسير السعدي:٤١٨.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٨) تفسير الطبري:٤٦٨/١٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٦٥/٤.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٣.
(١١) تفسير السعدي:٤١٨.
(١٢) تفسير الطبري:٤٦٨/١٦.

قال ابن كثير:" أي : المدّخَر لهم مع هذا الخزي في الدنيا ، {أشق}، أي : من هذا بكثير ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[1]، وهو كما قال ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ } [الفجر : ٢٥ ، ٢٦] وقال تعالى : { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا } [الفرقان : ١١ - ١٥]"[2].

قوله تعالى:{وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} [الرعد : ٣٤]، أي:" وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء الكفار من أحدٍ يقيهم من عذاب الله إذا عذَّبهم، لا حَمِيمٌ ولا وليٌّ ولا نصيرٌ، لأنه ﷻ لا يعادُّه أحدٌ فيقهره، فيتخَلَّصَه من عذابه بالقهر، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وليس يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به فمات على كفره قبل التَّوبة منه"[4].

قال السعدي:" فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه"[5].

الفوائد:

١- بيان شدة عذاب جهنم.
٢- إن الذي يتأمل ويتدبر في القرآن الكريم يجد في آيات كثيرة أن الله سبحانه وتعالى قد وصف عذاب الحياة الآخرة، بأوصاف كثيرة متنوعة، مما يدل على عظمة عذابها وشدته، فمن هذه الأوصاف: أنه أشق وأشد، قال تعالى:{ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ}.

القرآن

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)} [الرعد : ٣٥]

التفسير:

صفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص، تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه وأدَّوا فرائضه، وعاقبة الكافرين بالله النار.

قوله تعالى:{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الرعد : ٣٥]، أي:" صفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار"[6].

قال البغوي:" أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها"[7].

قال ابن كثير:" أي : صفتها ونعتها ، { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ } أي : سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها ، يفجرونها تفجيرًا ، أي : يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا ، كما قال تعالى : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ

---

(١)رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٦٥/٤.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٦٨/١٦.
(٥) تفسير السعدي:٤١٨.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٧) تفسير البغوي:٣٢٢/٤.

الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [محمد : ١٥]"(١).

قال السعدي:" يقول تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها {تجري من تحتها الأنهار} أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار"(٢).

وفي قوله تعالى:{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [الرعد : ٣٥]، قولان:

أحدهما : يشبه الجنة ، قاله علي بن عيسى(٣).

الثاني : معناه: صفة الجنة أن الأنهار تجري من تحتها، لأنه ليس للجنة مثل، قاله عكرمة(٤)، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور(٥).

قال الزجاج:" وكلا القولين حسن جميل، والذي عندي - والله أعلم - أن الله عز وجل، عرفنا أمور الجنة التي لم نرها. ولم نشاهدها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايناه، فالمعنى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} جنة {تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها}"(٦).

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال ذَكر المَثَل، فقال {مثل الجنة}، والمراد الجنة، ثم وُصِفت الجنة بصفتها، وذلك أن مَثَلَها إنما هو صِفتَها وليست صفتها شيئًا غيرها. وإذْ كان ذلك كذلك، ثم ذكر"المثل"، فقيل: {مثل الجنة} ، ومثلها صفَتُها وصفة الجنّة، فكان وصفها كوصف"المَثَل"، وكان كأنَّ الكلام جرى بذكر الجنة، فقيل: الجنةُ تجري من تحتها الأنهار، كما قال الشاعر(٧):

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الْهِلالِ

فذكر"المرّ"، ورَجَع في الخبر إلى«السنين»"(٨).

وقرأ على رضى الله عنه: «أمثال الجنة»، على الجمع، أى صفاتها أكلها دائم(٩).

قوله تعالى:{أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد : ٣٥]، أي:" ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص"(١٠).

قال الطبري:" يعني: ما يؤكل فيها، يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية، {وظلها}، يقول: وظلها أيضًا دائم، لأنه لا شمس فيها"(١١).

---

(١) تفسير ابن كثير:٤/٤٦٥.

(٢) تفسير السعدي:٤١٩.

(٣) انظر: النكت والعيون:٣/١١٥.

(٤) انظر: النكت والعيون:٣/١١٥.

(٥) .

(٦) معاني القرآن:٣/١٥٠.

(٧) الشعر لجرير بن عطية، انظر: ديوانه: ٤٢٦، مجاز القرآن: ٩٨، الكامل ١: ٣٢٤، وغيرها.

من قصيدة يهجو الفرزدق، لم تذكر في نقائضهما، يقول قبل البيت: دَعِيني، إنَّ شَيْبى قَدْ نَهَانِي ... وَتَجْرِيبِى، وَشَيْبِى، وَاكْتِهَالِى

رَأَتْ مَرَّ السِّنِينِ......... ... .

وَمَنْ يَبْقَى عَلَى غَرَضِ المَنَايا ... وَأَيَّامٍ تَمُرُّ مَعَ اللَّيّالِي؟!

والسرار (بكسر السين وفتحها) : آخر ليلة من الشهر، ليلة يستسر القمر، أي يختفي، وأراد جرير بالسرار في هذا البيت: نقصان القمر حتى يبلغ آخر ما يكون هلالا، حتى يخفى في آخر ليلة، فهذا النقصان هو الذي يأخذ منه ليلة بعد ليلة، أما "السرار" الذي شرحه أصحاب اللغة، فهو ليلة اختفاء القمر، وذلك لا يتفق في معنى هذا البيت.

(٨) تفسير الطبري:١٦/٤٧٢.

(٩) انظر: الكشاف:٢/٥٣٣.

(١٠) التفسير الميسر:٢٥٤.

(١١) تفسير الطبري:١٦/٤٧٢.

قال البغوي:" أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، {وظلها} أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى"[١].

قال ابن كثير:" أي : فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا } [النساء : ٥٧]"[٢].

قال الزمخشري:" وظلها دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس"[٣].

قال الحسن: "يريد أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا وظلها، لأنه لا يزول ولا تنسخه الشمس"[٤].

قال ابن العربي:" وصف الله طعام الجنة بأنه غير مقطوع ولا ممنوع، وطعام الدنيا ينقطع ويمنع فيمتنع"[٥].

وفي الصحيحين ، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : "يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ، ثم رأيناك تَكعْكعت فقال : «إني رأيت الجنة - أو : أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»"[٦].

عن جابر قال : "بينما نحن في صلاة الظهر ، إذ تقدم رسولُ الله ﷺ فتقدمنا ، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب : يا رسول الله ، صنعت اليوم في الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال : «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قِطْفًا من عنب لآتيكم به ، فحيل بيني وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يَنْقُصونَه»"[٧].

وعن عتبة بن عبد السلمي : "أن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن الجنة ، فقال : فيها عنب ؟ قال : "نعم". قال : فما عِظَم العنقود ؟ قال : "مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر"[٨].

عن ثَوْبان قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى"[٩].

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : "يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون ، طعامهم جُشَاء كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس"[١٠].

زيد بن أرقم قال : "جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : نعم ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة". قال : فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، وليس في الجنة أذى ؟ قال : "حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم ، كريح المسك ، فيضمر بطنه"[١١].

---

(١) تفسير البغوي:٣٢٢/٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٦٥/٤-٤٦٦.
(٣) الكشاف:٥٣٣/٢.
(٤) زاد المسير:٤٩٨/٢.
(٥) أحكام القرآن:٨٤/٣.
(٦)صحيح البخاري برقم (٧٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧).
(٧)ورواه أحمد في المسند (٣٥٢/٣) من طريق عبيد الله وحسين بن محمد ، عن عبيد الله به نحوه.
(٨)المسند (١٨٤/٤).
(٩) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٢/٢) وفي سنده عباد بن منصور متكلم فيه.
(١٠)صحيح مسلم برقم (٢٨٣٥).
(١١)المسند (٣٦٧/٤).

عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : "إنك لتنظر إلى الطير في الجنة ، فيخر بين يديك مشويا"[١].

قال ابن العربي: "قال إبراهيم بن نوح: سمعت مالك بن أنس يقول: «ليس في الدنيا من ثمار ما يشبه ثمار الجنة إلا الموز»، لأن الله يقول: {أكلها دائم} [الرعد: ٣٥] وأنت تجد الموز في الصيف والشتاء.

قال القاضي: وكذلك رمان بغداد، شاهدت المحول قرية من قرى نهر عيسى وفي شجر الرمان حب العامين يجتمع تقطع منه متى شئت صيفا وشتاء، وقيظا وخريفا، إلا أن الحبة التي بقيت في الشجرة عاما لا تفلقها إلا بالقدوم من شدة القشر، فإذا انفلقت ظهر تحته حب الرمان أجمل ما كان وأينعه"[٢].

قوله تعالى:{تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا} [الرعد : ٣٥]، أي:" تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه وأدَّوا فرائضه"[٣].

قال الطبري:" يقول: هذه الجنة التي وصف جل ثناؤه، عاقبة الذين اتَّقَوا الله، فاجتنبوا مَعَاصيه وأدَّوْا فرائضه"[٤].

قال ابن الجوزي:" أي: عاقبة أمرهم المصير إليها"[٥].

قال السعدي:" أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون"[٦].

قوله تعالى:{وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد : ٣٥]، أي: وعاقبة الكافرين بالله النار"[٧].

قال الطبري:" يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النار"[٨].

قال السعدي:" فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!"[٩].

قال ابن كثير:" وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار ؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر ، قال بعده : { تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } كما قال تعالى : { لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } [الحشر : ٢٠]"[١٠].

قال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه : "عباد الله هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم تقبلت منكم، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم ؟ { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : ١١٥]، والله لو عُجّل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم ، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ، ولا تنافسون في جنة { أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ }"[١١].

فوائد الآيتين: [٣٤-٣٥]:

١- الترغيب في الجنة.
٢- أن أشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال.
٣- اتفق أهل السنة على أن الجنة لا تفنى، وذهب جمهور منهم إلى أن النار أيضا لا تفنى وقالت طائفة قليلة منهم بفناء النار.

---

(١)) المسند (٣٦٧/٤).
(٢) أحكام القرآن:٨٥/٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٤) تفسير الطبري:٤٧٢/١٦.
(٥) زاد المسير:٤٩٨/٢.
(٦) تفسير السعدي:٤١٩.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٨) تفسير الطبري:٤٧٢/١٦.
(٩) تفسير السعدي:٤١٩.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٦٦/٤.
(١١) رواه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٤٦٦/٤.

٤- ميزة القرآن الكريم في الجمع بين الوعد والوعيد إذ بهما تمكن هداية الناس.
٥- من الوسائل التي استعملها القرآن الكريم في دعوة المشركين، ضرب الأمثال للتذكير والوعظ والاعتبار، وتصوير الشرك بصورة محسوسة ليكون ذلك أقرب إلى الأنظار، وأثبت في الأذهان، وأسرع في الفهم والامتثال.

القرآن

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)} [الرعد : ٣٦]

التفسير:

والذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارى مَن آمن منهم بك كعبد الله بن سلام والنجاشي، يستبشرون بالقرآن المنزل عليك لموافقته ما عندهم، ومن المتحزبين على الكفر ضدك، كالسَّيد والعاقب، أُسْقفَي «نجران» ، وكعب بن الأشرف، مَن ينكر بعض المنزل عليك، قل لهم: إنما أمرني الله أن أعبده وحده، ولا أشرك به شيئًا، إلى عبادته أدعو الناس، وإليه مرجعي ومآبي.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد : ٣٦]، أي:" والذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارى مَن آمن منهم بك كعبد الله بن سلام والنجاشي، يستبشرون بالقرآن المنزل عليك لموافقته ما عندهم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين أنزلنا إليهم الكتاب ممَّن آمن بك واتبعك، يا محمد، {يفرحون بما أنزل إليك} منه"[٢].

قال البغوي:" "يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ{يفرحون بما أنزل إليك} من القرآن"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد : ٣٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنهم أصحابُ رسول الله محمدٍ ﷺ، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدَّقُوا به. قاله قتادة[٤]، قتادة[٤]، وابن زيد[٥].

الثاني : أنهم مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مجاهد[٦].

الثالث : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فرحوا بما أنزل عليه من تصديق كتبهم ، حكاه ابن عيسى[٧].

قوله تعالى:{وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [الرعد : ٣٦]، أي:" ومن المتحزبين على الكفر ضدك، كالسَّيد والعاقب، أُسْقفَي «نجران» ، وكعب بن الأشرف، مَن ينكر بعض المنزل عليك"[٨].

قال الطبري:" يقول: ومن أهل الملل المتحزِّبين عليك، وهم أهل أدْيان شَتَّى، من ينكر بعضَ ما أنزل إليك"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [الرعد : ٣٦]، ثلاثة أقوال:

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله ابن زيد[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٢) تفسير الطبري:٤٧٣/١٦.
(٣) تفسير البغوي:٣٢٣/٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٤):ص٤٧٣/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٩):ص٤٧٤/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٧):ص٤٧٤/١٦.
(٧) انظر: النكت والعيون:١١٦/٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٩) تفسير الطبري:٤٧٣/١٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٩):ص٤٧٤/١٦.

الثاني : أنهم اليهودَ والنصارى. قاله مجاهد[١]، وبه قال ابن جرير الطبري[٢]، والزمخشري[٣].
والزمخشري[٣].
قال مجاهد:" «الأحزاب»: أهل الكتب، يقرّبهم تحزُّبهم"[٤].
قال ابن ابي زمنين:" «الأحزاب» -ها هنا-: اليهود والنصارى؛ ينكرون بعض القرآن، ويقرون ببعضه بما وافقهم"[٥].
قال الزمخشري:" وذلك أنهم آمنوا بسورة يوسف وقالوا إنها واطأت كتابنا"[٦].
الثالث: أنهم كفار قريش[٧].
وفي إنكارهم بعضه وجهان[٨]:
أحدهما : أنهم عرفوا نعت رسول الله-ﷺ- في كتبهم وأنكروا نبوته .
الثاني : أنهم عرفوا صِدْقه وأنكروا تصديقه.
قوله تعالى:{ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ}[الرعد: ٣٦]، أي:" قل لهم: إنما أمرني الله أن أعبده وحده، ولا أشرك به شيئًا"[٩].
قال الطبري:" أخلِص له الدين حَنِيفًا مسلمًا"[١٠].
سئل سهل: "متى يصح للعبد مقام العبودية؟ قال: إذا ترك تدبيره ورضي بتدبير الله تعالى فيه"[١١].
قوله تعالى:{إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} [الرعد : ٣٦]، أي:" إلى عبادته أدعو الناس، وإليه مرجعي ومآبي"[١٢].
قال الطبري:" يقول: إلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناسَ، وإليه مصيري"[١٣].
عن قتادة: "{وإليه مآب}، وإليه مَصِيرُ كلّ عبْدٍ"[١٤].
الفوائد:
١- تقرير عقيدة الوحي والنبوة.
٢- تقرير عقيدة التوحيد.
٣- أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبي ﷺ في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} ، [الرّعد: ٣٦].

القرآن

{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)} [الرعد : ٣٧]

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٥٥):ص١٦/٤٧٤.
(٢) تفسير الطبري:١٦/٤٧٣.
(٣) انظر: الكشاف:٥/٢٩٥.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٤٥٧):ص١٦/٤٧٤.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٢/٣٥٨.
(٦) الكشاف:٥/٢٩٦.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣/١١٦.
(٨) انظر: النكت والعيون:٣/١١٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٤.
(١٠) تفسير الطبري:١٦/٤٧٣.
(١١) تفسير التستري:٨٥.
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٤.
(١٣) تفسير الطبري:١٦/٤٧٣.
(١٤) أخرجه الطبري(٢٠٤٥٨):ص١٦/٤٧٤.

التفسير:
وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن بلغة العرب؛ لتحكم به، ولئن اتبعت أهواء المشركين في عبادة غير الله -بعد الحق الذي جاءك من الله- ليس لك ناصر ينصرك ويمنعك من عذابه.

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد : ٣٧]، أي:" وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن بلغة العرب؛ لتحكم به "[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وكما أنزلنا عليك الكتاب، يا محمد، فأنكرهُ بعض الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حُكْمًا عربيًا وجعل ذلك، ووصفه به لأنه أنزل على محمدٍ ﷺ وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه، إذ كان عليه أنزل، فكذَّب به الأحزاب"[(٢)].

قال البغوي:" يقول: كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربيا. نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب. وقيل: نظم الآية: كما أنزلت الكتب على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكما عربيا"[(٣)].

قال السعدي:" أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكما، عربيا أي: محكما متقنا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون"[(٤)].

وفي قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد : ٣٧]، وجهان[(٥)]:
أحدهما: قرآنا عربيا؛ لأن فيه الأحكام.
والثاني: :نبيا عربيا؛ لأن النبي كان منهم، والقرآن نزل بلغتهم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "فإن قال قائل: الرسل قبل محمد - ﷺ - كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم: فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع. وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي - ﷺ -، ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابة - منها -: وقال الله تعالى: {وكذلك أنزلناه حكما عربيا} الآية، فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها"[(٦)].

قوله تعالى:{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} [الرعد : ٣٧]، أي:" ولئن اتبعت أهواء المشركين في عبادة غير الله -بعد الحق الذي جاءك من الله- ليس لك ناصر ينصرك ويمنعك من عذابه"[(٧)].

قال مقاتل:" {بعد ما جاءك من العلم}، يعني: من البيان، {ما لك من الله من ولي}، يعني: قريبا ينفعك، {ولا واق}، يعني: يقي العذاب عنك"[(٨)].

قال السعدي:" توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: {ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم} البين الذي ينهاك عن اتباع

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٢) تفسير الطبري:٤٧٥/١٦.
(٣) تفسير البغوي:٣٢٣/٤.
(٤) تفسير السعدي:٤١٩.
(٥) انظر: تفسير السمعاني:٩٨/٣.
(٦) تفسير الإمام الشافعي:٩٨٧/٢-٩٨٨.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/٢.

أهوائهم، {ما لك من الله من ولي} يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، {ولا واق} يقيك من الأمر المكروه"[١].

قال السمعاني:" «الهوى»: ميل الطبع لشهوة النفس. وأكثره مذموم. قوله: {بعد ما جاءك من العلم} يعني: من القرآن {مالك من الله من ولي ولا واق}، يعني: من ناصر ولا حافظ"[٢].

قال البغوي:" {من ولي ولا واق}، يعني: من ناصر ولا حافظ"[٣].

قال الطبري:" ثم نهاه جل ثناؤه عن ترك ما أنزل إليه واتباع الأحزاب، وتهدَّده على ذلك إنْ فعله فقال: {ولئن اتبعت} يا محمد {أهواءهم}، أهوَاء هؤُلاء الأحزاب ورضَاهم ومحبتَهم وانتقلت من دينك إلى دينهم، ما لك من يَقيك من عَذاب الله إنْ عذّبك على اتباعك أهواءَهم، وما لك من ناصر ينصرك فيستنقذك من الله إن هو عاقبك، يقول: فاحذر أن تتّبع أهَواءهم"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} [الرعد : ٣٧]، وجهان:

أحدهما: في الملة، وذلك حين دعى إلى ملة آبائه. قاله مقاتل[٥].

والثاني: أي: في القبلة[٦].

الفوائد:

١- تقرير أن القضاء والحكم في الإسلام مصدره الأول القرآن الكريم ثم السنة لبيانها للقرآن، ثم القياس المأذون فيه فإجماع الأمة لاستحالة اجتماعها على غير ما يحب الله تعالى ويرضى به.

٢- أن القرآن نزل عربياً على رسول عربي لينذر العرب أولاً، ثم ينذر الأمم كافة، وأن الشريعة لا تفهم إلا إذا فهم اللسان العربي، ويعبر عن هذا قول الله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً......}.

وإن كان الرسول ﷺ بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم، وعامة الألسنة في هذا الأمر، تبعاً لِلّسان العربي، وإذا كان كذلك، فلا يُفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه، وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها.

٣- التحذير من اتباع أصحاب البدع والأهواء والملل والنحل الباطلة.

القرآن

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)} [الرعد : ٣٨]

التفسير:

وإذا قالوا: ما لك -أيها الرسول- تتزوج النساء؟ فلقد بعثنا قبلك رسلا من البشر وجعلنا لهم أزواجًا وذرية، وإذا قالوا: لو كان رسولا لأتى بما طلبنا من المعجزات، فليس في وُسْع رسولٍ أن يأتي بمعجزةٍ أرادها قومه إلا بإذن الله. لكل أمر قضاه الله كتاب وأجل قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: نقل الواحدي عن الكلبي، قال: "عيرت اليهود رسول الله ﷺ، وقالت: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا كما زعم لشغله أمره النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٧].

---

(١) تفسير السعدي:٤١٩.
(٢) تفسير السمعاني:٩٨/٣.
(٣) تفسير البغوي:٣٢٣/٤.
(٤) تفسير الطبري:٤٧٥/١٦.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/٢.
(٦) انظر: تفسير البغوي:٣٢٣/٤.
(٧) أسباب النزول:٢٨٠، والكلبي متهم بالكذب.

والثاني: قال مقاتل: "وذلك أن كفار مكة سألوا النبي- ﷺ- أن يأتيهم بآية فقال الله- تعالى-: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ} إلى قومه..."(١).

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ} [الرعد : ٣٨]، أي:" لقد بعثنا قبلك رسلا من البشر"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {ولقد أرسلنا}، يا محمد {رسلا من قبلك} إلى أمم قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك"(٣).

قال القرطبي:" أي: جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي"(٤).

قال الشوكاني:" أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر"(٥).

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد : ٣٨]، أي:" وجعلنا لهم النساء والبنين"(٦).

قال الطبري: أي:" فجعلناهم بَشرًا مثلَك، لهم أزواج ينكحون، وذريةٌ أنْسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم"(٧).

قال الصابوني:" وهو ردٌّ على من عاب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثرة النساء وقالوا: لو كان مرسلاً حقاً لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء، فردَّ الله مقالتهم وبيَّن أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس ببدعٍ في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل"(٨).

قال الشوكاني:" أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر، لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية. وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه"(٩).

وفي قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد : ٣٨]، وجهان:

أحدهما : معناه أن من أرسلناه قبلك من المرسلين بشر لهم أزواج وذرية كسائر البشر ، فلمَ أنكروا رسالتك وأنت مثل من قبلك(١٠).

الثاني : أنه نهاه بذلك عن التبتل، قاله قتادة(١١).

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [الرعد : ٣٨]، أي:" لم يكن لرسولٍ أن يأتي قومه بمُعجزة إلا إذا أذن الله له فيها"(١٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أنْ يأتي أمَّتَه بآية وعلامة، من تسيير الجبال، ونقل بَلْدةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء الموتى ونحوها من الآيات{إلا بإذن الله}، يقول: إلا بأمر الله الجبالَ بالسير، والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيَا"(١٣).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/٢.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٣) تفسير الطبري:٤٧٥/١٦.
(٤) تفسير القرطبي:٣٢٧/٩.
(٥) فتح القدير:١٠٥/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٨٠/٢.
(٧) تفسير الطبري:٤٧٥/١٦-٤٧٦.
(٨) صفوة التفاسير:٨٠/٢.
(٩) فتح القدير:١٠٥/٣.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١١٦/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١١٧/٣.
(١٢) صفوة التفاسير:٨٠/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٤٧٦/١٦.

قال الشوكاني:" أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه. وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره"(١).

قال مقاتل: "{إلا بإذن الله}، يعني: إلا بأمر الله"(٢).

قال الصابوني:" وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات"(٣).

قوله تعالى:{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد : ٣٨]، أي:" لكل أمر قضاه الله كتاب وأجل قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر"(٤).

قال ابن قتيبة:" أي: وقت قد كتب"(٥).

قال مقاتل: " يقول: لا ينزل من السماء كتاب إلا بأجل"(٦).

قال الشوكاني:" أي: لكل أمر مما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم"(٧).

وفي قوله تعالى:{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد : ٣٨]، أربعة وجوه:

أحدها : معناه لكل كتاب نزل من السماء أجل . وهو من المقدِّم والمؤخر ، قاله الضحاك(٨).

قال الطبري:" وهذا على هذا القول نظيرُ قول الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [سورة ق:١٩] ، وكان أبو بكر رحمه الله يقرؤه :«وَجَاءَت سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»، وذلك أن سَكْرة الموت تأتي بالحق والحق يأتي بها، فكذلك الأجل له كتاب وللكتاب أجَل"(٩).

الثاني : معناه : لكلِّ أجلِ أمرٍ قضاه الله، كتابٌ قد كتَبَه فهو عنده. قاله ابن جرير الطبري(١٠).

الثالث : لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله تعالى ، قاله الحسن(١١).

والرابع : لكل عمل خَبر. أفاده الماوردي(١٢).

أخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، عن أبي هريرة قال: "لما ارتقى موسى طور سينا رأى الجبار في أصبعه خاتما قال: يا موسى ما هذا - وهو أعلم به - قال: شيء من حلي الرجال يا رب ٠ قال: فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي قال: لا ٠ قال: فاكتب عليه {لكل أجل كتاب}"(١٣).

الفوائد:

١- أن الرسول بشر من نفس الأمة، وإن كان من معدن كريم، خصه الله بمواهب عقلية، وروحية، ليستعد لتلقى الوحى عن الله.

٢- أن الرسول يتزوج ويولد له كغيره من البشر.

---

(١) فتح القدير:١٠٥/٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/٢.

(٣) صفوة التفاسير:٨٠/٢.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٤.

(٥) غريب القرآن:٢٢٨.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٢/٢.

(٧) فتح القدير:١٠٥/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٦٠):ص٤٧٦/١٦.

(٩) تفسير الطبري:٤٧٦/١٦-٤٧٧.

(١٠) انظر: التفسير:٤٧٦/١٦.

(١١) انظر: النكت والعيون:١١٧/٣.

(١٢) انظر: النكت والعيون:١١٧/٣.

(١٣) الدر المنثور:٥٤١/٣، وقال القرطبي في التفسير:٣٢٩/٩: "ذكر الترمذي في نوادر الأصول عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة..."، ثم ذكر الخبر..وشهر بن حوشب، قال عنه الحافظ في التقريب:" صدوق كثير الغرسال والاوهام".

٣- في الآية الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها، قال ﷺ: « تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى»[(١)][(٢)].

وفي الحديث عن أنس قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال:«أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»"[(٣)].

٤- أن لكل إنسان أجل، فما من نفس منفوسة إلا وقد علم الله تعالى قبل خلقها أجلها وعملها، وسعادتها أو شقاوتها، وحياة عاجلة أو آجلة، وحياة سعيدة أو تعيسة، قد علم الله ذلك كله، ولأجل ذلك أخبر تعالى بأنه كتب الآجال والأعمار ولا يتغير ما كتبه

القرآن

{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)} [الرعد : ٣٩]

التفسير:

يمحو الله ما يشاء من الأحكام وغيرها، ويُبْقي ما يشاء منها لحكمة يعلمها، وعنده أمُّ الكتاب، وهو اللوح المحفوظ.

سبب النزول:

عن مجاهد قول الله: "{يمحو الله ما يشاء ويثبت}، قالت قريش حين أنزل: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ} [سورة الرعد:٣٨] : ما نراك، يا محمد تملك من شيء، ولقد فُرِغ من الأمر! فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم: إنا إن شئنا أحدَثْنا له من أمرنا ما شئنا، ونُحْدِث في كل رمضان، فنمحو ونثبتُ ما نشاء من أرزاق الناس وَمصَائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم"[(٤)].

قوله تعالى:{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد : ٣٩]، أي:" يمحو الله ما يشاء من الأحكام وغيرها، ويُبْقي ما يشاء منها لحكمة يعلمها"[(٥)].

قال ابن قتيبة:" {يمحو الله ما يشاء}، أي: ينسخ من القرآن ما يشاء. {ويثبت} أي يدعه ثابتا فلا ينسخه، وهو المحكم"[(٦)].

وفي قوله تعالى:{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد : ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة، فإنهما لا يُغَيَّران، قاله ابن عباس[(٧)]، ومجاهد[(٨)].

قال ابن عباس:" يدبّر الله أمرَ العباد فيمحو ما يشاءُ، إلا الشقاء والسعادة [والحياة] والموت"[(١)].

---

(١)أخرجه ابن عدى (١٣٥/٦ ترجمة ١٦٣٧ محمد بن ثابت العبدى) ، والبيهقى (٧٨/٧، رقم ١٣٢٣٥) . وأخرجه أيضا: الرويانى (٢٧٤/٢، رقم ١١٨٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي:٣٢٧/٩.

(٣)أخرجه البخارى (١٩٤٩/٥، رقم ٤٧٧٦) . وأخرجه أيضا: ابن حبان (٢٠/٢، رقم ٣١٧) ، والبيهقى (٧٧/٧، رقم ١٣٢٢٦).

(٤) أخرجه الطبري(٢٠٤٩٨):ص٤٨٧/١٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ونقله ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٣٨.

(٥) التفسير الميسر:٢٥٤.

(٦) غريب القرآن:٢٢٨.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٦١)-(٢٠٤٦٦):ص٤٧٧/١٦-٤٧٨.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٦٧)-(٢٠٤٧٢):ص٤٧٩/١٦-٤٨٠.

قال مجاهد:" الشقاء والسعادة قد فُرغ منهما"[٢].
روي عن منصور قال: "سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاءَ أحدنا يقول:«اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه واجعله في السعداء»، فقال: حَسنٌ. ثم أتيته بعد ذلك بحَوْلٍ أو أكثر من ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِين فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [سورة الدخان:٣، ٤] قال: يُقْضى في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدِّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء. فأما كتاب الشقاء والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغَيَّر"[٣].
الثاني : يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتاب سوى أُم الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء، وهما كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. قاله ابن عباس[٤]، وعكرمة[٥].
الثالث : أن الله عز وجل ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه ، قاله ابن عباس[٦]، وقتادة[٧]، وابن زيد[٨]، وابن جريج[٩].
عن ابن عباس: "{يمحو الله ما يشاء}، قال: من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، {وعنده أم الكتاب}، يقول: وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب"[١٠].
الرابع : أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه فذهب، ويثبت من لم يأت أجلُه إلى اجله، قاله الحسن[١١]، وهو أولى الأقوال بتأويل الآية وأشبهها بالصواب عند أبي جعفر الطبري[١٢].
الخامس : يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره ، قاله سعيد بن جبير[١٣].
قال سعيد:" يثبت في البطن الشَّقاء والسعادة وكلَّ شيء، فيغفر منه ما يشاء ويُؤخّر ما يشاء"[١٤].
السادس : أنه الرجل يقدم الطاعة ثم يختمها بالمعصية فتمحو ما قد سلف، والرجل يقدم المعصية ثم يختمها بالطاعة فتمحو ما قد سلف ، وهذا القول مأثور عن ابن عباس أيضاً[١٥].
السابع : أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله ، فيمحو الله عز وجل منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب ، قاله الضحاك[١٦].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٤٦١):ص٤٧٧/١٦. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤: ٦٥، ونسبه إلى عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب مطولا، والزيادة التي بين القوسين منه، ومن تفسير ابن كثير ٤/ ٥٣٦، وذكر الخبر، عن الثوري، ووكيع، وهشيم، عن ابن أبي ليلى.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٤٧٠):ص٤٧٩/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٤٧٢):ص٤٨٠/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٧٣)، (٢٠٤٧٥):ص٤٨٠/١٦-٤٨١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٧٤)، (٢٠٤٧٥م):ص٤٨٠/١٦-٤٨١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٨٩):ص٤٨٥/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٩٠)، (٢٠٤٩١):ص٤٨٥/١٦-٤٨٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٩٢):ص٤٨٦/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٩٣):ص٤٨٦/١٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٤٨٩):ص٤٨٥/١٦، وخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤: ٦٧، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في المدخل. ونقله ابن كثير في تفسيره ٤: ٥٣٨.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٤٩٤)-(٢٠٤٩٧):ص٤٨٦/١٦-٤٨٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٤٨٨/١٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٠١):ص٤٨٧/١٦.
(١٤)أخرجه الطبري(٢٠٥٠١):ص٤٨٧/١٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤: ٦٨، ولم ينسبه لغير ابن جرير، ولفظه عنده:" ... وكل شيء هو كائن، فيقدم منه ما يشاء ... "، قال السيد محمد شاكر:"وهذا أجود مما في مخطوطتنا".
(١٥) انظر: النكت والعيون:١١٨/٣.
(١٦) انظر: النكت والعيون:١١٨/٣.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله -بعد إيراده عدة أقوال-: "ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان مرفوعا: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[(١)]"[(٢)].

قال الإمام ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهُها بالصّواب، القولُ الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلا بِإِذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} ، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلا مُثْبَتًا في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شَاء ممن قد دَنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

قال ابن جرير الطبري: "وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ... «عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:"إن الله يَفتح الذِّكر في ثلاث ساعات يَبْقَيْن من الليل، في الساعة أولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظُرُ فيه أحد غَيره، فيمحو ما يشاء ويثبتُ. ثم ذكر ما في الساعتين الأخريين»[(٣)]"[(٤)].

وقال ابن عباس: "إن لله لوحًا محفوظًا مسيرةَ خمسمِئة عام، من دُرَّة بيضاء لَها دَفَّتَان من ياقوت، والدَّفتان لَوْحان لله، كل يوم ثلاثمئة وستون لحظةً، يمحو ما يشَاء ويثبت وعنده أم الكتاب"[(٥)].

قال قيس بن عباد: "العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء"[(٦)].

قوله تعالى:{وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد : ٣٩]، أي:"وعنده أمُّ الكتاب، وهو أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقاديرَ الأشياءِ كلَّها"[(٧)].

قال ابن قتيبة:" أي: جملته وأصله"[(٨)].

وفي قوله تعالى:{وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد : ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها : الحلال والحرام ، قاله الحسن[(٩)].

الثاني : وعنده جملة الكتاب وأصله، قاله الضحاك[(١٠)]، وقتادة[(١١)].

وروي عن ابن عباس، قال:" وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب: الناسخُ والمنسوخ، وما يبدّل، وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب"[(١)].

---

(١) المسند(٢٢٣٨٦)، والشطر الأول منه لم يصح، كما في الصحيحة (١٥٤).

(٢)التفسير (٤٦٩/ ٤).

(٣) تفسير الطبري(٢٠٥٠٢):ص٤٨٨/١٦. في سنده : زيادة بن محمد الأنصاري"، وهو منكر الحديث.

والخبر أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٥، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني ونقله ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٣٧.

(٤) التفسير:٤٨٨/١٦.

(٥) أخرجه الطبري(٢٠٥٠٤):ص٤٨٩/١٦، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٥، ولم ينسبه لغير ابن جرير، ونقله ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٣٧،

(٦) أخرجه الطبري(٢٠٥٠٥):ص٤٨٩/١٦. وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦، ولم ينسبه إلى غير ابن جرير، ثم ذكر بعده خبرًا مطولا عن قيس بن عباد، ونسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.

(٧) صفوة التفاسير:٨٠/٢.

(٨) غريب القرآن:٢٢٨.

(٩) انظر: النكت والعيون:١١٨/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٠٩)، (٢٠٥١٠):ص٤٩٠/١٦.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٠٧)، (٢٠٥٠٨):ص٤٩٠/١٦.

الثالث : هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق وما خَلْقُه عاملون، قاله كعب الأحبار[٢].
وقال كعب:" فقال لعلمه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا"[٣].
الرابع : هو الذكر ، قاله ابن عباس[٤].
الخامس : أنه الكتاب الذي لا يبدل ، قاله السدي[٥].
السادس : أنه أصل الكتاب في اللوح المحفوظ ، قاله عكرمة[٦].

قال الإمام ابو جعفر الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال:"وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحُو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: {وعنده أم الكتاب}، فكان بيِّنًا أن معناه. وعنده أصل المثبّت منه والمَمحوّ، وجملتُه في كتاب لديه"[٧].

وقرئ: «وَيُثْبِتُ»، بالتخفيف، بمعنى: يكتب[٨].

الفوائد:

١- بيان النسخ في الأحكام بالكتاب والسنة.
٢- بيان سنة الله في الآجال:

إن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى:{إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}[يونس: ٤٩]، وقال تعالى:{وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا}[آل عمران: ١٤٥].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ:« قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لا يعجل شيئا منها قبل حله ولا يؤخر منها شيئا بعد حله ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار أو عذاب فى القبر كان خيرا لك وأفضل»"[٩].

قد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب الله فما معنى قوله:{يمحو الله ما يشاء ويثبت} [الرعد: ٣٩]، وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: "من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه"[١٠].

وكيف تفسرون قول نوح لقومه:{أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى}[نوح: ٣ - ٤].

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

- نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل.

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٥١١):ص٤٩١/١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٢):ص٤٩١/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٥١٢):ص٤٩١/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٣):ص٤٩١/١٦.
(٥) انظر: النكت والعيون:١١٨/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١١٨/٣.
(٧) تفسير الطبري:٤٩١/١٦-٤٩٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٤٩٢/١٦.
(٩)أخرجه أحمد (٣٩٠/١، رقم ٣٧٠٠) ، ومسلم (٢٠٥٠/٤، رقم ٢٦٦٣) ، وابن حبان (٢٣٥/٧، رقم ٢٩٦٩) ، وفى الحديث أن أم حبيبة ابنة أبى سفيان قالت: اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله - ﷺ - وبأبى أبى سفيان وبأخى معاوية. فذكره.
(١٠)متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٥٧، والقضاء والقدر، عمر سليمان الأشقر صـ ٦٦.

- ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال تعالى:{يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}[الرعد: ٣٩]، و«أم الكتاب» هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الإمور على ما هي عليه، ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقا وأجلا، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما[١].

والأجل أجلان:

- أجل مطلق يعلمه الله.
- وأجل مقيد.

فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلا، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر[٢].

القرآن

{وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)} [الرعد : ٤٠]

التفسير:

وإن أريناك -أيها الرسول- بعض العقاب الذي توعَّدْنا به أعداءك من الخزي والنَّكال في الدنيا فذلك المعجَّل لهم، وإن توفيناك قبل أن ترى ذلك، فما عليك إلا تبليغ الدعوة، وعلينا الحساب والجزاء.

قوله تعالى:{وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} [الرعد : ٤٠]، أي:" وإن أريناك -أيها الرسول- بعض العقاب الذي توعَّدْنا به أعداءك من الخزي والنَّكال في الدنيا فذلك المعجَّل لهم"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما نرينك، يا محمد في حياتك بعضَ الذي نعدُ هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم"[٤].

قال الزجاج:" المعنى: إما أريناك بعض الذي وعدناهم من إظهار دين الإسلام على الدين كله"[٥].

قال ابن كثير:" أي : ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم"[٦].

قوله تعالى:{أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [الرعد : ٤٠]، أي:" وإن نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين"[٧].

قال الطبري:" أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُريَك ذلك"[٨].

قال الزجاج:" أو توفيناك قبل ذلك"[٩].

قوله تعالى:{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد : ٤٠]، أي:" فما عليك إلا تبليغ الدعوة، وعلينا الحساب والجزاء"[١٠].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٥٤٠)، القضاء والقدر عمر الأشقر صـ ٦٧.
(٢) انظر: الإيمان والقدر:٣٠٧-٣٠٨.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٤) التفسير: ٤٩٣/١٦.
(٥) معاني القرآن:١٥٠/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤.
(٧) صفوة التفاسير:٨٠/٢.
(٨) التفسير: ٤٩٣/١٦.
(٩) معاني القرآن:١٥٠/٣.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٤.

قال الطبري:" فإنما عليك أن تنتهِيَ إلى طاعة ربك فيما أمرك به من تبليغهم رسالتَه، لا طلبَ صلاحِهم ولا فسادِهِم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر"[1].

قال ابن كثير:" أي : مصيرهم ومتقَلَبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك "[2].

قال الزجاج:" فليس عليك إلا البلاغ - كفروا هم به أو آمنوا"[3].

قال السعدي: أي:" فليس ذلك شغلا لك {فإنما عليك البلاغ} والتبيين للخلق، {وعلينا الحساب} فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم"[4].

عن حذيفة بن أسيد ، عن النبي ﷺ قال : "عُرِضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة ، أولها وآخرها. فقال رجل : يا رسول الله ، عرض عليك من خُلِق ، فكيف من لم يخلق ؟ فقال : "صُوِّروا لي في الطين ، حتى إني لأعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه"[5].

الفوائد:

١- انتصار الإسلام وانتشاره في ظرف ربع قرن أكبر دليل على أنه حق.
٢- لم يشترط الله تعالى ولا رسوله ﷺ لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استجابة الناس، بل أوجب الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ وعلى أمته تبليغ الناس أوامره ونواهيه سواء استجابوا أم لم يستجيبوا. وقد وردت نصوص كثيرة تبين هذا. منها على سبيل المثال قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ [النور:٥٤].

- ومنها قوله تعالى: فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ [آل عمران: ٢٠].
- ومنها قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلَاغُ المُبِينُ [المائدة: ٩٢].
- ومنها قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ المُبِينُ [النحل: ٨٢].
- ومنها قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلَاغُ المُبِينُ [التغابن: ١٢].
- ومنها قوله تعالى: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ [النحل: ٣٥].
- ومنها قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ [هود: ٥٧].
- ومنها قوله تعالى: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ [الرعد: ٤٠].
- ومنها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة: ٦٧].
- ومنها قوله تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

فمهمة الرسول الكريم ﷺ وهكذا مهمة أمته أن يبلغوا الناس أوامر الله تعالى ونواهيه ويذكروهم سواء استجابوا أم لم يستجيبوا ولا عذر لهم عند الله لترك هذه المهمة الجليلة بسبب إعراض الناس عنهم. وفي هذا الصدد يقول الإمام النووي: "وقال العلماء رضي الله عنهم: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال الله عز وجل: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ"[6].

---

(١) التفسير: ٤٩٣/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤.
(٣) معاني القرآن:١٥٠/٣-١٥١.
(٤) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٥)المعجم الكبير (١٨١/٣). ورواه ابن ابي شيبة بنحوه، كما في تفسير ابن كثير:٢٧٢/٤، وقال الهيثمي في المجمع (٦٩/١٠) : "وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب".
(٦)شرح النووي على صحيح مسلم)) (٢/ ٢٢ - ٢٣.

ومما يؤكد هذا ما قصه الله تعالى عن أصحاب السبت حيث استمر الصالحون في نهي العصاة عن التحايل للصيد يوم السبت، ولم يتركوا الاحتساب بسبب عدم استجابة العصاة، بل صرحوا أنهم يقصدون من وراء احتسابهم أمرين:
أ- أن يقبل عذرهم عند الله تعالى.
ب- لعل العصاة يستجيبون فيتركون التحايل ويتوبون إلى الله تعالى.
يقول سبحانه وتعالى عن قصتهم: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [الأعراف: ١٦٤][(١)].

القرآن

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)} [الرعد : ٤١]

التفسير:

أو لم يبصر هؤلاء الكفار أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، وذلك بفتح المسلمين بلاد المشركين وإلحاقها ببلاد المسلمين؟ والله سبحانه يحكم لا معقِّب لحكمه وقضائه، وهو سريع الحساب، فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإن كل آت قريب.

قوله تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الرعد : ٤١]، أي:" أولمْ ير هؤلاء المشركون أنّا نمكّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟"[(٢)].

وفي قوله تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الرعد : ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها: بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، قاله ابن عباس[(٣)]، والحسن[(٤)]، والضحاك[(٥)]، والضحاك[(٥)]، وقتادة[(٦)]، وبه قال ابن جرير الطبري[(٧)]، وابن كثير[(٨)]..

قال ابن عباس:" أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟"[(٩)].

قال الحسن:" هو ظهور المسلمين على المشركين"[(١٠)].

قال الضحاك:" يعنى: أن نبي الله ﷺ كان يُنْتَقَصُ له ما حوله من الأرَضِين، ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون قال الله في «سورة الأنبياء»: {نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [سورة الأنبياء:٤٤] ، بل نبي الله ﷺ وأصحابه هم الغالبون"[(١١)].

قال الصابوني:" وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام"[(١٢)].

الثاني : بخرابها بعد العمارة، والمعنى: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرِّبها، أو لا يَخَافون أن نفعل بهم وبأرضهم مثل ذلك فنهلكهم ونخرّب أرضهم؟. قاله ابن عباس أيضا[(١٣)]، ومجاهد[(١)]، وعكرمة[(٢)].

---

(١) .
(٢) طصفوة التفاسير:٢/٨٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٤):ص١٦/٤٩٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٧):ص١٦/٤٩٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٦):ص١٦/٤٩٤.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣/١١٩.
(٧) انظر: التفسير:١٦/٤٩٧-٤٩٨.
(٨) انظر: التفسير:٤/٤٧٣.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٥١٤):ص١٦/٤٩٣.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٥١٧):ص١٦/٤٩٤.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠٥١٨):ص١٦/٤٩٤.
(١٢) صفوة التفاسير:٢/٨٠-٨١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥١٩):ص١٦/٤٩٤-٤٩٥.

وقال ابن جريج:" خرابُها وهلاك الناس"[٣].
قال عكرمة:" نخرّب من أطرافها"[٤].
الثالث : معناه: ننقص من بَرَكتها وثَمرتها وأهلِها بالموت، قاله ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، والكلبي[٧]، والشعبي[٨].
وقال الشيخ السعدي:" أي: بموت أهلها وفنائهم، شيئا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين"[٩].
الرابع : معناه: أنا نأتي الأرض ننقصها من أهلها، نأخذ من أطرافهم ونواحيهم بأخذهم بالموت. قاله مجاهد[١٠]، وعكرمة[١١].
قال عكرمة:" هو الموت -وفي رواية-«هو قَبْضُ الناس»[١٢]. ثم قال: لو كانت الأرض تنقص لم نجد مكانًا نجلسُ فيه"[١٣].
الخامس: أن معنى«ننقُصها من أطرافها»، اي: بموت فقهائها وخيارها ، قاله ابن عباس[١٤]، ومجاهد[١٥].
وقال ابن قتيبة :"أي: بموت العلماء والعباد"[١٦].
السادس : أنه بجور ولاتها. أفاده الماوردي[١٧].
السابع: التفسير العلمي للآية الكريمة، فإنه للآية عدة دلالات أثبتها العلم الحديث، ومن ذلك[١٨]:
أولا: في إطار دلالة لفظة «الأرض» علي الكوكب ككل:
في هذا الإطار نجد ثلاثة معان علمية بارزة يمكن إيجازها فيما يلي:
أ- إنقاص الأرض من أطرافها بمعني انكماشها علي ذاتها وتناقص حجمها باستمرار[١٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٠)، (٢٠٥٢١):ص١٦/٤٩٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٢):ص١٦/٤٩٥.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٥٢١):ص١٦/٤٩٥.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٥٢٢):ص١٦/٤٩٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٣):ص١٦/٤٩٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٤):ص١٦/٤٩٥.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣/١١٩.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٥):ص١٦/٤٩٦.
(٩) تفسير السعدي:٥٢٤.
وقيل: أن البشرية في ازدياد، فحسب تقرير جديد للأمم المتحدة صدر ١٧ يونيه/حزيران/٢٠١٩، من المتوقع أن يرتفع عدد سكان العالم بمقدار ملياري شخص في الثلاثين عاما القادمة – وتيرة النمو تمضي ببطء، لكن نمو السكان سيصل، حسب التوقعات، إلى ذروته بحلول عام ٢١٠٠: حوالي ١١ مليار شخص.
وحسب التقرير أيضا، من المتوقع أن معدل الخصوبة العالمي – الذي كان قد انخفض عام ٢٠١٩ إلى ٢.٥ ولادة لكل امرأة، مقارنة بمعدل ٣.٢ عام ١٩٩٠ – سيواصل الانخفاض عام ٢٠٥٠ إلى أن يصل إلى معدل ٢.٢ ولادة لكل امرأة.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٦)، (٢٠٥٢٧):ص١٦/٤٩٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٢٧)-(٢٠٥٣٢):ص١٦/٤٩٦-٤٩٧.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٥٢٩):ص١٦/٤٩٦.
(١٣) اخرجه الطبري(٢٠٥٢٧):ص١٦/٤٩٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣٣):ص١٦/٤٩٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣٤):ص١٦/٤٩٧.
(١٦) غريب القرآن:٢٢٩.
(١٧) انظر: النكت والعيون:٣/١١٩.
(١٨) انظر: من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم، د. زغلول النجار:١٥٣ وما بعدها.
(١٩)يقدر متوسط قطر الأرض الحالية بحوالي١٢٧٤٢ كم، ويقدر متوسط محيطها بنحو٤٠٠٤٢ كم، ويقدر حجمها بأكثر من مليون مليون كم٣. وتفيد الدراسات أن أرضنا مرت بمراحل متعددة من التشكيل منذ انفصال مادتها عن سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن عملية الانفجار العظيم إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عبر سديم الدخان الذي تولدت عنه مجموعتنا الشمسية، وبذلك خلقت الأرض الابتدائية التي لم تكن سوي كومة

ضخمة من الرماد ذات حجم هائل يقدر بمائة ضعف حجمها الحالي علي الأقل، ومكونة من عدد من العناصر الخفيفة. ثم ما لبثت تلك الكومة الابتدائية أن رجمت بوابل من النيازك الحديدية، والحديدية الصخرية، والصخرية، كتلك التي تصل الأرض في زماننا(والتي تتراوح كمياتها بين الألف والعشرة آلاف طن سنويا من مادة الشهب والنيازك).

وبحكم كثافتها العالية نسبياً اندفعت النيازك الحديدية إلى مركز تلك الكومة الابتدائية حيث استقرت، مولدة حرارة عالية أدت إلى صهر كومة الرماد التي شكلت الأرض الابتدائية وإلى تمايزها إلى سبع أرضين علي النحو التالي:

١ـ لب صلب داخلي: عبارة عن نواة صلبة من الحديد(٩٠%) وبعض النيكل(٩%) مع قليل من العناصر الخفيفة مثل الكربون والفسفور، والكبريت والسليكون والأوكسجين(١%) وهو قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادة واضحة في نسبة الحديد، ويبلغ قطر هذه النواة حاليا ما يقدر بحوالي٢٤٠٢ كم، وتقدر كثافتها بحوالي١٠ إلي١٣.٥ جرام/سم٣.

٢ـ نطاق لب الأرض السائل(الخارجي): وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريبا ولكنه في حالة انصهار، ويقدر سمكه بحوالي٢٢٧٥ كم، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة يبلغ سمكها٤٥٠ كم تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق، ويكون كل من لب الأرض الصلب والسائل حوالي٣١% من كتلتها.

٣ـ النطاق الأسفل من وشاح الأرض(الوشاح السفلي): وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل، ويبلغ سمكه نحو٢٢١٥ كم(من عمق٦٧٠ كم إلى عمق٢٨٨٥ كم) ويفصله عن الوشاح الأوسط(الذي يعلوه) مستوي انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل.

٤ـ النطاق الأوسط من وشاح الأرض(الوشاح الأوسط): وهو نطاق صلب يبلغ سمكه نحو٢٧٠ كم، ويحده مستويات من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية يقع أحدهما علي عمق٦٧٠ كم ويفصله عن الوشاح الأسفل، ويقع الآخر علي عمق٤٠٠ كم ويفصله عن الوشاح الأعلى.

٥ـ النطاق الأعلى من وشاح الأرض(الوشاح العلوي): وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة(نسبة الانصهار فيه في حدود١%) يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي ويمتد بين عمق٦٥ ـ١٢٠ كم وعمق٤٠٠ كم ويتراوح سمكه بين٣٣٥ كم و٣٨٠ كم، ويعتقد بأن وشاح الأرض كان كله منصهرا في بدء خلق الأرض ثم أخذ في التصلب بالتدريج نتيجة لفقد جزء هائل من حرارة الأرض.

٦ـ النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض: ويتراوح سمكه بين٤٠ ـ٦٠ كم(بين أعماق٦٠ ـ٨٠ كم)١٢٠ كم ويحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي، ومن أعلي خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم الموهو.

٧ـ النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض(قشرة الأرض):

ويتراوح سمكه بين(٥ ـ٨) كم تحت قيعان البحار والمحيطات وبين(٦٠ ـ٨٠) كم تحت القارات، ويتكون أساسا من العناصر الخفيفة مثل السليكون، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والألمنيوم، والأوكسجين مع قليل من الحديد(٥.٦%) وبعض العناصر الأخرى وهو التركيب الغالب للقشرة القارية التي يغلب عليها الجرانيت والصخور الجرانيتية، أما قشرة قيعان البحار والمحيطات فتميل إلى تركيب الصخور البازلتية.

وأدي هذا التمايز في التركيب الداخلي للأرض إلى نشوء دورات من تيارات الحمل، تندفع من نطاق الضعف الأرضي(الوشاح الأعلى) غالبا، ومن وشاح الأرض الأوسط أحيانا، لتمزق الغلاف الصخري للأرض إلى عدد من الألواح التي شرعت في حركة دائبة حول نطاق الضعف الأرضي نشأ عنها الثورات البركانية، والهزات الأرضية، والحركات البانية للجبال، كما نشأ عنها دحو الأرض بمعني إخراج كل من غلافيها المائي والغازي من جوفها وتكون كتل القارات.

هذا التاريخ يشير إلى أن حجم الأرض الابتدائية كان علي الأقل يصل إلى مائة ضعف حجم الأرض الحالية والمقدر بأكثر قليلا من مليون مليون وثلاثمائة وخمسين كيلومترا مكعبا وأن هذا الكوكب قد أخذ منذ اللحظة الأولي لخلقه في الانكماش علي ذاته من كافة أطرافه. وكان انكماش الأرض علي ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة علي العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس، هذه العلاقة التي تضبط بعد الأرض عن الشمس، ذلك البعد الذي يحكم كمية الطاقة الواصلة إلينا. ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بنحو مائة وخمسين مليونا من الكيلومترات، ولما كانت كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلى كل كوكب من كواكب مجموعتها تتناسب تناسبا عكسيا مع بعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها، بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسبا طرديا مع بعده عنها(وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في إتمام دورة كاملة حول الشمس)، اتضحت لنا الحكمة من استمرارية تناقص الأرض وانكماشها علي ذاتها أي تناقصها من أطرافها. ولو زادت الطاقة التي تصلنا من الشمس عن القدر الذي يصلنا اليوم قليلا لأحرقتنا، وأحرقت كل حي

ب- إنقاص الأرض من أطرافها بمعني تفلطحها قليلاً عند القطبين، وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء [1].

ت-إنقاص الأرض من أطرافها بمعني اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض[2].

علي الأرض، ولبخرت الماء، وخلخلت الهواء، ولو قلت قليلاً لتجمد كل حي علي الأرض ولقضي علي الحياة الأرضية بالكامل.
ومن الثابت علميا أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية نحو خمسة ملايين من الأطنان علي هيئة طاقة ناتجة من تحول غاز الإيدروجين بالاندماج النووي إلى غاز الهليوم. وللمحافظة علي المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابد وأن تفقد الأرض من كتلتها وزنا متناسبا تماما مع ما تفقده الشمس من كتلتها، ويخرج ذلك عن طريق كل من فوهات البراكين وصدوع الأرض علي هيئة الغازات والأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد الصلبة التي يعود بعضها إلى الأرض، ويتمكن البعض الآخر من الآفلات من جاذبية الأرض والانطلاق إلى صفحة السماء الدنيا، وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض فإنها تنكمش علي ذاتها، وتنقص من كافة أطرافها، وتحتفظ بالمسافة الفاصلة بينها وبين الشمس. ولولا ذلك لانطلقت الأرض من عقال جاذبية الشمس لتضيع في صفحة الكون وتهلك ويهلك كل من عليها، أو لانجذبت إلى قلب الشمس حيث الحرارة في حدود١٥ مليون درجة مئوية فتنصهر وينصهر كل ما بها ومن عليها.
ومن حكمة الله البالغة أن كمية الشهب والنيازك التي تصل الأرض يوميا تلعب دورا هاما في ضبط العلاقة بين كتلتي الأرض والشمس إذا زادت كمية المادة المنفلتة من عقال جاذبية الأرض..
(١)في زمن الخليفة المأمون قيست المسافة المقابلة لكل درجة من درجات خطوط الطول في كل من تهامة والعراق، واستنتج من ذلك حقيقة أن الأرض ليست كاملة الاستدارة، وقد سبق العلماء المسلمون الغرب في ذلك بثمانية قرون علي الأقل لأن الغربيين لم يشرعوا في قياس أبعاد الأرض إلا في القرن السابع عشر الميلادي، حين أثبت نيوتن نقص تكور الأرض وعلله بأن مادة الأرض لاتتأثر بالجاذبية نحو مركزها فحسب، ولكنها تتأثر كذلك بالقوة الطاردة(النابذة) المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها، وقد نتج عن ذلك انبعاج بطئ في الأرض ولكنه مستمر عند خط الاستواء حيث تزداد القوة الطاردة المركزية إلى ذروتها، وتقل قوة الجاذبية إلى المركز إلى أدني قدر لها، ويقابل ذلك الانبعاج الاستوائي تفلطح(انبساط) قطبي غير متكافئ عند قطبي الأرض حيث تزداد قوتها الجاذبة، وتتناقص قيمة القوة الطاردة المركزية، والمنطقة القطبية الشمالية أكثر تفلطحا من المنطقة القطبية الجنوبية. ويقدر متوسط قطر الأرض الاستوائي بنحو١٢٧٥٦.٣ كم، ونصف قطرها القطبي بنحو١٢٧١٣.٦ كم وبذلك يصبح الفارق بين القطرين نحو٤٢.٧ كم، ويمثل هذا التفلطح نحو٣٣.% من نصف قطر الأرض، مما يدل علي أنها عملية بطيئة جدا تقدر بنحو١ سم تقريبا كل ألف سنة، ولكنها عملية مستمرة منذ بدء خلق الأرض، وهي احدي عمليات إنقاص الأرض من أطرافها.
(٢)يمزق الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات في الطول، وتتراوح أعماقها بين٦٥ كم و١٢٠كم، وتفصل هذه الشبكة من الصدوع الغلاف الصخري للأرض إلي١٢ لوحا رئيسيا وعدد من الألواح الصغيرة نسبيا، ومع دوران الأرض حول محورها تنزلق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي متباعدة عن بعضها البعض، أو مصطدمة مع بعضها البعض، ويعين علي هذه الحركة اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات الصدوع خاصة عبر تلك المستويات التصدعية التي تشكل محاور حواف أواسط المحيطات فتؤدي إلى اتساع قيعان البحار والمحيطات وتجدد صخورها، وذلك لأن الصهارة الصخرية المتدفقة بملايين الأطنان عبر مستويات صدوع أواسط المحيطات تؤدي إلى دفع جانبي قاع المحيط يمنة ويسرة لعدة سنتيمترات في السنة الواحدة، وتؤدي إلى ملء المسافات الناتجة بالطفوحات البركانية المتدفقة والتي تبرد وتتطلب علي هيئة أشرطة متوازية تتقادم في العمر. في اتجاه حركة التوسع، وينتج عن هذا التوسع اندفاع صخور قاع المحيط يمنة ويسرة، في اتجاهي التوسع ليهبط تحت كتل القارات المحيطة في الجانبين بنفس معدل التوسع(أي بنصفه في كل اتجاه)، وتستهلك صخور قاع المحيط الهابطة تحت القارتين المحيطتين بالانصهار في نطاق الضعف الأرضي.
وكما يصطدم قاع المحيط بكتل القارتين أو القارات المحيطة بحوض المحيط أو البحر، فإن العملية التصادمية قد تتكرر بين كتل قاع المحيط الواحد فتكون الجزر البركانية وينقص قاع المحيط، وكما تحدث عملية التباعد في أواسط القارة فتؤدي إلى فصلها إلى كتلتين قاريتين مفصولتين ببحر طولي مثل البحر الأحمر يظل يتسع حتى يتحول إلى محيط في المستقبل البعيد وفي كل الحالات تستهلك صخور الغلاف الصخري للأرض عند خطوط التصادم، وتتجدد عند خطوط التباعد، وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها. وتتخذ ألواح الغلاف الصخري للأرض في العادة أشكالا رباعية يحدها من جهة خطوط انفصام وتباعد، يقابلها في

ثانيا: في إطار دلالة لفظ «الأرض» علي اليابسة التي نحيا عليها:

في هذا الإطار نجد معنيين علميين واضحين نوجزهما فيما يأتي:

أ- إنقاص الأرض من أطرافها بمعني أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتى تتم تسوية سطحها[١].

ب-إنقاص الأرض من أطرافها بمعني طغيان مياه البحار والمحيطات علي اليابسة وإنقاصها من أطرافها[٢].

الجهة الأخرى خطوط تصادم، وفي الجانبين الآخرين حدود انزلاق، تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري منزلقة بحرية عن بعضها البعض.

وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض يؤدي باستمرار إلى استهلاك صخور قيعان كل محيطات الأرض، وإحلالها بصخور جديدة، وعلي ذلك فإن محاور المحيطات تشغلها صخور بركانية ورسوبية جديدة قد لا يتجاوز عمرها اللحظة الواحدة، بينما تندفع الصخور القديمة(التي قد يتجاوز عمرها المائتي مليون سنة) عند حدود تصادم قاع المحيط مع القارات المحيطة به، والصخور الأقدم عمرا من ذلك تكون هبطت تحت كتل القارات وهضمت في نطاق الضعف الأرضي وتحولت إلى صهارة، وهي صورة رائعة من صور إنقاص الأرض من أطرافها.

ويبدو أن هذه العمليات الأرضية المتعددة كانت في بدء خلق الأرض أشد عنفا من معدلاتها الحالية لشدة حرارة جوف الأرض بدرجات تفوق درجاتها الحالية وذلك بسبب الكم الهائل من الحرارة المتبقية عن الأصل الذي انفصلت منه الأرض، والكم الهائل من العناصر المشعة الآخذة في التناقص باستمرار بتحللها الذاتي منذ بدء تجمد مادة الأرض..

(١)فسطح الأرض ليس تام الاستواء وذلك بسبب اختلاف كثافة الصخور المكونة للغلاف الصخري للأرض، وكما حدث انبعاج في سطح الأرض عند خط الاستواء، فإن هناك نتوءات عديدة في سطح الأرض حيث تتكون قشرة الأرض من صخور خفيفة، وذلك من مثل كتل القارات والمرتفعات البارزة علي سطحها، وهناك أيضا انخفاضات مقابلة لتلك النتوءات حيث تتكون قشرة الأرض من صخور عالية الكثافة نسبيا وذلك من مثل قيعان المحيطات والأحواض المنخفضة علي سطح الأرض.

ويبلغ ارتفاع أعلى قمة علي سطح الأرض وهي قمة جبل افريست في سلسلة جبال الهيمالايا٨٨٤٠ مترا فوق مستوي سطح البحر، ويقدر منسوب الخفض نقطة علي اليابسة وهي حوض البحر الميت٣٩٥ مترا تحت مستوي سطح البحر، ويبلغ منسوب أكثر أغوار الأرض عمقا حوالي١٠,٨٠٠ مترا وهو غور ماريانوس في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين، والفارق بينهما أقل من عشرين كيلو مترا(١٩٦٠ مترا)، وهو فارق ضئيل إذا قورن بنصف قطر الأرض.

ويبلغ متوسط ارتفاع سطح الأرض حوالي٨٤٠ مترا فوق مستوي سطح البحر ومتوسط أعماق المحيطات حوالي أربعة كيلو مترات تحت مستوي سطح البحر(٣٧٢٩ مترا إلي٤٥٠٠ متر تحت مستوي سطح البحر)وهذا الفارق البسيط هو الذي أعان عوامل التعرية المختلفة علي بري صخور المرتفعات وإلقائها في منخفضات الأرض في محاولة متكررة لتسوية سطحها، وهي سنة دائبة من سنن الله في الأرض، فإذا بدأنا بمنطقة مرتفعة ولكنها مستوية يغشاها مناخ رطب، فإن مياه الأمطار سوف تتجمع في منخفضات المنطقة علي هيئة عدد من البحيرات والبرك.حتى يتكون نظام صرف مائي جيد، وعندما تجري الأنهار فإنها تحت مجاريها في صخور المنطقة حتى تقترب من المستوي الأدنى للتحات فتسحب كل مياه البحيرات والبرك التي تمر بها، وكلما زاد الحت إلى أسفل تزايدت التضاريس تشكلا وبروزا، وعندما تصل بعض المجاري المائية إلى المستوي الأدنى للتحات فإنها تبدأ في النحر الجانبي لمجاريها بدلا من النحر الرأسي فيتم بذلك التسوية الكاملة لتضاريس المنطقة علي هيئة سهول مستوية(أو سهوب) تتعرج فيها الأنهار، وتتسع مجاريها، وتضعف سرعات جريها. وقدراتها علي النحر، وبعد الوصول إلى هذا المستوي أو الاقتراب منه يتكرر رفع المنطقة وتعود الدورة إلى صورتها الأولي، وتعتبر هذه الدورة(التي تعرف باسم دورة التسهيب) صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها، وينخفض منسوب قارة أمريكا الشمالية بهذه العملية بمعدل يصل إلي٠,٠٣ مم في السنة حتى يغمرها البحر إن شاء الله.

(٢)من الثابت علميا أن الأرض قد بدأت منذ القدم بمحيط غامر، ثم بتحرك ألواح الغلاف الصخري الابتدائي للأرض وبدأت جزر بركانية عديدة في التكون في قلب هذا المحيط الغامر، وبتصادم تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تفتت بعد ذلك إلى العدد الراهن من القارات، وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سنة أرضية تعرف باسم دورة التبادل بين المحيطات والقارات

ثالثا: في إطار دلالة لفظ «الأرض» علي التربة التي تغطي صخور اليابسة: إنقاص الأرض من أطرافها بمعني التصحر(1).

قال الإمام ابن كثير:" والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية ، وكَفْرًا بعد كَفْر ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى } [الأحقاف : ٢٧] الآية ، وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله"(2).

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: {أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها} ، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقَهْرِهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسولَه الآيات من مشركي قومه بقوله: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} ، ثم وبَّخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: {أولم يرَوْا أنا نأتي الأرض ننقصها

وتحول أجزاء من اليابسة إلى بحار ـ والتي من نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر، وخليج كاليفورنيا، هو صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها، ليس هذا فقط بل أن من الثابت علميا أن غالبية الماء العذب علي اليابسة محجوز علي هيئة تتابعات هائلة من الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال، يصل سمكها في القطب الجنوبي إلى أربعة كيلو مترات، ويقترب من هذا السمك قليلا في القطب الشمالي(٣٨٠٠ متر)، وانصهار هذا السمك الهائل من الجليد سوف يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات لأكثر من مائة متر، وقد بدأت بوادر هذا الانصهار، وإذا تم ذلك فإنه سوف يغرق أغلب مساحات اليابسة ذات التضاريس المنبسطة حول البحار والمحيطات وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها، وفي ظل التلوث البيئي الذي يعم الأرض اليوم، والذي يؤدي إلى رفع درجة حرارة نطاق المناخ المحيط بالأرض باستمرار بات انصهار هذا السمك الهائل من الجليد أمرا محتملا، وقد حدث ذلك مرات عديدة في تاريخ الأرض الطويل الذي تردد بين دورات يزحف فيها الجليد من أحد قطبي الأرض أو منهما معا في اتجاه خط الاستواء، وفترات ينصهر فيها الجليد فيؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحاروالمحيطات وفي كلتا الحالتين تتعرض حواف القارات للتعرية بواسطة مياه البحار والمحيطات فتؤدي إلى إنقاص الأرض(أي اليابسة) من أطرافها، وذلك لأن مياه كل من البحار والمحيطات دائمة الحركة بفعل دوران الأرض حول محورها، وباختلاف كل من درجات الحرارة والضغط الجوي، ونسب الملوحة من منطقة إلى أخري، وتؤدي حركة المياه في البحار والمحيطات(من مثل التيارات المائية، وعمليات المد والجزر، والأمواج السطحية والعميقة) إلى ظاهرة التآكل(التحات) البحري وهو الفعل الهدمي لصخور الشواطيء وهو من عوامل إنقاص الأرض(اليابسة) من أطرافها.

(١)أي زحف الصحراء علي المناطق الخضراء وانحسار التربة الصالحة للزراعة في ظل إفساد الإنسان للبيئة علي سطح الأرض بدأ زحف الصحاري علي مساحات كبيرة من الأرض الخضراء، وذلك بالرعي الجائر، واقتلاع الأشجار، وتحويل الأراضي الزراعية إلى أراض للبناء، وندرة المياه نتيجة لموجات الجفاف والجور علي مخزون المياه تحت سطح الأرض، وتملح التربة، وتعريتها بمعدلات سريعة تفوق بكثير محاولات استصلاح بعض الأراضي الصحراوية، أضف إلى ذلك التلوث البيئي، والخلل الاقتصادي في الأسواق المحلية والعالمية، وتذبذب أسعار كل من الطاقة والآلات والمحاصيل الزراعية مما يجعل العالم يواجه أزمة حقيقية تتمثل في انكماش المساحات المزروعة سنويا بمعدلات كبيرة خاصة في المناطق القارية وشبه القارية نتيجة لزحف الصحاري عليها، ويمثل ذلك صورة من صور خراب الأرض بإنقاصها من أطرافها.

هذه المعاني الستة(منفردة أو مجتمعة) تعطي بعدا علميا رائعا لمعني إنقاص الأرض من أطرافها، ولا يتعارض ذلك أبدا مع الدلالة المعنوية للتعبير، بمعني خراب الأرض الذي استنتجه المفسرون، بل يكمله ويجليه. وعلي عادة القرآن الكريم تأتي الإشارة الكونية بمضمون معنوي محدد، ولكن بصياغة علمية معجزة، تبلغ من الشمول والكمال والدقة ما لم يبلغه علم الإنسان، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة هذه الإشارة العلمية الدقيقة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وهي حقيقة لم يدرك الإنسان شيئا من دلالاتها العلمية إلا منذ عقود قليلة، وقد يري فيها القادمون فوق ما نراه نحن اليوم، ليظل القرآن الكريم مهيمنا علي المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتظل آياته الكونية شاهدة باستمرار علي أنه كلام الله الخالق، وشاهدة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بأنه-ﷺ- كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض.

(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٣/٤.

من أطرافها} بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يَرَوْن من ذلك"[١].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد : ٤١]، أي:" والله سبحانه يحكم لا معقِّب لحكمه وقضائه"[٢].

قال ابن قتيبة :" أي: لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص"[٣].

قال البغوي:" لا راد لقضائه، ولا ناقض لحكمه"[٤].

قال الطبري:" يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حكمُه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْم الله وقضاؤُه لم يستطيعوا رَدَّهَ. ويعني بقوله: {لا معقِّب لحكمه}: لا راد لحكمه، و«المعقب»، في كلام العرب، هو الذي يكرُّ على الشيء"[٥].

قال البيضاوي:" لا راد له وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حكم للإسلام بالقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره، ومحل «لا» مع المنفي النصب على الحال، أي: يحكم نافذا حكمه"[٦].

قال السعدي: " ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي. فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه"[٧].

قوله تعالى:{وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد : ٤١]، أي:"والله سريع الانتقام ممن عصاه"[٨].

قال الطبري:" يقول: والله سريع الحساب يُحْصي أعمال هؤلاء المشركين، لا يخفى عليه شيء، وهو من وراءِ جزائهم عليها"[٩].

قال البيضاوي:" فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا"[١٠].

قال النسفي:" فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا"[١١].

قال السعدي: " أي: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت، فهو قريب"[١٢].

الفوائد:

١- نفاذ قضائه وحكمه تعالى، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره.

٢- أن الله عز وجل سريع في حسابه، قال الشوكاني:" المعنى: أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة الحساب الخلائق على كثرة عددهم، وأنه لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم في حالة واحدة"[١٣].

---

(١) تفسير الطبري:١٦/٤٩٧-٤٩٨.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٣) غريب القرآن:٢٢٩.
(٤) تفسير البغوي:٤/٣٢٨.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٤٩٨.
(٦) تفسير البيضاوي:٣/١٩٠.
(٧) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٨) صفوة التفاسير:٢/٨١.
(٩) تفسير الطبري:١٦/٤٩٨.
(١٠) تفسير البيضاوي:٣/١٩٠.
(١١)تفسير النسفي:٢/١٥٩ .
(١٢) تفسير السعدي:٤٢٠.
(١٣) فتح القدير:١/٢٣٥.

٣- عدَّ الحافظ أبو عبد الله بن منده رحمه الله «السريع» من أسماء الله في كتابه، مستشهداً بحديث أبي هريرة «إن الله قال: إذا تلقَّاني عبدي بشبر؛ تلقيته بذراع، وإذا تلقاني بذراع؛ تلقيته بباع، وإذا تلقاني بباع؛ جئته أتيته بأسرع»[١]، ووافقه عليه محقق الكتاب[٢]، وفي ذلك نظرٌ كبيرٌ، ولكن عدُّهما له اسماً يتضمن أنه صفة عندهما.

القرآن

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)} [الرعد : ٤٢]

التفسير:

ولقد دبَّر الذين من قبلهم المكايد لرسلهم، كما فعل هؤلاء معك، فلله المكر جميعًا، فيبطل مكرهم، ويعيده عليهم بالخيبة والندم، يعلم سبحانه ما تكسب كل نفس من خير أو شر فتجازى عليه. وسيعلم الكفار -إذا قدموا على ربهم- لمن تكون العاقبة المحمودة بعد هذه الدنيا؟ إنها لأتباع الرسل. وفي هذا تهديد ووعيد للكافرين.

قوله تعالى:{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الرعد : ٤٢]، أي:" ولقد دبَّر الذين من قبلهم المكايد لرسلهم، كما فعل هؤلاء معك"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُرَيشٍ من الأمم التي سلفت بأنبياء الله ورُسله"[٤].

قال النسفي:" أي: كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه في خفية"[٥].

قال السعدي: " أي: [مكروا] برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه"[٦].

قوله تعالى:{فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا} [الرعد : ٤٢]، أي:" له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته"[٧].

قال الطبري:" يقول: فلله أسبابُ المكر جميعًا، وبيده وإليه، لا يضرُّ مكرُ من مَكَر منهم أحدًا إلا من أراد ضرَّه به، يقول: فلم يضرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضرَّه ذلك، وإنما ضرُّوا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربَّهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم، ونجَّى رُسُلَه: يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش يمكرون بك، يا محمد، والله منَجّيك من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مكرهم بهم دونك"[٨].

قال البغوي:" أي: عند الله جزاء مكرهم وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعا، بيده الخير والشر، وإليه النفع والضر، فلا يضر مكر أحد أحدا إلا بإذنه"[٩].

قال البيضاوي:" إذ لا يؤبه بمكر دون مكره فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره"[١٠].

---

(١)رواه مسلم (٢٦٧٥) (٣).
(٢) انظر: التوحيد:٢/ ١٣٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٤) تفسير الطبري:٤٩٩/١٦.
(٥)تفسير النسفي:١٥٩/٢ .
(٦) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٧) صفوة التفاسير:٨١/٢.
(٨) تفسير الطبري:٤٩٩/١٦.
(٩) تفسير البغوي:٣٢٨/٤.
(١٠) تفسير البيضاوي:١٩٠/٣.

قال السعدي: " أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم "[1].

قال النسفي:" قال: {فلله المكر جميعا} ثم فسر ذلك بقوله {يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار} يعني العاقبة المحمودة لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعدلها جزاءها فهو المكر كله لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة عما يراد بهم"[2].

قوله تعالى:{يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} [الرعد : ٤٢]، أي:" يعلم سبحانه ما تكسب كل نفس من خير أو شر فتجازى عليه"[3].

قال السعدي: " أي: هومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة"[4].

قال البيضاوي:" فيعد جزاءها"[5].

قال الطبري:" يقول: يعلم ربك، يا محمد ما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، ويعلم جميعَ أعمال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها"[6].

قال السعدي:" والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا"[7].

قوله تعالى:{وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد : ٤٢]، أي:" وسيعلم الكفار -إذا قدموا على ربهم- لمن تكون العاقبة المحمودة بعد هذه الدنيا؟"[8].

قال الطبري:" يقول: وسيعلمون إذا قَدموا على ربهم يوم القيامة لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة"[9].

قال البغوي:" أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة"[10].

قال البيضاوي:" من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة. مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت"[11].

قال السعدي: " أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأعماله"[12].

وقرئ: «وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ»، على التوحيد[13].

قال الرياشي: "كتب طاغية الروم إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه، فلما عرض عليه رماه، وقال للكاتب: اكتب: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع {وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار}"[14].

الفوائد:

١- إحاطته تعالى بمكر الكفار علما وجزاء وخلقا وتقديرا.

---

(١) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٢)تفسير النسفي:١٥٩/٢ .
(٣) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٤) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٥) تفسير البيضاوي:١٩٠/٣.
(٦) تفسير الطبري:٤٩٩/١٦.
(٧) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٤.
(٩) تفسير الطبري:٤٩٩/١٦.
(١٠) تفسير البغوي:٣٢٨/٤.
(١١) تفسير البيضاوي:١٩٠/٣-١٩١.
(١٢) تفسير السعدي:٤٢٠.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٤٩٩/١٦.
(١٤)السير :١٠/ ٢٩١.

٢- أن الطائفة المنصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، قال تعالى:{وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار}- وقد ذم الله الذي لا يثبت على دينه إلا عندما يهواه فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: ١١].

القرآن

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)} [الرعد : ٤٣]

التفسير:

ويقول الذين كفروا لنبي الله: -يا محمد- ما أرسلك الله، قل لهم: كفى بالله شهيدًا بصدقي وكذبكم، وكَفَتْ شهادة مَن عنده علم الكتاب من اليهود والنصارى ممن آمن برسالتي، وما جئتُ به من عند الله، واتبع الحق فصرَّح بتلك الشهادة، ولم يكتمها.

سبب النزول:

قال عبد الله بن سَلام: "نزلت فيَّ: { كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}"(١).

وعبد الله بن سلام، هو الصحابي الجليل، كان أعلم بني إسرائيل، فأسلم.

قوله تعالى:{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا} [الرعد : ٤٣]، أي:" ويقول الذين كفروا لنبي الله: -يا محمد- ما أرسلك الله"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويقول الذين كفروا بالله من قومك يا محمد لست مرسلا! تكذيبا منهم لك، وجحودًا لنبوّتك"(٣).

قوله تعالى:{قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الرعد : ٤٣]، أي:" قل لهم: كفى بالله شهيدًا بصدقي وكذبكم"(٤).

قال الطبري:" فقل لهم إذا قالوا ذلك: حَسْبي الله شاهدًا عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم"(٥).

قال السعدي: " {قل} لهم -إن طلبوا على ذلك شهيدا: {كفى بالله شهيدا بيني وبينكم} وشهادته بقوله وفعله وإقراره:

- أما قوله فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.
- وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.
- وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة"(٦).

قوله تعالى:{وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد : ٤٣]، أي:" وكَفَتْ شهادة مَن عنده علم الكتاب من اليهود والنصارى ممن آمن برسالتي، وما جئتُ به من عند الله"(٧).

وفي قوله تعالى:{وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد : ٤٣]، وجوه:

أحدها : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنَّصارَى. قاله ابن عباس(٨).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٥٣٥):ص١٦/٥٠١. وانظر: (٢٠٥٣٦):ص١٦/٥٠١.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٣) تفسير الطبري:١٦/٥٠٠.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٥٠٠.
(٦) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣٧):ص١٦/٥٠٢.

وقال قتادة:" أناس من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحقّ ويقرُّون به، ويعلمون أن محمدًا رسول الله، كما يُحدَّث أن منهم عبد الله بن سَلام"[١].

الثاني : أنه عبدالله بن سلام. قاله مجاهد[٢]، وقتادة[٣].

الثالث: كان منهم: عبدُ الله بن سَلام، وسَلْمَان الفارسي، وتميمٌ الدَّاريّ، قاله قتادة[٤].

الرابع : أنه جبريل ، قاله سعيد بن جبير[٥].

الخامس: أنه رجل من الإنس، ولم يُسمّه. قاله أبو صالح[٦].

السادس: هو الله تعالى ، قاله الحسن[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، ومجاهد[٩]، والضحاك[١٠]، وهارون[١١].

عن أبي بشر قال: "قلت لسعيد بن جبير:«وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، أهو عبد الله بن سَلام؟ قال: هذه السورة مكية، فكيف يكون عبد الله بن سلام! قال: وكان يقرؤها: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، يقول: مِنْ عند الله"[١٢].

قال الماوردي:" وكانوا يقرأون «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، أي: من عِنْد الله علم الكتاب ، وينكرون على من قال هو عبد الله بن سلام وسلمان، لأنهم يرون السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة"[١٣].

روي عن ابن عباس، انه قرأ:«وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، يقول: مِنْ عند الله عُلِمَ الكتاب"[١٤].

قال ابن جرير الطبري:" وقد رُوِي عن رسول الله ﷺ خبرٌ بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أنّ في إسناده نظرًا، وذلك ما حدثنا القاسم ... عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قرأ: (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ)، عند الله عُلِم الكتاب»[١٥].

قال الطبري: وهذا خبرٌ ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزهريّ فإذْ كان ذلك كذلك وكانت قرأء الأمصار من أهل الحجاز والشأم والعراق على القراءة الأخرى، وهي: {ومن عنده علم الكتاب}، كان التأويل الذي على المعنى الذي عليه قرأة الأمصار أولى بالصواب ممّا خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحقَّ بالصواب"[١٦].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٥٤٢):ص١٦/٥٠٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣٨)، (٢٠٥٤٠):ص١٦/٥٠٢.
(٣)انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٤٤):ص١٦/٥٠٣ .
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٤٣):ص١٦/٥٠٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:٣/١١٩.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٣٩):ص١٦/٥٠٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٤٨)-(٢٠٥٥٣):ص١٦/٥٠٤-٥٠٥.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٥٥):ص١٦/٥٠٥-٥٠٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٤٦):ص١٦/٥٠٤.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٥٧):ص١٦/٥٠٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٥٤):ص١٦/٥٠٥.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٥٥٥):ص١٦/٥٠٥-٥٠٦.
(١٣) النكت والعيون:٣/١١٩.
(١٤) اخرجه الطبري(٢٠٥٤٥):ص١٦/٥٠٣-٥٠٤.
(١٥) تفسير الطبري(٢٠٥٥٨):ص١٦/٥٠٦.
قال المحقق:" وهذا إسناد منقطع، لأن هارون الأعور، لم يسمع من الزهري، وقد خرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ١٥٥، وقال:" رواه أبو يعلى، وفيه سليمان بن أرقم، وهو متروك"، وكذلك خرجه السيوطي في الدر المنثور ٤: ٦٩، وقال: وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، وابن عدي، بسند ضعيف، عن ابن عمر". و" سليمان بن أرقم"،" أبو معاذ البصري"، يروي عن الزهري، وهو متروك الحديث، قال ابن معين:" ليس بشيء، ليس يسوى فلسًا"، وقال ابن حبان:" كان ممن يقلب الأخبار، ويروي عن الثقات الموضوعات". وكأن رواية هارون الأعور، هي عن سليمان بن أرقم، فأسقطه".
(١٦) تفسير الطبري:١٦/٥٠٦-٥٠٧.

قال السعدي: قوله" {ومن عنده علم الكتاب} وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم"(١).

الفوائد:

١- شهادة الله أعظم شهادة، فلا تطلب بعدها شهادة إذا كان الخصام بين مؤمنين.
وكفى بالله شهيدا، فإن " شهادته وحده - سبحانه - كافية بدون ما ينتظر من الآيات، كما قال - تعالى -: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣]، وشهادته للقرآن، ولمحمد ﷺ تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه، كما قال - تعالى - عن أهل الكتاب: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤٠] ، وتكون بأفعاله، وهو ما يحدثه من الآيات، والبراهين الدالة على صدق رسله، فإنه صدَّقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون"(٢).

٢- فضل العالم على الجاهل، إذ شهادة مؤمني أهل الكتاب تقوم بها الحجة على من لا علم لهم من المشركين.

٣- ومن اسمائه تعالى: «الشهيد»: أي: "المطلع على جميع الأشياء سمع جميع الأصوات خفيها، وجليها وأبصر جميع الموجودات دقيقها، وجليلها صغيرها، وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء الذي شهد لعباده، وعلى عباده بما عملوه"(٣).
قال الخطابي:«الشهيد»: "هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء. وقد قال –سبحانه-: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه. ويكون «الشهيد»، بمعنى: العليم. كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران : ١٨]، قيل: معناه: علم الله. وقال أبو العباس أحمد بن يحيى:" معناه: «بين الله أنه لا إله إلا هو»، وهو أيضا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه"(٤).

«آخر تفسير سورة (الرعد)، والحمد لله وحده»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة «إبراهيم»

سورة «إبراهيم»: هي السورة الرابعة عشر في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة «نوح»(٥)، وقيل: "بعد سورة «الشورى»، وقبل سورة «الأنبياء»"(٦)، وعدد آياتها (٥٥) خمس وخمسون عند الشاميين، و(٥٢) اثنتان وخمسون عند الكوفيين، و(٥٤) أربع وخمسون

---

(١) تفسير السعدي:٤٢٠.
(٢) الجواب الصحيح (٥/٤٠٧ - ٤٠٨) ، وانظر: مجموع الفتاوى (١٤/١٩١ - ١٩٦) ، (١٥/٧٣).
(٣) تفسير السعدي: (٥/ ٦٢٨) انظر: الحق الواضح المبين (ص٥٨) وتوضيح الكافية الشافية (ص١٢٢)، وتفسير أسماء الله الحسنى:٢١١.
(٤) شأن الدعاء:٧٦.
(٥) انظر: الكشاف: ٥٣٧/٢، ومفاتيح الغيب:٥٦/١٩.
(٦) التحرير والتنوير:١٧٧/١٣.

عند الحجازيين، و(٥١) وإحدى وخمسون عند البصريين. وكلماتها (٨٣١) ثمان مائة وإحدى وثلاثون. وحروفها (٦٤٣٤) ستة آلاف وأربعمائة وأربع وثلاثون[١].

والآيات المختلف فيها سبع: « {إِلَى النُّورِ} [إبراهيم : ١]، {وَعَادٍ } [إبراهيم : ٩]، {وَثَمُودَ } [إبراهيم : ٩]، {بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم : ١٩]، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم : ٢٤]، {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [إبراهيم : ٣٣]، {عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم : ٤٢]»، ومجموع فواصلها:«آدم نظر، صبب ذل»[٢].

- **أسماء السورة:**
- **اسمها التوقيفي: سورة «إبراهيم»:**

سورة«إبراهيم»، هو الاسم الذي اشتهرت به السورة، ولا يعرف لها غيره.

قال ابن عاشور:" أضيفت هذه السورة إلى اسم «إبراهيم»- عليه السلام- فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء- صلى الله عليه وسلم- ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول"[٣].

وقد وردت أحاديث تدل على تسميتها في كلام الصحابة-رضوان الله عليهم- منها:

- قال ابن عباس:" نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة"[٤].
- وقال ابن عباس أيضا:" سورة إبراهيم عليه السلام نزلت بمكة سوى آيتين نزلتا بالمدينة، وهما: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا} الآيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين"[٥].
- قال الزبير:" نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة"[٦].

ووجه تسميتها بسورة«إبراهيم»، " لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بواد غير ذى زرع، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين: إسماعيل وإسحاق"[٧].

قال ابن عاشور:" ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر «إبراهيم»- عليه السلام- جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات «الر». وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء- عليهم السلام- التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة «الحجر»، ولذلك لم تضف سورة «الرعد» إلى مثل ذلك، لأنها متميزة بفاتحها بزيادة حرف «ميم» على «ألف ولام وراء»"[٨].

وقد ورد اسم«إبراهيم» تسعا وستين مرة في القرآن الكريم، منها مرة واحدة في سورة إبراهيم، وهي في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم : ٣٥].

- **مكية السورة ومدنيتها:**

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس[٩]، والزبير[١٠]، والحسن[١١]، وعكرمة[١]، وجابر[٢]، ومقاتل[٣]، وبه قال ابن قتيبة[٤]، وابن كثير[٥]، وابن الجوزي[٦]، والبيضاوي[٧]، وحكاه ابن ابن عاشور عن الجمهور[٨].

---

(١)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٦٨.
(٢)انظر: المصد نفسه والصحيفة نفسها.
(٣) التحرير والتنوير:١٧٧/١٣.
(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه لابن مردويه.
(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه للنحاسفي تاريخه.
(٦) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه لابن مردويه.
(٧) البصائر:٢٦٨/١.
(٨) التحرير والتنوير:١٧٧/١٣.
(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه لابن مردويه.
(١٠) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه لابن مردويه.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٢٠/٣، وتفسير القرطبي:٣٣٨/٩.

الثاني: أنها مكية إجماعا غير آية واحدة، وهي: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم : ٢٨]. به قال الفيروزآبادي[٩].
والثاني: أنها مكية إلا آيتين منها، نزلتا في قتلى بدر من المشركين، وهما: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)} [إبراهيم : ٢٨ - ٢٩]. قاله ابن عباس أيضا[١٠]، وقتادة[١١]، وبه قال الثعلبي[١٢]، وابن عطية[١٣]، والزمخشري[١٤]، والبغوي[١٥]، والفخر الرازي[١٦].
الثالث: أنها مكية إلا ثلاث آيات منها، وهي: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)} [إبراهيم : ٢٨ - ٣٠]. حكاه ابن عاشور، وقال: قيل:" نزل ذلك في المشركين في قضية بدر، وليس ذلك إلا توهما"[١٧].

▪مناسبة سورة«إبراهيم» مع سورة «الرعد»:

من وجوه المناسبة بين السورتين:

١- إنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا.
٢- إنه ذكر في السورة السالفة قوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [الرعد : ٣٨]، وهنا ذكر أن الرسل قالوا: {وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ال} [إبراهيم : ١١].
٣- ذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه.
٤- اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضا.
٥- ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومدّ الأرض وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك.
٦- ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك[١٨].

- **أغراض السورة ومقاصدها**

تضمنت سورة «إبراهيم» جملة من المقاصد، نجملها وفق التالي[١]:

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٢٠/٣، وتفسير القرطبي:٣٣٨/٩.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٢٠/٣، وتفسير القرطبي:٣٣٨/٩.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٨٧/٢.
(٤) انظر: غريب القرآن:٢٣٠.
(٥) انظر: التفسير:٤٧٦/٤.
(٦) انظر: زاد المسير:٥٠٣/٢.
(٧) انظر: التفسير:١٩٢/٣.
(٨) انظر: التحرير والتنوير:١٧٧/١٣.
(٩) البصائر:٢٦٨/١.
(١٠) أورده السيوطي في الدر المنثور:٣/٥، وعزاه للنحاس في تاريخه، وذكره الماوردي في النكت والعيون:١٢٠/٣، والقرطبي في تفسيره:٣٣٨/٩.
(١١) انظر: زاد المسير: ٥٠٣/٢، وذكره الماوردي في النكت والعيون:١٢٠/٣، والقرطبي في تفسيره:٣٣٨/٩.
(١٢) انظر: الكشف والبيان:٣٠٤/٥.
(١٣) انظر: المحرر الوجيز:٣٢١/٣. وقال:" ذكره مكي والنقاش".
(١٤) انظر: الكشاف:٥٣٧/٢.
(١٥) انظر: التفسير:٣٢٩/٤.
(١٦) انظر: مفاتيح الغيب:٥٦/١٩.
(١٧) التحرير والتنوير:١٧٧/١٣.
(١٨) انظر: تفسير المراغي:١٢٢/١٣.

١- افتتح سبحانه هذه السورة ببيان أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى، ومنعهم عن الكفر والمعصية، قال سبحانه: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم : ١]، وهذا المقصد هو الذي جاءت من أجله جميع الرسل.

٢- توحيد الله سبحانه، يرشد لذلك ما جاء في السورة من قول موسى عليه السلام: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم : ٨]، وقول إبراهيم عليه السلام: { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم : ٣٥] ، وقوله سبحانه في آخر السورة: {وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [إبراهيم : ٥٢].

قال ابن عاشور" :وليعلموا مِما ذكر فيه من الأدلة ما الله إلا إله واحد، أي: مقصور على الإلهية الموحدة"(٢).

وقال الرازي" :الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد، والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه، واشتغل بالنظر والتأمل، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة، واشتغل بالأعمال الصالحة"(٣).

٣- أوضحت السورة أن القرآن الكريم غاية البلاغ إلى الله سبحانه؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه، المؤدي إليه، جاء في ذلك قوله سبحانه: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} [إبراهيم : ٥٢]. وبين سبحانه أنه إنما أنزل هذه السورة، وذكر فيها النصائح والمواعظ؛ لأجل أن ينتفع الخلق بها، فيصيروا مؤمنين مطيعين، ويتركوا الكفر والمعصية. فالغاية الأساس من ذلك (البلاغ)، وهذا (الإنذار)، هي أن يعلم الناس} أنما هو إله واحد{، فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة.

قال البقاعي" :اشتملت هذه السورة على المواعظ والأمثال والحكم التي أبكمت البلغاء، وأخرست الفصحاء، وبهرت العقول، ترجمها سبحانه بما يصلح عنواناً لجميع القرآن، فقال:{هذا}، أي: الكتاب الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور،{بلاغ}، أي: كافٍ غاية الكفاية في الإيصال{للناس}؛ ليصلوا به إلى الله بما يتحلون به من المزايا في سلوك صراطه القويم"(٤).

٤- تضمنت السورة جملة من فنون العظات والقوارع، من ذلك قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)} [إبراهيم : ٢ - ٣] ، وقوله سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم : ٧]، وقوله تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم : ١٥]

٥- تثبيت الله سبحانه لعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم : ٢٧]، وقوله عز وجل :{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم : ٢٣]

٦- إضلال الذين أعرضوا عن ذكره، واتبعوا أهوائهم، قال تعالى: {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم : ٢٧]، وقوله عز وجل: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم : ٣٠] .

---

(١) انظر: اسلام ويب.[موقع الكتروني].
(٢) التحرير والتنوير:١٣/٢٥٥.
(٣) مفاتيح الغيب:١٩/١١٥.
(٤)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٠/٤٤١.

٧- ذمت السورة أولئك الذين يبدلون نعمة الله كفراً، ويقودون قومهم إلى دار البوار، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار، في قصة الرسل والكفار: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم : ٢٨] .

٨- من المقاصد التي أكدت عليها السورة بيان نعم الله على البشر؛ وذلك من خلال الحديث عن أضخم المشاهد الكونية البارزة: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [إبراهيم : ٣٣].

٩- قدمت السورة نموذجاً لشكر النعمة إبراهيم الخليل، حيث أمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} [إبراهيم : ٣٧].

١٠- الاعتناء بقضية الربوبية، والدينونة لله بالملك والتصرف والتدبير، وهذا واضح في تكرار إبراهيم: {رب} {ربنا}، كقوله سبحانه: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [إبراهيم : ٣٥]، وقوله {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ} [إبراهيم : ٣٦]، وقوله: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْت} [إبراهيم : ٣٧]، وقوله: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ} [إبراهيم : ٣٨] ، وقوله: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن} [إبراهيم : ٤٠]، وقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم : ٤١] .

فالسورة أكدت على أن المقصود الرئيس من خلق الإنسان هو الدينونة لله وحده، لأنه سبحانه هو الرب الذي يستحق أن يكون إلها معبوداً ، حاكماً وسيداً ومتصرفاً ومشرعاً وموجهاً، وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافاً جوهريًّا عن كل دينونة لما سواه.

هذه بعض المقاصد البارزة التي قررتها هذه السورة، وهي بالتأكيد تتضمن مقاصد غير ما ذكرنا، تتبين من خلال التأمل في السورة، والوقوف على مراميها السامية، ومقاصدها الجليلة.

- **فضائل السورة:**

ومما وردت به الروايات من فضائل هذه السورة:

- عن عبد الله بن عمرو، قال: "أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثا من ذوات الر»، فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثا من ذوات حاميم»، فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثا من المسبحات»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي -ﷺ- «إذا زلزلت الأرض» حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «أفلح الرويجل» مرتين"(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في"باب تحزيب القرآن"(١٣٩٩):ص٥٧/٢. والبيهقي في الشعب، في تعظيم القرىن، فصل"في فضائل السور والآيات"(٢٥١٢):ص٤٩٦/٢، والنسائي في عمل اليوم والليلة(٧٢١):ص٢١٦-٢١٧.

وقوله: من ذوات (الر)، أي: من السور التي تبدأ بهذه الأحرف الثلاثة التي تقرأ مقطعة: ألف، لام، را، والذي في القرآن منها خمس سور: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.

وقوله من ذوات {حم}، أي: من السور التي تبدأ بهذين الحرفين: حا، ميم، وهي في القرآن سبع سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وقوله: من المسبحات، أي: السور التي أولها سَبَّح ويُسَبحُ وسَبح، وهي الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى.

وحكم الألباني«ضعيف»، انظر: «ضعيف أبي داود» (٢٤٧).

[تعليق شعيب الأرنؤوط]

إسناده صحيح، عيسى بن هلال الصدفي، روى عنه غير واحد وذكره المؤلف في الثقات، وهو صدوق كما قال الحافظ في التقريب(ص٤٤١)، وقال الحاكم:"حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي

- أخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه:" سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات(١) إلى الطواسين مكان الإنجيل»"(٢). وهذه السورة مفتتحة بـ«الر».
- أخرج الثعلبي عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها»(٣).
- وردت بعض الأحاديث والآثار تتعلق ببعض آيات منها، من ذلك ما يلي :

أ- روى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، قال: " يعرض الناس يوم القيامة على ثلاثة دواوين: ديوان فيه الحسنات ، وديوان فيه النعيم ، وديوان فيه السيئات ، فيقابل بديوان الحسنات ديوان النعيم ، فيستفرغ النعيم الحسنات ، وتبقى السيئات مشيئتها إلى الله تعالى ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر"(٤).

وهذا الأثر فيه إشارة إلى قوله تعالى في هذه السورة: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم : ٣٤]، وإلى قوله أيضاً: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم : ٢٨].

ب- روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "«المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»، فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}[إبراهيم : ٢٧]"(٥).

ت- روى البزار عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "قلت: يا رسول الله! تُبتلي هذه الأمة في قبورها، فكيف بي، وأنا امرأة ضعيفة؟ قال::{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}"(٦).

ث- وعن مسروق قال: تلت عائشة هذه الآية: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم : ٤٨] ، قالت: يا رسول الله! فأين يكون الناس؟ قال:«على الصراط»"(٧).

بقوله:«بل صحيح»، أي: فقط من غير أن يكون على شرط الشيخين(٥٨٠/٢)، وأورده الفسوي في تاريخه: ٢/ ٥١٥ - ٥١٦ في ثقات التابعين من أهل مصر، وباقي رجاله ثقات من رجال الصحيح.

(١)الرائيات: هي السور المبدوءة ب «الر».

(٢) الدر المنثور:٣٣٩/٤.

الرائيات: هي السور المبدوءة بـ«الر» والطواسين: هي السور المبدوءة بـ «طسم» أو «طس».

(٣) الكشف والبيان:٣٠٤/٥، وانظر: تفسير مجمع البيان: ٦/ ٥٥، وانظر: ترتيب الأمالي الخميسية للشجري:١٢٤/١.

(٤) مصنف ابن ابي شيبة(٣٤٥٤٦):ص١٠٥/٧، وانظر: الدر المنثور:٦٢٠/٨.

(٥) صحيح البخاري(٤٦٩٩):ص٨٠/٦.، وأخرجه البخاري (١٣٦٩) وبإثره، ومسلم (٢٨٧١) (٧٣)، وابن ماجه (٤٢٦٨)، والترمذي (٣٣٨٥)، والنسائي في "الكبرى" (٢١٩٥) و (١١٢٠٠) من طرق عن شعبة، به.
وأخرجه موقوفاً مسلم (٢٨٧١) (٧٤)، والنسائي في "الكبرى" (٢١٩٤) من طريق خيثمة، عن البراء.
وهو في "مسند أحمد" (١٨٤٨٢) و (١٨٥٧٥)، و "صحيح ابن حبان" (٢٠٦). وهو قطعة من الحديث المطول الآتي برقم (٤٧٥٣).
وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أن عذاب القبر حق يقع على الروح والجسد.
وذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عود إلى الجسد.
وقال ابن جرير وجماعة من الكرّامية: ان السؤال في القبر يقع على البدن فقط، وإن الله يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويلَذُّ ويألم.
وذهب بعض المعتزلة كالجبائي إلى أنه يقع على الكفار دون المؤمنين. وانظر "فتح الباري" ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٥.
اسناده صحيح.

(٦) "كشف الأستار"، باب: السؤال في القبر(٨٦٨)ص: ٤١٠/١ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد:(٤٢٧٢):ص٥٣/٣:" رواه البزار، ورجاله ثقات".

(٧) رواه الترمذي(٣١٢١):ص١٤٧/٥، وابن ماجة(٤٢٧٩):ص١٤٣٠/٢، ووأخرجه مسلم (٢٧٩١)، وأحمد

ج- -قال عبد الله بن الإمام أحمد :"أُخبرت عن سياد بن جعفر، قال: دخلت على حبيب أبي محمد، فقال: اقرأ عليَّ، فأخذت مصحفه، فأول ما وقع في يدي : {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم : ١٥]، فجعل يقول:{واستفتحوا}، ويبكي"(١).

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن

{الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)} [إبراهيم : ١]

التفسير:

(الر) سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة «البقرة».

في المسند (٢٤٠٦٩)، وابن حبان في صحيحه (٣٣١) و (٧٣٨٠).

إسناده صحيح، قال الترمذي:" هذا حديث حسن صحيح. وروي من غير هذا الوجه عن عائشة".

(١) ذكره البقاعي في مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور:٢٠١/٢.

هذا القرآن كتاب أوحيناه إليك -أيها الرسول- لتُخرج به البشر من الضلال والغيّ إلى الهدى والنور -بإذن ربهم وتوفيقه إياهم- إلى الإسلام الذي هو طريق الله الغالب المحمود في كل حال.

قوله تعالى:{الر} [إبراهيم : ١]، الله أعلم بمراده بذلك.

قوله تعالى:{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} [إبراهيم : ١]، أي:" هذا القرآن كتاب أوحيناه إليك -أيها الرسول-"[١].

قال الطبري:" معناه: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، يعني: القرآن"[٢].

قال ابن كثير:" أي : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض ، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم"[٣].

قال الصابوني: أي:" لم تنشئْه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك"[٤].

قوله تعالى:{لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم : ١]، أي:" لتُخرج به البشر من الضلال والغيّ إلى الهدى والنور"[٥].

قال قتادة:" أي: من الضلالة إلى الهدى"[٦].

قال مقاتل:" يعني: من الشرك إلى الإيمان"[٧].

قال الطبري:" يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصّر به أهلَ الجهل والعمَى سُبُلَ الرَّشاد والهُدَى.. وأضاف تعالى ذكره إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفقُ من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُم ما لهم فيه وعليهم. فبيّنٌ بذلك صِحة قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كَسبًا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قول أهل القَدر الذين أنكرُوا أن يكون لله في ذلك صُنْع"[٨].

قال ابن كثير:" أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب ؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد ، كما قال : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } الآية[البقرة : ٢٥٧] ، وقال تعالى:{ هُوَ الَّذِي يُنزلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [الحديد : ٩]"[٩].

قال ابن عطية:" أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي عليه السلام. وعم النَّاسَ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نقل تواترا من دعوته العالم كله، ومن بعثته إلى الأحمر والأسود علم الصحابة ذلك مشاهدة، ونقل عنهم تواترا، فعلم قطعا والحمد لله"[١٠].

قوله تعالى:{بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [إبراهيم : ١]، أي:" بإذن ربهم وتوفيقه إياهم"[١١].

قال مقاتل:" يعني: بأمر ربهم"[١٢].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٢) تفسير الطبري:٥٠٩/١٦.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٨٤/٢.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٥٥٩):ص٥١٢/١٦.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٧/٢.
(٨) تفسير الطبري:٥٠٩/١٦-٥١٢.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٤.
(١٠) المحرر الوجيز:٣٢١/٣.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٥.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٧/٢.

قال الطبري:" يعني: بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه بهم"(١).
قال ابن كثير:" أي : هو الهادي لمن قَدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره"(٢).
قوله تعالى:{إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم : ١]، أي:" لتهديهم إلى طريق الله الغالب المحمود في كل حال"(٣).
قال مقاتل:" يعني: إلى دين العزيز في ملكه، {الحميد} في أمره عند خلقه"(٤).
قال الطبري:" يعني: إلى طريق الله المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه، وشَرَعُه لخلقه"(٥).
قال ابن كثير:" يهديهم { إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ}، أي : العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ، {الحميد}، أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق في خبره "(٦).
قال الشافعي رحمه الله: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، قال الله تبارك وتعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد}"(٧).
الفوائد:
١- إقامة الحجة على المكذبين بالقرآن الكريم، إذ هو مؤلف من الحروف المقطعة مثل آلر وطسم وآلم وحم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله بل بسورة مثله.
٢- بيان أن الكفر ظلام والإيمان نور.
٣- ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحميد»:
- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"(٨).
- و«الحميد»: "هو المحمود الذي استحق الحمد بفعاله، وهو فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يحمد في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، لأنه حكيم لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه الخطأ؛ فهو محمود على كل حال"(٩).
قال السعدي: أي:"الحميد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها، وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل، والعدل"(١٠).
وهو سبحانه حميد من وجهين(١١):
أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين منهم، والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا، والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضاً، ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان، واتصلت الأوقات حمداً يملأ الوجود كله العالم العلوي، والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد، ولا إحصاء فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة: منها أن الله هو الذي خلقهم، ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة، والباطنة الدينية، والدنيوية، وصرف

---

(١) تفسير الطبري:٥٠٩/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٤.
(٣) انظر: التفسير الميسر:٢٥٥، وصفوة التفاسير:٨٤/٢.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٧/٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٠٩/١٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٤.
(٧) تفسير الإمام الشافعي:٩٩١/٢.
(٨) شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.
(٩) شأن الدعاء:٧٨.
(١٠) اسماء الله الحسنى:١٩٠.
(١١) انظر: الحق الواضح المبين، السعدي: ٣٩ -٤٠.

عنهم النقم، والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه، ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ماله من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها، وأعظمها فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد، والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل، والإحسان، وبين أفعال العدل، والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه، وعلى شرعه، وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وأحكام الجزاء في الأولى، والآخرة، وتفاصيل حمده، وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار، ولا تحصيها الأقلام.

القرآن

{اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)} [إبراهيم : ٢]

التفسير:

الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، خلقًا وملكًا وتصرُّفًا، فهو الذي يجب أن تكون العبادة له وحده. وسوف يصيب الذين لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا رسله يوم القيامة هلاك وعذاب شديد.

قوله تعالى:{اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [إبراهيم : ٢]، أي:" الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، خلقًا وملكًا وتصرُّفًا"[١].

قال الطبري:" اللهِ الذي يملك جميع ما في السماوات ومَا في الأرض، يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادة مَنْ هذه صفته، وَيَدعُوا عبادَةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان"[٢].

قرأ ابن عامر ونافع: «الله»، بالضم على معنى الابتداء، وخبره: «الذي»، وقرأ الباقون: «الله»، بالكسر نعتا لـ«العزيز الحميد»، كما قال تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ } [الأعراف : ١٥٨] [٣].

قوله تعالى:{وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [إبراهيم : ٢]، أي:" وسوف يصيب الذين لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا رسله يوم القيامة هلاك وعذاب شديد"[٤].

قال ابن كثير:" أي : ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك"[٥].

قال الطبري:" ثم توعّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له فقال: {وويْلٌ للكافرين من عذاب شديد} يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، مِن عَذَاب الله الشَّدِيد"[٦].

قال البيضاوي:" وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، و«الويل» نقيض «الوأل» وهو النجاة، وأصله النصب، لأنه مصدر إلا أنه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات"[٧].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٥.

(٢) تفسير الطبري:٥١٤/١٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري:٥١٢/١٦-٥١٣، وبحر العلوم:٢٣٤/٢، والكشف والبيان:٣٠٥/٥، وتفسير ابن كثير:٤٧٦/٤.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٥.

(٥) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٤-٤٧٧.

(٦) تفسير الطبري:٥١٤/١٦.

(٧) تفسير البيضاوي:١٩٢/٣.

قال أبو الليث السمرقندي:" «الويل»: الشدة من العذاب. ويقال: «الويل» واد في جهنم"[١].

وقال الحسن والأصم: "«الويل»: هو نداء كل مكروب وملهوف من شدة البلاء"[٢].

القرآن

{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)} [إبراهيم : ٣]

التفسير:

وهؤلاء الذين أعرضوا ولم يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله هم الذين يختارون الحياة الدنيا الفانية، ويتركون الآخرة الباقية، ويمنعون الناس عن اتباع دين الله، ويريدونه طريقًا معوجًا ليوافق أهواءهم، أولئك الموصوفون بهذه الصفات في ضلال عن الحق بعيد عن كل أسباب الهداية.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} [إبراهيم : ٣]، أي:" وهؤلاء الذين أعرضوا ولم يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله هم الذين يختارون الحياة الدنيا الفانية، ويتركون الآخرة الباقية"[٣].

قال الطبري: أي:" الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرّبهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة"[٤].

قال ابن الجوزي:" أي: يؤثرونها على الآخرة"[٥].

قال القرطبي:" أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك"[٦].

قال ابن كثير:" ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي : يقدمونها ويُؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة ، وتركوها وراء ظهورهم"[٧].

قال البيضاوي:أي:" يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره"[٨].

وفي قوله تعالى:{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} [إبراهيم : ٣]، وجوه:

أحدها : يختارونها على الآخرة، قاله أبو مالك[٩].

قال ابن عباس: "يأخذون ما تعجل لهم منها تهاونا بأمر الآخرة"[١٠].

الثاني : يلتمسون الدنيا من غير وجهها، لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته. حكاه القرطبي[١١].

والثالث: يستبدلونها من الآخرة ، ذكره ابن عيسى[١٢].

قال الماوردي: "«الاستحباب»: هو التعرض للمحبة"[١٣].

قال الزمخشري:" «الاستحباب»: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة، لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر"[١].

الآخر"[١].

---

(١) بحر العلوم:٢٣٤/٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة:٣٦٠/٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٤) تفسير الطبري:٥١٤/١٦-٥١٥.
(٥) زاد المسير:٥٠٤/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٣٣٩/٩.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٤.
(٨) تفسير البيضاوي:١٩٢/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٢١/٣.
(١٠) زاد المسير:٥٠٤/٢.
(١١) انظر: التفسير:٣٤٠/٩.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٢١/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٢١/٣.

ويحتمل ما يستحبونه من الحياة الدنيا على الآخرة وجهين[٢]:
أحدهما : يستحبون البقاء في الحياة الدنيا على البقاء في الآخرة .
الثاني : يستحبون النعيم فيها على النعيم في الآخرة .
قوله تعالى:{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [إبراهيم : ٣]، أي:" ويمنعون الناس عن اتباع دين"[٣].
قال البيضاوي:"بتعويق الناس عن الإيمان"[٤].
قال الطبري:" يقول: ويمنعون من أراد الإيمان بالله واتّباعَ رسوله على ما جاء به من عند الله، من الإيمان به واتباعه"[٥].
قال ابن كثير:" أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة "[٦].
عن ابن عباس، قوله: "{يصدون عن سبيل الله}، قال: عن دين الله عز وجل"[٧].
عن السدي قوله: "{الذين يصدون عن سبيل الله }، قال: هو محمد ﷺ صدت قريش، عنه الناس"[٨].
وقرأ الحسن:«ويصدون»، بضم الياء وكسر الصاد[٩].
قوله تعالى:{وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [إبراهيم : ٣]، أي:" ويطلبون أن تكون دين الله معوجَّة لتوافق أهواءهم"[١٠].
قال الطبري:" يقول: ويلتمسون سَبِيل الله - وهي دينه الذي ابتعث به رسوله - {عوجًا}: تحريفًا وتبديلا بالكذب والزّور"[١١].
قال ابن كثير:" أي : ويحبون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة عائلة وهي مستقيمة في نفسها ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح "[١٢].
عن ابي مالك، قوله: "{ويبغونها عوجا}، يعني: يرجون بمكة غير الإسلام دينا"[١٣].
عن السدي: "{يبغونها عوجا}: كانوا إذا سألهم أحد هل تجدون محمدا: قالوا لا فصدوا، عنه الناس وبغوا محمدا عوجا هلاكا"[١٤].
وقيل: "معناه يلتمسون الدنيا من غير وجهها لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته"[١٥].
و«العِوَج» بكسر العين: "في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً . و«العوج» بفتح العين : في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح"[١٦].

---

(١) الكشاف:٥٣٧/٢-٥٣٨.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٢١/٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٤) تفسير البيضاوي:١٩٢/٣.
(٥) تفسير الطبري:٥١٤/١٦-٥١٥.
(٦) تفسير ابن كثير:٣١٤/٢.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٣):ص٢٠١٧/٦.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٢):ص٢٠١٧/٦.
(٩) انظر: الكشاف:٥٣٨/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:٨٤/٢.
(١١) تفسير الطبري:٥١٤/١٦-٥١٥.
(١٢) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٤
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٤):ص٢٠١٧/٦.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٧٨٥):ص٢٠١٧/٦.
(١٥) النكت والعيون:١٢١/٣.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٥١٥/١٦، والنكت والعيون:١٢١/٣.

قال الزمخشري:" {ويبغونها عوجا}، يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد"(١).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [إبراهيم : ٣]، أي:" أولئك الموصوفون بهذه الصفات في ضلال عن الحق بعيد عن كل أسباب الهداية"(٢).

قال الطبري:" يعني هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة. يقول: هم في ذهابٍ عن الحق بعيد، وأخذ على غير هُدًى، وجَوْر عن قَصْد السبيل"(٣).

قال الزمخشري:" أى: ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف «الضلال» بالبعد.

قلت: هو من الإسناد المجازى، والبعد في الحقيقة للضال، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جد جده. ويجوز أن يراد: في ضلال ذى بعد. أو فيه بعد، لأن الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وبعيدا"(٤).

قال القرطبي:" وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصد عن سبيل الله- أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره- فهو داخل في هذه الآية، وقد قال ﷺ:« إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»(٥)، وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان "(٦).
"(٦).

فوائد الآيتين:[٢-٣]:

١- بيان مفهوم الذات، وقد تحدث القرآن عن الذات الإلهية في عديد من الآيات دون تصريح بلفظ «الذات»، وكثيراً ما يصدر الحديث باسم «الله» فالله علم على الذات العلية، ومنه قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:١-٣،]فالله والرحمن وغيرهما من أسماء الله إنما هي أعلام دالة على ذات الله تعالى، وهي مع كونها أعلاماً دالة على الذات، وهي أيضاً أوصاف كمال.
٢- إن من أسباب الضلال شعور الإنسان إن هذه الحياة الدنيا مصادفة عمياء وأن الوجود بها ليس له هدف، قال سبحانه وتعالى ردا على من كان ذلك معتقدهم.
٣- عظم جرم من يصد عن الإسلام بلسانه أو بحاله، أو سلطانه.
٤- عظم ذنب من يريد إخضاع الشريعة الإسلامية لهواه وشهواته بالتأويلات الباطلة والفتاوى غير المسؤولة ممن باعوا آخرتهم بدنياهم.

القرآن

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)} [إبراهيم : ٤]

التفسير:

وما أرسلنا مِن رسولٍ قبلك -أيها النبي- إلا بلُغة قومه؛ ليوضّح لهم شريعة الله، فيضل الله من يشاء عن الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، وهو العزيز في ملكه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها وَفْق الحكمة.

---

(١) الكشاف:٣٨٥/٢-٣٨٦.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٣) تفسير الطبري:٥١٤/١٦-٥١٥.
(٤)الكشاف:٥٣٨/٢ .
(٥)أخرجه أحمد (٤٤١/٦، رقم ٢٧٥٢٥) ، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٣٩/٥) قال الهيثمى: فيه راويان لم يسميا. وابن عساكر (٢٥٤/١٩) . وأخرجه أيضا: الطيالسى (ص ١٣١، رقم ٩٧٥).
(٦) تفسير القرطبي:٣٣٩/٩.

قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ} [إبراهيم : ٤]، أي:" وما أرسلنا مِن رسولٍ قبلك -أيها النبي- إلا بلُغة قومه"[١].

قال ابن كثير:" هذا من لطفه تعالى بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم "[٢].

قال مجاهد: عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : "لم يبعث الله ، عز وجل ، نبيا إلا بلغة قومه"[٣].

قوله تعالى:{لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم : ٤]، أي:" ليوضِّح لهم شريعة الله"[٤].

قوله تعالى:{فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [إبراهيم : ٤]، أي:" فيضل الله من يشاء عن الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق"[٥].

قال ابن كثير:" أي : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق"[٦].

قوله تعالى:{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم : ٤]، أي:" وهو العزيز في ملكه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها وَفْق الحكمة"[٧].

قال ابن كثير:" { وَهُوَ الْعَزِيزُ } الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، { الحكيم } في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه : أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسًا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلي : نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطَهُورًا ، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة»[٨]. عامة»[٨]. وله شواهد من وجوه كثيرة ، وقال تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف : ١٥٨]"[٩].

الفوائد:

١- بيان الحكمة في إرسال الله تعالى الرسل بلغات أقوامهم.

٢- تقرير أن الذي يخلق الهداية هو الله وأما العبد فليس له أكثر من الكسب.

٣- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما :«العزيز»«الحكيم»:

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"[١٠].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[١١].

القرآن

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)} [إبراهيم : ٥]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٤.
(٣)المسند (١٥٨/٥) ومجاهد لم يسمع من أبي ذر.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٤.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٨)صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).
(٩) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٤.
(١٠) شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.
(١١)انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

ولقد أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل وأيدناه بالمعجزات الدالة على صدقه، وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان؛ ليخرجهم من الضلال إلى الهدى، ويذكِّرهم بنعم الله ونقمه في أيامه، إن في هذا التذكير بها لَدلالات لكل صبَّار على طاعة الله، وعن محارمه، وعلى أقداره، شكور قائم بحقوق الله، يشكر الله على نعمه.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} [إبراهيم : ٥]، أي:" ولقد أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل وأيدناه بالمعجزات الدالة على صدقه"[١].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا"[٢].

قوله تعالى:{أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم : ٥]، أي:" وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان؛ ليخرجهم من الضلال إلى الهدى"[٣].

قال ابن كثير:" أي : أمرناه قائلين له:{ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } أي : ادعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان "[٤].

قوله تعالى:{وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ} [إبراهيم : ٥]، أي:" ويذكِّرهم بنعم الله ونقمه في أيامه"[٥].

قال ابن كثير:" أي : بأياديه ونعَمه عليهم ، في إخراجه إياهم من أسر فرعون. وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم"[٦].

وفي قوله تعالى:{وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ} [إبراهيم : ٥]، أربعة وجوه:

أحدها : معناه: وعظهم بما سلف من الأيام الماضية لهم ، قاله ابن جرير .

الثاني : بالأيام التي انتقم الله فيها من القرون الأولى ، قاله الربيع وابن زيد .

الثالث : أن معنى «أيام الله» نعم الله عليهم، قاله مجاهد وقتادة، وقد رواه أبيّ بن كعب مرفوعاً . وقد تسمَّى النعم بالأيام ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غُرٍّ طِوالٍ ... عصينا الملْك فيها أن نَدِينا

قال ابن كثير:" وهو أشبه"[٧].

والرابع: أن يريد الأيام التي كانوا فيها عبيداًَ مستذلين لأنه أنذرهم قبل استعمال النعم عليهم. أفاده الماوردي[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم : ٥]، أي:" إن في هذا التذكير بها لَدلالات لكل صبَّار على طاعة الله، وعن محارمه، وعلى أقداره، شكور قائم بحقوق الله، يشكر الله على نعمه"[٩].

قال ابن كثير:" أي : إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبرة لكل صَبَّار ، أي : في الضراء ، شكور ، أي : في السراء ، كما قال قتادة : نعم العبد ، عبد إذا ابتُلِي صَبَر، وإذا أعطي شكر.

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٨/٤.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٧٨/٤.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٥.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٧٨/٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٧٨/٤.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٢٢/٣.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٥.

وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أمر المؤمن كُلَّه عَجَب ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شَكَر فكان خيرا له»[١] "[٢].

قال الماوردي:" الصبار : الكثير الصبر ، والشكور : الكثير الشكر.. وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ، وإن كان فيه آيات لجميع الناس، لأنه يعتبر بها و[لا] يغفل عنها"[٣].
عنها"[٣].

قيل: أن الحسن توارى عن الحجاج تسع سنين، فلما بلغه موته قال : "اللهم قد أمته فأمت سنته وسجد شكراً وقرأ :{إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور}"[٤].

الفوائد:

١- فضيلة التذكير بالخير والشر ليشكر الله ويتقى.

٢- فضيلة الصبر والشكر.

القرآن

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)} [إبراهيم : ٦]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- لقومك قصة موسى حين قال لبني إسرائيل: اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من فرعون وأتباعه يذيقونكم أشد العذاب، ويذبّحون أبناءكم الذكور، حتى لا يأتي منهم من يستولي على مُلْك فرعون، ويستبقون نساءكم للخدمة والامتهان، وفي ذلكم البلاء والإنجاء اختبار لكم من ربكم عظيم.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} [إبراهيم : ٦]، أي:" واذكر -أيها الرسول- لقومك قصة موسى حين قال لبني إسرائيل"[٥].

قوله تعالى:{إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [إبراهيم : ٦]، أي:" اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من فرعون وأتباعه"[٦].

قال الراغب: "وأصل «النجاء»: طلب الخلاص ، ويقال لمن عدا نجا ، لكون العدو أحد أسباب التخلص ، فإن الله تعالى جعل للحيوانات قوتين تزيل بهما الأذى ، قوة بها تهرب مما يؤذيها ، وقوة بها تدفع ما يؤذيها ، فمن الحيوانات ما يختص بأحديهما ، ومنها ما جعلتا جميعاً به ، فإذاً : العدو أحد أسباب الخلاص ، فصح أن يعبر عنه به"[٧].

وقوله تعالى: {آل فرعون} يقصد به: أهل دينه وقومه وأشياعه[٨]، وأتباعه وأسرته وعزته[٩]، "ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلِّط لهم على بني إسرائيل"[١٠].

قال ابن عطية:" وإنما نسب الفعل إلى {آلِ فِرْعَوْنَ}، وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم"[١١].

---

(١)صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٨/٤.
(٣) النكت والعيون:١٢٢/٣.
(٤) النكت والعيون:١٢٢/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢.
(٩) تفسير الثعلبي: ١٩١/١.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٧٥/١.
(١١) المحرر الوجيز: ١٣٩/١.

واختلف أهل العربية في أصل كلمة «آل»، على قولين[1]:

أحدهما: أن أصلها من «أهل»، أبدلت الهاء همزة، كما قالوا: «ماء» فأبدلوا الهاء همزة، فإذا صغروه قالوا :«مويه»، فردوا الهاء في التصغير وأخرجوه على أصله. وكذلك إذا صغروا آل، قالوا :«أهيل»، وقد حكي سماعا من العرب في تصغير «آل»: «أويل»[2]، وقد يقال:" فلان من آل النساء"، يراد به أنه منهن خلق، ويقال ذلك أيضا بمعنى أنه يريدهن ويهواهن[3]، كما قال الشاعر [4]:

فإنك من آل النساء وإنما يَكُنَّ لأدْنَى؛ لا وصال لغائب

والفرق بين «الآل» و«الأهل»: أن «الآل» يختص بالأشرف والأخص، دون الشائع الأعم، " حتى لا يقال إلا في نحو قولهم القراء: آل الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد[5]، {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [غافر: ٢٨]، وكذلك ما أنشده أبو العباس للفرزدق[6]:

نَجَوْتَ وَلَمْ يَمْنُنْ عَلَيْكَ طَلَاقَةً سِوى رَبِذِ التَّقْرِيبِ مِنْ آلِ أَعْوَجَا

لأن أعوج فيهم فرس مشهوَر، فلذلك قال: آل أعوج"[7].

والثاني: أن أصلها من (الأول)، وهو الرجوع، كأنّه يؤول إليك، وكان في الأصل همزتان فعوّضت من إحداهما مدّ وتخفيف. قاله الثعلبي[8].

والراجح هو القول الأول، وبه قال الكسائي[9]، وجمهور المفسرين وأهل اللغة[10].

واختلف في كلمة: «فِرْعَوْنَ»، على وجهين [11]:

أحدهما:أنه اسم ذلك الملك بعينه.

والثاني:أنه لقب، يطلق على كل ملك من ملوك العمالقة[12]، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة، وأن اسم «فرعون» موسى: قابوس في قول أهل الكتاب.

وقيل أن اسمه: "الوليد بن مصعب بن الريان"[13]، ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام[14].

وقال السهيلي:"وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر[15]".

---

(١) أنظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(٢) انظر: مادة (أهل) و(أول) في لسان العرب .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٧/٢.

(٤)لم أجد البيت ولم أعرف قائله، وقوله : " يكن لأدنى " يعني للداني القريب الحاضر ، يصلن حباله بالمودة ، ، أما الغائب فقد تقطعت حباله . وتلك شيمهن ، أستغفر الله بل شيمة أبناء أبينا آدم .

(٥) قال الزجاج:" آلُ الأنبياءِ صلوات الله عليهم من كان على دينهم، وكذلك قولنا: صلى الله على محمد وآله: معنى آله من اتبعه من أهل بيته وغيرهم".[معاني القرآن:١٣٠/١].

(٦)في "الديوان": (خرجت) بدل (نجوت) ومعنى (الرَّبِذ): المشي الخفيف، (التقريب): ضرب من السير يقارب يقارب فيه الخطو، (أعوج): فرس مشهور. ورد البيت في "سر صناعة الأعراب" ١/ ١٠٢، "ديوان الفرزدق" ١/ ١١٧.

(٧) أنظر: التفسير البسيط: ٤٩٢/٢، ومعاني القرآن" للأخفش ١/ ٢٦٥.

(٨) تفسير الثعلبي: ١٩١/١. وانظر: "مقاييس اللغة" (أول) ١/ ١٦١، "اللسان" (أول) ١/ ١٧٤ - ١٧٥.

(٩)انظر: مقاييس اللغة:(أول) ١/ ١٦١، واللسان:(أول) ١/ ١٧٤ - ١٧٥، والتفسير البسيط: ٤٩١/٢، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(١٠) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١، والمحرر الوجيز: ١٣٩/١، وتفسير القرطبي: ٣٨٣/١-٣٨٤، وتفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٣/١.

(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣/١-٣٨٤.

(١٢) قال بعض أهل اللغة: "فرعون بلغة القبط، وهو التمساح، ويقال: تفرعن الرجل إذا تشبه بفرعون في سوء أفعاله".[التفسير البسيط: ٤٩٤/٢، وانظر: الصحاح(فرعن):٢١٧٧/٦، والكشاف: ٢٧٩/١].

(١٣) قاله ابن إسحاق، انظر: تفسير الطبري(٨٨٨):ص٣٨/٢، وتفسير الثعلبي:١٩١/١.

(١٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣/١، والقول لوهب.

(١٥) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٤/١.

قال المسعودي:"لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية"(١).

وقال ابن سيده: "وعندي أن «فرعون» هذا العلم أعجمي؛ ولذلك لم يصرف"(٢).

وقال الجوهري: "«فرعون»: لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ونكر"(٣).

و«الفرعنة»: "الكِبْر والتجبُّر، والفرعنة مصدر فرعون، ويقال: فرعون أيضًا"(٤)، وفي الحديث "أخذنا فرعون هذه الأمة"(٥)، و«فرعون» في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته(٦).

وقال الإمام الطبري في كتابه: "تاريخ الأمم والملوك" في سياق حديثه عن نسب موسى بن عمران عليه السلام وأخباره: "وأما ابن إسحاق فإنه قال فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: قبض الله يوسف، وهلك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، وتوارث الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل، وقبر يوسف حين قبض كما ذكر لي في صندوق من مرمر في ناحية من النيل في جوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل

---

(١) نقلا عن: تفسير الطبري: ٣٩٠/١، وفتح القدير الجامع: ١٨٨/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١: ٣٨٤.

(٣) انظر: مختار الصحاح: مادة(فرعن)، وانظر المعنى في : صحاح العربية والمحيط في اللغة، وتهذيب اللغة: اللغة: مادة(فرعن).

(٤)انظر: فتح القدير: ١٨٨/١.

(٥) جاء في مسند احمد: دَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا جَهْلٍ وَقَدْ جُرِحَ، وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ . قَالَ: فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ بِسَيْفِي، فَلَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا (١) - قِيلَ لِشَرِيكٍ: فِي الْحَدِيثِ: وَكَانَ يَذُبُّ بِسَيْفِهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ -، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخَذْتُ سَيْفَهُ، فَضَرَبْتُهُ بِهِ، حَتَّى قَتَلْتُهُ . قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: قَدْ قُتِلَ أَبُو جَهْلٍ - وَرُبَّمَا قَالَ شَرِيكٌ: قَدْ قَتَلْتُ أَبَا جَهْلٍ -،قَالَ: " أَنْتَ رَأَيْتَهُ ؟ " قُلْتُ: نَعَمْ . قَالَ: " آللهِ " مَرَّتَيْنِ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ (١) . قَالَ: " فَاذْهَبْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ " . فَذَهَبَ، فَأَتَاهُ، وَقَدْ غَيَّرَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَمَرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ، فَسُحِبُوا حَتَّى أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ، قَالَ: وَأُتْبِعَ أَهْلُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً . وَقَالَ: " كَانَ هَذَا فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ" . إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو عبيدة -وهو ابن عبد الله بن مسعود- لم يسمع من أبيه، ولضعف شريك، وهو ابن عبد الله النخعي، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. أبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السبيعي.

وأخرجه الطبراني في "الكبير" (٨٤٦٨) و (٨٤٦٩) ، والبيهقي في "السنن" ٦٢/٩ من طرق عن شريك، بهذا الإسناد.

وأخرجه أبو داود (٢٧٠٩) ، وأبو يعلى (٥٢٦٣) ، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٠) و (٨٤٧١) ، والبيهقي في "الدلائل" ٨٧/٣، ٨٨ من طرق عن أبي إسحاق، به.

وأخرجه الطيالسي (٣٢٨) ، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٥) ، والبيهقي في "السنن" ٩٢/٩ من طريق الجراح بن مليح والد وكيع، والطبراني (٨٤٧٤) من طريق زيد بن أبي أنيسة، والبزار (١٧٧٥) "زوائد" من طريق أبي الأحوص، ثلاثتهم عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود. قال البيهقي: كذا قال: عن عمرو بن ميمون، والمحفوظ: عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن أبيه. وقال الدارقطني قطني في "العلل" ٢٩٥/٥: وأبو عبيدة أصح.

وأخرجه البزار (١٧٧٤) "زوائد"، والطبراني في "الكبير" (٨٤٧٦) من طريق أبي بكر الهذلي، عن أبي المليح، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن ابن مسعود. قال البزار: لا نعلم روى أبو المليح عن عبد الرحمن، عن أبيه إلا هذا.

وأورده الهيثمي في "المجمع" ٧٨/٦-٧٩، وقال: رواه كله أحمد، والبزار باختصار، وهو من رواية أبي عبيدة، عن أبيه، ولم يسمع منه، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

وقال أيضاً: رواه الطبراني والبزار، وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف. وقد أخرج البخاري (٣٩٦١) من حديث ابن مسعود أنه أتى أبا جهل وبه رمق يوم بدر، فقال أبو جهل: هلْ أعْمد مِن رجل قتلتموه. وأخرج أيضاً (٣٩٦٢) و (٣٩٦٣) من حديث أنس أنه انطلق ابن مسعود فوجد أبا جهل قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال: أأنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه. أو قال: قتلتموه. وقد تقدمت قصة مقتل أبي جهل من حديث عبد الرحمن بن عوف برقم (١٦٧٣) وانظر الأحاديث الآتية بالأرقام (٣٨٢٥) و (٣٨٥٦) و (٤٠٠٨) و (٤٢٤٦) و (٤٢٤٧).

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٣-٣٨٤.

تحت أيدي الفراعنة وهم على بقايا دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام، متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولًا ولا أطول عمرًا في ملكه منه، وكان اسمه - فيما ذكروا لي - الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلبًا، ولا أسوأ ملكًا لبني إسرائيل منه، يعذبهم فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنَّفهم في أعماله؛ فصِنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية، فسامَهم كما قال الله } :سُوءَ الْعَذَابِ {]البقرة: ٤٩[. وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم لا يريدون فراقه، وقد استنكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحمٍ، من خيار النساء المعدودات، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرًا طويلًا يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم وبلغ موسى عليه السلام الأشد، أُعطِيَ الرسالة"(١).

قال ابن عاشور: "و«فرعون»: علم جنس لملك مصر في القديم، أي: قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط، قيل: أصله في القبطية فاراه، ولعل الهاء فيه مبدلة عن العين، فإن رع اسم الشمس، فمعنى فاراه نور الشمس؛ لأنهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يصلح الناس، نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود، وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام، وهذا الاسم نظير كسرى لملك ملوك الفرس القدماء، وقيصر لملك الروم، ونمروذ لملك كنعان، والنجاشي لملك الحبشة، وتُبَّع لملك ملوك اليمن، وخان لملك الترك، واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه: منفطاح الثاني، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرخين من الإفرنج، وذلك في سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح"(٢).

فيمكن القول: أن كلمة «فرعون» ربما قد أصبحت تستخدم استخدامًا شائعًا في العصور الحديثة كلقب للحاكم في مصر القديمة لأسباب ترجع إلى الميول العقائدية ومحاولات التفسير التوراتية من زاوية واحدة، على أن التحقيق اللغوي للفظة يظل بعيدًا كل البعد عن حقيقة تلقب الحكام المصريين بهذا اللقب.

قوله تعالى:{يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [إبراهيم : ٦]، أي:" يذيقونكم أشد العذاب"(٣).

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {يَسُومُونَكُمْ}[إبراهيم : ٦]، على وجوه(٤):

أحدها: قيل معناه: يذيقونكم ويلزمونكم إياه.

الثاني: يولونكم، قاله أبو عبيدة(٥)، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم(٦) :

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسُ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

الثالث:أن معناه : يديمون عذابكم، والسوم: الدوام، كما يقال : سائمة الغنم من إدامتها الرعي.

الرابع: يُجَشِّمُونَكُمُ الأعمال الشَّاقَّة. قاله الواحدي(٧).

والخامس: يزيدونكم على سوء العذاب ، ومنه مساومة البيع ، إنما هو أن يزيد البائعُ المشتريَ على ثمنٍ ، ويزيد المشتري على ثمنٍ ، وهذا قول المفضل(٨).

---

(١)تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، (دون رقم الطبعة وتاريخها مجلد واحد ضخم)، ص١٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٥/٩ و٢٤٧/١١.

(٣) التفسير الميسر:٢٥٦.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٤/١. وتفسير ابن كثير: ٢٥٨/١، والنكت والعيون: ١١٨/١.

(٥)أنظر: مجاز القرآن" ١/ ٤٠، "تفسير الغريب" لابن قتيبة ص ٤٨.

(٦)شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٤٢٥ ،و شرح القصائد التسع ٦٧٨ شرح القصائد العشر ٣٦٥. الخسف : الظلم والنقصان.

(٧) التفسير البسيط: ٤٩٤/٢.

(٨) أنظر: تهذيب اللغة" (سام) ٢/ ١٦٠٠، "اللسان" (سوم) ٤/ ٢١٥٧.

وجميع المعاني تحتمله اللفظ، إذ أن المراد بقوله{ يسومونكم}، أي: يوردونكم، ويذيقونكم، ويولونكم، يقال منه: سامه خطة ضيم، إذا أولاه ذلك وأذاقه[١]، كما قال الشاعر[٢] :

إن سيم خسفا ، وجهه تربدا

وفي قوله تعالى: {سُوءَ الْعَذَابِ}[إبراهيم : ٦]، وجهان:

أحدهما: ما ساءهم من العذاب[٣].

والثاني: أشد العذاب. قاله الزجاج[٤] وآخرون[٥].

والأقرب: هو القول الأول، لأنه لو كان الثاني صحيحا لقيل: أسوأ العذاب. والله تعالى أعلم.

وفي «العذاب» الذي كانوا يسومونهم قولان:

أحدهما: أن فرعون كان يعذبهم بجعلهم خدما وخولا، واستخدم بعضهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة، فعليه الجزية. قاله ابن إسحاق[٦]. واختاره الثعلبي[٧].

الثاني: وقيل أن فرعون:"جعلهم في الأعمال القذرة ، وجعل يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم". وهذا قول السدي[٨].

قوله تعالى:{وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} [إبراهيم : ٦]، أي:" ويذبّحون أبناءكم الذكور"[٩].

قال أبو العالية: " إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة فقالت له الكهنة. سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجواري"[١٠].

واختلف في قوله تعالى: {وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} [إبراهيم : ٦]، على قولين:

أحدهما: يذبحون الأطفال الذكورمن أبنائكم دون البالغين. وهذا قول ابن عباس[١١]، ومجاهد[١٢]، والربيع[١٣]، والسدي[١٤]، وابن إسحاق[١٥].

والثاني: وقيل: يعني: الرجال دون الأطفال[١٦]، وسموا «أبناء» لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله {نِسَاءَكُم}، فقالوا: بأن" المذبحين لو كانوا هم الأطفال ، لوجب أن يكون المستحيون هم الصبايا"[١٧].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٤٠/٢.

(٢) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٤٠/٢، الخسف : الظلم والإذلال والهوان ، وهي شر ما ينزل بالإنسان ، وأقبح ما ينزله أخ بأخيه الإنسان . وتربد وجهه : تلون من الغضب وتغير ، كأنما تسود منه مواضع . وقوله : " وجهه " فاعل مقدم ، أي تربد وجهه .

(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٤٠/٢، والمحرر الوجيز: ١/!٤٠.

(٤) أنظر: معاني القرآن: ١٣٠/١. قال الزجاج: "وإن كان العذاب كله سوءًا، فإنما نُكرَ في هذا الموضع لأنه أبلغ ما يعامل به مَرْعِيٌّ، فلذلك قيل سوءَ العذاب، أي ما يبلغ في الإساءَة ما لا غاية بعده".

(٥) أنظر: معاني القرآن" للزجاج ١/ ١٣٠، وانظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٠ أ، و"تفسير أبي الليث" ١/ ١١٧، ١١٧، و"العمدة في غريب القرآن" لمكي ص ٧٥.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٨٩):ص٤٠/٢.

(٧)أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٠):ص٤١/٢.

(٩) التفسير الميسر:٢٥٦.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٥):ص١٠٦/١، و(٨٩١٥):ص١٥٥٥/٥، والطبري(٨٩٣):ص٤٣/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٨٩١)، و(٨٩٢):ص٤٢/٢-٤٣.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٧):ص٤٤/٢-٤٥.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٤):ص٤٣/٢.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٥):ص٤٣/٢-٤٤.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٦):ص٤٤/٢.

(١٦) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٥/١.

(١٧) تفسير الطبري: ٤٧/٢.

قال الطبري:" وقد أغفل قائلو هذه المقالة - مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين - موضع الصواب. [و] لو كانوا إنما يقتلون الرجال ويتركون النساء ، لم يكن بأم موسى حاجة إلى إلقاء موسى في اليم ، أو لو أن موسى كان رجلا لم تجعله أمه في التابوت"[١].

الثالث: " وقيل: "كان ذبحهم للأبناء استخدامهم في الأعمال القذرة الجارية مجرى أعظم الذبحين القتل ، والإهانة ، قال : وعلى ذلك قوله تعالى : {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ}"[٢]. ولا يخفى على ما في هذا الوجه من التكلف، وإن كان المعنى صحيحا.

والقول الأول أصح، حملا للفظ «الأبناء» على ظاهره، ويدل على هذا المعنى، عملية إلقاء موسى -عليه السلام- في التابوت حال صغره، كما أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم، ومن جهة أخرى أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة، وهذا قول عامة أهل التفسير، والله أعلم.

قال ابن عطية:" والصحيح من التأويل: أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسم «النساء» بالمئال"[٣].

قال الواحدي:" وقيل: سمى البنات «نساء» على تقدير أنهن يكن نساء، وقيل: جمع الكبار والصغار بلفظ النساء، لأنهم كانوا يستبقون جميع الإناث، فجرى اللفظ على التغليب كما يطلق الرجال على الذكور وإن كان فيهم صغار"[٤].

قال السدي:" كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة- وأما القافة: فهم العافة. وأما الحازة: فهم الذين يزجرون الطير- فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه يعني بيت المقدس رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل أن لا يولد غلام إلا ذبحوه ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم. فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا يبلغ الصغار فيفنى الكبار، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم؟ فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة"[٥].

وقيل غير هذا، والمعنى متقارب[٦].

قوله تعالى:{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [إبراهيم : ٦]، أي:" ويستبقون نساءكم للخدمة والامتهان"[٧].

قال ابن أبي حاتم: "يعني: البنات"[٨].

قال الصابوني: أي:" يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة"[٩].

قال الطبري: أي:" يستبقونهن فلا يقتلونهن"[١].

---

(١) تفسير الطبري: ٤٧/٢.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٦/١.
(٣) المحرر الوجيز: ١٤١/١.
(٤) التفسير البسيط: ٥٠٥/٢.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٥٠٦):ص١٠٦/١.
(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٣٨٦/١.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٨) تفسير ابن أبي حاتم:١٠٦/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٤٩/١.

قال المراغي: أي: "ويستبقون البنات إذلالا لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد"[٢].

قال الواحدي:" يَسْتَبْقُونهن ، ولا يقتلونهن، ومنه قوله - ﷺ -: "اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم"[٣]"[٤].

قال ابن عثيمين:" أي: يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدماً لآل فرعون؛ وهذا. والعياذ بالله. من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)} [الشعراء : ٥٧ - ٥٩]، وقال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)} [الدخان : ٢٥ - ٢٨]، وهم بنو إسرائيل"[٥].

وقال ابن جريج:" يسترقون نساءكم"[٦].

وضعّفه الطبري قائلا:" ذلك تأويل غير موجود في لغة عربية ولا أعجمية"[٧].

قال الواحدي:" فإن قيل: فما في استحياء النساء من سوء العذاب؟

قيل: إن استحياء النساء على ما كانوا يعملون بهن أشد في المحنة من قتلهن، لأنهن يستعبدن وينكحن على الاسترقاق، والاستبقاء للإذلال استبقاء محنة"[٨].

قوله تعالى:{وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [إبراهيم : ٦]، أي:" وفي ذلكم البلاء والإنجاء اختبار لكم من ربكم عظيم"[٩].

قال ابن كثير:" أي : نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك ، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها"[١٠].

قال البغوي: " أي: في سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة"[١١].

قال ابن عثيمين:" أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزّ وجل عظيم. أي: اختبار عظيم.؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر"[١٢].

قال الصابوني:" أي: فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر"[١٣].

قال المراغي:" أي: وفي ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم، كما قال تعالى : {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ}، وقوله : {من ربكم} : أي: من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ، وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم"[١].

---

(١) تفسير الطبري: ٤٦/٢.

(٢) تفسير المراغي: ١١٠/١.

(٣)أخرجه أبو داود عن سمرة بن جندب، وفيه (استبقوا) بدل (استحيوا) انظر: "سنن أبي داود" ٢٦٧٠ كتاب (الجهاد)، باب (في قتل النساء)، والترمذي (١٥٨٣) أبواب (السير) باب (ما جاء في النزول عن الحكم) وفيه: الشرخ: الغلمان الذين لم ينبتوا. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. عارضه الأحوزي.

وأخرجه أحمد في "مسنده" ٥/ ١٢، ٢٠. ورمز السيوطي له بالصحة في "الجامع الصغير". انظر: "فيض القدير شرح الجامع" ٢/ ٧٦.

(٤) التفسير البسيط: ٥٠٤/٢.

(٥) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/١.

(٦) أخرجه الطبري(٨٩٨):ص٤٦/٢.

(٧) تفسير الطبري:٤٧/٢. ثم قال:" وذلك أن الاستحياء إنما هو استفعال من الحياة نظير " الاستبقاء " من " البقاء " ، و " الاستسقاء " من " السقي " . وهو من معنى الاسترقاق بمعزل".

(٨) التفسير البسيط: ٥٠٥/٢.

(٩) التفسير الميسر:٢٥٦.

(١٠) تفسير ابن كثير:٤٧٩/٤.

(١١) تفسير البغوي: ٩١/١.

(١٢) تفسير ابن عثيمين:١٧٦/١.

(١٣) صفوة التفاسير: ٤٩/١.

قال أبو حيان:"وفي قوله : {مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} دليل على أن الخير والشرّ من الله تعالى ، بمعنى أنه خالقهما، وفيه رد على النصارى ومن قال بقولهم : إن الخير من الله والشرّ من الشيطان.. وكونه عظيماً هو بالنسبة للمخاطب والسامع، لا بالنسبة إلى الله تعالى ، لأنه يستحيل عليه اتصافه بالاستعظام"[٢].

وفي قوله تعالى:{ بَلاءٌ }[إبراهيم : ٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن معناه: اختبار والامتحان. قاله ابن كامل[٣]، وهو قول جمهور أهل التفسير[٤].

الثاني: : شدة البلية ، ذكره ابن عيسى[٥].

والثاني: أن معناه: نعمة، أي: نعمة من ربكم عظيمة. روي ذلك عن ابن عباس[٦]، والحسن[٧]، وأبي مالك[٨]، والسدي[٩]، ومجاهد[١٠]، وابن جريج[١١].

والظاهر- والله أعلم- أن كلا القولين صحيح، لأن "{وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، راجع إلى الأمرين: إلى المنحة التي هي الإنجاء من آل فرعون المقتضية للشكر ، وإلى المحنة التي هي ذبحهم واستحياؤهم للنساء المقتضية للصبر"[١٢].

وقال البغوي:" فـ«البلاء»: يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة ، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر، وقال الله تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة"}[الأنبياء:٣٥]"[١٣].

وقال ابن عطية:" ويكون «الْبَلاءُ» في الخير والشر"[١٤].

وقال الواحدي:" والذي في هذه الآية يحتمل الوجيهن، فإن حملته على الشدة، كان معناه: في أستحياء البنات للخدمة وذبح البنين بلاء ومحنة"[١٥].

وقال النسفي: في تفسير قوله{ وَفِي ذَالِكُم بَلاءٌ }،أي: "محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون ، ونعمة إن أشير به إلى الانتجاء"[١٦].

واختلف أهل التفسير في مرجع الإشارة في قوله تعالى:{ وَفِي ذلِكُمْ}[إبراهيم : ٦]، على ثلاثة أوجه[١٧]:

أحدها: إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر، و«بَلاءٌ»، معناه: امتحان واختبار، ويكون الْبَلاءُ في الخير والشر.

الثاني: الإشارة بـ{ذلِكُمْ}، إلى التنجية من بني إسرائيل، فيكون الْبَلاءُ على هذا في الخير، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.

---

(١) تفسير المراغي: ١١٠/١.
(٢) البحر المحيط: ١٦٤/١.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٨/٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٨٩٩):ص٤٨/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٠٧):ص١٠٦/١.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٠٦/١. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٠):ص٤٨/٢.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٩٠١)، و(٩٠٢):ص٤٨/٢-٤٩.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٩٠٣):ص٤٩/٢.
(١٢) تفسير الرابغ الأصفهاني:١٨٦/١.
(١٣) تفسير البغوي: ٩١/١.
(١٤) المحرر الوجيز:١٤١/١.
(١٥) التفسير البسيط: ٥٠٧/٢.
(١٦) تفسير النسفي: ٦٤/١.
(١٧) أنظر: المحرر الوجيز: ١٤١/١.

والثالث: الإشارة إلى الذبح ونحوه، و«الْبَلاءُ» -هنا- في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وقد رجح الجمهور القول الأول(١)، لأن(البلاء) يكون في الخير والشر. والله أعلم.

وأصل «البلاء» في كلام العرب: الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه : {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف : ١٦٨]، يقول : اختبرناهم، وكما قال جل ذكره : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء : ٣٥]. ثم تسمي العرب الخير " بلاء " والشر " بلاء " . غير أن الأكثر في الشر أن يقال : " بلوته أبلوه بلاء "، وفي الخير : " أبليته أبليه إبلاء وبلاء "، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى (٢):

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم   وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، لأنه أراد : فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده(٣).

قال الراغب: وفي هذه الآية" حث لنا على تذكر نعمه ومراعاتها واحدة واحدة ، وتجديد الشكر لكل منها"(٤).

وقال البيضاوي: " وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر إختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين"(٥).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.

٢- ومنها: أن الإنجاء من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: {أَنْجَاكُمْ}.

٣- ومنها: بيان حنق آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: {اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم} [غافر: ٢٥] ، وقال في سورة الأعراف: {سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون} [الأعراف: ١٢٧].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: {أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني} [القصص: ٧] ؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتَّل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} [الأعراف: ١٢٩] لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أُرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: {استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} [الأعراف: ١٢٨].

٤- ومنها: أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يسوؤهم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: {من ربكم} يعني هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عزّ وجلّ؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

القرآن

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٨٣/١.

(٢)ديوانه : ١٠٩ ، وروايته " رأى الله . . . فأبلاهما " . وهذا بيت من قصيدة من جيد شعر زهير وخالصه .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٩/٢.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني: ١٨٦/١.

(٥) تفسير البيضاوي: ٧٩/١.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)} [إبراهيم : ٧]

التفسير:

وقال لهم موسى: واذكروا حين أعلم ربكم إعلامًا مؤكَّدًا: لئن شكرتموه على نعمه ليزيدنكم من فضله، ولئن جحدتم نعمة الله ليعذبنَّكم عذابًا شديدًا.

قوله تعالى:{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم : ٧]، أي:" وقال لهم موسى: واذكروا حين أعلم ربكم إعلامًا مؤكَّدًا: لئن شكرتموه على نعمه ليزيدنكم من فضله"[١].

قال القرطبي:" قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل هو من قول الله، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا"[٢].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: واذكروا أيضًا حين آذنكم رَبُّكم: لئن شكرتم ربَّكم، بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، لأزيدنكم في أياديه عندكم ونعمهِ عليكم، على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون والخلاص مِنْ عذابهم"[٣].

قال الربيع:" أخبرهم موسى عليه السلام عن ربه عز وجل، أنهم إن شكروا النعمة، زادهم من فضله وأوسع لهم في الرزق، وأظهرهم على العالمين[٤].

قال قتادة:" حق على الله إن يعطي من سأله ويزيد من شكره، والله منعم يحب الشاكرين، فاشكروا لله نعمه"[٥].

قال سفيان:" لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون على الله من ذلك، ولكن يقول: لئن شكرتم هذه النعمة إنها مني لأزيدنكم من طاعتي"[٦].

وفي قوله تعالى:{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} [إبراهيم : ٧]، أقوال:

أحدها : معناه: وإذ سمع ربكم ، قاله الضحاك[٧].

الثاني : وإذ قال ربكم ، قاله أبو مالك[٨]، وابن زيد[٩]، ومقاتل[١٠].

وذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: "{وإذ تأذن ربكم}: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ»"[١١].

الثالث : معناه: وإذ أعلمكم ربكم. قاله الحسن[١٢]، والفراء[١٣]، وابن قتيبة[١٤]، والثعلبي[١٥]، والقرطبي[١٦]، وهو من: آذنتك بالأمر، ومنه «الأذان»، لأنه إعلام، قال الشاعر[١٧]:

فلم نشعر بضوء الصبح حتى ... سَمِعْنا في مجالِسنا الأذينا

الرابع: معناه: وآذنكم ربكم، قاله أبو عبيدة[١٨].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٦.

(٢) تفسير القرطبي:٣٤٣/٩.

(٣) تفسير الطبري:٥٢٦/١٦-٥٢٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢١٦):ص٢٢٣٥/٧-٢٢٣٦.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢١٧):ص٢٢٣٦/٧.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢١٨):ص٢٢٣٦/٧.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.

(٨) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٨٤):ص٥٢٦/١٦.

(١٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٨/٢.

(١١) أخرجه الطبري(٢٠٥٨٣):ص٥٢٦/١٦.

(١٢) انظر: التفسير:٣٤٣/٩.

(١٣) انظر: معاني القرآن:٦٩/٢، والنكت والعيون:١٢٣/٣.

(١٤) انظر: غريب القرآن:١٧٤.

(١٥) انظر: الكشف والبيان:٣٠٦/٥.

(١٦) انظر: التفسير:٣٤٣/٩.

(١٧) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣، وتفسير القرطبي:٣٤٣/١١

(١٨) انظر: مجاز القرآن:٣٣٥/١، وروى ابن حجر كلام أبى عبيدة هذا فى فتح الباري (٨/ ٢٨٥) .

الخامس: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. قاله ابن كثير[1].

والسادس: معناه: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كما قال:{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ] } [الأعراف : ١٦٧]. أفاده ابن كثير[2].

وفي قوله تعالى:{لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم : ٧]، وجوه من التفسير:

أحدها : لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ، قاله الربيع[3].

قال ابن كثير:" أي : لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها "[4].

الثاني : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي ، قاله الحسن[5]، وأبو صالح[6]، وسفيان[7].

قال الطبري:" ولا وجهَ لهذا القول يُفْهَم، لأنه لم يجرِ للطاعة في هذا الموضع ذكرٌ فيقال: إن شكرتموني عليها زدتكم منها، وإنما جَرَى ذكر الخبر عن إنعام الله على قوم موسى بقوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} ، ثم أخبرهم أن الله أعلمهم إن شكروه على هذه النعمة زادهم. فالواجب في المفهوم أن يكون معنى الكلام: زادهم من نعمه، لا مما لم يجرِ له ذكر من "الطاعة"، إلا أن يكون أريد به: لئن شكرتم فأطعتموني بالشكر، لأزيدنكم من أسباب الشكر ما يعينكم عليه، فيكون ذلك وجهًا"[8].

الثالث : لئن وحّدتم وأطعتم لأزيدنكم ، قاله ابن عباس .

والرابع : لئن آمنتم لأزيدنكم من نعيم الآخرة إلى نعيم الدنيا. أفاده الماوردي[9].

قال الماوردي :"وسُئِل بعض الصلحاء على شكر الله تعالى ، فقال : أن لا تتقوى بِنِعَمِهِ على معاصيه،وحكي أنَّ داود عليه السلام قال : أي ربِّ كيف أشكرك وشكري لك نعمة مجددة منك عليّ ؟ قال : «يا داود الآن شكرتني»"[10].

قال التستري:" شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم، فهو أبدا في هذا، وهذه حاله. وقال: الشكر أن تريد المزيد، وإلا شكر مطعون، وحقيقة العجز الاعتراف به. وقد حكي أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك، وشكري إياك تجديد منة منك علي؟ قال الله تعالى: الآن شكرتني"[11].

قوله تعالى:{وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم : ٧]، أي:" ولئن جحدتم نعمة الله ليعذبنَّكم عذابًا شديدًا"[12].

قال الطبري:" يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمةَ الله، فجحدتموها بتركِ شكره عليها وخلافِه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه {إن عَذَابي لشديد}، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي"[13].

قال ابن كثير:" أي : كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها { إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها "[14].

قال الماوردي :" وعد الله تعالى بالزيادة على الشكر ، وبالعذاب على الكفر"[1].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٧٩/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير:٤٧٩/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢١٦):ص٢٢٣٥/٧-٢٢٣٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٧٩/٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٨٨):ص٥٢٧/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٨٥)، (٢٠٥٨٦):ص٥٢٧/١٦
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٨٧):ص٥٢٧/١٦.
(٨) تفسير الطبري:٥٢٧/١٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٢٣/٣.
(١٠) النكت والعيون:١٢٣/٣.
(١١) تفسير التستري:٨٦.
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٣) تفسير الطبري:٥٢٨/١٦.
(١٤) تفسير ابن كثير:٤٧٩/٤.

وقد جاء في الحديث : "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"[٢].

وفي المسند : "أن رسول الله ﷺ مَرَّ به سائل فأعطاه تمرة ، فَتَسَخَّطها ولم يقبلها ، ثم مر به آخر فأعطاه إياها ، فقبلها وقال : تمرة من رسول الله ﷺ ، فأمر له بأربعين درهما ، أو كما قال.

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا عمارة الصَّيدلاني ، عن ثابت ، عن أنس قال : أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - أو : وحش بها - قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة ، فقال : سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية : "اذهبي إلى أم سلمة ، فأعطيه الأربعين درهما التي عندها"[٣].

الفوائد:

١- أن الشكر يستلزم المزيد، فإن من أسباب زيادة النعم على العبد: شكر الله سبحانه وتعالى فإنه أقسم بعزته وجلاله أنكم إن شكرتموه يزدكم، كما في الآية موضع التفسير.

في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبدا شكورا؟ "[٤]، وأمر ﷺ معاذا بأن يقول دبر كل صلاة: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[٥].

٢- إن المعصية تنقص الرزق والبركة، لأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ومن ذلك قوله سبحانه :{ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الرُّوم: ٤١].

قيل: الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة والفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقيل: هو كساد الأسعار وقلة المعاش.

٣- أنه من كفر فإنه لا يعجز الله، ويعاقبه الله جل وعلا، ويسلب نعمته؛ لأن الله جل وعلا يقول: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}.

٤- ومن الفوائد: انه قد يطلق «الكفر» على من كفر بالنعمة، كما في الآية الكريمة.

القرآن

{وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)} [إبراهيم : ٨]

التفسير:

وقال لهم: إن تكفروا بالله أنتم وجميع أهل الأرض فلن تضروا الله شيئًا؛ فإن الله لغني عن خلقه، مستحق للحمد والثناء، محمود في كل حال.

قوله تعالى:{وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [إبراهيم : ٨]، أي:" وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئا"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال موسى لقومه: إن تكفروا، أيها القوم، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم ويفعل في ذلك مثل فعلكم مَنْ في الأرض جميعًا"[٧].

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم : ٨]، أي:" فإن الله لغني عن خلقه، مستحق للحمد والثناء، محمود في كل حال"[١].

---

(١) النكت والعيون:١٢٣/٣.

(٢)رواه أحمد في المسند (٨٠/٥) وابن ماجة في السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، وحسنه العراقي كما في الزوائد للبوصيري (٦١/١).

(٣)المسند (١٥٤/٣)، وذكره ابن كثير في تفسيره:٤٧٩/٤-٤٨٠.

(٤)البخاري مع الفتح ١٤/٣، رقم (١١٣٠) ومسلم بشرح النووي ٢٩٦/٦- ٢٩٧رقم (٢٨١٩).

(٥)أخرجه أبو داود ٨٦/٢،والنسائي ٥٣/٣، قال الحافظ ابن حجر وصححه ابن حبان، والحاكم. انظر البخاري مع الفتح ١٣٣/١١.

(٦) صفوة التفاسير:٨٥/٢.

(٧) تفسير الطبري:٥٢٨/١٦.

قال علي:" غني عن خلقه ، {حميد} قال: مُسْتَحْمِدٌ إليهم"[٢].
قال السمعاني:" أي: غني عن خلقه، حميد في فعله"[٣].
قال الطبري:أي:" {فإن الله لغني} عنكم وعنهم من جميع خلقه، لا حاجة به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم، {حميد} ذُو حمد إلى خلقه بما أنعم به عليهم"[٤].
قال ابن كثير:" أي : هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كما قال : { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر : ٧] وقال تعالى : { فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } [التغابن : ٦]"[٥].
وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ، عز وجل ، أنه قال : "يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل في البحر". فسبحانه وتعالى الغني الحميد"[٦].
الفوائد:
١- بيان جهل من تخيل أن له على الله حقاً، لهذا بيّن سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه، وأن الله غني عن الخلق.
٢- بيان غنى الله تعالى المطلق على سائر خلقه فالناس إن شكروا شكروا لأنفسهم وإن كفروا كفروا على أنفسهم أي شكرهم ككفرهم عائد على أنفسهم.
٣- إن الله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما الطاعة تنفع صاحبها، والمعصية تضر صاحبها.
وفي الحديث القدسي: "يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر"[٧].

القرآن

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)} [إبراهيم : ٩]

التفسير:
ألم يأتكم -يا أمَّة محمد- خبر الأمم التي سبقتكم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، والأمم التي بعدهم، لا يحصي عددهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبراهين الواضحات، فعضُّوا أيديهم غيظًا واستنكافًا عن قَبول الإيمان، وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به، وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد موجب للريبة.

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٥٨٩):ص٥٢٨/١٦. في أساس البلاغة: " استحمد الله إلى خلقه، بإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم ".
(٣) تفسير السمعاني:١٠٥/٣.
(٤) تفسير الطبري:٥٢٨/١٦.
(٥) تفسير ابن كثير:٤٨٠/٤.
(٦)صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٧)رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر/ باب تحريم الظلم من حديث أبي ذر، قال عنه الإمام أحمد: "هو أشرف حديث لأهل الشام""جامع العلوم الحكم" (٢/ ٣٤) ، وقد توسع الإمام ابن رجب في شرحه في كتاب "جامع العلوم والحكم".

قوله تعالى:{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ} [إبراهيم : ٩]، أي:" ألم يأتكم -يا أمَّة محمد- خبر الأمم التي سبقتكم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح"(١).

قال الزجاج:" أي: ألم يأتهم أخبار أولئك والنوازل بهم"(٢).

قال ابن جرير الطبري:" يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل موسى لقومه: يا قوم {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم} ، يقول: خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم {قومِ نوح وعاد وثمودَ}"(٣).

قال ابن كثير:" وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في "التوراة" ، والله أعلم"(٤).

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} [إبراهيم : ٩]، أي:" والأمم التي بعدهم، لا يحصي عددهم إلا الله"(٥).

قال البغوي:" يعني: من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود"(٦).

قال الطبري:" يقول: لا يحصي عَدَدهم ولا يعلَمُ مبلغهم إلا الله"(٧).

قال الزجاج:" فأعلم الله أن بعد هؤلاء أمما قد مضى من كان يعلم أنباءها، ومن هذا قيل: كذب النسابون لأنهم لا يعلمون من كان بعد هؤلاء. وهذا يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -"(٨).

قال ابن كثير:أي: "وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل"(٩).

وفي قوله تعالى:{وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ} [إبراهيم : ٩]، وجهان(١٠):

أحدهما : يعني بعد من قص ذكره من الأمم السالفة قرون وأمم لم يقصها على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لا يعلمهم إلا الله عالم ما في السموات والأرض.

عن عمرو بن ميمون: "{وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله} ، قال: كذَب النسَّابون"(١١).

الثاني : ما بين عدنان وإسماعيل من الآباء .

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: "بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون"(١٢).

قال عروو بن الزبير:" ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معد بن عدنان"(١٣).

قال الواحدي:" قال ابن الأنباري: فمن بني على هذه الآثار، قال مَنْ فوق عدنان منقطعة معرفتهم عن قلوب الناس، إلا من كان من الأنبياء الذين نوه الله بأسمائهم، وعلى قول هؤلاء: لا

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٢) معاني القرآن:١٥٥/٣.
(٣) تفسير الطبري:٤٢٩/١٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٨٠/٤-٤٨١.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٦) تفسير البغوي:٣٣٧/٤.
(٧) تفسير الطبري:٥٢٩/١٦.
(٨) معاني القرآن:١٥٥/٣-١٥٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٨٠/٤-٤٨١.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٢٤/٣.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠٥٩٠):ص٥٢٩/١٦.
(١٢)ورد بنصه في "معاني القرآن" للنحاس ٣/ ٥١٨، و"تفسير الماوردي" ٣/ ١٢٤، وانظر: "تفسير البغوي" ٤/ ٣٣٧، وأورده السيوطي في "الدر المنثور" ٤/ ١٣٥، وعزاه إلى أبي عبيد وابن المنذر. وهذه أوهى الطرق إلى ابن عباس.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٢٠):ص٢٢٣٦/٧.

يعرف النسابون أحدًا ممن قال الله تعالى: {لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ}، لأن الله تعالى أهلك أممًا من العرب وغيرها فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم وبطلت أنسابهم"(١).

وكان ابن مسعود يقرأ : "«وَعَادًا وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللهُ»، ثم يقول: كذب النسابون"(٢).

قال الزمخشري:" {والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله}، جملة من مبتدإ وخبر، وقعت اعتراضا: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. ولا يعلمهم إلا الله اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله"(٣).

قال الآلوسي:" قوله تعالى: لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ اعتراض أو الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره وجملة المبتدأ وخبره اعتراض، والمعنى على الوجهين أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ومعنى الاعتراض على الأول ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذي لا يحصى كثرة فتعتبروا بها إن في ذلك لمعتبرا، وعلى الثاني هو ترق، ومعناه: ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم كأنه يقول: دع التفصيل فإنه لا مطمع في الحصر، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل ولذا جعله الزمخشري(٤) أول الوجهين"(٥).

قوله تعالى:{جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [إبراهيم : ٩]، أي:" جاءتهم رسلهم بالبراهين الواضحات"(٦).

قال السمعاني:" أي: بالدلالات الواضحات"(٧).

قال الطبري:" يقول: جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله إليهم بدعائهم إلى إخلاص العبادة له {بالبينات}، يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من مُعْجِزاتٍ"(٨).
مُعْجِزاتٍ"(٨).

قال ابن كثير:" أتتهم رسلهم بالبينات ، أي : بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات"(٩).

قوله تعالى:{فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [إبراهيم : ٩]، أي:" فعضُّوا أيديهم غيظًا واستنكافًا عن قَبول الإيمان"(١٠).

وفي قوله تعالى:{فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [إبراهيم : ٩]، وجوه من التفسير:
أحدها : أنهم عضوا على أصابعهم تغيظاً عليهم ، قاله ابن مسعود(١١)، وابن زيد(١٢).

قال ابن زيد:" أدخلوا أصابعهم في أفواههم قال: وإذا غضب الإنسان، عض علي يده"(١٣).

واختار النحاس هذا القول، وقال:" والدليل على صحة هذا القول قوله عز وجل : {وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [آل عمران : ١١٩]، قال الشاعر(١٤):

---

(١) التفسير البسيط:١٢/٤١٠.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٥٩٢):ص١٦/٥٣٠.
(٣) الكشاف:٢/٥٤٢.
(٤) انظر: الكشاف:٢/٥٤٢.
(٥) روح المعاني:٧/١٨٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٧) تفسير السمعاني:٣/١٠٦.
(٨) تفسير الطبري:١٦/٥٣٠.
(٩) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٠-٤٨١.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٥٩٤)-(٢٠٦٠٣):ص١٦/٥٣١-٥٣٣، وتفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٢٣):ص٧/٢٢٣٧
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٠٤):ص١٦/٥٣٣.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٢٤):ص٧/٢٢٣٧.
(١٤) انظر: لسان العرب: ١٤/ ٣٤٨، و معاني القرآن للنحاس:٣/٥٢٠ .

لَوْ أنَّ سَلْمَى أبْصرَتْ تَخَدُّدِي ... ودِقَّةً في عَظْمِ سَاقِي ويَدِي
وبُعْدَ أهْلِي وجَفَاءَ عُوَّدِي ... عَضَّتْ مِنَ الوَجْدِ بأطْرافِ اليَدِ"[١]

واختاره القرطبي أيضا، وقال بأنه أصح الأقوال إسنادا[٢].

وقال ابن قتيبة:" أي عضوا عليها حنقا وغيظا. كما قال الشاعر[٣]:

يردون في فيه عشر الحسود

يعني: أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه العشر، ونحوه قول الهذلي[٤]:

قد افنى أنامله أزمه ... فأضحى يعض علي الوظيفا

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعض علي وظيف الذراع، وهكذا فسر هذا الحرف ابن مسعود واعتباره قوله عز وجل في موضع آخر: {وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ}"[٥].

الثاني : أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم ، قاله ابن عباس[٦].

وقال مقاتل:" يقول: وضع الكفار أيديهم في أفواههم"[٧].

الثالث : معناه: أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم إني رسول الله إليكم ، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم بأن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله ، قاله أبو صالح[٨]، وذكره الزجاج[٩].

وأخرج ابن ابي حاتم عن محمد بن كعب القرظي- رضي الله عنه- "{فردوا أيديهم في أفواههم}، قال: هو التكذيب"[١٠].

الرابع : معناه: أنهم كذبوهم بأفواههم، أي: ردوا عليهم قولهم وكذَّبوهم، قاله مجاهد[١١]، وقتادة[١٢].

قال قتادة:" يقول: قومُهم كذّبوا رسلهم وردُّوا عليهم ما جاءوا به من البينات، وردُّوا عليهم بأفواههم، وقالوا: إنا لفي شك مما تَدعوننا إليه مُرِيب"[١٣].

وقال قتادة:" ردوا على الرسل ما جاءت به"[١٤].

قال الطبري:" وكأنّ مجاهدًا وجَّه قوله: {فردُّوا أيديهم في أفواههم}، إلى معنى: ردُّوا أيادى الله التي لو قبلوها كانت أياديَ ونعمًا عندهم، فلم يقبلوها ووجَّه قوله: {في أفواههم} ، إلى معنى: بأفواههم، يعني: بألسنتهم التي في أفواههم، وقد ذكر عن بعض العرب سَماعًا:" أدخلك الله بالجنَّة"، يعنون: في الجنة، وينشد هذا البيت[١٥]:

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

---

(١) معاني القرآن:٥٢٠/٣.
(٢) انظر: تفسير القرطبي:٣٤٥/٩.
(٣)هكذا ذكره ابن قتيبة غير منسوب في المعاني الكبير ٨٣٤ وشرحه بقوله: "يعني أصابع يديه العشر يعضها غيظا عليهم وحنقا" والذي في تفسير القرطبي ٣٤٦/٩:
تردون في فيه غش الحسو ... د حتى يعض على الأكفا
يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه".
(٤)البيت لصخر الغي، كما في ديوان الهذليين ٧٣/٢ والمعاني الكبير لابن قتيبة ٨٣٤ والأزم: العض الشديد.
(٥) غريب القرآن:٢٣٠-٢٣١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٠٥):ص٥٣٣/١٦.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٩٩/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٢٤/٣.
(٩) انظر: معاني القرآن:١٥٦/٣.
(١٠) تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٢٥):ص٢٢٣٧/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٠٦)-(٢٠٦٠٨):ص٥٣٣/١٦-٥٣٤.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٠٩)، و(٢٠٦١٠):ص٥٣٤/١٦.
(١٣) أخرجخه الطبري(٢٠٦٠٩):ص٥٣٤/١٦.
(١٤) أخرجخه الطبري(٢٠٦١٠):ص٥٣٤/١٦.
(١٥)لم أعرف قائله. ومنشده هو الفراء، كما في اللسان (فيا).

يريد: وأرغب بها، يعنى بابنة له، عن لقيط، ولا أرغبُ بها عن قبيلتي"[١].
الخامس: أنهم كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل رداً لقولهم، قاله الحسن[٢].
السادس: أن «الأيدي» هي النعم ، ومعناه: أنهم ردوا نعمهم بأفواههم جحوداً لها. ذكره الماوردي[٣].
السابع: أن هذا مثل أريد به أنهم كفوا عن قبول الحق ولم يؤمنوا بالرسل، كما يقال لمن أمسك عن الجواب: رَدّ في فيه. وهذا قول أبي عبيدة[٤].

قال ابن قتيبة:" قال أبو عبيدة: تركوا ما أمروا به، ولم يسلموا، ولا أعلم أحدا قال: رد يده في فيه؛ إذا أمسك عن الشيء! "[٥].

وذكره الطبري عن آخرين[٦]، ثم قال:" وهذا أيضًا قول لا وَجْه له، لأن الله عزَّ ذكره، قد أخبر عنهم أنهم قالوا: " إنا كفرنا بما أرسلتم به"، فقد أجابوا بالتكذيب"[٧].

قال الطبري:" وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية، القولُ الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، فعضُّوا عليها، غيظاً على الرسل، كما وصف الله جل وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [سورة آل عمران: ١١٩] . فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم من :«ردِّ اليدِ إلى الفم»"[٨].

قوله تعالى:{وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} [إبراهيم : ٩]، أي:" وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به"[٩].

قال الطبري:" يقول عز وجل: وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أرسلكم به مَنْ أرسلكم، من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام"[١٠].

قوله تعالى:{وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [إبراهيم : ٩]، أي:" وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد موجب للريبة"[١١].

قال الطبري: أي:" {وإنا لفي شك} من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله {مُريب}، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يوجب لنا الريبَة والتُّهمَةَ فيه"[١٢].

الفوائد:

١- التذكير بقصص السابقين وأحوال الغابرين مشروع وفيه فوائد عظيمة.
٢- دعوة الرسل أممهم إلى إفراد الله بالعبادة.
٣- بيان الصراع الطويل بين الحق والباطل، بين الرسل الذين يعرضون الهدى والحق، وبين الضالين المعرضين عن التوحيد المتمسكين بما أَلْفَوْا عليه الآباء والأجداد، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة.

القرآن

---

(١) تفسير الطبري:١٦/٥٣٤-٥٣٥.
(٢) انظر: النكت والعيون:٣/١٢٥. وذكره الطبري في تفسيره:١٦/٥٣٥ عن آخرين دون نسبة.
(٣)انظر: النكت والعيون:٣/١٢٥.
(٤) انظر: مجاز القرآن:١/٣٣٦.
(٥) غريب القرآن:٢٣٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٦/٥٣٥.
(٧) تفسير الطبري:١٦/٥٣٥.
(٨) تفسير الطبري:١٦/٥٣٥-٥٣٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٠) تفسير الطبري:١٦/٥٣٦.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٢) تفسير الطبري:١٦/٥٣٦.

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)} [إبراهيم : ١٠]

التفسير:

قالت لهم رسلهم: أفي الله وعبادته -وحده- ريب، وهو خالق السموات والأرض، ومنشئهما من العدم على غير مثال سابق، وهو يدعوكم إلى الإيمان؛ ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك، ويدفع عنكم عذاب الاستئصال، فيؤخر بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدَّره، وهو نهاية آجالكم، فلا يعذبكم في الدنيا؟ فقالوا لرسلهم: ما نراكم إلا بشرًا صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلا. تريدون أن تمنعونا من عبادة ما كان يعبده آباونا من الأصنام والأوثان، فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون.

قوله تعالى:{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ} [إبراهيم : ١٠]، أي:" قالت لهم رسلهم: أفي الله وعبادته -وحده- ريب"[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قالت رُسل الأمم التي أتتها رسُلها: {أفي الله} -أنه المستحق عليكم، أيها الناس، الألوهة والعبادةَ دون جميع خلقه -{شك}"[(٢)].

قال الواحدي:" هذا استفهام إنكار، أي: لا شك في الله، والمعنى: في توحيد الله"[(٣)].

قال البغوي:" هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه"[(٤)].

وفي قوله تعالى:{أَفِي اللَّهِ شَكٌّ} [إبراهيم : ١٠]، ثلاثة وجوه:

أحدهما : أفي توحيد الله شك ؟ قاله قتادة[(٥)]، ومقاتل[(٦)].

الثاني : أفي طاعة الله شك ؟[(٧)].

والثالث : أفي قدرة الله شك ؟ لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها. أفاده الماوردي[(٨)].

قوله تعالى:{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم : ١٠]، أي:" وهو خالق السموات والأرض، ومنشئهما من العدم على غير مثال سابق"[(٩)].

قال مقاتل والطبري:" يعني: خالق السماوات والأرض"[(١٠)].

قال ابن عطية:" «الفاطر»: المخترع المبتدي، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكين يبين التوبيخ، أي: أيشك فيمن هذه صفته؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك"[(١١)].

قوله تعالى:{يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم : ١٠]، أي:" هو يدعوكم إلى الإيمان؛ ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك"[(١٢)].

قال الطبري:" يقول: يدعوكم إلى توحيده وطاعته، فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها"[(١٣)].

عن ابن جريج في قوله: "{يغفر لكم من ذنوبكم}، قال: الشرك"[(١٤)].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٢) تفسير الطبري:١٦/٥٣٦-٥٣٧.
(٣) التفسير الوسيط:٣/٢٥.
(٤)تفسير البغوي:٣/٣٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:٣/١٢٥.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٩٩.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣/١٢٥.
(٨) انظر: النكت والعيون:٣/١٢٥.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٣٩٩، وتفسير الطبري:١٦/٥٣٧.
(١١) المحرر الوجيز:٣/٣٢٧.
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٣) تفسير الطبري:١٦/٥٣٧.
(١٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور:٨/٢٨٩، وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر.

وفي قوله تعالى:{مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم : ١٠]، وجوه:
أحدهما : أن «من» زائدة ، وتقديره : ليغفر لكم ذنوبكم ، قاله أبو عبيدة[١].

قال أبو عبيدة: معناه: "ليغفر لكم ذنوبكم، و«من» من حروف الزوائد، وفى آية أخرى: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة : ٤٧]، مجازه: ما منكم أحد، وقال [أبو ذؤيب][٢]:

جزيتك ضعف الحبّ لما شكوته ... وما إن جزاك الضّعف من أحد قبلى

أي: أحد قبلى"[٣].

الثاني : ليست زائدة ، ومعناه: أن تكون المغفرة بدلاً من ذنوبكم، فخرجت مخرج البدل. ذكره الماوردي[٤].

الثالث: أنها للتبعيض، الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي. حكاه ابن عطية عن سيبويه[٥].

ورجّح ابن عطية القول الأخير، فقال: "وهو معنى صحيح، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأنفه أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتا عنه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى، فالغفران إنما نفذ به الوعد في البعض، فصح معنى {مِن}"[٦].

قوله تعالى:{وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [إبراهيم : ١٠]، أي:" فيؤخر بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدَّره، وهو نهاية آجالكم، فلا يعذبكم في الدنيا؟"[٧].

قال الطبري:" يقول: وينسئ في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجل الذي سمَّى لكم"[٨].

قوله تعالى:{قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [إبراهيم : ١٠]، أي:" فقالوا لرسلهم: ما نراكم إلا بشرًا صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلا"[٩].

قال الطبري:" فقالت الأمم لهم: {إن أنتم}، أيها القوم {إلا بشرٌ مثلنا}، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة"[١٠].

قوله تعالى:{تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [إبراهيم : ١٠]، أي:" تريدون أن تمنعونا من عبادة ما كان يعبده آباونا من الأصنام والأوثان"[١١].

قال الطبري:" يقول: إنما تريدون أن تصرِفونا بقولكم عن عبادة ما كان يعبدُه من الأوثان آباؤنا"[١٢].

قوله تعالى:{فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم : ١٠]، أي:" فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون"[١٣].

قال الطبري:" يقول: فأتونا بحجة على ما تقولون تُبين لنا حقيقتَه وصحتَه، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون"[١٤].

الفوائد:

---

(١) انظر: مجاز القرآن:/٣٣٦.
(٢)ديوان الهذليين: ١/ ٣٥.
(٣)مجاز القرآن:/٣٣٦.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٢٦/٣.
(٥) انظر: المحرر الوجيز:٣٢٧/٣.
(٦) المحرر الوجيز:٣٢٧/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٦.
(٨) تفسير الطبري:٥٣٧/١٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٠) تفسير الطبري:٥٣٧/١٦.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٢) تفسير الطبري:٥٣٧/١٦.
(١٣) التفسير الميسر:٢٥٦.
(١٤) تفسير الطبري:٥٣٧/١٦.

١- بطلان الشك في وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ووجوب عبادته وحده وذلك لكثرة الأدلة وقوة الحجج، وسطوع البراهين.
٢- بيان ما كان أهل الكفر يقابلون به رسل الله والدعاة إليه سبحانه وتعالى وما كانت الرسل ترد به عليهم.
٣- لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التي جاءهم بها الأنبياء، قولهم: {تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}، ومنه قوله تعالى:{إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} [الزخرف: ٢٢]، وهي مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي ولا يعرف معالم الطريق.
إنها: طبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوي في معرض النقد والتفكير[١].

القرآن

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)} [إبراهيم : ١١]

التفسير:

ولما سمع الرسل ما قاله أقوامهم قالوا لهم: حقًا ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم، ولكن الله يتفضل بإنعامه على مَن يشاء من عباده فيصطفيهم لرسالته، وما طلبتم من البرهان المبين، فلا يمكن لنا ولا نستطيع أن نأتيكم به إلا بإذن الله وتوفيقه، وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون في كل أمورهم.

قوله تعالى:{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [إبراهيم : ١١]، أي:" قالت الرسل: نحن كما قلتم بشر مثلكم"[٢].

قال القرطبي:" أي: في الصورة والهيئة كما قلتم"[٣].

قال ابن عطية:" المعنى: صدقتم في قولكم، أي: بشر مثلكم في الأشخاص والخلقة "[٤].

قال الطبري:أي:" صدقتم في قولكم: «إن أنتم إلا بشر مثلنا»، فما نحنُ إلا بَشَر من بني آدم، إنسٌ مثلكم"[٥].

قال السعدي: أي:" مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: {إن نحن إلا بشر مثلكم} أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم"[٦].

قال الزمخشري:" {إن نحن إلا بشر مثلكم}، تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعا منهم"[٧].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم : ١١]، أي:" ولكن الله يتفضل بإنعامه على مَن يشاء من عباده فيصطفيهم لرسالته"[٨].

قال الطبري:" يقُول: ولكن الله يتفضل على من يشاء من خلقه، فيهديه ويوفقه للحقّ، ويفضّله على كثير من خلقه"[٩].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن :٤/٢٠٩١، ٥/ ٣١٨٢.
(٢) صفوة التفاسير:٢/٨٥.
(٣) تفسير القرطبي:٩/٣٤٧.
(٤) المحرر الوجيز:٣/٣٢٨.
(٥) تفسير الطبري:١٦/٥٣٨.
(٦) تفسير السعدي:٤٢٢.
(٧) الكشاف:٣/٥٤٤.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٧.
(٩) تفسير الطبري:١٦/٥٣٨.

قال ابن عطية:أي:" لكن تباينا بفضل الله ومنه الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم في المعنى بخلاف قوله تعالى: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ [المدثر: ٥٠]، فإن ذلك في المعنى لا في الهيئة"(١).

قال السعدي: " {ولكن} ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن {الله يمن على من يشاء من عباده} فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله، فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به"(٢).

قال الزمخشري:" واقتصروا على قولهم :{ولكن الله يمن على من يشاء من عباده} بالنبوة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم "(٣).

وقال سهل بن عبدالله التستري:" قوله تعالى: {ولكن الله يمن على من يشاء}، يعني: بتلاوة كتابه والفهم فيه"(٤). قال القرطبي:" وهذا قول حسن"(٥).

قال القرطبي:"أي: يتفضل عليه بالنبوة. وقيل، بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية...وقد خرج الطبري من حديث ابن عمر قال: «قلت لأبي ذر: يا عم أوصني، قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال:" ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره»(٦)"(٧).

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [إبراهيم : ١١]، أي:" وما طلبتم من البرهان المبين، فلا يمكن لنا ولا نستطيع أن نأتيكم به إلا بإذن الله وتوفيقه"(٨).

قال الطبري:" يقول: وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه، إلا بأمر الله لنا بذلك"(٩).

قال الزمخشري:" أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله"(١٠).

قال القرطبي:" أي: لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه"(١١).

قال السعدي: " وقولكم: {فأتونا بسلطان مبين} فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء"(١٢).

قال مجاهد:" «السلطان المبين»، البرهان والبينة، وقوله: {مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا} [سورة آل عمران: ١٥١ / سورة الأعراف: ٧ / سورة الحج: ٧١] ، قال: بينَةً وبرهانًا"(١).

---

(١) المحرر الوجيز:٣٢٨/٣.
(٢) تفسير السعدي:٤٢٢.
(٣) الكشاف:٥٤٤/٣.
(٤) تفسير التستري:٨٦.
(٥) تفسير القرطبي:٣٤٧/٩.
(٦)أخرجه البزار (٣٣٥/٩، رقم ٣٨٩٠) قال الهيثمى (٢٣٧/٢) : فيه حسين بن عطاء ضعفه أبو حاتم وغيره وغيره وذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخطئ ويدلس. وأخرجه أيضا: البيهقى (٤٨/٣، رقم ٤٦٨٥) ، وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى.
ونص الحديث:« إن صليت الضحى ركعتين لم تكتب من الغافلين وإن صليت أربعا كتبت من العابدين وإن صليت ستا لم يلحقك ذنب وإن صليت ثمانيا كتبت من القانتين وإن صليت ثنتى عشرة ركعة بنى لك بيت فى الجنة وما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيها صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من على عبد بمثل أن يلهمه ذكره».
(٧) تفسير القرطبي:٣٤٧/٩.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٧.
(٩) تفسير الطبري:٥٣٨/١٦.
(١٠) الكشاف:٥٤٤/٣.
(١١) تفسير القرطبي:٣٤٧/٩.
(١٢) تفسير السعدي:٤٢٢.

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم : ١١]، أي:" وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون في كل أمورهم"(٢).

قال الطبري:" يقول: وبالله فليثق به من آمن به وأطاعه، فإنا به نثق، وعليه نتوكل"(٣).

اللام في قوله: «ليتوكل» لام الأمر. وقرأها الجمهور ساكنة وقرأها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها. وتسكينها طلب التخفيف، ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين لام كي التي ألزمت الحركة إجماعا(٤).

الفوائد:

١- الإيمان بأن الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء. وإنما هم عباد أكرمهم الله بالرسالة.

٢- تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل، كقولهم:{إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا}[إبراهيم: ١٠]، وقولهم:{ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً}[المؤمنون: ٢٤]، فقد رد عليهم القرآن بمثل قوله تعالى:{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ}[إبراهيم: ١١]، ومثل قوله تعالى:{قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [الإسراء: ٩٥].

٣- وجوب التوكل على الله تعالى، وعدم صحة التوكل على غيره إذ لا كافي إلا الله.

٤- ليست النبوة هى معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبى ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعمله ولا إلى العلم بربه فإن ذلك مما يثبت قبل النبوة ولا إلى علمه بنبوته إذ العلم بالشئ غير الشئ {ولكن الله يمن على من يشاء من عباده} فليست إلا موهبة من الله تعالى ونعمة منه على عبده(٥).

٥- أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من خلقه.

والفضل: هو العطاء والنعمة، وهو بيد الله سبحانه يؤتيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وليس الفضل خاصاً بالمال، ولا بالشهوات، ولا بالنعم، ولا بالخيرات، ولا بالمال والبنين، بل الفضل في الأصل هو الهداية والإلهام والتوفيق للعبادة، وللإيمان الصادق، قال تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١]، فلا يعترض على الله في أن خص بالفضل قوماً دون قوم، ولما قال المكذبون لرسلهم: {إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم:١٠-١١] لا شك أن هدايته لهم منة عليهم، والله عزوجل له المن وله الفضل(٦).

٦- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الله -تعالى- له المشيئة النافذة في خلقه، وان ما وقع من الطاعات والمعاصي إنما وقع بمشيئة الله لذلك، ولو شاء أن لا تقع لم تقع وأن مشيئته هي الموجبة لوقوع الفعل، قال تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠، والتكوير : ٢٩]، {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُون} [البقرة : ٧٠]، وغيرها من الآيات(٧).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٦١٠م):ص٥٣٨/١٦.

(٢) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٣) تفسير الطبري:٥٣٨/١٦.

(٤) انظرك المحرر الجيز:٣٢٩/٣.

(٥) انظر: غاية المرام في علم الكلام:٣١٧.

(٦) انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين(٧١): دروس صوتية مرقم آلبا]..

(٧) فمن الفاظ «المشيئة» في القرآن الكريم:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [الْبَقَرَةِ: ٢٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آلِ

إذ ربط الله جل وعلا وقوع الفعل بمشيئته سواء في ذلك ما يتعلق بمصير العبد في الآخرة، أعني بذلك الهداية، أو الضلال أو سائر أفعاله، فهذا دليل على أن ما وقع

عِمْرَانَ: ٤٠] وَقَالَ: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [الْأَنْعَامِ: ١٣٧] {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يُونُسَ: ٩٩] {لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [هُودٍ: ١١٨] {لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١] {لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [الْأَنْعَامِ: ٣٥] {لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} [السَّجْدَةِ: ١٣] {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [مُحَمَّدٍ: ٤] {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الْإِسْرَاءِ: ٨٦] {فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ} [الشُّورَى: ٢٤] {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النِّسَاءِ: ١٣٣] {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [الْفَتْحِ: ٢٧] {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ} [هُودٍ: ٣٣] وَقَوْلُهُ عَنْ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الْأَنْعَامِ: ٨٠] وَقَوْلُهُ عَنِ الذَّبِيحِ: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصَّافَّاتِ: ١٠٢] وَقَوْلُهُ عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الْأَعْرَافِ: ٩٨] وَقَوْلُهُ عَنْ يُوسُفَ: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يُوسُفَ: ٩٩] وَقَوْلُهُ عَنْ مُوسَى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا} [الْكَهْفِ: ٦٩] وَقَوْلُهُ عَنْ قَوْمِ مُوسَى: {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} [الْبَقَرَةِ: ٧٠] وَقَوْلُهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الْكَهْفِ: ٢٤] {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [يُونُسَ: ٤٩] وَقَالَ: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هُودٍ: ١٠٧] وَعَنْ أَهْلِ النَّارِ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَالَ: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} [الْإِسْرَاءِ: ٥٤] وَقَالَ: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [الْمَائِدَةِ: ٤٠] وَقَالَ: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} [الشُّورَى: ٢٧] وَقَالَ: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الْإِسْرَاءِ: ٣٠] وَقَالَ: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرَّعْدِ: ٣٩] وَقَالَ: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يُونُسَ: ١٦] وَقَالَ: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} [الْإِنْسَانِ: ٢٨] وَقَالَ: {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الْمُدَّثِّرِ: ٥٦] وَقَالَ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الْإِنْسَانِ: ٣٠] فَأَخْبَرَ أَنَّ مَشِيئَتَهُمْ وَفِعْلَهُمْ مَوْقُوفَانِ عَلَى مَشِيئَتِهِ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا. وَقَالَ: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آلِ عِمْرَانَ: ٢٦] وَقَالَ: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [الْأَحْزَابِ: ٢٤] وَقَالَ: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آلِ عِمْرَانَ: ٧٤] وَقَالَ: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النُّورِ: ٢١] وَقَالَ: {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} [الْبَقَرَةِ: ٢٦١] وَقَالَ: {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ} [يُوسُفَ: ٥٦] وَقَالَ: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} [يُوسُفَ: ٧٦] وَقَالَ: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [يُوسُفَ: ٥٦] وَقَالَ: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إِبْرَاهِيمَ: ١١] وَقَالَ: {فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: ١١٠] وقال: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ} [الرُّومِ: ٤٨] وَقَالَ: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} [يُوسُفَ: ١٠٠] وَقَالَ: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} [الْبَقَرَةِ: ٢٩٩] وَقَالَ: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} [يس: ٦٦] ، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} [الْبَقَرَةِ: ٢٠] وَقَالَ: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ} [الشُّورَى: ٣٣] وَقَالَ: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} [الْوَاقِعَةِ: ٦٥] ، {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} [الْوَاقِعَةِ: ٧٠] وَقَالَ: {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ} [التَّوْبَةِ: ٢٨] وَقَالَ: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [فَاطِرٍ: ١٦] {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ} [الْأَنْعَامِ: ١٣٣] {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ} [الْبَقَرَةِ: ٢٢] {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ} [الشُّورَى: ١٣] {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} [الْبَقَرَةِ: ٢٦١] {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [الْقَصَصِ: ٦٨] {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} [الشُّورَى: ٤٩] ، {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ} [الشُّورَى: ٥٢] {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آلِ عِمْرَانَ: ٦] {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الِانْفِطَارِ: ٨] {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إِبْرَاهِيمَ: ١١] {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ} [الشُّورَى: ١٩] {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [الْقَصَصِ: ٨٢] وغير ذلك من الآيات.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ساق نحوا من هذه الآيات: وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو سبحانه يخبر تارة أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عصي وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه {رب العالمين} وكونه القيوم القائم بتدبير أمور عباده، فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا ضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره".[انظر كلامه هذا وغيره في "طريق الهجرتين" في فصل في بيان أن المنفعة والمضرة لا تكون إلا من الله وحده]

.

من الأفعال إنما وقع بمشيئة الله، وما لم يقع إنما لم يقع لأن الله لم يشأه، سواء في ذلك الطاعة أو المعصية أو ما ليس بطاعة ولا معصية من المباحات، والمشيئة عند أهل السنة لا يلزم منها الحب والرضا وإنما تتعلق بالإرادة الكونية القدرية التي لا يخرج شيء في الوجود عنها سواء كان طاعة أو معصية، فإذا كان الفعل طاعة فإنه يكون واقعاً بمشيئة الله وبحبه ورضاه وإذا كان معصية فإنه يكون واقعاً بمشيئة الله وعدم حبه ورضاه لذلك(١).

والأحاديث من السنة النبوية في إثبات المشيئة كثيرة جدا، منها:

- قوله -ﷺ- في شأن الجنين: "فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك"(٢).
- وقوله: "اشفعوا تأجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء"(٣).
- "إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء" (٤).
- "إن الله لو شاء لم تناموا عنها، ولكنه أراد ليكون لمن بعدكم" (٥).
- "قولوا ما شاء الله وحده" (٦).
- "قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء" (٧).
- "ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه" (٨).
- وكان -ﷺ- يقول: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك"(٩).
- وقوله عن الله عز وجل: "فذلك فضلي أوتيه من أشاء" (١٠).
- وقوله: "مثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء"(١١).
- وقوله: "تعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله عز وجل سحائب من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده"(١٢).
- وقوله في حديث البيعة: "ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله عز وجل، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له" (١٣).

---

(١)انظر للاستزادة من الأدلة والتوضيح: شفاء العليل لابن القيم - رحمه الله - ٤٣-٤٩.

(٢)هذه اللفظة عند مسلم دون البخاري "٤/ ٢٠٣٧/ ح٢٦٤٥" في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣)البخاري "١٣/ ٤٤٨" في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة.
ومسلم "٤/ ٢٠٢٦/ ح٢٦٢٧" في البر والصلة، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤)البخاري "١٣/ ٤٤٧" في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة وغيره.

(٥)رواه بهذا اللفظ البيهقي في دلائل النبوة "٤/ ١٥٥". ورواه أحمد في مسنده "١/ ٣٩١" بلفظ: لو أراد.
وفي سنده المسعودي وقد رواه عنه يزيد بن زريع عند أحمد ويونس بن بكير عند البيهقي. وأصل الحديث عند البخاري دون هذه الزيادة.

(٦)أحمد "١/ ٢١٤ و٢٢٤ و٢٨٣" وسنده صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧)أخرجه مسلم "٤/ ٢٠٤٥/ ح٢٦٥٤" في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

(٨)أحمد "٢/ ١٨٢" وابن ماجه "١/ ٧٢/ ح١٩٩" من حديث النواس بن سمعان وسنده صحيح.

(٩)الترمذي "٤/ ٤٤٨/ ح٢١٤٠" في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن وقال هذا حديث حسن وهو كما قال.

(١٠)البخاري "٢/ ٣٨" في المواقيت، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١١)البخاري "١٣/ ٤٤٦" في التوحيد، باب في المشيئة.
ومسلم "٤/ ٢١٦٣/ ح٢٨٠٩" في صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٢) . رواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة "ص٢٤" والبيهقي في شعب الإيمان "الكنز ح٣١٨٩" من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف.
وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الفرج بعد الشدة من حديث أنس وهو غلط وهو كما بيناه وكذا قال العراقي في تخريج الأحياء "١/ ١٦٨"

(١٣)البخاري "٧/ ٢١٩" في مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي بمكة وبيعة العقبة من حديث عبادة

- وفي حديث احتجاج الجنة والنار قوله تعالى للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء" وللنار: "أنت عذابي أعذب بك من أشاء" (١).
- وقوله ﷺ: "لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت وارزقني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله تعالى لا مكره له" (٢).
- وقوله: "ولكن قل قدر الله وما شاء فعل" (٣).
- وقوله عن الله عز وجل: "ذلك بأني جواد أفعل ما أشاء، عطائي كلام وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون"(٤).
- وقوله: "ما أنعم الله على عبد من نعمة من أهل وولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آية دون الموت"(٥).
- وفي حديث الشفاعة: "فيدعني ما شاء الله أن يدعني"(٦).
- وفي حديث "آخر أهل الجنة دخولا الجنة": "فيسكت ما شاء الله أن يسكت" (٧)؟
- وفيه قوله تعالى: "لا أهزأ بك ولكني على ما أشاء قدير" (٨).
- وقال: "فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي" (٩).
- وقال: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد" (١٠).
- وقال: "إني لأطمع أن يكون حوضي إن شاء الله ما بين أيلة إلى كذا" (١١).
- وقال في المدينة: "لا يدخلها الطاعون ولا الدجال إن شاء الله تعالى" (١٢).
- وفي زيارة القبور: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" (١٣).
- وفي حصار الطائف، "إنا قافلون غدا إن شاء الله" (١٤).
- وفي قدومه مكة: "منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة" (١).

بن الصامت.

(١)البخاري "٨/ ٥٩٥" في التفسير، باب وتقول هل من مزيد.
ومسلم "٤/ ٢١٨٦/ ح٢٨٤٦" في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون.

(٢)البخاري "١٣/ ٤٤٨" في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة.
والترمذي "٥/ ٥٢٦/ ح٣٤٩٧" في الدعوات، باب ٧٨. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣)مسلم "٤/ ٢٠٥٢/ ح٢٦٦٤" في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز. وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤)أحمد "٥/ ١٥٤ و١٧٧" والترمذي "٤/ ٦٥٦/ ح٢٤٩٥" في صفة القيامة باب ٤٨. وابن ماجه "٢/ ١٤٢٢/ ح٤٢٥٧" في الزهد، باب ذكر التوبة من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٥)رواه الطبراني في الصغير "١/ ٢١٢" والأوسط "مجمع الزوائد /١٠/ ١٤٣" وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف.

(٦)البخاري "١٣/ ٣٩٢" في التوحيد باب قوله تعالى: {لما خلقت بيدي} ومسلم "١/ ١٨٠/ ح١٩٣" في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧)البخاري "٢/ ٢٩٢" في الأذان في باب فضل السجود. ومسلم "١/ ١٦٣-١٦٦/ ح١٨٢" في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) . مسلم "١/ ١٧٤-١٧٥/ ح١٨٧" في الإيمان باب آخر أهل النار خروجا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(٩)البخاري "١١/ ٩٦" في الدعوات باب لكل نبي دعوة مستجابة ومسلم "١/ ١١٨ ح١٩٨" في الإيمان باب اختباء النبي -صلى الله عليه وسلم- دعوة الشفاعة لأمته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠)مسلم "٤/ ١٩٤/ ح٢٤٩٦" في فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم من حديث أم مبشر رضي الله عنهما.

(١١)رواه البيهقي في الأسماء والصفات "ص٢١٤" وإسناده على شرط الشيخين "وفيه ما بين أبلة ودمشق" من حديث أبي هريرة.

(١٢)البخاري "١٣/ ٤٤٧" في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة.

(١٣)مسلم "٢/ ٦٦٩/ ح٩٧٤" في الجنائز، باب ما يقال عند دخول المقابر.

(١٤)البخاري "١٣/ ٤٤٨" في التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ومسلم "٣/ ١٤٠٢-١٤٠٣/ ح١٧٧٨" في الجهاد والسير، باب غزوة الطائف.

- وفي قصة بدر: " هذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله"[٢].
- وفي بعض أسفاره: "إنكم تأتون الماء غدا إن شاء الله"[٣].
- وقال: "من حلف فقال: إن شاء الله فإن شاء مضى وإن شاء رجع غير حنث" [٤].
- وقال: "لأغزون قريشا" ثم قال: في الثانية: "إن شاء الله" [٥].
- وقال: "ألا مشمر للجنة" فقال الصحابة نحن المشمرون لها يا رسول الله فقال: "قولوا: إن شاء الله" قالوا: إن شاء الله[٦].

وغير ذلك من الأحاديث الثابتة.

القرآن

{وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)} [إبراهيم : ١٢]

التفسير:

وكيف لا نعتمد على الله، وهو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه؟ ولنصبرنَّ على إيذائكم لنا بالكلام السيئ وغيره، وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم، وهزيمة أعدائهم.

قوله تعالى:{وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [إبراهيم : ١٢]، أي:" وكيف لا نعتمد على الله، وهو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه؟"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قِيل الرسل لأممها: {وما لنا أن لا نتوكل على الله} ، فنثق به وبكفايته ودفاعه إياكم عنَّا، وقد بَصَّرنا طريقَ النجاة من عذابه، فبين لنا"[٨].

قال الماتريدي:" أي: ما لنا ألا نتوكل عليه في النصر والظفر عليكم؛ وقد وفقنا وأكرمنا السلوك في السبل التي علينا سلوكها، وذلك أعسر من القيام للأعداء والنصر بهم؛ وقد أكرمنا ما هو أعسر وأعظم؛ فإن ينصرنا أولى"[٩].

---

(١)مسلم "٤/ ٢٢٠٢-٢٢٠٣/ ح٢٨٧٣" في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

(٢) أخرجه احمد(١٨٢):ص٣١٣/١-٣١٤، والنسائي ٤ / ١٠٨ عن عمرو بن علي، عن يحيى، بهذا الإسناد، وأخرجه الطيالسي (٤٠) ، ومسلم (٢٨٧٣) ، والبزار (٢٢٢) ، وأبو يعلى (١٤٠) من طرق عن سليمان بن المغيرة، به.
إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣)هي عين ماء تبوك وقد قالها -صلى الله عليه وسلم- في غزوة تبوك رواه مسلم "٤/ ١٧٨٤/ ح٧٠٦" في الفضائل، باب معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم- من حديث رجاء بن حيوة.

(٤)رواه أبو داود "٣/ ٢٢٥/ ح٣٢٦٢" في الإيمان والنذور، باب الاستثناء في اليمين.
وابن ماجه "١/ ٦٨٠/ ح٢١٠٥" في الكفارات، باب الاستثناء في اليمين ولكن بلفظ: من حلف واستثنى. وسنده حسن.

(٥)أبو داود "٣/ ٢٣١/ ح٣٢٨٥" في الإيمان، باب الاستثناء في اليمين بعد السكوت. من رواية عكرمة مرسلا.
وقال: وقد أسند هذا الحديث غير واحد عن شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس.
قال أبو حاتم: والمرسل أشبه "العلل ١/ ٤٤٠".
وفي سنده شريك القاضي وهو ضعيف.

(٦)رواه ابن ماجه "٢/ ١٤٤٨ "١٤٤٩/ ح٤٣٣٢" وابن حبان في صحيحه "موارد٢٦٢٠" والفسوي في المعرفة والتاريخ "١/ ٣٠٤".
وسنده ضعيف فيه الضحاك المعافري: مجهول، وسليمان بن موسى الأشدق في حديثه بعض لين وخولط قبل موته بقليل.

(٧) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٨) تفسير الطبري:٥٣٩/١٦.

(٩) تأويلات أهل السنة:٣٧٣/٦.

قال الزمخشري:" معناه: وأى عذر لنا في أن لا نتوكل عليه {وقد هدانا}، وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين"[١]. الدين"[١].

قال القرطبي:" أي شي لنا في ترك التوكل على الله، {وقد هدانا سبلنا}، أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته"[٢].

قال ابن عطية:" قوله: {ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ} الآية، وقفتهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في أن لا يتوكلوا على الله، وهو قد أنعم عليهم وهداهم طريق النجاة وفضلهم على خلقه"[٣].

قوله تعالى:{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} [إبراهيم : ١٢]، أي:" ولنصبرنَّ على إيذائكم لنا بالكلام السيئ وغيره"[٤].

قال الطبري:"أي: في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دُعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه، من البراءة من الأوثان والأصنام، وإخلاص العبادة له"[٥].

قال ابن عطية:" ثم أقسموا أن يقع منهم الصبر على الإذاية في ذات الله تعالى"[٦].

قال القرطبي:" {ولنصبرن} «لام» قسم، مجازه: والله لنصبرن {على ما آذيتمونا} به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا"[٧].

قال البيضاوي:" أي: حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم"[٨].

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم : ١٢]، أي:" وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم، وهزيمة أعدائهم"[٩].

قال الطبري:" يقول: وعلى الله فليتوكل من كان به واثقًا من خلقه، فأما من كان به كافرًا فإنّ وليَّه الشيطان"[١٠].

قال البيضاوي:" أي: فليثبت المتوكلون على توكلهم، حتى لا يكون تكرار"[١١].

قال الزمخشري:" {وعلى الله فليتوكل المؤمنون}، أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجرى علينا منكم"[١٢].

قال الماتريدي:قوله " {وعلى الله فليتوكل المتوكلون}، كأنه يخرج على الأمر؛ أي: على الله فتوكلوا؛ لا تتوكلوا على غيره، ويشبه أن يكون على الخبر؛ أي: لا يتوكل المؤمن إلا على الله؛ لا يتوكل على غيره؛ كقول الرسول حيث قال: {إني توكلت على الله. . .} الآية، وهو قول هود، وقول المؤمنين: {على الله توكلنا ربنا افتح بيننا. . .} الآية، ونحوه"[١٣].

فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟

---

(١) الكشاف:٥٤٤/٣.
(٢) تفسير القرطبي:٣٤٨/٩.
(٣) المحرر الوجيز:٣٢٩/٣.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٧.
(٥) تفسير الطبري:٥٣٩/١٦.
(٦) المحرر الوجيز:٣٢٩/٣.
(٧) تفسير القرطبي:٣٤٨/٩.
(٨) تفسير البيضاوي:١٦٦/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٧.
(١٠) تفسير الطبري:٥٣٩/١٦.
(١١) تفسير البيضاوي:١٦٦/٢.
(١٢) الكشاف:٥٤٤/٣.
(١٣) تأويلات أهل السنة:٣٧٣/٦.

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله {فليتوكل المتوكلون}، معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم[١].

الفوائد:

١- وجوب الصبر على الأذى في سبيل الله وانتظار الفرج بأخذ الظالمين.

٢- جملة التوكل :"تفويض الأمر إلى الله عز وجل والثقة بحسن النظر فيما أمر به وأباحه"[٢].

٣- اقتران التوكل بالهداية، يدل عليه قول رسل الله عليهم الصلاة والسلام لأممهم: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}، فالعبد إذا سلك طريق الحق والهدى يكون قوياً في توكله على ربه ـ تبارك تعالى ـ ومن اعتمد على ربه كفاه كلما أهمه وما لم يهمه قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال:٦٧].

٤- دلت هذه الآية على أن الجمع بين التوكل والهداية من تحقق الإيمان، ومصيبة الإنسان إما من عدم الهداية وإما من عدم توكله على الله، كما دلت أيضاً على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كان حالهم التوكل على الله وحده، والقرآن مملوء بذكر التوكل إما أمراً به، وإما إخباراً عن خاصة الله وأوليائه وهم المؤمنون بأنهم حققوا عبودية التوكل، وقد أمر الله نبيه وخاتم رسله بالتوكل عليه في مواضع كثيرة من كتابه وسماه المتوكل كما روى ذلك البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً} [إبراهيم:١٢] قال في التوراة: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ[٣] ولا سخاب[٤] بالأسواق ... " الحديث[٥].

وقد أخبر النبي ﷺ عن السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب بأن لهم النصيب الأوفر في تحقيق مقام التوكل.

روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" [٦].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذا الحديث: "إن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء هو دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون، والطِّيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره وتركهم الإسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله"[٧].

القرآن

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣)} [إبراهيم : ١٣]

التفسير:

وضاقت صدور الكفار مما قاله الرسل فقالوا لهم: لنطردنكم من بلادنا حتى تعودوا إلى ديننا، فأوحى الله إلى رسله أنه سيهلك الجاحدين الذين كفروا به وبرسله.

---

(١) انظر: الكشاف:٥٤٤/٣.
(٢) المنهاج في شعب الإيمان:٥/٢.
(٣)الفظ: سيء الخلق، وفلان أفظ من فلان أي أصعب خلقاً ـ والمراد هنا: أنه صلى الله عليه وسلم رفيقاً بأمته في التبليغ غير فظ ولا غليظ. النهاية ٤٥٩/٣.
(٤)السَّخب والصخب: بمعنى الصياح. النهاية ٣٤٩/٢.
(٥)صحيح البخاري ١٨٩/٣ ـ ١٩٠، المسند ١٧٤/٢.
(٦)صحيح البخاري مع الفتح ٣٠٥/١١.
(٧)حادي الأرواح ص٨٩.

قوله تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم : ١٣]، أي:" وقال الكفار للرسل: لنطردنكم من بلادنا حتى تعودوا إلى ديننا"(١).

قال الطبري:" يقول عزّ ذكره: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان {لنخرجنَّكم من أرضنا} ، يعنون: من بلادنا فنطردكم عنها {أو لتعودن في مِلَّتنا}، يعنون: إلا أن تَعُودوا في دِيننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام"(٢).

قال أبو الليث السمرقندي:{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، "قول: لتدخلن في ديننا، فهذا، كله تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل"(٣).

قال البغوي:"{ أو لتعودن في ملتنا}، يعنون: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا"(٤).

قال البيضاوي:" حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد"(٥).

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم ، من الإخراج من أرضهم ، والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : { لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } [الأعراف : ٨٨] ، وقال قوم لوط : { أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : ٥٦] ، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش : { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا } [الإسراء : ٧٦] ، وقال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال : ٣٠].

وكان من صنعه تعالى : أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندا ، يقاتلون في سبيل الله ، ولم يزل يرقيه الله تعالى من شيء إلى شيء ، حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكن له فيها ، وأرغم آناف أعدائه منهم ، ومن سائر أهل الأرض ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان ، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان"(٦).

قال الزمخشري:" ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين «٢» على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد لنهلكن الظالمين حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه"(٧).

قوله تعالى:{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم : ١٣]، أي:" فأوحى الله إلى رسله أنه سيهلك الجاحدين الذين كفروا به وبرسله"(٨).

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: أوحى الله تعالى إلى الرسل لنهلكن الظالمين فهذا لام القسم، ويراد به: التأكيد للكلام، أن يهلك الكافرين من قومهم"(١).

---

(١) انظر: التفسير الميسر:٢٥٧، وصفوة التفاسير:٨٦/٢.
(٢) تفسير الطبري:٥٣٩/١٦-٥٤٠.
(٣) بحر العلوم:٢٣٧/٢.
(٤) تفسير البغوي:٣٣٩/٤.
(٥) تفسير البيضاوي:١٩٥/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٨٣/٤.
(٧) الكشاف:٥٤٤/٢-٥٤٥.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٧.

وقرأ أبو حيوة: «ليهلكن»، بالياء[2].

الفوائد:

١- عاقبة الظلم وهي الخسران والدمار لا تتبدل ولا تتخلف وإن طال الزمن.

٢- ربط القرآن الكريم بين الظلم والإهلاك، وهذا ما نقرأه في أكثر من آية. قال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: ١٣] ، {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف: ٥٦]، {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٣٩] .

وهذه إحدى السنن الكونية في الاجتماع البشري، وهي لا تتخلف أبدا، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولا يغيب عن الذهن أن السنن الكونية لا علاقة لها بالدين أو الثقافة، فمتى وجدت أسبابها وقعت النتائج، سواء كانت الأسباب في أمة كافرة أو أمة مسلمة؛ لأن أسباب استقرار الملك أو انهياره لا علاقة له بدين ولا ثقافة. ولذلك كان من مواريث أمتنا أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وهذا أمر ينبغي أن يستقر في أذهان الجميع حتى إذا نظر المسلم المعاصر حوله في شرق البلاد وغربها، فوجد بلاد أوروبا وأمريكا قد استقرت فيها الممالك وازدهرت فيها مظاهر العمران، وسادت لغة العلم فلا يعتبر ذلك خروجا عن السنن الإلهية في الكون، فهذا أمر طبيعي، حيث ساد العدل واختفى الظلم، وأصبح العالم آمنا في بيته، وآمنا على عرضه، وآمنا على ماله، وكان للإنسان هناك قيمة، ولكلمة العلم وصوت العالم أثر، وتلك مؤشرات الاستقرار والأمان[3].

القرآن

{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [إبراهيم : ١٤]

التفسير:

ولنجعلن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، ذلك الإهلاك للكفار، وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لمن خاف مقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخشي وعيدي وعذابي.

قوله تعالى:{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} [إبراهيم : ١٤]، أي:" ولنجعلن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم"[4].

قال البيضاوي:" أي أرضهم وديارهم، كقوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف : ١٣٧] "[5].

قال البغوي:" أي: من بعد هلاكهم"[6].

قال السمعاني:" يعني: نجعل ديارهم موضع سكناكم، وهذا في معنى قوله تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم : ٤٥]"[7].

قال الطبري:" هذا وعدٌ من الله مَنْ وَعد من أنبيائه النصرَ على الكَفَرة به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمم الرسل في الكفر، وتوعَّدوا رسُلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كَفَر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيدًا وتهدُّدا لمشركي قوم نبيّنا محمد ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيه، وتثبيتًا لمحمد ﷺ، وأمرًا له بالصبر على ما لقي من

---

(١) بحر العلوم:٢/٢٣٧.

(٢) انظر: المحرر الوجيز:٣/٣٣٠.

(٣) انظر: الوحي والغنسان:١٥٠.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٥) تفسير البيضاوي:٣/١٩٥.

(٦) تفسير البغوي:٤/٣٣٩.

(٧) تفسير السمعاني:٣/١٠٨.

المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله، ومُعرِّفَة أن عاقبة أمرِ من كفر به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قبل"[١].

قال ابن عطية:" الخطاب للحاضرين، والمراد هم وذريتهم، ويترتب هذا المعنى في قوله: {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى} [إبراهيم: ١٠]، أي: يؤخركم وأعقابكم"[٢].

قال قتادة:" وعدهم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. فبين الله تعالى من يسكنها من عباده، فقال: ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن لله مقاما هو قائمه، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا، ودأبوا الليل والنهار"[٣].

قال الزمخشري:" المراد بـ«الأرض»: أرض الظالمين وديارهم، ونحوه {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف : ١٣٧]، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ} [الأحزاب : ٢٧]، وعن النبي ﷺ «من آذى جاره ورثه الله داره»[٤]، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوما إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله ﷺ، وحدثتهم به، وسجدنا شكرا لله"[٥].

وقرأ أبو حيوة: «ليسكننكم» بالياء[٦].

قوله تعالى:{ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم : ١٤]، أي:" ذلك الإهلاك للكفار، وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لمن خاف مقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخشي وعيدي وعذابي"[٧].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: هكذا فِعْلي لمن خاف مَقامَه بين يديّ، وخاف وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطي، أنصُرْه على ما أراد به سُوءًا وبَغَاه مكروهًا من أعدائي، أهلك عدوّه وأخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه"[٨].

قال البغوي:" {لمن خاف مقامي}، أي: قيامه بين يدي كما قال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن :٤٦]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما تقول: ندمت على ضربك، أي: على ضربي إياك، {وخاف وعيد} أي عقابي"[٩].

قال البيضاوي:" {لمن خاف مقامي}، أي:" موقفي، وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله وقيل المقام مقحم، {وخاف وعيد}، أي: وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار"[١٠].

قال ابن عطية:" قوله: {مَقامِي}، يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيء بالقدرة، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة"[١١].

قال القرطبي:{ مقامي}، " أي: مقامه بين يدي يوم القيامة"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي ، وهو تخويفي وعذابي ، كما قال تعالى : { فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ

---

(١) تفسير الطبري:٥٤١/١٦.
(٢) المحرر الوجيز:٣٣٠/٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٢٨):ص٢٢٣٧/٧.
(٤) لم أجده.
(٥) الكشاف:٥٤٥/٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز:٣٣٠/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٧.
(٨) تفسير الطبري:٥٤٢/١٦-٥٤٣.
(٩) تفسير البغوي:٣٣٠/٤.
(١٠) تفسير البيضاوي:١٩٥/٣.
(١١) المحرر الوجيز:٣٣٠/٣.
(١٢) تفسير القرطبي:٣٤٨/٩.

هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات : ٣٧ - ٤١] ، وقال : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : ٤٦]"[١].

قال الزمخشري:" {ذلك}، إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين إسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي موقفي وهو موقف الحساب، لأنه موقف الله الذي يقف[٢] فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام. وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى: أن ذلك حق للمتقين، كقوله {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف : ١٢٨/ القصص: ٨٣]"[٣].

و«الخوف»: هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المَخوف[٤]، وهو أفضل مقامات الدين وأجلها وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى[٥].

قال السمعاني:" الفرق بين «المقام» و«المقام»: أن «المقام» موضع الإقامة، و«المقام» فعل الإقامة.

فإن قيل: كيف يكون لله مقام، وقد قال: {ذلك لمن خاف مقامي} ؟

قلنا: أجمع أهل التفسير أن معناه: ذلك لمن خاف مقامه بين يدي، وهو مثل قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان}. وقوله: {وخاف وعيد} أي: عقابي"[٦].

عن عبد العزيز بن أبي أرواد- رضي الله عنه- قال: "بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[٧]، ولفظ الحكيم: لما أنزل الله على نبيه ﷺ هذه الآية، تلاها على أصحابه -وفيهم شيخ- ولفظ الحكيم: فتى. فقال: يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا». فوقع مغشيا عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي، فناداه فقال: قل لا إله إلا الله. فقالها، فبشره بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله أمن بيننا؟ فقال: نعم يقول الله عز وجل: {ولمن خاف مقام ربه جنتان ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد}"[٨].

الفوائد:

١- بيان وعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب؛ ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب} [النساء: ١٧].

٢- أن الإسلام يوازن بين الخوف والرجاء، فلا يطغى جانب منهما على الآخر، فكما أن المسلم يعبد ربه تبارك وتعالى؛ حبا له ورجاء لثوابه وطمعا في جنته، فإنه كذلك يعبده خوفا من عقابه وحذرا من ناره، دون أن يدفعه هذا الخوف إلى شيء من اليأس والقنوط: {إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧] .

والمسلم لا يخاف من غير الله تعالى أن يصيبه بما يشاء من مصيبة أو مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك، بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة لمن يخاف منه بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه أصلا بغير الله تعالى؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، قال الله تعالى: {وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٤.

(٢)قوله «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى.

(٣) الكشاف:٢/٥٤٥.

(٤) انظر: مدارج السالكين :١/ ٥١٢.

(٥) انظر: اللباب: ٦٥.

(٦) تفسير السمعاني:٣/١٠٨.

(٧)[التحريم : ٦].

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٢٩):ص٧/٢٢٣٧-٢٢٣٨.

أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨٠، ٨١][١].

وكذلك يخاف المؤمن وعيد الله الذي توعد به العصاة، فيكون ذلك الخوف طريقا إلى الجنة ونعيمها:

- {ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: ١٤] .
- {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦] .

وإذا كان النعيم معنويا وماديا، فإن العقاب -كذلك- وما نخاف منه أو ما يخوفنا الله تعالى به من العذاب يشمل النوعين كذلك: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ١٩-٢٢].

قال للعلَّامة ابن قيم الجوزية -رحمه الله- "القلب في سيره إلى الله -عز وجل- بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبّوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف ... وقال بعض السلف: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغَلَبَة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه"[٢].

وهذا المعنى هو ما أشار إليه الحديث الشريف: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة؛ فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار"[٣].

١- خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه: {ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد}، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، وإنما يكون محمودا إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله.

القرآن

{وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)} [إبراهيم : ١٥]

التفسير:

ولجأ الرسل إلى ربهم وسألوه النصر على أعدائهم والحكم بينهم، فاستجاب لهم، وهلك كل متكبر لا يقبل الحق ولا يُذْعن له، ولا يقر بتوحيد الله وإخلاص العبادة له.

قوله تعالى:{وَاسْتَفْتَحُوا} [إبراهيم : ١٥]، أي:" ولجأ الرسل إلى ربهم وسألوه النصر على أعدائهم والحكم بينهم"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: واستفتحت الرُّسل على قومها: أي استنصرت الله عليها"[٥].

---

(١)انظر: "منهج التربية الإسلامية" للأستاذ محمد قطب: ١/ ١٢٦-١٧٩ وخاصة فقرة "الخوف والرجاء". واقرأ في "خصائص التصور الإسلامي" مبحث "التوازن".

(٢)مدارج السالكين": ١/ ٥١٧ بتصرف يسير، واقرأ فيه بالتفصيل من ص٥١١-٥١٧"، "شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي ص٣٢٥، ٣٢٦، "تيسير العزيز الحميد" ص٤٨٣-٤٩٥، "إيثار الحق على الخلق" لابن الوزير ص٣٥٤-٣٦٥، "الإبانة الكبرى" لابن بطة: ٢/ ٧٥٦-٧٥٩، "فتح الباري" لابن حجر: ١١/ ٣٠٠-٣٠٢. وانظر ما كتبه السبكي في "الفتاوى": ٢/ ٥٥٥-٥٦٠.

(٣)أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرجاء مع الخوف: ١١/ ٣٠١.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٥) تفسير الطبري:٥٤٢/١٦.

قال ابن كثير:" أي : استنصرت الرسل ربها على قومها"[1].
عن مجاهد: "{واستفتحوا} ، قال: الرسل كلها. يقول: استنصروا"[2].
قال قتادة:" يقول: استنصرت الرسل على قومها"[3].
قال ابن جريج: "استفتحوا على قومهم"[4].

قال ابن عباس:" كانت الرسلُ والمؤمنون يستضعفهم قومُهم، ويقهَرُونهم ويكذبونهم، ويدعونهم إلى أن يعودوا في مِلّتهم، فأبَى الله عز وجل لرسله وللمؤمنين أن يعودُوا في مِلّة الكفر، وأمرَهُم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يُسْكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز الله لهم ما وعدهم، واستفتحوا كما أمرهم أن يستفتحوا، (وخابَ كل جبار عنيد}"[5].

وقال ابن زيد:" استفتاحهم بالبلاء، قالوا: اللهم إن كان هذا الذي أتى به محمد هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، كما أمطرتها على قوم لوط، أو ائتنا بعذاب أليم. قال: كان استفتاحهم بالبلاء كما استفتح قوم هود: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الأعراف: ٧٠] قال: فالاستفتاح العذاب، قال: قيل لهم: إنّ لهذا أجلا! حين سألوا الله أن ينزل عليهم، فقال:{بَلْ نُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَارُ}، فقالوا: لا نريد أن نؤخر إلى يوم القيامة: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} عَذَابَنَا {قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص: ١٦] . وقرأ: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) حتى بلغ: {وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: ٥٣ - ٥٥]"[6].

قال ابن كثير:" ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } الآية [الأنفال : ١٩] ، والله أعلم"[7].

وفي معنى: «الاستفتاح»، وجهان :
أحدهما : أنه الإبتداء. ذكره الماوردي[8].
الثاني : أنه الدعاء ، قاله الكلبي[9].

قال الراغب:" الاستفتاح : طلب الفتح، والفتح ضربان، فتح إلاهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، وفتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية وعلى الأول قوله : {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، وقوله {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ} وعلى الثاني قوله :{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}"[10].

قوله تعالى:{وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم : ١٥]، أي:" فاستجاب لهم، وهلك كل متكبر لا يقبل الحق ولا يُذْعن له، ولا يقر بتوحيد الله وإخلاص العبادة له"[11].

قال الطبري:" : هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له"[12].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٨٤/٤.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٦١٥):ص٥٤٤/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٠):ص٥٤٥/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٦١٥):ص٥٤٤/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٦١٧):ص٥٤٤/١٦.
(٦) اخرجه الطبري(٢٠٦٢٥):ص٥٤٥/١٦-٥٤٦.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٨٤/٤.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٢٧/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٢٧/٣.
(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٧/١.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٧.
(١٢) تفسير الطبري:٥٤٢/١٦.

قال ابن كثير:" خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر ، [{كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}] أي: متجبر في نفسه معاند للحق ، كما قال تعالى : { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ } [ق : ٢٤ - ٢٦]، وفي الحديث : «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادي الخلائق فتقول : إني وُكلت بكل جبار عنيد»(١)، الحديث "(٢).

عن مجاهد: " {عنيد}، قال: معاند للحق مجانبه"(٣).

قال قتادة:" «الجبار العنيد»: الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله"(٤).

وعن قتادة ايضا:" يقول: عَنِيد عن الحق، مُعْرِض عنه"(٥).

عن إبراهيم، في قوله: "{وخاب كل جبار عنيد}، قال: هو النَّاكب عن الحق"(٦).

قال ابن زيد:" «العنيد عن الحق»، الذي يعنِدُ عن الطريق، قال: والعرب تقول: «شرُّ الأهْل العَنِيد»، الذي يخرج عن الطريق"(٧).

وقال ابن زيد:" «الجبّار»: المتجبّر"(٨).

عن كعب- رضي الله عنه- قال: "يجمع الله الخلق في صعيد واحد يوم القيامة: الجن والإنس والدواب والهوام، فيخرج عنق من النار فيقول: وكلت بالعزيز الكريم والجبار العنيد، الذي جعل مع الله إلها آخر. قال: فيلقطهم كما يلقط الطير الحب فيحتوي عليهم، ثم يذهب بهم إلى مدينة من النار، يقال لها: كيت وكيت، فيثوون فيها ثلاثمئة عام قبل القضاء"(٩).

الفوائد:

١- إنجاز وعد الله لرسله في قوله: {فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين} الآية.

٢- خيبة وخسران عامة أهل الشرك والكفر والظلم.

تنبيه: في «الطيرة والفأل»:

أ- الحذر من أخذ الفأل والبخت من المصحف:

حكي: "أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج له قوله تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم : ١٥]، فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ... فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدُ

إذَا مَا جِئْت رَبَّك يَوْمَ حَشْرٍ ... فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَّقَنِي الْوَلِيد

فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده. فنعوذ بالله من البغي ومصارعه، والشيطان ومكائده، وهو حسبنا وعليه توكلنا"(١٠).

قال محمد بن أحمد عبد السلام خضر الشقيري :" لا أدري ماذا يصنع صاحب البخت إن وقف على آية : {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ} [البقرة : ٢٧٩] أو {لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ} [العلق : ١٥] أو {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [العلق : ١٦] أو {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق : ١٨]مثلا"(١١).

ب- النهي عن الطيرة:

---

(١)رواه أحمد في المسند (٤٠/٣) من حديث أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، وقال الترمذي : "حديث حسن غريب صحيح".

(٢) تفسير ابن كثير:٤٨٤/٤.

(٣) أخرجه الطبري(٢٠٦١٢):ص٥٤٣/١٦.

(٤) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٠):ص٥٤٥/١٦.

(٥) أخرجه الطبري(٢٠٦٢١):ص٥٤٥/١٦.

(٦) أخرجه الطبري(٢٠٦١٨):ص٥٤٤/١٦.

(٧) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٣):ص٥٤٥/١٦.

(٨) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٤):ص٥٤٥/١٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٣٢):ص٢٢٣٨/٧.

(١٠) أدب الدين والدنيا، الماوردي:٣١٧.

(١١)السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات:٢١٤ .

اعلم أنه ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل[1].

وقد روي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[2].

فالعدوى ما يظنه الناس من تعدي العلل والأمراض فأخبر أنها لا تعدي، فقيل: « يا رسول الله النقبة تكون بمشفر البعير أو بعجبه فتشمل الإبل كلها جربا، فقال: رسول الله - ﷺ - فما أعدى الأول؟ لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصيباتها ورزقها»[3].

وروي عن الرسول-ﷺ- :"فى الإنسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغى"[4].

وروي أن يوسف -عليه السلام-: "شكا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى إليه يا يوسف أنت حبست نفسك، حيث قلت رب السجن أحب إلي ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت"[5].

وحكي أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي، فأتاه آت في منامه فقال له: هذا ما طلبت"[6].

القرآن

{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)} [إبراهيم : ١٦]

التفسير:

ومِن أمام هذا الكافر جهنم يَلْقى عذابها؛ ويُسقى فيها من القيح والدم الذي يَخْرج من أجسام أهل النار.

قوله تعالى:{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} [إبراهيم : ١٦]، أي:" ومِن أمام هذا الكافر جهنم يَلْقى عذابها"[7].

قال ابن جرير الطبري:"يقول عزّ ذكره: من أمام كل جَبار {جهنم}، يَرِدُونها"[8].

قال ابن كثير:" أي : من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي : هي له بالمرصاد ، يسكنها مخلدا يوم المعاد ، ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد"[9].

وفي قوله تعالى:{مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} [إبراهيم : ١٦]، وجوه من التفسير:

أحدها : معناه: من خلفه جهنم. ذكره الماوردي[10].

وقال مقاتل:أي:" من بعدهم، يعني: من بعد موته"[11].

---

(١) انظر: أدب الدين والدنيا:٣١٤.

(٢)أخرجه أحمد (٣٢٨/١، رقم ٣٠٣٢) ، وابن ماجه (١١٧١/٢، رقم ٣٥٣٩) ، قال البوصيرى (٧٨/٤) : هذا هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. والطبرانى (٢٨٨/١١، رقم ١١٧٦٤) . وأخرجه أيضا: أبو يعلى (٤٥٥/٤، رقم ٢٥٨٢).

(٣)(ابن جرير) [كنز العمال ٢٨٦٢٩]، أخرجه أيضا: أحمد (٣٢٧/٢، رقم ٨٣٢٥) ، والترمذى (٤٥٠/٤، رقم٢١٤٣) ، والطحاوى (٣٠٨/٤) ، والخطيب (١٦٨/١١).

(٤)أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦٣/٢، رقم ١١٧٣).

(٥) أدب الدين والدينا:٣١٦-٣١٧.

(٦) أدب الدين والدينا:٣١٧.

(٧) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٨) تفسير الطبري:٥٤٦/١٦.

(٩) تفسير ابن كثير:٤٨٤/٤.

(١٠) انظر: النكت والعيون:١٢٧/٣.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠١/٢.

الثاني : معناه: قدامه وأمامه جهنم، وهذا قول ابن قتيبة(١)، والطبري(٢)، وابن كثير(٣)، وهو قول قول أبي عبيدة(٤)، واستشهد بقول الشاعر(٥):

أَتُوعِدُنِي وَرَاءَ بَنِي رِيَاحٍ ... كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يَدَاكَ دُونِي

أي: قدام بنى رياح وأمامهم، وهم دونى، أي: بينى وبينك، وقال الشاعر(٦):

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى ... وقومى تميم والفلاة ورائيا

الثالث: معناه: من بين يديه جهنم. وهذا قول الفراء(٧)، والزجاج(٨).

قال الفراء:"أي: بين يديه.. إنما يجوز ذلك في المواقيت من الأيام والليالي والدهر أن تقول: وراءك برد شديد: وبين يديك برد شديد لأنك أنت وراءه فجاز لأنه شيء يأتي، فكأنه إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك. فلذلك جاز الوجهان"(٩).

الرابع : أن جهنم تتوارى ولا تظهر، فصارت من وراء، لأنها لا ترى حكاه ابن الأنباري(١٠).

الخامس : {من ورائه جهنم}، معناه: من بعد هلاكه جهنم. ذكره الماوردي(١١)، كما قال النابغة(١٢):

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرْءِ مذهب

أراد : وليس بعد الله مذهب .

قوله تعالى:{وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ} [إبراهيم : ١٦]، أي:" ويُسقى فيها من القيح والدم الذي يَخْرج من أجسام أهل النار"(١٣).

قال ابن كثير:" أي : في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق ، فهذا في غاية الحرارة ، وهذا في غاية البرد والنتن ، كما قال : { هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ } [ص : ٥٧ ، ٥٨]"(١٤).

قال أبو عبيدة:" «الصديد»: القيح والدّم"(١٥).

قال الزجاج:" أي: مما يسيل من أهل النار من الدم والقيح"(١٦).

وقال مقاتل:" يعنى: خليطة القيح والدم الذي يخرج من أجداث الكفار يسقىالأشقياء"(١٧).

قال ابن قتيبة:" أي: يسقى الصديد مكان الماء. كأنه قال: يجعل ماؤه صديدا. ويجوز أن يكون على التشبيه. أي يسقى ماء كأنه صديد"(١٨).

---

(١) انظر: غريب القرآن:٢٣١.
(٢) انظر: التفسير:٥٤٦/١٦.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير:٤٨٤/٤.
(٤) انظر: مجاز القرآن:٣٣٨/١، : ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري ٨/ ٢٨٦
(٥)البيت لجرير فى ديوانه (نشر الصاوى) ص ٥٧٧، والطبري ١٦/ ٥٤٧.
(٦)اختلف فى قائل هذا البيت، فبعضهم قال إنه لسوار بن المضرب، وبعضهم قال إنه للفرزدق واستشهد أبو عبيدة به مرات. فنسبه فى نسخة مرة لسوار ومرة للفرزدق ونسبه هنا لجرير، ولم أجده فى ديوانيهما. وهو لسوار من كلمة فى الكامل ٢٨٩، والطبري ١٦/ ٢، والجمهرة ١/ ١٧٧ و ٣/ ٤٩٥، والقرطبي ١١/ ٣٥ واللسان والتاج (ورى).
(٧) انظر: معاني القرآن:١٥٧/٢.
(٨) انظر: معاني القرآن:١٥٧/٣-١٥٨.
(٩) معاني القرآن:١٥٧/٢.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٢٨/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٢٨/٣.
(١٢)"ديوانه" ص ٢٧،وفي معاهد التنصيص ٧/ ٢ (مطلب) بدل (مذهب). "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٨٧٨.
(١٣) التفسير الميسر:٢٥٧.
(١٤) تفسير ابن كثير:٤٨٥/٤.
(١٥) مجاز القرآن:٣٣٨/١.
(١٦) معاني القرآن:١٥٧/٣.
(١٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠١/٢.
(١٨) غريب القرآن:٢٣١.

عن مجاهد، في قوله: "{من ماء صديد}، قال: قيحٌ ودم"[١]. وروي عن عكرمة مثله[٢].
مثله[٢].
قال قتادة:"و«الصديد»: ما يسيل من لحمه وجلدِه"[٣].
قال الضحاك:" يعني بالصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القَيْح والدم"[٤].
عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : "قلت : يا رسول الله ، ما طينة الخبال ؟ قال : "صديد أهل النار"[٥]، وفي رواية : "عُصَارة أهل النار"[٦].

القرآن

{يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)} [إبراهيم : ١٧]

التفسير:

يحاول المتكبر ابتلاع القيح والدم وغير ذلك مما يسيل من أهل النار مرة بعد مرة، فلا يستطيع أن يبتلعه؛ لقذارته وحرارته، ومرارته، ويأتيه العذاب الشديد من كل نوع ومن كل عضو من جسده، وما هو بميت فيستريح، وله من بعد هذا العذاب عذاب آخر مؤلم.

قوله تعالى:{يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ} [إبراهيم : ١٧]، أي:" بتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته"[٧].

قال الطبري:" يتحسَّاه، ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته، وهو مُسيغه من شدّة العطش"[٨].

عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: "{ويُسقى من ماء صديد يتجرّعه} ، «فإذا شَربه قَطَّع أمعاءَه حتى يخرج من دُبُره»، يقول الله عز وجل: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [سورة محمد: ١٥] ، ويقول: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ} [سورة الكهف: ٢٩]"[٩].

وعن أبي أمامة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله : { وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ }، قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره» . يقول الله تعالى: { وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ }[١٠]، وقال: { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ}[١١]"[١٢].

قوله تعالى:{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} [إبراهيم : ١٧]، أي:" يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنَّه لا يموت ليستكمل عذابه"[١٣].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٦):ص٥٤٨/١٦.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٣٤):ص٢٢٣٩/٧.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٦٢٨):ص٥٤٨/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٦٣٠):ص٥٤٨/١٦.
(٥)رواه أحمد في المسند (٤٦٠/٦).
(٦)وهي رواية أبي ذر ، رضي الله عنه ، رواها أحمد في المسند (١٧١/٥).
(٧) صفوة التفاسير:٨٦/٢.
(٨) تفسير الطبري:٥٤٨/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٦٣١):ص٥٤٩/١٦.
(١٠)[محمد : ١٥].
(١١)[الكهف : ٢٩].
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٣٣):ص٢٢٣٨/٧-٢٢٣٩، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به ، وقال : "هذا حديث غريب ، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر ، ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث".
(١٣) صفوة التفاسير:٨٦/٢.

قال الطبري:" يقول: ويأتيه الموت من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده {وما هو بميت}، لأنه لا تخرج نفسه فيموت فيستريح، ولا يحيا لتعلُّق نفسه بالحناجر، فلا ترجع إلى مكانها"[١].

قال مجاهد:" تعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه، فيجد لذلك راحة، فتنفعه الحياة"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [إبراهيم : ١٧]، وجوه:

أحدها : من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره، قاله إبراهيم التيمي[٣]، وبه قال ابن قتيبة[٤].

قال الماوردي: وذلك "للآلام التي في كل موضع من جسده"[٥].

الثاني : من كل عظم وعرق وعصب. قاله ميمون بن مهران[٦].

الثالث: تأتيه أسباب الموت من كل جهة، عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ، ومن قدامه وخلفه ، وهذا معنى قول ابن عباس[٧]، وبه قال ابن جرير الطبري[٨].

عن ابن عباس:"{ويأتيه الموت من كل مكان}، قال: أنواع العذاب. وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت لأن الله لا يقضي عليهم فيموتوا"[٩].

الرابع : تأتيه شدائد الموت من كل مكان ، حكاه ابن عيسى[١٠].

قوله تعالى:{وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧]، أي:" ومن بين يديه عذابٌ أشدُّ مما قبله وأغلظ"[١١].

قال الطبري:" يقول: ومن وراء ما هو فيه من العذاب -يعني أمامه وقدامه – {عذاب غليظ}"[١٢].

قال الماوردي:" «العذاب الغليظ»، هو الخلود في جهنم"[١٣].

عن إبراهيم التيمي:" {ومن ورائه عذاب غليظ}، قال: الخلود"[١٤].

قال ابن منظور: " «الوراء» جميعا يكون خلف وقدّام"[١٥].

وعند ابن دريد: "«الوراء»: الخلف، و«الوراء»: القدّام، وهو من الأضداد"[١٦].

وقال أبو سعيد الأصمعي: "و«وراء»: خلف و«وراء»: قدّام، قال جلّ ثناؤه: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩]، وكان وراءهم أي: قدّامهم، وقال الشاعر[١٧]:

---

(١) تفسير الطبري:٥٥٠/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٦٣٤):ص٥٥٠/١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٣٥):ص٥٥٠/١٦.
(٤) انظر: غريب القرآن:٢٣١.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٢٨/٣.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٣٨):ص٢٢٣٩/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٣٧):ص٢٢٣٩/٧.
(٨) انظر: التفسير:٥٥٠/١٦.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٣٧):ص٢٢٣٩/٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٢٨/٣.
(١١) صفوة التفاسير:٨٦/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٥٥٢/١٦.
(١٣) النكت والعيون:١٢٨/٣.
(١٤) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٣٩):ص٢٢٣٩/٧.
(١٥) اللسان: ٩٠٦/٦.
(١٦) جمهرة اللغة، ٢٣٦/١، وانظر: مجمل اللغة: ٨٠/٣، ٩٣٢.
(١٧) البيت لسوار بن المضرب السعدي، انظر: خزانة الأدب: ٤٦١/٢. وقيل انه لفرزدق انشده حين هرب من الحجاج(معجم البلدان: ٤٤٨/٢):
ترجو بنو مروان سمعي وطاعتي، وخلفي تميم والفلاة أماميا؟

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

فقوله «ورائيا»، أي: قدّامي"(١).

وقال الجوهري :" «وراء»: بمعنى: «خلف»، وقد تكون بمعنى «قدام». وهي من الأضداد"(٢).ق

قال الإمام القرطبي: "ومنه قول إبراهيم عليه السلام في حديث الشفاعة : " إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ"(٣)، و«الوراء»: ولد الولد أيضا(٤).

وقال ابن قتيبة: "«وراء»: تكون بمعنى«خلف»، وبمعنى «قدّام»، ومنها :الموارة، و التواري، فكل ما غاب عن عينيك فهو «وراء»، كان قدّامك أو خلفك"(٥).

وفي صدد شرحه لكلمة «وراء» في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، فسّر الإمام ابن قتيبة الكلمة بحسب السياق الذي وردت فيه، فمثلا: في قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩]، رجح ابن قتيبة أن تكون«وراء»-هنا- بمعنى «أمام»، وفي قراءة ابن عباس: وفي قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية : ١٠]: أي أمامهم، وكذا في قوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧].

فالكلمة «وراء» في الآيات السابقة جاءت بمعنى«أمام»، وليس بالمعنى المتبادر إلى الذهن، وهو معنى«خلف»، وقد اختلف في اشتقاق الكلمة على وجهين:

أحدهما: أنها مشتقة من التواري، أي: الإستتار، قال الإمام الشوكاني: " قال النحاس: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧] فقوله تعالى: "{وَمِنْ وَرَائِهِ} أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى، أي: استتر، فصارت جهنم من وراءئه، لأنها لا ترى"(٦).

والثاني: أنها على بابها، فهي-هنا- بمعنى: «خلف».

قال ابن عطية: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية : ١٠] فقوله تعالى: "{وَرَائِهِمْ} هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعي بها الزمان، وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو: الأمام، والذي يأتي بعده هو: الوراء، وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي.."(٧).

---

(١) أضداد الأصمعي: ٢٠.

(٢) مختار الصحاح: (ورى).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١٩٥)، قال الإمام مسلم: " حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَرِيفِ بْنِ خَلِيفَةَ الْبَجَلِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبُو مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -[١٨٧]-: " يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ "، قَالَ: " فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا "، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا".

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩/٢.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ١٤٥. وانظر: الأضداد: ٥٦-٥٧.

(٦) تفسير الشوكاني: ١٣٦/٤.

(٧) نقلا عن القرطبي في تفسيره: ٣٤/١١.

وهكذا فقد لوحظ كيف تردد المفسرين بين المعنيين، غير جازمين بأحد الوجهين، ولعل السبب هو أن مثل هذه الظاهرة يحصل فيها الأشكال، فهي محتاجة إلى مزيد من الدلالئل المحيطة بالنص لترجيح إحدى هذه الدلالات على الأخرى.

يتبيّن لنا مما سبق بأن كلمة «وراء» جاءت في القرآن على عدة معاني من أشهرها ثلاثة:

أحدها: «وراء»، بمعنى: «أمام» زمانياً ومكانياً:

- فمن أمثلتها بمعنى «أمام» زمانياً، قول الله جل وعلا: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون : ١٠٠]، وقوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم : ١٧]، يعنى هذا بمستقبل أيامه فحياة البرزخ والعذاب المتوعد به أهل النار لم يأتِ بعد، وإنما هو أمام المتوعد به.
- وأما «وراء» بمعنى «أمام» مكانياً، يقول الله جل وعلا على لسان الخضر: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف : ٧٩] فقوله تعالى:{وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} يعني أمامهم مكاناً ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فأول معاني «وراء» في القرآن بمعنى: أمام.

الثاني: وتأتي بمعنى «خلف»، وهو الأصل في استخدامها اللغوي:

قال الله جل وعلا على لسان العبد الصالح شعيب: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [هود : ٩٢]، وظهر الإنسان خلفه وليس أمامه، فقوله: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} نص بأنها تأتي بمعنى «خلف».

الثالث: ومن أشهر معانيها: «غير» أو «بعد»:

قال الله تعالى في النساء: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ٢٣]، فقال{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} ثم ذكر المحصنات ثم قال: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ} أي ما بعد ذلك، ومنه قوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود : ٧١].

وقال جل وعلا: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)} [المؤمنون : ٥ - ٧]، فقوله تعالى(وَرَاءَ ذَلِكَ) أي غير ذلك.

فوائد الآيتين:[١٦-١٧]:

١- عظم عذاب يوم القيامة وشدته.
٢- عذاب أهل الكفر والشرك والظلم لازم لأنهم لم يذكروا ولم يشكروا والذكر والشكر علة الوجود كله فلما عبثوا بالحياة استحقوا عذابا أبديا.
٣- بيان شراب أهل النار أعاذنا الله منها:

أ- الحميم: قال الله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}[محمد:١٥]:أي:" حاراً شديد الحرارة لايُستطاع، فقطَّع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء"(١). قال تعالى: {يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}[الحج:١٩-٢٠].

---

(١)تفسير ابن كثير: ٤/ ١٧٦.

ب- الصديد: قال الله - عز وجل -: {وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}[إبراهيم:١٥-١٧].

ت- الماء الذي كالمهل: والمهل: هو: دُرْدِيُّ الزيت(١)، وهو "ماءٌ غليظٌ، أسود، حارٌّ، منتنٌ، إذا أراد الكافر أن يشربه وَقَرَّبَهُ من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه"(٢).

قال الله تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}[الكهف:٢٩]

ث- الغَسَّاق: قال تعالى: {لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا}[النبأ:٢٤-٣٠].

ج- والغسَّاق: هو البارد الذي لا يُستطاع من شدة برده، يحرقهم ببَرْدِهِ، كما تحرقهم النار بحرّها، وهو الزمهرير، وهو ما اجتمع من صديد أهل النار، وعرقهم، وجروحهم، ودمعهم، فهو بارد مُنْتِنٌ(٣).

ح- عينٌ آنية: قال الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [الغاشية:٢-٥].

و«آنية» متناهية في الحرارة والغليان(٤).

وقال تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}[الرحمن:٤٤]. وكانت العرب تقول للشيء إذا انتهى حرّه حتى لا يكون أحرَّ منه: قد آنَ حرُّهُ(٥).

٤- ومن الفوائد: أن البَعث خَلق جَديد:

فإن الله تعالى يعيد العباد أنفسهم، ولكنهم يخلقون خلقاً مختلفاً شيئاً ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} [إبراهيم: ١٧] ، وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: " يا بني أَوْدٍ، إني رسولُ رسولِ الله ﷺ تعلمون المعاد إلى الله، ثم إلى الجنة أو النار، وإقامة لا ظعن فيه، وخلود لا موت، في أجساد لا تموت "(٦).

٥- ومن الفوائد: أن القرآن الكريم قد جاء فصيحا على غاية الفصاحة في كل فن، ترغيبا كان أو ترهيبا، زجرا كان أو وعظا أو غيرها، وفيما يلي بعض الأمثلة:

أ- ففي الترغيب مثل قوله تعالى في سورة السجدة آية ١٧: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]

ب- وفي الترهيب مثل قوله تعالى في سورة إبراهيم آية ١٥-١٧: {وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ - مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ - يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٥ - ١٧]

القرآن

{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)} [إبراهيم : ١٨]

التفسير:

---

(١)مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص٤٧٦.

(٢)تفسير ابن كثير، ٣/ ٨٢، ٤/ ٤٢١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٢/٤٦٥، والبغوي، ٤/ ٦٧، ٤٣٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٠٣، وتفسير البغوي، ٤/ ٤٧٨.

(٥) انظر: التخويف من النار، لابن رجب الحنبلي، ص١٥٠.

(٦) رواه الطبراني في «الكبير»، وفي «الأوسط»، سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢٣١/٤) ، ورقم الحديث: (١٦٦٨).

صفة أعمال الكفار في الدنيا كالبر وصلة الأرحام كصفة رماد اشتدت به الريح في يوم ذي ريح شديدة، فلم تترك له أثرًا، فكذلك أعمالهم لا يجدون منها ما ينفعهم عند الله، فقد أذهبها الكفر كما أذهبت الريح الرماد، ذلك السعي والعمل على غير أساس، هو الضلال البعيد عن الطريق المستقيم.

قوله تعالى:{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم : ١٨]، أي:" صفة أعمال الكفار في الدنيا كالبر وصلة الأرحام كصفة رماد اشتدت به الريح في يوم ذي ريح شديدة فلم تترك له أثرًا"(١).

قال الواحدي:" معنى الآية: إنَّ كلَّ ما تقرَّب به الكافر إلى الله تعالى فَمُحْبَطٌ غيرُ منتفعٍ به لأنَّهم أشركوا فيها غير الله سبحانه وتعالى كالرَّماد الذي ذَرَّتْهُ الرِّيح وصار هباءً لا يُنتفع به"(٢).

قال القرطبي:" المعنى: أعمالهم محبطة غير مقبولة. والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء، فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف شدة الريح، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى"(٣).

وفي قوله تعالى:{فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم : ١٨]، وجوه(٤):

أحدها : أنه وصف اليوم بالعصوف وهو من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه ، كما يقال يوم بارد ، ويوم حار ، لأن البرد والحر يكونان فيه .

الثاني : أن المراد به في يوم عاصف الريح ، فحذف الريح لأنها قد ذكرت قبل ذلك، كما قال الشاعر(٥):

وتَضْحَكُ عِرْفَانَ الدُّرُوعِ جُلُودُنَا... إذَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفُ

يريد كاسف الشمس(٦).

الثالث : أن العصوف من صفة الريح المقدم ذكرها ، غير أنه لما جاء بعد اليوم ابتع إعرابه، قال الشاعر(٧):

كأنما ضربت قدام أعينها ... قطنا بمستحصد الأوتار محلوج

وقال الآخر(٨):

تريك سنة وجه غير مقرفة ... ملساء ليس بها خال ولا ندب

قوله تعالى:{لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ} [إبراهيم : ١٨]، أي:" لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرّ في الدنيا لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيَّرته الريح"(٩).

قال الواحدي:" أَيْ: لا يجدون ثواب ما عملوا"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٧.

(٢) الوجيز:٥٨٠.

(٣) تفسير القرطبي:٣٥٣/٩.

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء:٧٤/٢، والنكت والعيون:١٢٩/٣، وتفسير البغوي:٣٤٢/٤، وتفسير القرطبي:٣٥٣/٩.

(٥) البيت لمسكين الدارمي، انظر: الخزانة:٣٢٣/٢، ومعاني القرآن" للفراء ٢/ ٧٤، و"تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٣٥٤، و"الخزانة" ٥/ ٨٩، وورد عَجُزُه في "تهذيب اللغة" (عصف) ٣/ ٢٤٦٣، و"تفسيرالطبري" ١٦/ ٥٥٤، و"تفسير القرطبي" ٩/ ٣٥٣، و"العباب الزاخر" [ف/ ص ٤٣٩]، و"اللسان" (عصف) ٥/ ٢٩٧٣

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء:٧٤/٢.

(٧) لم أعرف قائله، والبيت غير منسوب في معاني القرآن للفراء:٧٤/٢.

(٨)هو ذو الرمة فى بائيته المشهورة. والسنة: الصورة. والمقرفة. التي دنت من الهجنة، وهو عيب. والندب الأثر من الجراح. وانظر الديوان: ٤، ومعاني القرآن للفراء:٧٤/٢.

(٩) صفوة التفاسير:٨٨/٢.

(١٠) الوجيز:٥٨٠.

قوله تعالى:{ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم : ١٨]، أي:" ذلك السعي والعمل على غير أساس، هو الضلال البعيد عن الطريق المستقيم"(١).

قال الواحدي:" يعني: ضلال أعمالهم وذهابها، والمعنى: ذلك الخسران الكبير"(٢).

قال الماوردي:" وإنما جعله بعيداً لفوات استدراكه بالموت"(٣).

قال الراغب: في الآية" دلالة ان العبادات والأعمال الصالحة وغير معنية ما لم يبن على الإيمان"(٤).

الفوائد:

١- بطلان أعمال المشركين والكافرين وخيبتهم فيها إذ لا ينتفعون بشيء منها.

ومذهب أهل السنة: أنه لا تنفع الأعمال والحسنات مع الشرك؛ لقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان:٢٣] لأن الشرك أحبطها، وقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم:١٨] ، وفي آية أخرى: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [النور:٣٩] ، وفي آية أخرى: {كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ} [البقرة:٢٦٤] صفاة صلبة عليها تراب وجاءها مطر شديد، لا يبقى على الصفاة شيء من التراب فهكذا أعمالهم ونفقاتهم لا تبقى، حيث إنه لا أساس لها ولا أصل(٥).

٢- أن قبول الأعمال موقف على شرط صحتها وهو التوحيد، لذلك فإن رأس أعمال أهل الجنة: توحيد الله تعالى، فمن أتى به يوم القيامة فهو من أهل الجنة قطعا، ولو كان عليه من الذنوب مثل الجبال، ورأس أعمال أهل النار: الشرك بالله، فمن مات على ذلك، فلو أتى يوم القيامة بعبادة الله الليل والنهار والصدقة والإحسان؛ فهو من أهل النار قطعا، كالنصارى الذين يبني أحدهم صومعة في البرية؛ ويزهد في الدنيا ويتعبد الليل والنهار، لكنه خلط ذلك بالشرك بالله؛ تَعَالَى اللهُ عن ذلك.

قال الله عز وجل: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً} [الفرقان:٢٣]. وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ} [إبراهيم:١٨] الآية.

قال أهل العلم بأن أعمال الخير التي يعملها الكافر يجازى بها في الدنيا فقط، حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء(٦).

فرحم الله امرأ تنبه لهذا الأمر العظيم، قبل أن يعض الظالم على يديه ويقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا!(٧).

القرآن

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)} [إبراهيم : ١٩]

التفسير:

ألم تعلم أيها المخاطب -والمراد عموم الناس- أن الله أوجد السموات والأرض على الوجه الصحيح الدال على حكمته، وأنه لم يخلقهما عبثًا، بل للاستدلال بهما على وحدانيته، وكمال قدرته، فيعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئًا؟ إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يطيعون الله.

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٧.
(٢) الوجيز:٥٨٠.
(٣) النكت والعيون:١٢٩/٣.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٥٦/١-٥٥٧.
(٥) انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين: الدرس(٣٨)[دروس صوتية مرقم آليا].
(٦) انظر: شرح العقيدة الواسطية:٢١٠.
(٧) انظر: الجواهر المضية:١٥.

قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [إبراهيم : ١٩]، أي:" ألم ترَ أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أن اللهَ العظيم الجليل أنفرد بالخلق والإيجاد، وأنه خلق السماوات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته؟"(١).

قال الطبري:" يقول عز ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق منفردًا بإنشائها بغير ظهير ولا مُعين"(٢).

قال البغوي:" أي: لم يخلقهما باطلا وإنما خلقهما لأمر عظيم"(٣).

قال السعدي:" ينبه تعالى عباده بأنه {خلق السماوات والأرض بالحق} أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك"(٤).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات ، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات ، والحركات المختلفات ، والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبرارى وصحارى وقفار ، وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان ، على اختلاف أصنافها ومنافعها ، وأشكالها وألوانها ؛ { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأحقاف : ٣٣] ، وقال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ (١) أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [يس : ٧٧ - ٨٣]"(٥).

قال سهل التستري:" خلق الأشياء كلها بقدرته، وزينها بعلمه، وحكمها بحكمته فالناظر من الخلق إلى الخالق تبين له عجائب الخلقة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبليغ صنعته"(٦).

وقرأ أهل الكوفة -إلا عامر-: «خالق السماوات والأرض على التعظيم»(٧).

قوله تعالى:{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم : ١٩]، أي:" إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يطيعون الله"(٨).

قال الثعلبي:" يبدلكم أحسن وأفضل وأطوع منكم"(٩).

قال البغوي: أي: " سواكم أطوع لله منكم"(١٠).

قال الطبري:" يقول: إن الذي تفرد بخلق ذلك وإنشائه من غير معين ولا شريك، إن هو شاء أن يُذْهبكم فيفنيكم، أذهبكم وأفناكم، ويأتِ بخلق آخر سواكم مكانكم، فيجدِّد خلقهم"(١١).

---

(١) صفوة التفاسير:٨٨/٢.
(٢) تفسير الطبري:٥٥٦/١٦.
(٣) تفسير البغوي:٣٤٣/٤.
(٤) تفسير السعدي:٤٢٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٤٨٨/٤.
(٦) تفسير التستري:٨٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٥٥٧/١٦.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٩) الكشف والبيان:٣١٢/٥.
(١٠) تفسير البغوي:٣٤٣/٤.
(١١) تفسير الطبري:٥٥٦/١٦.

قال الزمخشري:" أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده"(١).

قال السعدي:" يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة"(٢).

القرآن

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)} [إبراهيم : ٢٠]

التفسير:

وما إهلاككم والإتيان بغيركم بممتنع على الله، بل هو سهل يسير.

قوله تعالى:{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [إبراهيم : ٢٠]، أي:" ليس ذلك بصعبٍ أو متعذرٍ على الله"(٣).

قال النسفي:أي:" بمتعذر"(٤).

قال القرطبي:" أي: منيع متعذر"(٥).

قال الواحدي:أي:"بممتنعٍ شديدٍ"(٦).

قال ابن ابي زمنين:" أيْ: لا يشق عليه"(٧).

قال الطبري:" يقول: وما إذهابكم وإفناؤكم وإنشاء خلقٍ آخر سواكم مكانَكُم، على الله بممتنع ولا متعذّر، لأنه القادر على ما يشاء"(٨).

قال السعدي:" أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان : ٢٨]، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم : ٢٧]"(٩).

قال ابن كثير:" أي : بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره ، أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم ، كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [فاطر : ١٥ - ١٧]، وقال : { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد : ٣٨] ، وقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة : ٥٤] ، وقال : { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا } [النساء : ١٣٣]"(١٠).

قال الصابوني:" فإنَّ القويَّ القادر لا يصعبُ عليه شيء"(١١).

فوائد الآيتين:[١٩-٢٠]:

١- من أسلوب القرآن في الاستدلال على توحيد الربوبية(١٢) :أن الكون ممكن الوجود وما كان كذلك فهو مخلوق لا يمكن أن يكون واجب الوجود لأن إمكان العدم عليه والوجود

---

(١) الكشاف:٥٤٧/٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٢٤.
(٣) صفوة التفاسير:٨٨/٢.
(٤) تفسير النسفي:١٦٨/٢.
(٥) تفسير القرطبي:٣٥٤/٩.
(٦) الوجيز:٥٨٠.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين:٢٨/٤.
(٨) تفسير الطبري:٥٥٦/١٦.
(٩) تفسير السعدي:٤٢٤.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٨٧/٤-٤٨٨.
(١١) صفوة التفاسير:٨٨/٢.
(١٢) ومن الأساليب القرآنية–أيضا- في الاستدلال على الربوبية:

ينفي وجوبه. ويدل عليه قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [إبراهيم: ١٩].

٢- تنزيه الله تعالى عن الحاجة والخوف والمشقة.

٣- بيان غناؤه سبحانه وتعالى عن كل موجود، فإنه الغني بذاته عن جميع الموجودات، وهي المفتقرة كلها -ابتداء ودوما- إليه.

٤- أنه تعالى لم يخلق البشر ليتكثر بهم من قلة، أو يعتز بهم من ذلة، ولكنه خلقهم سبحانه لحكمة عظيمة، وهي: أن يعبدوه ويعظموه، ويخشوه، ويثنوا عليه سبحانه بما هو أهله، ويعلموا أسماءه وصفاته، ويثنوا عليه بذلك، وليتوجهوا إليه بما يحب من الأعمال والأقوال، ويشكروه على إنعامه، ويصبروا على ما ابتلاهم به، وليجاهدوا في سبيله، وليتفكروا في عظمته، وما يستحق عليهم من العمل، كما قال عز وجل: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]،وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠] وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ - الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

أولا:- الاستدلال بما في العالم من التغير المانع من قدمه إذ التغير علامة الحدوث والخلق فلابد إذا له من خالق ويدل عليه قوله تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ [فاطر: ١١].

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ [النور: ٤٣ - ٤٤].

ثانيا:- الاستدلال باستحالة صدور الوجود من عدم كما في قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

وصورة هذا الدليل في الآية: إما أن يكونوا خلقوا أنفسهم وهذا باطل لأنه يلزم منه الدور وهو باطل حيث يترتب كل من الفرضين على الآخر فكونهم خلقوا أنفسهم يستلزم وجودهم قبل الخلق إذ لا يصدر الوجود من العدم ضرورة، إذ لا معنى للعدم إلا عدم الوجود ولا معنى للوجود إلا كون الشيء ليس بمعدوم.

وإما يكونوا لا خالق لهم أصلاً فيكون العدم هو الذي أوجدهم وهذا باطل إذ لا معنى للعدم إلا عدم الوجود فيلزم من قولهم بهذا الفرض الجمع بين النقيضين وهو كون الشيء موجوداً معدوماً والوجود والعدم نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ولا يمكن أن ينشأ واحد منهما من الآخر.

والفرض الثالث أن يكون لهم خالق هو الله سبحانه وتعالى.

ثالثا:- أن الكون وجد على سبيل الإتقان مما يمنع كونه وجد من غير موجد ويدل عليه قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ [الملك: ٣ - ٤].

رابعا:- إبطال الشرك في الربوبية كما في قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ [المؤمنون: ١٩].

وصورة الدليل في الآية هو: (إن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك والتفرد بالملك والألوهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه وإذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلابد من أحد ثلاثة أمور:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه.

فالفرض الأول غير ممكن إذ لابد أن تبين أثار فعله في الكون. والفرض الثاني ممتنع ضرورة اختلال الكون نتيجة العلو وتضارب الإرادات، والثالث هو الحق وهو كون الرب هو الإله الواحد".[انظر: شرح الطحاوية:ص: ٢٦، ٢٧، والأسئلة والأجوبة الأصولية: ٢٠٦، ٢٠٧، و إتحاف المريد بمعرفة التوحيد لإبراهيم بن محمد البريكان- ص: ٢٦].

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فأنت: يا عبد الله، مخلوق في هذه الدار، لا لتبقى فيها، ولا لتخلد فيها، ولكنك خلقت فيها لتنقل منها بعد العمل، وقد تنقل منها قبل العمل، وأنت صغير لم تبلغ، ولم يجب عليك العمل لحكمة بالغة.

فالمقصود: أنها دار ممزوجة بالشر والخير، ممزوجة بالأخلاط من الصلحاء وغيرهم، ممزوجة بالأكدار والأفراح، والنافع والضار، وفيها الطيب والخبيث، والمرض والصحة، والغنى والفقر، والكافر والمؤمن، والعاصي والمستقيم، وفيها أنواع من المخلوقات خلقت لمصلحة الثقلين، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: ٢٩].

والمقصود من هذه الخليقة كما تقدم: أن يعظم الله، وأن يطاع في هذه الدار، وأن يعظم أمره ونهيه، وأن يعبد وحده سبحانه وتعالى بطاعة أوامره، وترك نواهيه، وقصده سبحانه في طلب الحاجات، وعند الملمات، ورفع الشكاوى إليه، وطلب الغوث منه، والاستعانة به في كل شيء، وفي كل أمر من أمور الدنيا والآخرة. فالمقصود من خلقك وإيجادك: يا عبد الله، هو توحيده سبحانه، وتعظيم أمره ونهيه، وأن تقصده وحده في حاجاتك، وتستعين به على أمر دينك ودنياك، وتتبع ما جاء به رسله، وتنقاد لذلك طائعا مختارا، محبا لما أمر به، كارها لما نهى عنه، ترجو رحمة ربك، وتخشى عقابه سبحانه وتعالى[١].

القرآن

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)} [إبراهيم : ٢١]

التفسير:

وخرجت الخلائق من قبورهم، وظهروا كلهم يوم القيامة لله الواحد القهار؛ ليحكم بينهم، فيقول الأتباع لقادتهم: إنَّا كنَّا لكم في الدنيا أتباعًا، نأتمر بأمركم، فهل أنتم -اليوم- دافعون عنا من عذاب الله شيئًا كما كنتم تَعِدوننا؟

فيقول الرؤساء: لو هدانا الله إلى الإيمان لأرشدناكم إليه، ولكنه لم يوفقنا، فضللنا وأضللناكم، يستوي علينا وعليكم الجَزَع والصبر عليه، فليس لنا مهرب من العذاب ولا منجى.

قوله تعالى:{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا} [إبراهيم : ٢١]، أي:" وخرجت الخلائق من قبورهم، وظهروا كلهم يوم القيامة لله الواحد القهار؛ ليحكم بينهم"[٢].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: يوم القيامة"[٣].

قال القرطبي:" أي: برزوا من قبورهم، يعني: يوم القيامة"[٤].

قال الزجاج:" أي: جمعهم الله في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع"[٥].

قال مقاتل:" يقول وخرجوا من قبورهم إلى الله {جميعا}، يعني: بالـ«جميع»: أنه لم يغادر منهم أحد إلا بعث بعد موته"[٦].

قال ابن كثير:" أي : برزت الخلائق كلها ، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار ، أي : اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا"[١].

---

(١) انظر: بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا وبعث به خاتمهم محمدا عليه السلام، ابن باز:٨-١١.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٣٦٦/٢.
(٤) تفسير القرطبي:٣٥٥/٩.
(٥) معاني القرآن:١٥٨/٣.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٢/٢.

قال السعدي:" {وبرزوا}، أي: الخلائق {لله جميعا}، حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟"(٢).

قال الشوكاني:" «البروز»: الظهور، و«البراز»: المكان الواسع لظهوره، ومنه :امرأة برزة، أي: تظهر للرجال، فمعنى «برزوا»: ظهروا من قبورهم. وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني، وإنما قال: {وبرزوا لله}، مع كونه سبحانه عالما بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي، ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه"(٣).

قوله تعالى:{فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} [إبراهيم : ٢١]، أي:" فيقول الأتباع لقادتهم: إنَّا كنَّا لكم في الدنيا أتباعًا، نأتمر بأمركم"(٤).

قال الزجاج:" {فقال الضعفاء}، وهم الأتباع، {للذين استكبروا} وهم المتبوعون، {إنا كنا لكم تبعا}، أي: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه"(٥).

قال الطبري:" يقول: فقال التُّبَّاع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم {إنَّا كنا لكم تَبَعًا}، في الدنيا.. وإنما عنوا بقولهم: {إنا كنا لكم تبعًا}، أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتّباع رسل الله"(٦).

قال ابن كثير:"{ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل ، فقالوا لهم : { إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا } أي : مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا"(٧).

قال الشوكاني:" أي: قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة إنا كنا لكم تبعا أي: في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم"(٨).

عن ابن جريج، قوله: "{وقال الضعفاء}، قال: الأتباع، {للذين استكبروا}، قال: للقادة"(٩).

قوله تعالى:{فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} [إبراهيم : ٢١]، أي:" فهل أنتم -اليوم- دافعون عنا من عذاب الله شيئًا كما كنتم تَعِدوننا؟"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ؟"(١١).

قوله تعالى:{قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} [إبراهيم : ٢١]، أي:" فيقول الرؤساء: لو هدانا الله إلى الإيمان لأرشدناكم إليه، ولكنه لم يوفقنا، فضللنا وأضللناكم"(١٢).

---

(١) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٨.
(٢) تفسير السعدي:٤٢٤.
(٣) فتح القدير:٣/١٢٣.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٥) معاني القرآن:٣/١٥٨.
(٦) تفسير الطبري:١٦/٥٥٧-٥٥٨.
(٧) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٨.
(٨) فتح القدير:٣/١٢٣.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٦٣٨):ص١٦/٥٥٨.
(١٠) التفسير الميسر:٢٥٨.
(١١) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٨.
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٨.

قال الطبري:" يقول عز ذكره: قالت القادةُ على الكفر بالله لتُبَّاعها: لو بَيَّن الله لنا شيئًا ندفع به عَذَابَه عنا اليوم، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جزعُنا منه وصَبْرُنا عليه"(١).

قال ابن كثير:" فقالت القادة لهم : { لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ } ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين "(٢).

قوله تعالى:{سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم : ٢١]، أي:" يستوي علينا وعليكم الجَزَع والصبر عليه، فليس لنا مهرب من العذاب ولا منجى "(٣).

قال الزجاج:" أي: ما لنا من مهرب ولا معدل عن العذاب"(٤).

قال الطبري:" يعنون: ما لهم من مَراغ يرُوغون عنه"(٥).

قال ابن كثير:" أي : ليس لنا خَلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه"(٦).

قال السعدي:"{سواء علينا أجزعنا} من العذاب {أم صبرنا} عليه، {ما لنا من محيص} أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله"(٧).

قال محمد بن كعب القرظي: "بلغني، أو ذُكِر لي أن أهل النار قال بعضهم لبعضٍ: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعل الصَّبر ينفعنا، كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا. قال: فيُجْمِعون رأيهم على الصَّبر. قال، فصبروا، فطال صبرهم، ثم جزعوا فنادوا: {سواءٌ علينا أجزِعْنَا أم صبرنَا ما لنا من محيص} ، أي من منجًي"(٨).

عن ابن زيد، في قوله: "{سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص}، قال: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدركَ أهل الجنة الجنَّةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله! قال: فبكوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنَّما أدرك أهل الجنة الجنّةَ بالصبر، تعالوا نصبر! فصبروا صبرًا لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: {سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص}"(٩).

قال ابن كثير:" والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها ، كما قال تعالى : { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } [غافر : ٤٧ ، ٤٨] ، وقال تعالى : { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ (٤) النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [الأعراف : ٣٨ ، ٣٩] ، وقال تعالى : { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨].

وأما تخاصمهم في المحشر ، فقال تعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ (١) مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ

---

(١) تفسير الطبري:٥٥٨/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٨٨/٤.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٤) معاني القرآن:١٥٨/٣.
(٥) تفسير الطبري:٥٥٨/١٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٨٨/٤.
(٧) تفسير السعدي:٤٢٤.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٦٣٩):ص٥٥٨/١٦-٥٥٩.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٠):ص٥٥٩/١٦-٥٦٠.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا (٢) النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [سبأ : ٣١ - ٣٣] "(١).

الفوائد:

١- بروز الخلائق وعرضهم على ربهم سبحانه وتعالى في الموقف، عندما يتجلى تبارك وتعالى لهم لحسابهم وفصل القضاء بينهم.

٢- بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذرا لصاحبها عند الله تعالى.

٣- من مشاهد تخاصم الكفرة في الموقف : تخاصم الضعفاء مع السادة والملوك.

القرآن

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)} [إبراهيم : ٢٢]

التفسير:

وقال الشيطان -بعد أن قضى الله الأمر وحاسب خَلْقه، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ-: إن الله وعدكم وعدًا حقًّا بالبعث والجزاء، ووعدتكم وعدًا باطلا أنه لا بَعْثَ ولا جزاء، فأخلفتكم وعدي، وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا كانت معي حجة، ولكن دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، فالذنب ذنبكم، ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله، إني تبرَّأت مِن جَعْلِكم لي شريكًا مع الله في طاعته في الدنيا. إن الظالمين -في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل- لهم عذاب مؤلم موجع.

قوله تعالى:{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" وقال الشيطان -بعد أن قضى الله الأمر وحاسب خَلْقه، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال إبليس، لما أدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، واستقرّ بكل فريق منهم قرارهم"(٣).

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه ، بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات"(٤).

قال الزمخشري:أي:" لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار"(٥).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" إن الله وعدكم وعدًا حقًّا بالبعث والجزاء"(٦).

قال الزجاج:" أي: وعد من أطاعه الجنة ووعد من عصاه النار"(٧).

قال الطبري:" أن الله وعدكم، أيها الأتباعُ، النارَ.. ووفى الله لكم بوعده"(٨).

قال ابن كثير:" فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغَبنا إلى غبْنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ } أي : على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدًا حقا ، وخبرا صدقا ، وأما أنا فوعدتكم

---

(١) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٨-٤٨٩.

(٢) التفسير الميسر:٢٥٨.

(٣) تفسير الطبري:١٦/٥٦٠.

(٤) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٩.

(٥) الكشاف:٢/٥٥٠.

(٦) التفسير الميسر:٢٥٨.

(٧) معاني القرآن:٣/١٥٨.

(٨) تفسير الطبري:١٦/٥٦٠.

وأخلفتكم ، كما قال الله تعالى : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا } [النساء : ١٢٠]"(١).

قال الزمخشري:" روى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا في الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك إن الله وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم"(٢).
وعدكم"(٢).

قوله تعالى:{وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" ووعدتكم وعدًا باطلا أنه لا بَعْثَ ولا جزاء، فأخلفتكم وعدي"(٣).

قال الطبري:" ووعدتكم النُّصْرة، فأخلفتكم وعدي"(٤).

قال الزمخشري:أي:" وعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم"(٥).

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا كانت معي حجة، ولكن دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني"(٦).

قال الطبري:" يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي إلا أن دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله، فاستجبتم لدعائي"(٧).

قال ابن كثير:" أي : ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ، { إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه"(٨).

قال الزمخشري: {من سلطان}، أي:" من تسلط وقهر، فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، {إلا أن دعوتكم}، إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب"(٩).

قال الزجاج:" أي: أغويتكم وأضللتكم، فاتبعتموني"(١٠).

عن ابن زيد:".. {وما كان لي عليكم من سلطان}، أقهركم به، {إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي}، قال: أطعتموني"(١١).

قوله تعالى:{فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" فلا ترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم"(١٢).

قال الطبري:أي:" على إجابتكم إياي، {ولوموا أنفسكم}، عليها"(١٣).

قال ابن كثير:" فإن الذنب لكم ، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل"(١٤).

قال الزمخشري:" حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم"(١).

---

(١) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٩.
(٢) الكشاف:٢/٥٥٠.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٤) تفسير الطبري:١٦/٥٦٠.
(٥) الكشاف:٢/٥٥٠.
(٦) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٧) تفسير الطبري:١٦/٥٦٠-٥٦١.
(٨) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٩.
(٩) الكشاف:٢/٥٥٠.
(١٠) معاني القرآن:٣/١٥٨.
(١١) أخرجه الطبري(٢٠٦٥٥):ص١٦/٥٦٥.
(١٢) صفوة التفاسير:٢/٨٩.
(١٣) تفسير الطبري:١٦/٥٦١.
(١٤) تفسير ابن كثير:٤/٤٨٩-٤٩٠.

عن ابن زيد:" {فلا تلوموني ولوموا أنفسكم}، حين أطعتموني"[٢].
وقرئ: «فلا يلومونى»، بالياء، على طريقة الالتفات[٣].
قوله تعالى:{مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله"[٤].
قال الطبري:" يقول: ما أنا بمُغِيثكم ، ولا أنتم بمُغيثيَّ من عذاب الله فمُنْجِيَّ منه"[٥].
قال ابن كثير:" أي : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ، { وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } أي : بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال "[٦].
قال الزمخشري:أي:" لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه. و «الإصراخ»: الإغاثة"[٧].
وفي قوله تعالى:{مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [إبراهيم : ٢٢]، وجوه:
أحدها : معناه: ما أنا بمنجيكم وما أنتم بمنجيَّ ، قاله الربيع بن أنس[٨].
الثاني : ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، قاله مجاهد[٩]، وقتادة[١٠]، وبه قال القرطبي[١١].
و«المصرخ»: المغيث . والصارخ : المستغيث . ومنه قول الشاعر[١٢]:
فَلاَ تَجْزَعُوْا إِنِّي لَكُمْ غَيْرَ مُصْرِخٍ ... وَلَيْسَ لَكُمْ عَنِّي غَنَاءٌ وَلاَ نَصْرُ
قال سلامة بن جندل[١٣]:
كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَابِيْبِ
الثالث: ما أنتم بنافعيّ وما أنا بنافعكم. قاله ابن عباس[١٤]، وهو مروي عن مجاهد أيضا[١٥].
الرابع: ما أنا بناصركم، وما انتم بناصريّ. قاله الحسن[١٦].
الخامس: معناه: ما أنا بناصركم ولا مغيثكم، وما أنتم بناصريّ ولا مغيثيّ لما بي. قاله ابن زيد[١٧].
السادس: ما أنا بمغنٍ عنكم شيئًا. قاله محمد بن كعب القرظي[١٨].
وقرئ: «بمصرخي»، بكسر الياء وهي ضعيفة، واستشهدوا لها ببيت مجهول[١٩]:

(١) الكشاف:٥٥٠/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٦٥٥):ص٥٦٥/١٦.
(٣) انظر: الكشاف:٥٥٢/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٥) تفسير الطبري:٥٦١/١٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٩٠/٤.
(٧) الكشاف:٥٥١/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥٤):ص٥٦٤/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥٠):ص٥٦٤/١٦، وتفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٤٨):ص٢٢٤١/٧
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٤٨):ص٥٦٤/١٦.
(١١) انظر: تفسير القرطبي:٣٥٧/٩.
(١٢) البيت لأمية بن أبي الصلت في النكت والعيون:١٣١/٣- وتفسير القرطبي: ٣٥٧/٩، وفتح القدير:١٢٤/٣-١٢٥، وغيرها، والبيت غير منسوب في شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم:٣٧٣١/٦ ، والبحر المحيط في التفسير: ٤٢١/٦، والدر المصون:٩٥/٧، وغيرها.
(١٣)من مفضليته التي مطلعها:
أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب ... أودى، وذلك شأو غير مطلوب
وهو في ديوانه ص ١٢٣، والمفضليات ص ١٢٤ .
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٤٩):ص٥٦٤/١٦.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٤٧):ص٢٢٤١/٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٤٦):ص٥٦٣/١٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥٥):ص٥٦٥/١٦.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٤٧):ص٥٦٣/١٦.
(١٩) انظر: الكشاف:٥٥١/٢، ولم أعثر على قائله.

قال لها هل لك يا تافى ... قالت له ما أنت بالمرضى[1].

قوله تعالى:{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" إني تبرَّأت مِن جَعْلِكم لي شريكًا مع الله في طاعته في الدنيا"[2].

قال الطبري:" يقول: إني جَحدْت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم {من قبل}في الدنيا"[3].

عن ابن عباس:" {إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: شركته، عبادته"[4]. وروي عن مجاهد مثله ذلك[5].

قال قتادة:" يقول: عصيت الله قبلكم"[6].

قال محمد بن كعب القرظي:" فلما سمعوا مقالته مَقَتُوا أنفسهم، قالا فنودوا: (لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) ، الآية [سورة غافر: ١٠]" [7].

قال الحسن:" إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيبًا على منبر من نار، فقال: {إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم} ، إلى قوله: {وما أنتم بمصرخيّ}، قال: بناصريَّ {إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: بطاعتكم إياي في الدنيا"[8].

عن عامر في هذه الآية: "{ما أنا بمُصْرخكم وما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: خطيبان يقومان يومَ القيامة، إبليسُ وعيسى ابن مريم. فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول. وأما عيسى عليه السلام فيقول: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[سورة المائدة: ١١٧]"[9].

قوله تعالى:{إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم : ٢٢]، أي:" إن الظالمين -في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل- لهم عذاب مؤلم موجع"[10].

قال الطبري:" يقول: إن الكافرين بالله لهم عذاب {أليم}، من الله موجِع"[11].

قال الزمخشري:" قوله: {إن الظالمين}، قول الله عز وجل. ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم"[12].

عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ، ذكر الحديث، قال: "يقول عيسى: ذلكم النبيُّ الأميّ. فيأتونني، فيأذن الله لي أن أقوم، فيثور من مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحدٌ، حتى آتي

و«تا»: اسم إشارة، أى: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فان حركت فبالفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

وقالت: استئناف، كأنه قيل له: فماذا قالت؟ فقال: قالت له لست مرضيا، فإنك رجل ماض في كل أمرتهم فيه، فماض: خبر لمبتدإ محذوف. والجملة: استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله: هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ لفظ «هو» فيكون التفاتا من الخطاب إلى الغيبة، دلالة على الاعراض عنه، وذكر السبب لغيره.

(١) انظر: الكشاف:٥٥١/٢.

(٢) التفسير الميسر:٢٥٨.

(٣) تفسير الطبري:٥٦١/١٦.

(٤) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٩):ص٥٦٤/١٦.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٤٧):ص٢٢٤١/٧.

(٦) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٨):ص٥٦٤/٦.

(٧) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٧):ص٥٦٣/١٦-٥٦٤.

(٨) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٦):ص٥٦٣/١٦.

(٩) أخرجه الطبري(٢٠٦٤١):ص٥٦١/١٦.

(١٠) التفسير الميسر:٢٥٨.

(١١) تفسير الطبري:٥٦١/١٦.

(١٢) الكشاف:٥٥٢/٢.

ربي فيشفعني، ويجعل لي نُورًا إلى نور، من شَعَر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنكَ أنت أضللتنا. فيقوم، فيثورُ من مجلسه أنتنُ ريح شَمَّها أحدٌ، ثم يعظم لجهنّم، ويقول عند ذلك: {إن الله وعدكم وعد الحق ووعدكم فأخلفتكم} ، الآية"(١).

قال ابن كثير:" والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار"(٢).

الفوائد:

١- بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس.

٢- تقرير لعلم الله بما لم يكن كيف يكون إذ ما جاء في الآيات من حوار لم يكن بعد ولكنه في علم الله كائن كما هو وسوف يكون كما جاء في الآيات لا يتخلف منه حرف واحد.

٣- وعيد الظالمين بأليم العذاب.

القرآن

{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)} [إبراهيم : ٢٣]

التفسير:

وأُدخل الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لا يخرجون منها أبدًا -بإذن ربهم وحوله وقوته- يُحَيَّوْن فيها بسلام من الله وملائكته والمؤمنين.

قوله تعالى:{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [إبراهيم : ٢٣]، أي:" وأُدخل الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار"(٣).

قال ابن كثير:" ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنَّكَال. وأن خطيبهم إبليس ، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا"(٤).

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»، على فعل المتكلم، بمعنى: وأدخل أنا. وهذا دليل على أنه من قول الله(٥).

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [إبراهيم : ٢٣]، أي:" لا يخرجون منها أبدًا -بإذن ربهم وحوله وقوته-"(٦).

قال السمعاني:" مقيمين فيها أبدا، بأمر ربهم"(٧).

قال ابن كثير:" ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون "(٨).

قال الزمخشري:" {بإذن ربهم}، متعلق بـ«أدخل»، أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٦٤٥):ص٥٦١/١٦-٥٦٢. في سنده "رشدين بن سعد المصري "، رجل صالح، أدركته غفلة الصالحين، فخلط في الحديث، فليس يبالي عمن روى، وهو ضعيف متروك، عنده معاضيل ومناكير، وفيه أيضا و" عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني الإفريقي "، رجل صالح، ولكنه منكر الحديث، وإن وثقه بعضهم.

(٢) تفسير ابن كثير:٤٩٠/٤.

(٣) التفسير الميسر:٢٥٨.

(٤) تفسير ابن كثير:٤٩١/٤.

(٥) انظر: الكشاف:٥٥٢/٢.

(٦) التفسير الميسر:٢٥٨.

(٧) تفسير السمعاني:١١٣/٣.

(٨) تفسير ابن كثير:٤٩١/٤.

قال القرطبي:" {بإذن ربهم}، أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: {بإذن ربهم} ولم يقل: «بإذني»، تعظيما وتفخيما"[٢].

قوله تعالى:{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم : ٢٣]، أي:" يُحَيَّوْن فيها بسلام من الله وملائكته والمؤمنين"[٣].

قال البغوي:" يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم"[٤].

وفي قوله تعالى:{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم : ٢٣]، وجهان:

أحدهما : أن تحية أهل الجنة إذا تلاقوا فيها السلامه ، حكاه االماوردي عن الجمهور[٥].

الثاني : أن التحية ها هنا الملك، ومعناه: أن ملكهم فيها دائم السلام ، مأخوذ من قولهم في التشهد : التحيات لله، أي الملك لله ، ذكره ابن شجرة[٦].

وفي المحيّي لهم بالسلام، ثلاثة أقوال[٧]:

أحدها: أن المحيي بالسلام هو الله تعالى.

الثاني: : أن الملائكة يحيونهم بالسلام.

والثالث: أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام.

الفوائد:

١- أن العمل لا يدخل الجنة إلا بوصفه سببا لا غير، وإلا فدخول الجنة يكون بإذن الله تعالى ورضاه.

٢- أن السلام هو تحية المسلمين فيما بينهم في الدنيا فكذلك هو تحيتهم فيما بينهم في الدار الآخرة كما قال تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}.

وإذا علم فضل السلام وأنه تحية المسلمين في الدارين فليعلم أيضًا أنه لا أسفه رأيًا ممن رغب عن ذلك واستبدل عنه بإشارات الإفرنج وضربهم بالأرجل.

القرآن

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)} [إبراهيم : ٢٤]

التفسير:

ألم تعلم -أيها الرسول- كيف ضرب الله مثلا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة، وهي النخلة، أصلها متمكن في الأرض، وأعلاها مرتفع علوًّا نحو السماء؟

قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم : ٢٤]، أي:" ألم تعلم -أيها الرسول- كيف ضرب الله مثلا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة"[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم كيف مثَّل الله مثَلا وشبَّه شبَهًا {كلمة طيبة}، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه، كشجرة طَيّبة الثمرة"[٩].

في قوله تعالى:{كَلِمَةً طَيِّبَةً} [إبراهيم : ٢٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنها شهادةُ أن لا إله إلا الله. قاله ابن عباس[١٠].

---

(١) الكشاف:٥٥٢/٢.
(٢)الجامع لأحكام القرآن:٣٥٨/٩.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٤) تفسير البغوي:٣٤٦/٤.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٣١/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٣١/٣.
(٧) انظزر: النكت والعيون:١٣١/١، وتفسير السمعاني:١١٣/٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٩) تفسير الطبري:٥٦٦/١٦-٥٦٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥٨):ص٥٦٧/١٦.

الثاني: أنها الإيمان. ومجاهد[١]، وابن جريج[٢].
والثاني : أنه عنى بها المؤمن نفسه، قاله ابن عباس أيضا[٣]، وبه قال قال عطية العوفي[٤]، والربيع بن أنس[٥].

وفي «الشجرة الطيبة» قولان :

أحدهما : أنها النخلة، قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-[٦]، ومجاهد[٧]، والربيع بن أنس[٨]، أنس[٨]، وعكرمة[٩]، والضحاك[١٠]، وقتادة[١١]، ومسروق[١٢]، وابن زيد[١٣].

وروي عن أنس: "أن رسول الله ﷺ أُتِي بقِناع بُسْر[١٤]، فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هي النخلة"[١٥].

الثاني : أنها شجرة في الجنة ، قاله ابن عباس في رواية قابوس بن أبي ظبيان[١٦].

قال الطبري:" وأولى القولين بالصواب في ذلك قولُ من قال: هي «النخلة»، لصحَّة الخبر عن رسول الله ﷺ ...عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: صحبتُ ابنَ عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يُحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا قال، كنّا عند النبي ﷺ، فأتي بجُمَّار فقال: من الشَّجر شجرةٌ مَثَلُها مثلُ الرَّجُل المسلم. فأردت أن أقول: «هي النخلة»، فإذا أنا أصغرُ القوم، فسكتُّ، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»[١٧]"[١٨].

وروي عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قلب العباد ظهرا وبطنا، فكان خير العرب قريشا. وهي الشجرة المباركة التي قال الله في كتابه: مثلا كلمة طيبة يعني القرآن كشجرة طيبة يعني بها قريشا أصلها ثابت يقول: أصلها كبير وفرعها في السماء يقول: الشرف الذي شرفهم الله بالإسلام الذي هداهم الله له وجعلهم من أهله»[١٩].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٣٢/٣، وتفسير القرطبي:٣٥٩/٩.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٣٢/٣، وتفسير القرطبي:٣٥٩/٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٧١):ص٥٦٨/١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٧٢):ص٥٦٨/١٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٧٣):ص٥٦٨/١٦-٥٦٩.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٩٢):ص٥٧٢/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٧٠):ص٥٦٨/١٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٧٤):ص٥٦٩/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨٧):ص٥٧٢/١٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨٨):ص٥٧٢/١٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨٩):ص٥٧٢/١٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨٣):ص٥٧١/١٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٩١):ص٥٧٢/١٦.
(١٤)" القناع "، بكسر القاف، و " القنع "، بكسر فسكون، هو الطبق الذي يؤكل عليه الطعام، أو الذي تؤكل فيه الفاكهة، ويقال هو للرطب خاصة. و " البسر ". بضم فسكون، التمر قبل أن يرطب، وهو ما لم يلون ولم ينضج، فإذا نضج فقد أرطب، فهو رطب.
(١٥) أخرجه الطبري(٢٠٦٧٨):ص٥٧٠/١٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٩٥):ص٥٧٣/١٦.
(١٧) تفسير الطبري(٢٠٦٩٦):ص٥٧٣/١٦.
إسناده صحيح، رواه من هذه الطريق أحمد في مسنده رقم: ٤٥٩٩، ورواه أحمد أيضًا من طريق شريك، عن سلمة بن كهيل. عن مجاهد، مطولا ومختصرًا (٥٦٤٧، ٥٩٥٥) ورواه البخاري في صحيحة (الفتح ١: ١٥١) ، ومسلم في صحيحة (١٧: ١٥٢) من ثلاث طر ق: من طريق أيوب، عن أبي الخليل الضبعي، عن مجاهد، ومن طريق سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، ومن طريق ابن نمير، عن أبيه، عن سيف، عن مجاهد.
(١٨) تفسير الطبري:٥٧٣/١٦.
(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٦١):ص٢٢٤٤/٧.

قوله تعالى:{أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم : ٢٤]، أي:" أصلها متمكن في الأرض، وأعلاها مرتفع علوًّا نحو السماء"(١).

قال الطبري:" يقول عز ذكره: أصلُ هذه الشجرة ثابتٌ في الأرض، {وفرعها}، -وهو أعلاها- في {السماء}، يقول: مرتفع علُوًّا نحوَ السماء"(٢).

عن ابن عباس: " {أصلها ثابتٌ}، يقول: لا إله إلا الله، ثابتٌ في قلب المؤمن، {وفرعها في السماء}، يقول: يُرْفَع بها عملُ المؤمن إلى السماء"(٣).

وقال ابن عباس أيضا:" يعني بالأصل الثابت في الأرض، وبالفرع في السماء، يكون المؤمن يعمَلُ في الأرض، ويتكلّم، فيبلغ عمله وقولُه السَّماءَ وهو في الأرض"(٤).

عن الربيع بن أنس: "{كلمة طيبة}، قال: هذا مَثَلُ الإيمان، فالإيمان الشَّجرة الطيبة، وأصله الثابت الذي لا يزول الإخلاصُ لله، وفرعُه في السماء، فَرْعُه خشْية الله"(٥).

حكي ابن جريج عن آخرين :"«الكلمة الطيبة»، أصلها ثابت، هي ذات أصل في القلب ، {وفرعها في السماء}، تَعْرُجُ فلا تُحْجَب حتى تنتهي إلى الله"(٦).

القرآن

{تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)} [إبراهيم : ٢٥]

التفسير:

تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية يُرفع إلى الله وينال ثوابه في كل وقت. ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا.

قوله تعالى:{تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم : ٢٥]، أي:" تعطي ثمرها كلَّ وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعملُه يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت"(٧).

قال الطبري:" يقول: تطعم ما يؤكل منها من ثمرها كلّ حين بأمرِ ربها"(٨).

قال قتادة:" يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف"(٩).

عن الربيع بن أنس: "{تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}، يصعد عملُه، يعني عَمل المؤمن مِن أوّل النهار وآخره"(١٠).

وفي «الحين» -ها هنا- وجوه من التفسير(١١):

أحدها: يعني كل سنة، لأنها تحمل كل سنة. قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-(١٢)، ومجاهد(١٣)، وابن زيد(١٤)، وحماد(١٥)، والحكم(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٨.
(٢) تفسير الطبري:٥٦٧/١٦.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٦٥٨):ص٥٦٧/١٦.
(٤) أخرجه الطبري(٢٠٦٧١):ص٥٦٨/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٦٥٩):ص٥٦٨/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٦٧٠):ص٥٦٨/١٦.
(٧) صفوة التفاسير:٨٩/٢.
(٨) تفسير الطبري:٥٦٧/١٦.
(٩) أخرجه الطبري(٢٠٧٣٤):ص٥٨٢/١٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٧٣٦):ص٥٨٢/١٦.
(١١) انزر: النكت والعيون:١٣٢/٣-١٣٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٣٠):ص٥٨٠/١٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٨):ص٥٨٠/١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٩):ص٥٨٠/١٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٧):ص٥٨٠/١٦.

عن عكرمة قال:" أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس، إني حلفت أن لا أفعل كذا وكذا، حينًا، فما الحين الذي تعرف به؟ قلت: إنّ من الحين حينًا لا يدرك، ومن الحين حينٌ يُدرك، فأما الحين الذي لا يُدرك فقول الله: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [سورة الإنسان: ١] ، والله ما يدري كم أتَى له إلى أن خُلِق، وأما الذي يُدرك فقوله: {تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}، فهو ما بين العام إلى العام المُقْبِل. فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت"(٢).

الثاني : كل ثمانية أشهر ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٣)، لأنها مدة الحمل ظاهراً وباطناً .

الثالث : كل ستة أشهر ، قاله ابن عباس(٤)، والحسن(٥)، وسعيد بن جبير(٦)، وعكرمة(٧)، وسعيد بن المسيب(٨)، وبه قال مقاتل(٩)، والفراء(١٠)، وابو عبيدة(١١).

روي عن ابن عباس: "أنه سئل عن رجل حَلَف أن لا يكلم أخاه حينًا؟ قال: «الحينُ» ستة أشهر.ثم ذكر النخلة، ما بينَ حملها إلى صِرَامها سِتَّة أشهر"(١٢).

الرابع : أن «الحين»: ما بين الستة الأشهر والسبعة. قاله الحسن أيضا(١٣).

الخامس: كل أربعة أشهر ، قاله سعيد بن المسيب(١٤). لأنها مدة يرونها من طلعها إلى جذاذها .

السادس : كل شهرين، لأنها مدة صلاحها إلى جفافها. وهذا قول سعيد بن المسيب(١٥).

السابع : كل غدوة وعشية ، لأنه وقت اجتنائها ، قاله ابن عباس(١٦)، والربيع بن أنس(١٧).

وقال الضحاك:" المؤمن يطيع الله بالليل والنهار وفي كل حينٍ"(١٨).

وقال الضحاك أيضا:" هذا مثلُ المؤمن يعمل كل حين، كل ساعة مِن النهار، وكل ساعة من الليل، وبالشتاء والصيف، بطاعة الله"(١٩).

وقال الربيع بن انس:" يصعَدُ عمله أولَ النهار وآخره"(٢٠).

قال الزجاج:" وجميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهب إلى أن «الحين» اسم كالوقت، يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت، فالمعنى في قوله تعالى {تؤتي أكلها كل حين} أنها

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٧):ص٥٨٠/١٦.
(٢) أخرجه الطبري(٢٠٧٣١):ص٥٨١/١٦.
(٣) انزر: النكت والعيون:١٣٢/٣-١٣٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧١٥):ص٥٧٧/١٦.
(٥) انزر: النكت والعيون:١٣٢/٣-١٣٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٢):ص٥٧٩/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧١٧):ص٥٧٨/١٦.
(٨) انظر: تفسير التستري:٨٦. حكاه عنه سهل بن عبدالله التستري.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٤/٢.
(١٠) انظر: معاني القرآن:٤٥/٢.
(١١) انظر: مجاز القرآن:٣٤٠/١.
(١٢) أخرجه الطبري(٢٠٧٢١):ص٥٧٨/١٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٢٤):ص٥٧٩/١٦.
(١٤) انزر: النكت والعيون:١٣٢/٣-١٣٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٣٣):ص٥٨١/١٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٠٢)-(٢٠٧١٠):ص٥٧٥/١٦-٥٧٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧١٣):ص٥٧٧/١٦.
(١٨) أخرجه الطبري(٢٠٧١١):ص٥٧٧/١٦.
(١٩) أخرجه الطبري(٢٠٧١٤):ص٥٧٧/١٦.
(٢٠) أخرجه الطبري(٢٠٧١٢):ص٥٧٧/١٦.

ينتفع بها في كل وقت، لا ينقطع نفعها ألبتة، والدليل على أن الحين بمنزلة الوقت قول النابغة، أنشده الأصمعي في صفة الحية والملدوغ[1]:

تَنَاذَرَها الرَّاقُون من سُوء سَمِّها ... تُطَلِّقُه حِينًا وحِينًا تُراجِعُ

فالمعنى: أن السم يخف ألمه في وقت ويعود وقتا"[2].

قال الإمام ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع، غدوةً وعشيةً، وكلَّ ساعة، لأن الله تعالى ذكره ضَرَب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامِه مثلا ولا شك أن المؤمن يُرفع لهُ إلى الله في كلّ يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خِلافًا للمُمَثَّل به في المعنى. وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيّنًا صحةُ ما قلنا.

فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كل وقت أكلا صيفًا وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء، فإن الطَّلْع من أكُلها، وأما في الصيف فالبَلَح والبُسْرُ والرُّطَب والتَّمرُ، وذلك كله من أكلها"[3].

قوله تعالى:{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم : ٢٥]، أي:" ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا"[4].

قال الطبري:" يقول: ويمثِّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباهَ، ليتذكروا حُجَّة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان"[5].

قال قتادة:" اعقلوا عن الله الأمثال"[6].

القرآن

{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)} [إبراهيم : ٢٦]

التفسير:

ومثل كلمة خبيثة -وهي كلمة الكفر- كشجرة خبيثة المأكل والمطعم، وهي شجرة الحنظل، اقتلعت من أعلى الأرض؛ لأن عروقها قريبة من سطح الأرض ما لها أصل ثابت، ولا فرع صاعد، وكذلك الكافر لا ثبات له ولا خير فيه، ولا يُرْفَع له عمل صالح إلى الله.

قوله تعالى:{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} [إبراهيم : ٢٦]، أي:" ومثل كلمة خبيثة -وهي كلمة الكفر- كشجرة خبيثة المأكل والمطعم"[7].

قال الطبري:" ومثل الشِّركَ بالله، وهي «الكلمة الخبيثة»، كشجرة خبيثة"[8].

وفي قوله تعالى{كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}[إبراهيم : ٢٦]، قولان:

أحدهما : أنها الشرك، وقوله :{كشجرة خبيثة}، يعني الكافر. قاله ابن عباس[1].

---

(١) ديوانه:٥٤، ، وورد في "المعاني الكبير" ٢/ ٦٦٣، و"الكامل" للمبرد ٣/ ١٣٠، و"جمهرة اللغة" ٢/ ٩٢٢، ٩٢٢، و"تهذيب اللغة" (حان) ١/ ٧١٤، "الإيضاح العضدي" ١/ ٢٠٣، و"الصحاح" (نذر) ٢/ ٨٢٦، و"معاني القرآن" للنحاس ٣/ ٥٢٩، و"تفسير الماوردي" ٣/ ١٣٢، و"المخصص" ٩/ ٦٥، و"تفسير القرطبي" ٩/ ٣٦٠، و "اللسان" (حين) ٢/ ١٠٧٤، و"الخزانة" ٢/ ٤٥٩، (تطلِّقه): أي تفارقه وتخفى الأوجاع أحياناً، وتارة تشتد عليه، وهكذا حال اللديغ، ورواية الديوان والكامل والخزانة:

«تطلِّقُه طوراً وطوراً تراجع»

ولا فرق في المعنى؛ لأن الطور كالحين، لكن لا شاهد على هذه الرواية.

(١) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ١٦١ بنصه، وورد في "تهذيب اللغة" (حان) ١/ ٧١٤ بنصه

(٢)معاني القرآن:١٦١/٣ .

(٣) تفسير الطبري:٥٨٢/١٦.

(٤) التفسير الميسر:٢٥٩.

(٥) تفسير الطبري:٥٦٧/١٦.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٦٥):ص٢٢٤٤/٧.

(٧) التفسير الميسر:٢٥٩.

(٨) تفسير الطبري:٥٨٣/١٦.

الثاني : أنها الكافر نفسه. ذكره الماوردي[٢].
وفي قوله تعالى:{ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} [إبراهيم : ٢٦]، أربعة أقوال:
أحدها : أنها شجرة الحنظل ، قاله أنس بن مالك[٣]، ومجاهد[٤].
عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: "{ومثل كَلِمة خبيثةٍ كشجرة خبيثة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قَرار} ، قال: هي الحنظلة، قال شعيب: وأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كانوا يقولون"[٥].
الثاني : أنها مثل ضربه الله، ولم تخلق هذه الشجرةُ على وجه الأرض، قاله ابن عباس[٦].
الثالث : أنها التي تجعل في المسكر. قاله أبو صخر صخر حميد بن زياد الخراط[٧].
الرابع: أنها الكشوت. ذكره الماوردي[٨].
قوله تعالى:{اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ} [إبراهيم : ٢٦]، أي:" استؤصلت من جذورها واقتعلت من الأرض لعدم ثبات أصلها"[٩].
قال قتادة:" استؤصلت من فوق الأرض"[١٠].
قوله تعالى:{مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم : ٢٦]، أي:" ليس لها استقرارٌ وثبات، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة"[١١].
قال الطبري:" يقول: ما لهذه الشجرة من قَرار ولا أصل في الأرض تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُربت هذه الشجرة التي وصَفها الله بهذه الصفة لكُفر الكافر وشركِه به مثلا. يقول: ليس لكُفر الكافر وعَمَله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثباتٌ، ولا له في السماء مَصْعَد، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء"[١٢].
عن ابن عباس:{ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار}" يقول: الشرك ليس له أصلٌ، يأخذ به الكافرُ ولا برهانٌ، ولا يقبل اللهُ مع الشرك عمل"[١٣].
وقال ابن عباس:" ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر. يقول: إن الشجرة الخبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرَار. يقول: الكافر لا يُقْبَل عمله ولا يصعَدُ إلى الله، فليس له أصل ثابتٌ في الأرض، ولا فرعٌ في السماء. يقول: ليس له عمل صَالحٌ في الدنيا ولا في الآخرة"[١٤].
قال قتادة:" إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال: ما تقول في" الكلمة الخبيثة"، فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مَصْعَدًا، إلا أن تَلْزَم عُنُقَ صاحبها، حتى يوافي بها القِيامة"[١٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٥٥):ص٥٨٨/١٦.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٣٤/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٣٧)-(٢٠٧٤٥):ص٥٨٣/١٦-٥٨٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٤٦):ص٥٨٤/١٦-٥٨٥.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٧٤٨):ص٥٨٥/١٦. قال الترمذي أن هذا الخبر لم يرفعه غير حماد بن سلمة، وأن الموقوف أصح.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٤٧):ص٥٨٥/١٦.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٦٣):ص٢٢٤٤/٧.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٣٤/٣.
(٩) صفوة التفاسير:٨٩/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٢٠٧٤٩):ص٥٨٦/١٦.
(١١) صفوة التفاسير:٨٩/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٥٨٦/١٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٢٠٧٥٥):ص٥٨٨/١٦.
(١٤) أخرجه الطبري(٢٠٧٥٠):ص٥٨٦/١٦.
(١٥) أخرجه الطبري(٢٠٧٥١):ص٥٨٧/١٦.

عن الربيع بن أنس: "{ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة} ، قال: هذا الكافر ليس له عمل في الأرض، ولا ذكرٌ في السماء، {اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار}، قال: لا يصعد عمله إلى السماء، ولا يقوم على الأرض. فقيل: فأين تكون أعمالهم؟ قال: يَحْمِلون أوزارهم على ظُهورهم"[١].

قال الضحاك:" ضربَ الله مثلَ الكافر: {كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار}، يقول: ليس لها أصلٌ ولا فرع، وليست لها ثمرة، وليس فيها منفعة، كذلك الكافر ليس يعمل خيرًا ولا يقوله، ولم يجعل الله فيه بركةً ولا منفعة"[٢].

عن عطية العوفي: "{ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض}، قال: مثل الكافر، لا يصعَد له قولٌ طيب ولا عملٌ صالح"[٣].

فوائد الآيات:[٢٤-٢٦]:

١- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٢- المقارنة بين الإيمان والكفر، وكلمة التوحيد وكلمة الكفر وما يثمره كل واحد من هذه الأصناف من خير وشر.

القرآن

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)} [إبراهيم : ٢٧]

التفسير:

يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وما جاء به من الدين الحق يثبتهم الله به في الحياة الدنيا، وعند مماتهم بالخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال المَلَكين بهدايتهم إلى الجواب الصحيح، ويضل الله الظالمين عن الصواب في الدنيا والآخرة، ويفعل الله ما يشاء من توفيق أهل الإيمان وخِذْلان أهل الكفر والطغيان.

سبب النزول:

عن خيثمة، عن البراء، قال:"{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، قال: نزلت في عذاب القبر"[٤].[صحيح]

عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ، قال: " {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧] ، قال: " نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد، فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]"[٥]. ٢٧]"[٥]. [صحيح]

قوله تعالى:{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم : ٢٧]، أي:" يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وما جاء به من الدين الحق يثبتهم الله به في الحياة الدنيا، وعند مماتهم بالخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال المَلَكين بهدايتهم إلى الجواب الصحيح"[٦].

وفي قوله تعالى:{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم : ٢٧]، وجوه:

أحدها : يزيدهم الله أدلة على القول الثابت[٧].

الثاني : يديمهم الله على القول الثابت[٨]، ومنه قول عبد الله بن رواحة[١]:

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٧٥٣):ص٥٨٧/١٦.

(٢) أخرجه الطبري(٢٠٧٥٧):ص٥٨٨/١٦.

(٣) أخرجه الطبري(٢٠٧٥٤):ص٥٨٨/١٦.

(٤) أخرجه النسائي(٢٠٥٦):ص١٠١/٤. حكم الألباني«صحيح».

(٥) أخرجه ابن ماجة(٤٢٦٩):ص١٤٢٧/٢، والنسائي(٢٠٥٧):ص١٠١/٤. حكم الألباني«صحيح».

(٦) التفسير الميسر:٢٥٩.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٣٥/٣.

(٨) انظر: النكت والعيون:١٣٥/٣.

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا
الثالث: يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم. بالقول الحق. قاله ابن جرير الطبري[٢].
وفي قوله : {بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم : ٢٧]، ثلاثة وجوه :
أحدها : أنه الشهادتان ، قاله طاوس[٣]، ومقاتل[٤]، وابن جرير الطبري[٥].
الثاني : أنه العمل الصالح[٦].
والثالث : أنه القرآن. أفاده الماوردي[٧].
وفي قوله تعالى:{فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ} [إبراهيم : ٢٧]، وجهان:
أحدهما : أن المراد بـ«الحياة الدنيا»: زمان حياته فيها، ومعنى ذلك: يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وبـ«الآخرة»: المساءلة في القبر، قاله طاوس[٨]، وقتادة[٩]، ومقاتل[١٠]، ويحيى بن سلام[١١]، والفراء[١٢].
الثاني : أن المراد بـ«الحياة الدنيا»: المساءلة في القبر إذا أتاه المَلكان في القبر فقالا له: مَن ربك؟ فقال: ربّي الله. فقالا له: ما دينك؟ قال: دينيَ الإسلام. فقالا له: مَن نبيك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ. فذلك التثبيت في الحياة الدنيا. قاله البراء بن عازب[١٣]، وطاوس[١٤]، والمسيب بن رافع[١٥]، ومجاهد[١٦].
عن أبي سعيد قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فقال: يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قُبورها، فإذا الإنسان دُفِن وتفرَّق عنه أصحابه، جاءه ملك بيده مِطْراقٌ فأقعده فقال: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله. فيقول له: صدقْتَ. فيفتح له بابٌ إلى النار فيقال: هذا منزلك لو كفرتَ بربّك، فأما إذْ آمنت به، فإن الله أبدَلك به هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينْهَضَ له، فيقال له: اسكُنْ. ثم يُفْسَح له في قبره. وأما الكافِر أو المنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما أدري! فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَدَرّيتَ ولا اهتديتَ! ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة فيقال له: هذا كان منزلك لو آمنت بربك، فأما إذْ كفرت، فإن الله أبدَلك هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى النار، ثم يَقْمَعُه المَلَكُ بالمطراق قَمْعَةً يسمعه خَلْقُ الله كُلهم إلا الثقلين. قال، بعضُ أصحابه، يا رسولَ الله، ما مِنَّا أحدٌ يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْراق إلا هِيلَ عند ذلك! فقال رسول الله ﷺ: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثَّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء}"[١٧].
قال ابن عباس: "إن المؤمن إذا حضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا ماتَ مشَوْا في جنازته ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له:

---

(١)ديوانه: ١٥٩. وانظر: طبقات ابن سعد" ٣/ ٥٢٨، "سيرة ابن هشام" ٣/ ٤٢٨، "سير أعلام النبلاء" ١/ ٢٣٤، و"الاستيعاب" ٣/ ٣٥، "الدر المصون" ١/ ٥٩١، "البحر المحيط" ٢/ ٣١١، ٢٢٧، ٦/ ٨٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٥٨٩/١٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٢٧٠):ص٢٢٤٦/٧.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٥/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٥٨٩/١٦.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٣٥/٣.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٣٥/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٨٤):ص٦٠٢/١٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٨٥):ص٦٠٢/١٦.
(١٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٥/٢.
(١١) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:٣٥٣.
(١٢) انظر: معاني القرآن:٧٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٥٨):ص٥٨٩/١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٧٥):ص٦٠٠/١٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٧٧):ص٦٠٠/١٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٨٣):ص٦٠١/١٦-٦٠٢.
(١٧) أخرجه الطبري(٢٠٧٦٢):ص٥٩١/١٦-٥٩٢.

من ربكَ؟ فيقول: ربّيَ الله. ويقال له: منْ رسولك؟ فيقول: محمد. فيقال له: ما شهادَتُك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فيوسَّع له في قبره مَدّ بَصَره"[١].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وهو أنّ معناه: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا}، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ ، {وفي الآخرة} بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ"[٢].

قوله تعالى:{وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم : ٢٧]، أي:" ويضل الله الظالمين عن الصواب في الدنيا والآخرة"[٣].

قال الطبري:" يعني، أن الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، لما هدي له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله ﷺ"[٤].

قال ابن عباس:" أما الكافرُ فتنزل الملائكة إذا حضره الموت، فيبسُطون أيديهم-" والبَسْط"، هو الضرب يضربون وجوههم وأدبارَهم عند الموت-. فإذا أدْخِل قبره أقعد فقيل له: من ربك؟ فلم يرجِع إليهم شيئًا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل له: من الرسول الذي بُعِث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئًا، يقول الله: {ويضل الله الظالمين}"[٥].

عن البراء قال: "قال رسول الله ﷺ، وذَكَر الكافر حين تُقْبض روحه، قال: فتعاد روحُه في جسده. قال، فيأتيه ملَكان شديدَا الانتهار، فيجلسانه فينتهرانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدري؟ قال فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: لا أدري، قال: فيقال له: ما هذا النبيّ الذي بُعِث فيكم؟ قال: فيقول: سمعت الناس يقولون ذلك، لا أدري. قال، فيقولان: لا دريتَ. قال: وذلك قول الله: {ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء}"[٦].

قوله تعالى:{وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم : ٢٧]، أي:" ويفعل الله ما يشاء من توفيق أهل الإيمان وخِذْلان أهل الكفر والطغيان"[٧].

قال الطبري:يعني: " وبيدِ الله الهداية والإضلال، فلا تنكروا، أيها الناس، قدرتَه، ولا اهتداءَ من كان منكم ضالا ولا ضلالَ من كان منكم مهتديًا، فإنّ بيده تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم : ٢٧]، وجهان[٩]:

أحدهما : مِن إمهال وانتقام .

الثاني : من ضغطة القبر ومساءلة منكر ونكير .

وروي ابن عباس أن النبي -ﷺ-قال : « لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمَّ ضمة، ثم رخي عنه»[١٠].

وفي رواية:" لو نجا أحدٌ من ضَمَّةِ القبر لنجا منها هذا العبدُ الصالح "[١١].

---

(١) أخرجه الطبري(٢٠٧٧٤):ص٥٩٩/١٦-٦٠٠.
(٢) تفسير الطبري:٦٠٢/١٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٤) تفسير الطبري:٦٠٢/١٦.
(٥) أخرجه الطبري(٢٠٧٨٦):ص٦٠٣/١٦.
(٦) أخرجه الطبري(٢٠٧٨٧):ص٦٠٣/١٦.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٨) تفسير الطبري:٦٠٣/١٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٣٣/٣.
(١٠)رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ٣٣٤) (١٠٨٤٩)، وفي ((المعجم الأوسط)) (٦/ ٣٤٩) (٦٥٩٣). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٤٩): رجاله موثقون، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٣٠٦).
(١١)حديث صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٥٥ و٩٨، والطحاوي في " شرح مشكل الآثار " (٢٧٣) و (٢٧٤) و

عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال: "إن عذاب القبر من ثلاثة من الغيبة والنميمة والبول فإياكم وذلك"(١).

وقال قتادة : "ذكر لنا أنّ عذاب القبر من ثلاثة : ثلثٌ من البول . وثلثٌ من الغيبة ، وثلثٌ من النميمة"(٢).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: الإيمان بسؤال الملكين، إذ أن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون.

قال **أبو الحسين يحيى بن أبي الخير :"** وعند أهل الحديث أن العذاب في القبرحق(٣)، وأن مسألة منكر ونكير في القبرحق على ما جاء في الأخبار(٤). وأنكر المعتزلة وأهل الزيغ ذلك كله(٥). ودليلنا قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ}"(٦).

٢- بشرى المؤمن بتثبيت الله تعالى له على إيمانه حتى يموت مؤمنا وبالنجاة من عذاب القبر حيث يجيب منكرا ونكيرا على سؤالهما إياه بتثبيت الله تعالى له.

٣- أن الله عزوجل له المشيئة النافذة في خلقه فكل صلاح وخير وطاعة وإيمان وقعت في هذه الحياة إنما وقعت بمشيئته جل وعلا ولو شاء لم تقع قال تعالى: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ} [يونس:١٦].

---

(٢٧٥) من حديث عائشة. وذكره الذهبي في " السير " ١/ ٢٩١ وقال: إسناده قوي. وانظر الاختلاف في إسناده في " شرح مشكل الآثار " ١/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(١) رواه البيهقى فى عذاب القبر. [كنز العمال ٤٤٣٤٨]، و[شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور(١٥):ص١٦٣]

(٢) النكت والعيون:١٣٣/٣.

(٣)أحاديث إثبات عذاب القبر رواها البخاري، ومسلم وغيرهم من الأئمة. انظر: صحيح البخاري ٢٧٤/٣، باب ما جاء في عذاب القبر، ومسلم رقم ٥٨٤ في المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر، ورقم ٢٨٦٦ في الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، ومالك في الموطأ ٢٣٩/١ في الجنائز، باب جامع الجنائز، والترمذي رقم ١٠٧٢ في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، والنسائي ٨٣/٤ في الجنائز، عذاب القبر، وانظر: جامع الأصول ١٦٤/١١ وما بعدها، وتفسير ابن كثير عند قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} سورة إبراهيم، آية٢٧،٥٦١/٤، وإثبات عذاب القبر للبيهقي وغيرها من كتب السنة.

(٤)سؤال الملكين رواه البخاري ٢٧٥/٣ في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ومسلم رقم ٢٨٧٠ في الجنة، وأبو داود رقم ٣٢٣١ في الجنائز، والنسائي ٧٩/٤ في الجنائز، باب مسألة الكافر، وأما تسميتهما: منكر ونكير، فرواه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر رقم ١٠٧١، وابن حبان في صحيحه، الإحسان ٤٧/٥،٤٨، والآجري في الشريعة ٣٦٥، وابن أبي عاصم في السنة ٤١٦/٢-٤١٧ عن أبي هريرة، وقال الترمذي إسناده حسن، وكذلك قال الشيخ ناصر في تخريج السنة، وفي الصحيحة ١٣٩١، وانظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٦/٢-٧، ورواه عن عمر كل من ابن أبي داود في البعث ص٣٥، والبيهقي في إثبات عذاب القبر رقم ١٠٣-١٠٥، وفي الاعتقاد ٢٢٢-٢٢٣.

(٥)عذاب القبر حق ثابت وبهذا قال أهل السنة وأكثر الفرق الإسلامية، ولم يخالف في ذلك إلا ما يحكى عن ضرار بن عمرو كان من المعتزلة ثم ترك قولهم، أما المعتزلة فإنهم على إثباته كما حكى ذلك عن نفسه وأسلافه القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٠، وقال ابن حزم: "ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر وهو قول من لقينا من الخوارج، وذهب أهل السنة وبشر بن المعتزلة والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به، وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك". الفصل في الملل والنحل والأهواء ٦٦/٤، ونسب أبو الحسن الأشعري في المقالات ١١٦/٢ نفي عذاب القبر إلى المعتزلة والخوارج، كما نسبه البغدادي في أصول الدين ص ٢٤٥ إلى الجهمية والضرارية، ونسب الملطي في التنبيه والرد على أهل الأهواء ص ١٢٤ إلى جهم بن صفوان إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير. والأرجح بالنسبة للمعتزلة حكاية القاضي عبد الجبار عن نفسه وأسلافه إذ هو أخبر بذلك وأعرف، كما أنه قد بين أن ابن الراوندي هو الذي كان يشنع عليهم إنكار عذاب القبر وعدم الإقرار به، كما أنه أورد الأدلة على إثباته من القرآن والسنة، والله أعلم.

(٦)الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار:٧٠٨/٣.

وكل فساد وانحراف ومعصية وكفر وقع في هذه الحياة إنما وقع بمشيئة الله عزوجل ولو شاء لم يقع قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}[البقرة:٢٥٣].
ويعتقد السلف أن الله عزوجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

القرآن

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)} [إبراهيم : ٢٨]

التفسير:

ألم تنظر أيها المخاطب -والمراد العموم- إلى حال المكذبين من كفار قريش الذين استبدلوا الكفر بالله بدلا عن شكره على نعمة الأمن بالحرم وبعثة النبي محمد ﷺ فيهم؟ وقد أنزلوا أتباعهم دار الهلاك حين تَسببوا بإخراجهم إلى «بدر» فقُتِلوا وصار مصيرهم دار البوار.

قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا} [إبراهيم : ٢٨]، أي:" تنظر أيها المخاطب -والمراد العموم- إلى حال المكذبين من كفار قريش الذين استبدلوا الكفر بالله بدلا عن شكره على نعمة الأمن بالحرم وبعثة النبي محمد ﷺ فيهم؟"[١].

اختلف أهل العلم في في المشار إليهم في الآية الكريمة، على أقوال:

أحدها : أنهم كفار قريش بدلوا نعمة الله عليهم لما بعث رسوله منهم، كفراً به وجحوداً له ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد[٢].

الثاني : أنها نزلت في الأفجرين من قريش بني أميه وبني مخزوم، فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر، قاله عليٌّ[٣]، ونحوه عن عمر رضي الله عنهما[٤].

الثالث : أنهم قتلى المشركين يوم بدر، قاله أبو مالك[٥]، وسعيد بن جبير[٦]، والضحاك[٧].

قال قتادة:" كنا نحدّث أنهم أهل مكة: أبو جهل وأصحابه الذين قتلهم الله يوم بدر"[٨].

وقال مجاهد وابن زيد: أنهم "المشركون من أهل بدر"[٩].

وفي رواية اخرى عن علي-رضي الله عنه- قال:"هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر. قال: فمن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا قال: منهم أهل حروراء"[١٠].

الرابع: أنهم القادة من المشركين يوم بدر. قاله أبو مالك[١١]، وقتادة[١٢].

الخامس: أنهم المشركون من أهل بدر. رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس[١٣].

السادس: أنهم كفار قريش يوم بدر، علي-رضي الله عنه-[١٤]، وسعيد بن جبير[١٥]، وأبو مالك[١٦].

وقال مجاهد:" كفار قريش"[١٧].

---

(١) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٨/١٧.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٧٤):ص٢٤٧/٧، وانظر: النكت والعيون:١٣٦/٣، وزاد المسير:٥١٣/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٥/١٧، والنكت والعيون:١٣٦/٣، وزاد المسير:٥١٣/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٩/١٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٩/١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٩/١٧.
(٨) تفسير الطبري:١٠/١٧.
(٩)زاد المسير:٥١٣/٢.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٧٦):ص٢٢٤٧/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٩/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٠/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٩/١٧.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٧٢):ص٢٢٤٦/٧-٢٢٤٧.
(١٥)زاد المسير:٥١٣/٢.
(١٦) زاد المسير:٥١٣/٢.
(١٧) تفسير الطبري:١٧/ح٨.

عن ابن أبي حسين قال: "قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن فو الله لو أعلم اليوم أحدا أعلم مني به، وإن كان من وراء البحار، لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركوا قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمان، فـ بدلوا نعمت الله «كفرا» وأحلوا قومهم دار البوار"(١).

السابع: أنهم بنو أمية، وبنو المغيرة، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إلى بدر. رواه أبو صالح عن ابن عباس(٢).

الثامن: أنهم جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. قاله ابن عباس(٣).

وذلك حين لُطم جبلة من الأيهم، فجعل له عمر رضي الله عنه القصاص بمثلها ، فلم يرض وأنف فارتد متنصراً ولحق بالروم في جماعة من قومه ، قاله ابن عباس . ولما صار إلى بلاد الروم ندم وقال :

تنصَّرت الأشْرافُ من عار لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرت لها ضَرَرْ
تكنفني منها لجاجٌ ونخوةٌ ... وبعث لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليتني أرْعَى المخاض ببلدتي ... ولم أنكِرِ القول الذي قاله عمر (٤)

التاسع: أنهم منافقو قريش، رواه أبو الطفيل عامر بن واثلة عن علي-رضي الله عنه-(٥).

العاشر: أنهم أهل مكة، رواه عطاء عن ابن عباس(٦)، وبه قال الضحاك (٧).

الحادي عشر: أنها عامة في جميع المشركين ، قاله الحسن(٨).

ويحتمل تبديلهم نعمة الله كفراً وجهين(٩):

أحدهما : أنهم بدلوا نعمة الله عليهم في الرسالة بتكذيب الرسول-ﷺ-.

قال ابن الجوزي:" قال المفسرون: وتبديلهم نعمة الله كفرا، أن الله أنعم عليهم برسوله، وأسكنهم حرمه، فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به"(١٠).

الثاني : أنهم بدلوا نعم الدنيا بنقم الآخرة .

قوله تعالى:{وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم : ٢٨]، أي:" وأنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم"(١١).

قال ابن الجوزي:" أي: الهلاك"(١٢).

قال الضحاك:" أحلوا من أطاعهم من قومهم"(١٣).

عن ابن عباس :"{ دَارَ الْبَوَارِ}، قال: الهلاك"(١٤).

قال الشوكاني:" أي: أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار، وهي جهنم"(١٥).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٧٢):ص٢٢٤٦/٧-٢٢٤٧.
(٢)زاد المسير:٥١٣/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٢٧٩):ص٢٢٤٨/٧.
(٤)انظر: النكت والعيون:١٣٦/٣، وتفسير القرطبي:٣٦٥/٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٧/١٧، وزاد المسير:٥١٣/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٨/١٦، وزاد المسير:٥١٣/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٩/١٧-١٠، وزاد المسير:٥١٣/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٣٦/٣، وزاد المسير:٥١٣/٢، وتفسير القرطبي:٣٦٥/٩.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٣٦/٣.
(١٠) زاد المسير:٥١٣/٢.
(١١) صفوة التفاسير:٩٠/٢.
(١٢) زاد المسير:٥١٣/٢.
(١٣) تفسير الطبري:١٠/١٧.
(١٤) تفسير الطبري:١١/١٧.
(١٥) فتح القدير:١٣٠/٣.

قال الطبري:" يقول: وأنزلوا قومهم من مُشركي قريش دار البوار، وهي دار الهلاك، يقال منه: بار الشيء يبور بورا: إذا هلك وبطل؛ ومنه قول ابن الزِّبعرى، وقد قيل إنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[١]:

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسانِي ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُور"[٢].

وفي قوله تعالى:{دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم : ٢٨]، وجهان:

أحدهما : أنها جهنم، قاله ابن زيد[٣].

الثاني : أنها يوم بدر، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٤]، وسعيد بن جبير[٥]، ومجاهد[٦]. ومجاهد[٦].

قال الإمام الشوكاني:" والأول أولى لقوله: {جَهَنَّمَ}[إبراهيم : ٢٩]، فإنه عطف بيان لـ«دار البوار»"[٧].

القرآن

{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)} [إبراهيم : ٢٩]

التفسير:

وهي جهنم، يدخلونها ويقاسون حرها، وقَبُحَ المستقر مستقرهم.

قوله تعالى:{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} [إبراهيم : ٢٩]، أي:" أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها"[٨].

قال ابن الجوزي:" أي: يقاسون حرها"[٩].

قال قتادة:" هي دارهم في الآخرة"[١٠].

قال القرطبي:" بيّن أن «دار البوار»: جهنم. كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار»، لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هي جهنم، أو بما عاد من الضمير في«يصلونها»، لحسن الوقف على«دار البوار»"[١١].

قوله تعالى:{وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [إبراهيم : ٢٩]، أي:" وبئست جهنم مستقرا"[١٢].

قال ابن الجوزي:" أي: بئس المقر هي"[١٣].

قال الطبري:" يقول: وبئس المستقرّ هي جهنم لمن صلاها"[١٤].

---

(١)البيت (في اللسان: بور) منسوب إلى عبد الله بن الزبعري السهمي قال: رجل بور، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث، وأنشد البيت شاهدا عليه. وفي سيرة ابن هشام أنشد البيت ونسبه إلى ابن الزبعري، قاله من أبيات حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هاربا منه في نجران. والراتق الذي يصلح ما بلي أو تمزق من الثوب، وفتقت يعني ما أحدث في الدين من مقاومة النبي وهجائه بشعره، وهو إثم يشبه الفتق في الثوب، والتوبة رتق له، وبور هالك: يقال رجل بور وبائر، وهو محل الشاهد عند المؤلف، وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن، " دار البوار " أي الهلاك والفناء، ويقال منه بار يبور، ومنه قول عبد الله ابن الزبعرى البيت.

(٢) تفسير الطبري:٥/١٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري:١١/١٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري:٦/١٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٨/١٧-٩.

(٦)انظر: النكت والعيون:١٣٦/٣، وتفسير القرطبي:٣٦٥/٩.

(٧) فتح القدير:١٣١/٣.

(٨) صفوة التفاسير:٩٠/٢.

(٩) زاد المسير:٥١٣/٢.

(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٨١):ص٢٢٤٨/٧.

(١١) تفسير القرطبي:٣٦٥/٩.

(١٢) صفوة التفاسير:٩٠/٢.

(١٣) زاد المسير:٥١٣/٢.

(١٤) تفسير الطبري:٥/١٧.

قال الشوكاني:" أي: بئس القرار قرارهم فيها، أو بئس المقر جهنم، فالمخصوص بالذم محذوف"(١).

القرآن

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)} [إبراهيم : ٣٠]

التفسير:

وجعل هؤلاء الكفار لله شركاء عبدوهم معه؛ ليُبْعدوا الناس عن دينه. قل لهم -أيها الرسول-: استمتعوا في الحياة الدنيا؛ فإنها سريعة الزوال، وإن مردَّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

قوله تعالى:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} [إبراهيم : ٣٠]، أي:" وجعل هؤلاء الكفار لله شركاء عبدوهم معه؛ ليُبْعدوا الناس عن دينه"(٢).

قال الشوكاني:" أي: جعلوا لله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام"(٣).

قال القرطبي:" أي: أصناما عبدوها { لِيُضِلُّوا} عن دينه"(٤).

قال النسفي:{ أندادا}، أي:" أمثالا في العبادة أو في التسمية"(٥).

قال السعدي:" أي: نظراء وشركاء {ليضلوا عن سبيله} أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها"(٦).

عن قتادة، قوله :"وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا}، «والأنداد»: الشركاء"(٧).

وقرئ: «ليَضَلُّوا»، بمعنى: كي يضلّ جاعلو الأنداد لله عن سبيل الله(٨).

قوله تعالى:{قُلْ تَمَتَّعُوا} [إبراهيم : ٣٠]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: استمتعوا في الحياة الدنيا؛ فإنها سريعة الزوال"(٩).

قال الطبري:" يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم"(١٠).

قال القرطبي:" {قل تمتعوا} وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع"(١١).

قال البيضاوي:" {قل تمتعوا}، بشهواتكم أو بعبادة الأوثان فإنها من قبيل الشهوات التي يتمتع بها، وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لافضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لا محالة ولذلك علله بقوله: {فإن مصيركم إلى النار}، وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من آمر مطاع"(١٢).

قال النسفي:{قل تمتعوا}، أي:" في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية"(١٣).

قال السعدي:" {قل} لهم متوعدا: {تمتعوا} بكفركم وضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم"(١٤).

قال الشوكاني:" ثم هددهم سبحانه، فقال لنبيه ﷺ: {قل تمتعوا} بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس"(١).

---

(١) فتح القدير:١٣١/٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٣) فتح القدير:١٣١/٣.
(٤) تفسير القرطبي:٣٦٥/٩.
(٥) تفسير النسفي:١٧٣/٢.
(٦) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٧) تفسير الطبري:١١/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١١/١٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٩.
(١٠) تفسير الطبري:١١/١٧.
(١١) تفسير القرطبي:٣٦٥/٩.
(١٢) تفسير البيضاوي:١٩٩/٣.
(١٣) تفسير النسفي:١٧٣/٢.
(١٤) تفسير السعدي:٤٢٦.

قال ذو النون:" «التمتع»: أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته"[2].

قوله تعالى:{فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم : ٣٠]، أي:" فإن مردَّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم"[3].

قال الطبري: يقول: "وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غبّ تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به"[4].

قال القرطبي:" أي: مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم"[5].

قال النسفي:أي:" مرجعكم اليها"[6].

قال السعدي:" أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير"[7].

قال الشوكاني:" أي: مردكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عن قربانه إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية ذلك، فجملة فإن مصيركم إلى النار تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره، ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى، والنظم القرآني عليه أدل، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف"[8].

فوائد الآيات:[٢٨-٣٠]:

١- أن الأمر في قوله تعالى :{تمتعوا}، ليس للإباحة ولا للوجوب وإنما هو للتهديد والوعيد

٢- أن «دار البوار»، من اسماء «نار جهنم».

٣- أن من أكبر موجبات العقوبة والخذلان، تبديل نعمة الله بالنقمة، وللشكران بالكفران.

القرآن

{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)} [إبراهيم : ٣١]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لعبادي الذين آمنوا: يؤدوا الصلاة بحدودها، ويخرجوا بعض ما أعطيناهم من المال في وجوه الخير الواجبة والمستحبة مسرِّين ذلك ومعلنين، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه فداء ولا صداقة.

قوله تعالى:{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ} [إبراهيم : ٣١]، أي:" قل -أيها الرسول- لعبادي الذين آمنوا: يؤدوا الصلاة بحدودها"[9].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ {قُلْ} يا محمد {لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا} بك، وصدّقوا أن ما جئتهم به من عندي {يُقِيمُوا الصَّلاةَ} يقول: قل لهم: فليقيموا الصلوات الخمس المفروضة عليهم بحدودها"[10].

---

(١) فتح القدير:١٣١/٣.
(٢) تفسير النسفي:١٧٣/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٤) تفسير الطبري:١١/١٧.
(٥) تفسير القرطبي:٣٦٥/٩.
(٦) تفسير النسفي:١٧٣/٢.
(٧) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٨) فتح القدير:١٣١/٣.
(٩) التفسير الميسر:٢٥٩.
(١٠) تفسير الطبري:١٢/١٧.

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرًا العباد بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له.. والمراد بإقامتها هو : المحافظة على وقتها وحدودها ، وركوعها وخشوعها وسجودها "(١).

قال السعدي:" أي: قل لعبادي المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: {يقيموا الصلاة} ظاهرا وباطنا"(٢).

عن ابن عباس :"{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ}، يعني: الصلوات الخمس"(٣).

قال ابن عطية:" «العباد» جمع «عبد»، وعرفه في التكرمة بخلاف «العبيد»"(٤).

قوله تعالى:{وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [إبراهيم : ٣١]، أي:" ويخرجوا بعض ما أعطيناهم من المال في وجوه الخير الواجبة والمستحبة مسرّين ذلك ومعلنين"(٥).

قال الطبري:" ولينفقوا مما رزقناهم، فخوّلناهم من فضلنا سرّا وعلانية، فليؤدّوا ما أوجبت عليهم من الحقوق فيها سرّا وإعلانا"(٦).

قال ابن كثير: أي:"وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.. وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر ، أي : في الخفية ، والعلانية وهي : الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم"(٧).

قال السعدي:" أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا {سرا وعلانية} وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها"(٨).

قال ابن عطية:" «السر» : صدقة التنفل، و «العلانية» المفروضة- وهذا هو مقتضى الأحاديث- وفسر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأموال مجملا، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس- وهذا منه- عندي- تقريب للمخاطب"(٩).

عن ابن عباس :" {وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً}، يقول: زكاة أموالهم"(١٠).

قوله تعالى:{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} [إبراهيم : ٣١]، أي:" من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه فداء ولا صداقة"(١١).

قال الطبري:" يقول: لا يقبل فيه فدية وعوض من نفس وجب عليها عقاب الله بما كان منها من معصية ربها في الدنيا، فيقبل منها الفدية، وتترك فلا تعاقب. فسمى الله جل ثناؤه الفدية عوضا، إذ كان أخذ عوض من معتاض منه. وقوله {وَلا خِلالٌ} يقول: وليس، هناك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلانا فأنا أخاله مخالة وخلالا ومنه قول امرئ القيس(١٢):

---

(١) تفسير ابن كثير:٥١٠/٤.
(٢) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٣) أخرجه الطبري١٢/١٦.
(٤) المحرر الوجيز:٣٣٨/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٦) تفسير الطبري:١٢/١٧.
(٧) تفسير ابن كثير:٥١٠/٤.
(٨) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٩) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(١٠) أخرجه الطبري١٢/١٦.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٩.
(١٢)البيت لامرئ القيس (مختار الشعر الجاهلي بشرح مصطفى السقا، طبعة الحلبي ص ٤٠) قال: الردى هنا: الفضيحة، أي لم أنصرف عنهن لأني قليّهن، ولا لأنهن قلينني، ولكن خشية الفضيحة والعار. والخلال هنا: مصدر خاله يخاله خلال ومخالة، بمعنى المصادقة، وبه استشهد المؤلف على هذا المعنى وفي (اللسان: خلل) وقوله تعالى: " لا بيع فيه ولا خلال ": قيل: هو مصدر خالك، وقيل: هو جمع خلة (بضم الخاء) كجلة وجلال، وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة: مجازة: مبايعة فدية، ولا مخالة خليل، وله موضع آخر أيضا، تجعله جمع خلة بمنزلة جلة، والجمع: جلال؛ وقلة، والجمع: قلال.

صرفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَهِ الرَّدَى ... وَلَسْتُ بِمَقْلِيَ الخِلالِ ولا قالي"[1].

قال ابن كثير:" وهو يوم القيامة ، وهو يوم { لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ } أي : لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه ، كما قال تعالى : { فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الحديد : ١٥].. المراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده ، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرا ، قال الله تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة : ١٢٣] ، وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة : ٢٥٤]"[2].

قال السعدي:" أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر"[3].

قال قتادة:" إن الله تعالى قد علم إن في الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها في الدنيا، فلينظر رجل من يخالل، وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فليعلم إن كل خلة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة، إلا خلة المتقين"[4].

الفوائد:

١- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإكثار من الصدقات لاتقاء عذاب النار.
٢- جواز صدقة العلن كصدقة السر وإن كانت الأخيرة أفضل.
٣- أورد بعض العلماء أسماءً غير مشهورة ليوم القيامة[5]، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً، فقد سموه بيوم الصدر أخذاً من قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا) [الزلزلة: ٦] ، ويوم الجدال أخذاً من قوله تعالى: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا) [النحل: ١١١] .

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المآب، يوم العرض، يوم الخافضة الرافعة، يوم القصاص، يوم الجزاء، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الراجفة، يوم الناقور، يوم التفرق، يوم الصدع، يوم البعثرة، يوم الندامة، يوم الفرار.

ومنها أيضاً: يوم تبلى السرائر، يوم لا تملك نفساً لنفس شيئاً، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعّا، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، يوم لا ينطقون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا يكتمون الله حديثاً، يوم لا مرد له من الله، يوم لا بيع فيه ولا خلال، يوم لا ريب فيه.

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: " ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصَّغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء"[6].

وأما السر في كثرة اسمائه، السر في كثرة أسمائه: يقول القرطبي: " وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف

---

(١) تفسير الطبري:١٢/١٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٥١٠/٤.
(٣) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٨٣):ص٢٢٤٨/٧.
(٥) الأسماء المشهورة هي: (يوم القيامة، اليوم الآخر ، الساعة ، يوم البعث ، يوم الخروج ، القارعة ، يوم الفصل ، يوم الدين ، الصاخة ، الطامة الكبرى ، يوم الحسرة ، الغاشية ، يوم الخلود ، يوم الحساب ، الواقعة ، يوم الوعيد ، يوم الآزفة ، يوم الجمع ، الحاقة ، يوم التلاق، يوم التناد، يوم التغابن). [انظر: القيامة الكبرى، للأشقر:ص٢٠ وما بعدها]
(٦)التذكرة: ٢٣٣.

لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة "[1].

القرآن

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)} [إبراهيم : ٣٢]

التفسير:

الله تعالى الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما من العدم، وأنزل المطر من السحاب فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج لكم منها أرزاقكم، وذلَّل لكم السفن؛ لتسير في البحر بأمره لمنافعكم، وذلَّل لكم الأنهار لسقياكم وسقيا دوابكم وزروعكم وسائر منافعكم.

قوله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [إبراهيم : ٣٢]، أي:" الله تعالى الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما من العدم"[2].

قال ابن عطية:" الآية، تذكير بآلاء الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من جهتين"[3].

قوله تعالى:{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [إبراهيم : ٣٢]، أي:" وأنزل من السحاب المطر"[4].

قال ابن عطية:" والسماء في قوله، {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ}: السحاب"[5].

قوله تعالى:{فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} [إبراهيم : ٣٢]، أي:" فأخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه"[6].

قال ابن عطية:" قوله: {مِنَ الثَّمَراتِ}، يجوز أن تكون {مِنَ} للتبعيض، فيكون المراد بعض جني الأشجار، ويسقط ما كان منها سما أو مجردا للمضرات، ويجوز أن تكون مِنَ لبيان الجنس، كأنه قال: فأخرج به رزقا لكم من الثمرات، وقال بعض الناس: {مِنَ} زائدة- وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب ويجوز عند الأخفش"[7].

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [إبراهيم : ٣٢]، أي:" لكم السفن؛ لتسير في البحر بأمره لمنافعكم"[8].

قال السعدي:" أي: السفن والمراكب، {لتجري في البحر بأمره} فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجاراتكم، وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه"[9].

قال ابن عطية:" وفي «تسخير الفلك» ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح"[10].

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ} [إبراهيم : ٣٢]، أي:" وذلَّل لكم الأنهار لسقياكم وسقيا دوابكم وزروعكم وسائر منافعكم"[11].

قال السعدي:" لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها"[1].

---

(١) المصدر نفسه:٢١٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٣) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(٤) صفوة التفاسير:٩٠/٢.
(٥) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٩٠/٢.
(٧) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٩) تفسير السعدي:٤٢٦.
(١٠) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(١١) التفسير الميسر:٢٥٩.

قال القاسمي:" أي: فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسواهما"[٢].

قال ابن عطية:" وأما «تسخير الأنهار» فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذي يستحقّ عليكم العبادة وإخلاص الطاعة له، من هذه صفته، لا من لا يقدر على ضرّ ولا نفع لنفسه ولا لغيره من أوثانكم أيها المشركون وآلهتكم"[٤].

عن مجاهد:" {وسخر لكم الأنهار}، قال: بكل بلدة"[٥].

قال ابن عباس:" الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتي تطلع من مشرقها، وكذلك القمر"[٦].

القرآن

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)} [إبراهيم : ٣٣]

التفسير:

وذلَّل الله لكم الشمس والقمر لا يَفْتُران عن حركتهما؛ لتتحقق المصالح بهما، وذلَّل لكم الليل؛ لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار؛ لتبتغوا من فضله، وتدبِّروا معايشكم.

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} [إبراهيم : ٣٣]، أي:" وذلَّل الله لكم الشمس والقمر لا يَفْتُران عن حركتهما؛ لتتحقق المصالح بهما"[٧].

قال ابن كثير:" أي : يسيران لا يقران ليلا ولا نهارا"[٨].

قال الطبري: أي:" يتعاقبان عليكم أيها الناس بالليل والنهار، لصلاح أنفسكم ومعاشكم (دَائِبَيْنِ) في اختلافهما عليكم"[٩].

قال القاسمي:" أي: يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات"[١٠].

وقال ابن عباس:" دءوبهما في طاعة الله"[١١].

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [إبراهيم : ٣٣]، أي:" وذلَّل لكم الليل؛ لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار؛ لتبتغوا من فضله، وتدبِّروا معايشكم"[١٢].

قال الطبري: أي:" يختلفان عليكم باعتقاب، إذا ذهب هذا جاء هذا بمنافعكم وصلاح أسبابكم، فهذا لكم لتصرّفكم فيه لمعاشكم، وهذا لكم للسكن تسكنون فيه، ورحمة منه بكم"[١٣].

قال القاسمي:" أي يتعاقبان خلفه، لمعاشكم وسباتكم"[١٤].

القرآن

{وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)} [إبراهيم : ٣٤]

---

(١) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٢) محاسن التأويل:٣١٧/٦.
(٣) المحرر الوجيز:٣٣٩/٣.
(٤) تفسير الطبري:١٣/١٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٨٤):ص٢٢٤٨/٧.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٢٨٥):ص٢٢٤٨/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٥٩.
(٨) تفسير ابن كثير:٥١٢/٤.
(٩) تفسير الطبري:١٣/١٧.
(١٠) محاسن التأويل:٣١٧/٦.
(١١) أخرجه الطبري:١٤/١٧.
(١٢) التفسير الميسر:٢٥٩.
(١٣) تفسير الطبري:١٤/١٧.
(١٤) محاسن التأويل:٣١٧/٦.

التفسير:
وأعطاكم من كل ما طلبتموه، وإن تعدُّوا نِعَم الله عليكم لا تطيقوا عدها ولا إحصاءها ولا القيام بشكرها؛ لكثرتها وتنوُّعها. إن الإنسان لَكثير الظلم لنفسه، كثير الجحود لنعم ربه.
قوله تعالى:{وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إبراهيم : ٣٤]، أي:" وأعطاكم من كل ما طلبتموه"(١).
قال عكرمة:" من كل شيء رغبتم إليه فيه"(٢).
قال ابن كثير:" يقول : هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف : من كل ما سألتموه وما لم تسألوه "(٣).
قال الزمخشري:" «من» للتبعيض، أى: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، نظرا في مصالحكم، {وما سألتموه} نفى ومحله النصب على الحال، أى: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون {ما} موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال"(٤).
وقرئ :«من كل» بالتنوين(٥).
قوله تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم : ٣٤]، أي:" وإن تعدُّوا نِعَم الله عليكم لا تطيقوا عدها ولا إحصاءها ولا القيام بشكرها؛ لكثرتها وتنوُّعها"(٦).
قال الزمخشري:أي:" لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله"(٧).
قال ابن كثير:" يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب ، رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين وامسُوا توابين"(٨).
قال سهل:" قوله تعالى: {وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها} بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه الأعلى والواسطة الكبرى"(٩).
وفي صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ كان يقول : "اللهم ، لك الحمد غير مَكْفِيّ ولا مودَع ، ولا مستغنى عنه ربَّنا"(١٠).
عن أنس ، عن النبي ﷺ أنه قال : "يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ، ديوان ، فيه العمل الصالح ، وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه ، فيقول الله لأصغر نعمه - أحسبَه. قال : في ديوان النعم : خذي ثمنك من عمله الصالح ، فتستوعب عمله الصالح كله ، ثم تَنَحّى وتقول : وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحم قال : يا عبدي ، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال : ووهبت لك نعمي"(١١).

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٨٦):ص٢٢٤٩/٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥١٢/٤.
(٤) الكشاف:٥٥٧/٢.
(٥) انظر: الكشاف:٥٥٧/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٧) الكشاف:٥٥٧/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥١٢/٤.
(٩) تفسير التستري:٨٧.
(١٠)) صحيح البخاري برقم (٥٤٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
(١١)مسند البزار برقم (٣٤٤٤) "كشف الأستار" وفيه داود بن المحبر وصالح المرى وهما ضعفيان.
قال ابن كثير:٥١٢/٤:" غريب ، وسنده ضعيف".

روي في الأثر : "أن داود ، عليه السلام ، قال : يارب ، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي ؟ فقال الله تعالى : الآن شكرتني يا داود ، أي : حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم"(١).

وقال الشافعي- رحمه الله-: "الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة تُوجِب على مُؤدى ماضي نعَمه بأدائها ، نعمة حادثةً توجب عليه شكره بها"(٢).

وقال القائل في ذلك(٣):

لو كل جَارِحَة مني لهَا لُغَةٌ... تُثْنِي عَلَيكَ بما أولَيتَ مِنْ حَسنِ
لَكَانَ ما زَادَ شُكري إذ شَكَرت به... إليكَ أبلغَ في الإحسَان والمننِ

قوله تعالى:{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم : ٣٤]، أي:" إن الإنسان لَكثير الظلم لنفسه، كثير الجحود لنعم ربه"(٤).

قال الزمخشري:" {لَظَلُومٌ}: يظلم النعمة بإغفال شكرها، {كَفَّارٌ}: شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه"(٥).

فوائد الآيات[٣٢-٣٤]:

١- التعريف بالله عز وجل إذ معرفة الله تعالى هي التي تثمر الخشية منه تعالى.
٢- وجوب عبادة الله تعالى وبطلان عبادة غيره.
٣- وصف الإنسان بالظلم والكفر وشدتهما ما لم يؤمن ويستقيم على منهج الإسلام.
٤- التذكير بالنعم وأن الله هو رازق الإنسان:

فالإنسان مقر بأنه لم يخلق من هذه النعم شيئا، مع أنه أكبر المستفيدين منها، بل جعلت لأجله. غير أن الإنسان بحكم الألف والاعتياد تبلد حسه، فينسى الله الخالق. لذلك يذكره الله تعالى بهذه النعم التي لا تحصى، ومن أعظمها الماء والهواء. قال تعالى: {وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار}[إبراهيم:٣٤]

١- أنه من أسباب ضعف الدين الغفلة عن تدبر آيات الله الكونية، وآيات الله القرآنية، والانبهار بمعطيات الحضارة المادية؛ حتى ظنوا أنها من مقدور البشر وحده؛ فصاروا يُعظِّمون البشر، ويضيفون هذه المعطيات إلى مجهوده واختراعه وحده، كما قال قارون من قبلُ: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨] وكما يقول الإنسان {هَذَا لِي} [فصلت: ٥٠] ، {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} [الزمر: ٤٩] .

ولم يتفكروا وينظروا في عظمة من أوجد هذه الكائنات، وأودعها هذه الخصائص الباهرة، وأوجد البشر وأعطاهُ المقدرةَ على استخراج هذه الخصائص، والانتفاع بها: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] . {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٨٥] . {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٢- ٣٤] .

(١)تفسير ابن كثير:٥١٢/٤.
(٢) الرسالة للشافعي:٧-٨.
(٣)تفسير ابن كثير:٥١٢/٤ .
(٤) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٥) الكشاف:٥٥٧/٢.

القرآن
{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)} [إبراهيم : ٣٥]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين قال إبراهيم داعيًا ربه -بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه «هاجَر» وادي «مكة» -: رب اجعل «مكة» بلدَ أمنٍ يأمن كل مَن فيها، وأبعِدني وأبنائي عن عبادة الأصنام.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [إبراهيم : ٣٥]، أي:" واذكر -أيها الرسول- حين قال إبراهيم داعيًا ربه -بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه «هاجَر» وادي «مكة» -: رب اجعل «مكة» بلدَ أمنٍ يأمن كل مَن فيها"(١).

قال الحسن: " هذا دعاء، دعا به إبراهيم فاستجاب له دعاءه فجعله بلدا آمنا"(٢).

قال السعدي:" أي: {و} اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: {رب اجعل هذا البلد} أي: الحرم {آمنا} فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا، فحرمه الله في الشرع ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم"(٣).

قال ابن كثير:" يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب ، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه ، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا } وقد استجاب الله له ، فقال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت : ٦٧] ، وقال تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] ، وقال في هذه القصة : { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا } فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها ؛ ولهذا قال : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [إبراهيم : ٣٩] ، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة ، فإنه دعا أيضا فقال : { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا } [البقرة : ١٢٦]"(٤).

قال الزمخشري:" أى: اجعل هذا البلد أو هذا المكان ذا أمن"(٥).

قال أبو السعود:" أي: اجعل هذا الواديَ من البلادِ الآمنة وكان ذلك أولَ ما قَدِمَ عليه السلام مكةَ"(٦).

قال الآلوسي:" أي: اجعل هذا المكان القفر بلدا آمنا، وكان النداء بلفظ (الرب) مضافا لما في ذلك من التلطف بالسؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل، وإجابة ضراعته"(٧).

قال الطبري: أي: "واذكروا إذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا من الجبابرة وغيرهم ، أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله ، كما تنال سائر البلدان ، من خسف ، وائتفاك ، وغرق ، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد"(٨).

قال ابن عطية:" دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، {واجْعَلْ}: لفظه الأمر وهو في حق الله تعالى رغبة ودعاء، {وآمِناً}: معناه من الجبابرة

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم (١٢١٨): ص ١/ ٢٢٩.
(٣) تفسير السعدي:٤٢٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٥١٢/٤-٥١٣.
(٥) الكشاف: ١٨٦/١.
(٦) تفسير أبي السعود: ١٥٨/١.
(٧) روح المعاني:٣٧٩/١.[بتصرف بسيط].
(٨) تفسير الطبري: ٤٤/٢-٤٥.

والمسلطين والعدو المستأصل والمثلات التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره، ونبتت فيها أنواع الثمرات"(١).

قال المراغي:" وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا في نفسه من الجبابرة وغيرهم أن يسلّطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد، وقد استجاب الله دعاءه فلم يقصده أحد بسوء إلا قصم ظهره ، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه ، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول"(٢).

قال الرازي:" الابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت، وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد"(٣).

قال الواحدي:" والعرب تقول: آمَنُ من حمام مكة، يضربون المثلَ بها في الأمن"(٤).

قال أبو حيان:قوله:" { هَذَا الْبَلَدَ} ، باعتبار ما يؤول إليه سماه بلداً. ووصف بلد بآمن ، إما على معنى النسب ، أي ذا أمن ، كقولهم : {عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} ، أي ذات رضا ، أو على الاتساع لما كان يقع فيه الأمن جعله آمناً كقولهم : نهارك صائم وليلك قائم"(٥).

قال الليث: "كل موضع من الأرض عامرٍ أو غامر مسكونٍ أو خالٍ: بلدٌ، والطائفة منه: بلدة"(٦)، لأنها لا تثار ولا تهاج(٧).

وقال أهل اللغة: أصلُ «البلد»: هو الأثر. من ذلك قولهم لكِرْكِرَةِ(٨)البعير: بلدة. لأنه إذا برك أثرت، قال ذو الرمة(٩):

أُنِيخَتْ فألقَتْ بلدةً فوقَ بلدةٍ   قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغَامُها

ويقال للأثر: بلد، وجمعه أبلادٌ، قال القُطامي(١٠):

ليست تجرح فُرّارًا ظهورهم   وبالنُحورِ كُلومٌ ذاتُ أبلادِ

وقال ابنُ الرِّقاع (١١):

عرَف الديارَ توهُّمًا فاعتادَها   مِنْ بعدِ ما شَمِلَ البِلَى أبلادَها

وإنما سُمّيت البلادُ لأنها مواضعُ مواطن الناس وتأثيرهم. والبلد: المقبرة، ويقال: هو نفس القبر، قال الشاعر (١٢):

---

(١) المحرر الوجيز:٢٠٩/١.
(٢) تفسير المراغي: ٢١٣/١.
(٣) مفاتيح الغيب:١٠٣/١٩-١٠٤.
(٤) التفسير البسيط: ٣١٣/٣.

(٥) البحر المحيط: ٣٣٢/١.
(٦) تهذيب اللغة:٣٨٣/١، وانظر: التفسير البسيط: ٣٠٨/٣.
(٧) انظر: مجمع الأمثال" للميداني ١/ ٨٧، "جمهرة الأمثال" للعسكري ١/ ١٩٩، "المستقصى" للزمخشري ١/ ١/ ٧.
(٨)الكِركِرة: بالكسر: رحى زور البعير، أو صدر كل ذي خف. "القاموس" ٤٦٩.
(٩) انظر: ديوانه: ١٠٠٤، وتهذيب اللغة: ١/ ٣٨٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤١، "المعجم المفصل" ٧/ ١٣٥.
(١٠) انظر: ديوانه: ١٢، واللسان: مادة: بلد. ويروى: وفي النجوم، كما في "عمدة الحفاظ"١/ ٢٥٨، وكذا في "المشوف المعلم" ١/ ١١٧، و"البصائر" ٢/ ٢٧٣، وينظر: "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب ص ١٤٣.
(١١)البيت في "ديوانه" ص ٣٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤١ مادة: بلد.
(١٢)البيت بلا نسبة في "المخصص" ٦/ ١٣٣، وانظر: "المعجم المفصل" ٢/ ٤٢٩، ونسبه الواحدي لخفاف بن عمير السلمي، انظر: التفسير البسيط: ٣٠٩/٣.

كلُّ امرئ تاركٌ أحبَّتَه   ومُسْلِمٌ وجهَه إلى البلَد

ومن هذا يقال: رجلٌ بليدٌ، إذا أثَّرَ فيه الجهلُ، ثم يقالُ منه: تبلَّدَ الرجلُ، وهو نقيضُ التجلُّد، قال(١):

ألا لا تَلُمْهُ اليومَ أن يتبلَّدا   فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلَّدا

وبلد أيضا: إذا ضَعُفَ في العملِ وغيره، حتى قيل في الجري، قال الشاعر(٢):

جَرَى طَلَقًا حتى إذا قيلَ سابقٌ   تداركَه أعراقُ سوءٍ فَبَلَّدَا(٣)

نستنتج مما بق بأن(البلد): "اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلداً؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: {وهذا البلد الأمين} [التين: ٣] ؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم} [محمد: ١٣]"(٤).

وقد اختلفوا في الأمن المسؤول في هذه الآية على وجوه(٥):

أحدها: أنه سأله الأمن من القحط، لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع.

وضعّفه أبو حيان فقال:" فهي أكثر بلاد الله قحطاً وجدباً"(٦).

الثاني: أنه سأله الأمن من الخسف والمسخ.

الثالث: وقال بعض المفسرين: أي آمناً مَن فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف، فـ(البلد) (٧) أرض، وبناء؛ وإنما الذي يكون آمناً: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْناً.

قلت: وهذا ضعيف، والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمناً؛ وإذا أمِنَ البلد أمِن مَن فيه وهو أبلغ ؛ لأنه مثلاً لو جاء أحد، وهدم البناء ما كان البناء آمناً، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمناً أبلغ من أن نفسره بـ(آمناً أهله)؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: { وارزق أهله }؛ لأن البلد لا يرزق(٨).

الرابع: أنه سأله الأمن من القتل، وهو قول أبو بكر الرازي، واحتج عليه بأنه عليه السلام سأله الأمن أولا، ثم سأله الرزق ثانيا، ولو كان الأمن المطلوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكرارا فقال في هذه الآية: {رب اجعل هاذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات} وقال في آية أخرى: {رب اجعل هاذا البلد امنا} ثم قال في آخر القصة: {ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع} إلى قوله: {وارزقهم من الثمرات} [إبراهيم: ٣٧].

وقد أخرج الطبري عن قتادة قال : "ذكر لنا أن الحرم حُرِّم بحياله إلى العرش، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط. قال الله له : أهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمان الطوفان - حين أغرق الله قوم نوح - رفعه وطهره ، ولم تصبه عقوبة أهل الأرض. فتتبع منه إبراهيم أثرا ، فبناه على أساس قديم كان قبله"(٩).

الخامس: وقيل: أنه سأله الأمن من الجبابرة.

---

(١)البيت للأحوص الأنصاري في "ديوانه" ص ٩٨، وانظر: "المعجم المفصل" ٢/ ٢٠١.

(٢)البيت بلا نسبة في "تهذيب اللغة" ١/ ٣٨٣، "لسان العرب" ١/ ٣٤٢ و ٥/ ٢٩٠٤، "المعجم المفصل" ٢/ ٢٠١.

(٣) انظر: التفسير البسيط: ٣٠٩/٣-٣١٠.

(٤) تفسير ابن عثيمين:٥١/٢.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٤٨/٤.

(٦) البحر المحيط:٣٣٢/١.

(٧) قال الرازي: قوله تعالى(بَلَدًا آمِنًا) يحتمل وجهين:

أحدهما: مأمون فيه كقوله تعالى: {فى عيشة راضية} (القارعة: ٧) أي مرضية.

والثاني: أن يكون المراد أهل البلد كقوله: {واسئل القرية} (يوسف: ٨٢) أي أهلها وهو مجاز لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد.(انظر: تفسيره: ٤٨/٤).

(٨) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٣/٢.

(٩) تفسير الطبري(٢٠٢٦):ص ٤٥/٢.

وضعّفه أبو حيان فقال:" فالواقع يرده ، إذ قد دخل فيه الجبابرة وقتلوا، كعمرو بن لحي الجرهمي ، والحجاج بن يوسف ، والقرامطة ، وغيرهم"[١].

واختلف العلماء في مكة هل صارت حرما آمنا بسؤال إبراهيم أم كانت قبله كذلك، على ثلاثة أقوال[٢] :

أحدها: أنه لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض.

أخرج الطبري عن شريح الخزاعي أنه قال:" لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل ، فقام رسول الله ﷺ خطيبا فقال : " يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، أو يعضد بها شجرا. ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة ، غضبا علي أهلها. ألا فهي قد رجعت على حالها بالأمس. ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال : إن رسول الله ﷺ قد قتل بها! فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحِلَّها لك "[٣].

الثاني: أن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله ﷺ أمنا بعد أن كانت حلالا.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها ، عضاهها وصيدها ، ولا تقطع عضاهها"[٤].

قال ابن عطية:" ولا تعارض بين الحديثين[٥]، لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه"[٦].

الثالث: وقيل: أنها كانت حراما قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراما بعد الدعوة، فالأول: يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم، والثاني: بالأمر على ألسنة الرسل[٧].

والراجح: أن الله جعل مكة حرما آمنا حين خلقها وأنشأها، "كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، " أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض "[٨]، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله ، ولكن بمنعه من أرادها بسوء ، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات ، وعن ساكنيها ، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله ، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه ، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه ، يستنون به فيها ، إذ كان تعالى

---

(١) البحر المحيط: ٣٣٢/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٥/٢-٥١، وتفسير القرطبي: ١١٧/٢-١١٨.وتفسير الرازي: ٥١/٤.

(٣) تفسير الطبري(٢٠٢٧):ص٤٤/٢، وهذا مختصر من حديث صحيح مطول : فرواه أحمد في المسند : ١٦٤٤٨ (ج ٤ ص ٣٢ حلبي) ، عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ، عن محمد بن إسحاق ، بهذا الإسناد . ورواية ابن إسحاق ثابتة أيضًا - مطولة - في سيرة ابن هشام ٤ : ٥٧ - ٥٨ (حلبي) ، و ٨٢٣ - ٨٢٤ أوربة ، ٢ : ٢٧٧ - ٢٧٨ (من الروض الأنف) . ورواه أيضًا ، بنحوه ، أحمد : ١٦٤٤٤ (ج ٤ ص ٣١) ، والبخاري ١ : ١٧٦ - ١٧٧ ، و ٤ : ٣٥ - ٣٩ (فتح) ، ومسلم ١ : ٣٨٣ - ٣٨٤ كلهم من طريق الليث بن سعد ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي شريح . وقوله في الحديث : " أو يعضد بها شجرا " ، أي يقطعه ، يقال " عضد الشجر " ، من باب " ضرب " قطعه . وقوله : " غضبا على أهلها " : هذا هو الصحيح الثابت في رواية ابن إسحاق ، في المسند ، وسيرة ابن هشام ، وفي المطبوعة : " عصى على أهلها " . وهو تصحيف .(تفسير الطبري: ٤٥/٢-٤٦).

(٤) أخرجه الطبري(٢٠٢٩):ص٤٨/٢، وإسناده صحيح. ونقله ابن كثير ١ : ٣١٦.

(٥) الحديثان اللذان ذكرا في الوجهين الأول والثاني.

(٦) المحرر الوجيز: ٢٠٩/١.

(٧) انظر: تفسير الرازي: ٥١/٤.

(٨) تفسير الطبري(٢٠٢٧):ص٤٤/٢، ورواه أحمد في المسند : ١٦٤٤٨ (ج ٤ ص ٣٢ حلبي).

ذكره قد اتخذه خليلا وأخبره أنه جاعله ، للناس إماما يقتدى به ، فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه "(١).

قوله تعالى:{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم : ٣٥]، أي:" وأبعِدني وأبنائي عن عبادة الأصنام"(٢).

قال السعدي:" أي: اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها"(٣).

قال الطبري:" ومعنى ذلك: أبعدني وبني من عبادة الأصنام، و«الأصنام»: جمع صنم، والصنم: هو التمثال المصور، كما قال رؤبة بن العجاج في صفة امرأة(٤):

وهنانة كالزون يجلى صنمه ... تضحك عن أشنب عذب ملثمه"(٥).

قال ابن عطية:" أراد إبراهيم بني صلبه، وكذلك أجيبت دعوته فيهم، وأما باقي نسله فعبدوا الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنما؟! لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة"(٦).

قال ابن كثير:" وقال : {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ } ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته"(٧).

قال المظهري:" أى: اجعلنا منها فى جانب- وفيه دليل على ان عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم ولفظ بنىّ لا يشتمل الأحفاد وإطلاقها على ما يعم الأحفاد فى قوله تعالى يا بَنِي آدَمَ ... - يا بَنِي إِسْرائِيلَ من قبيل عموم المجاز فلا يشكل بانه قد عبد كثير من أولاد إسماعيل عليه السلام الأصنام"(٨).

قال مجاهد:" فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده، قال: فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته. والصنم: التمثال المصور، ما لم يكن صنما فهو وثن، قال: واستجاب الله له، وجعل هذا البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماما، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، فأراه مناسكة، وتاب عليه"(٩).

قال إبراهيم التيمي:" من يأمن البلاء بعد قول إبراهيم: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ}؟"(١٠).

وقرأ الجحدري والثقفي «وأجنبني» بقطع الألف وكسر النون(١١).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: { وإذ قال } سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه، والإعلام ما أمر به.

٢- ومنها: فضل مكة وشرفها وأنها حرم آمن أي ذو أمن.

٣- الخوف من الشرك لخطره وسؤال الله تعالى الحفظ من ذلك.

---

(١) تفسير الطبري: ٥٠/٢-٥١.

(٢) التفسير الميسر:٢٦٠.

(٣) تفسير السعدي:٤٢٦.

(٤)البيت لرؤبة من. أرجوزة له مطلعها: " قلت لزير لم تصله مريمة "، وقوله " وهنانة ": صفة لأروى في البيت قبله وهو: " إذا حب أروى همه وسدمه ". والزون: الصنم. وملثمة: مقبلة. وقد شبه أروى بالصنم المجلو في البهاء والحسن. والوهنانة كما في اللسان: الكسل عن العمل تنعما. قال أبو عبيدة: الوهنانة التي فيها فترة.

(٥) تفسير الطبري:١٧/١٧.

(٦) المحرر الوجيز:٣٤١/٣.

(٧) تفسيرابن كثير:٥١٣/٤.

(٨) تفسير المظهري:٢٧٤/٥.

(٩) أخرجه الطبري:١٧/١٧.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٨٧):ص٢٢٤٩/٧.

(١١) انظر: المحرر الوجيز:٣٤١/٣.

٤- ومنها: أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبداً؛ لقوله تعالى: { رب اجعل... } إلخ.
٥- ومنها: أن للدعاء أثراً في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثراً لكان الدعاء عبثاً؛ وقول من يقول: «لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: «لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا - ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت - ولو ملأت بطني إلى حلقومي»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سبباً إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أُخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصاً كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذاً الشرع، والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.
٦- ومن فوائد الآية: رأفة إبراهيم -عليه السلام- بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمناً يتضمن الإرفاق بمن أمّه من الناس.
٧- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: {واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام}؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

القرآن

{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)} [إبراهيم : ٣٦]

التفسير:

ربِّ إن الأصنام تسبَّبتْ في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق، فمن اقتدى بي في التوحيد فهو على ديني وسُنَّتي، ومَن خالفني فيما دون الشرك، فإنك غفور لذنوب المذنبين -بفضلك- رحيم بهم، تعفو عمن تشاء منهم.

قوله تعالى:{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ} [إبراهيم : ٣٦]، أي:" ربِّ إن الأصنام تسبَّبتْ في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق"[(١)].

قال ابن قتيبة:" أي: ضل بهن كثير من الناس"[(٢)].

قال الطبري:" يقول: يا رب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن، وكفروا بك"[(٣)].

قال الزجاج:" أي: ضللوا بسببها، لأن الأصنام لا تعقل ولا تفعل شيئا، كما تقول قد فتنتني هذه الدار.، أي: أنا أحببتها واستحسنتها، وافتتنت بها"[(٤)].

قال الفخر الرازي:" اتفق كل الفرق على أن قوله: {أضللن} مجاز لأنها جمادات، والجماد لا يفعل شيئا البتة، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها"[(٥)].

عن قتادة، قوله "{إنهن أضللن كثيرا من الناس}، يعني: الأوثان"[(٦)].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٢) غريب القرآن:٢٣٣.
(٣) تفسير الطبري:١٧/١٧-١٨.
(٤) معاني القرآن:١٦٤/٣.
(٥) مفاتيح الغيب:١٠٢/١٩.
(٦) أخرجه الطبري:١٨/١٧.

قوله تعالى:{فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم : ٣٦]، أي:" فمن اقتدى بي في التوحيد فهو على ديني وسُنَّتي"[١].

قال الفخر الرازي:" يعني من تبعني في ديني واعتقادي فإنه مني، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني"[٢].

قال الطبري:" يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك وإخلاص العبادة لك وفراق عبادة الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مستن بسنتي، وعامل بمثل عملي"[٣].

قوله تعالى:{وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم : ٣٦]، أي:" ومَن خالفني فيما دون الشرك، فإنك غفور لذنوب المذنبين -بفضلك- رحيم بهم، تعفو عمن تشاء منهم"[٤].

قال الطبري:" يقول: ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب المذنبين الخطائين بفضلك، ورحيم بعبادك تعفو عمن تشاء منهم"[٥].

قال الزجاج:" أي: فإنك غفور رحيم له إن تاب وإن آمن، لا أنه يقول إن من كفر فإن الله غفور رحيم، فإن الله لا يغفر له، ألا ترى قوله في أبيه: {فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه}"[٦].

قال السدي: "معناه: ومن عصاني فتاب"[٧].

قال مقاتل بن حيان: "ومن عصاني فيما دون الشرك"[٨].

قال الفخر الرازي:" احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته، والدليل عليه أن قوله: {ومن عصاني فإنك غفور رحيم}، صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة. فنقول: أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك، والأول باطل من وجهين:

الأول: أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}، وأيضا قوله: {فمن تبعني فإنه مني}، يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم بإصلاح مهماته.

والثاني: أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، ولما بطل هذا ثبت أن قوله: {ومن عصاني فإنك غفور رحيم}، شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار"[٩].

قال قتادة:" اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم لا والله ما كانوا طعانين ولا لعانين، وكان يقال: إن من أشر عباد الله كل طعان لعان، قال نبي الله ابن مريم عليه السلام {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}"[١٠].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، "أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم {رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} ، وقال عيسى {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} فرفع يديه ثم قال: اللهم أمتي، اللهم أمتي، وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبرئيل

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٢) مفاتيح الغيب:١٠٢/١٩.
(٣) تفسير الطبري:١٨/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٥) تفسير الطبري:١٨/١٧.
(٦) معاني القرآن:١٦٤/٣.
(٧) الكشف والبيان:٣٢١/٥.
(٨) الكشف والبيان:٣٢١/٥.
(٩) مفاتيح الغيب:١٠٢/١٩.
(١٠) أخرجه الطبري:١٨/١٧.

فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: يا جبرئيل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"(١).

الفوائد:

١- علاقة الإيمان والتوحيد أولى من علاقة الرحم والنسب.

٢- على القلب الحي أن يخاف من الشرك، لا كما يقول الجهال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة! فإذا كان إبراهيم عليه السلام يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟

٣- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو: "الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب عل كل من يتوب ففي الحديث: «إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»(٢). وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم:٣٢]، وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته"(٣).

قال الخطابي:"«الغفور»:هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٤).

- و«الرحيم»:أي: "ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء" (٥).

القرآن

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)} [إبراهيم : ٣٧]

التفسير:

ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ ليس فيه زرع ولا ماء بجوار بيتك المحرم، ربنا إنني فعلت ذلك بأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة بحدودها، فاجعل قلوب بعض خلقك تَنزع إليهم وتحنُّ، وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار؛ لكي يشكروا لك على عظيم نعمك.

قوله تعالى:{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم : ٣٧]، أي:" ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ ليس فيه زرع ولا ماء بجوار بيتك المحرم"(٦).

عن قتادة :"{بواد غير ذي زرع}، قال: مكة. لم يكن بها زرع يومئذ"(٧).

وقال قتادة:" وأنه بيت طهره الله من السوء وجعله قبلة وجعله حرمه، اختاره نبي الله إبراهيم عليه السلام لولده"(٨).

---

(١) أخرجه الطبري:١٨/١٧.

(٢)أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٧) بنحوه، والترمذي في سننه (٥/ ٥٤٨) كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) كتاب الآداب باب فضل العمل، والدارمي (٢/ ٢٣٠) كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله عن أنس، وقال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٠).

(٣)الحق الواضح المبين، السعدي:٧٣، ٧٤، وانظر: أسماء الله الحسنى:٢١٩.

(٤) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(٥) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

(٦) التفسير الميسر:٢٦٠.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٣):ص٢٢٥٠/٧.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٣):ص٢٢٥٠/٧.

قوله تعالى:{رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} [إبراهيم : ٣٧]، أي:" ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي"(١).

قال القشيري:" أي: أسكنتهم لإقامة حقّك لا لطلب حظوظهم، ويقال اكتفى أن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته"(٢).

قوله تعالى:{فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم : ٣٧]، أي:" فاجعل قلوب بعض خلقك تَنزع إليهم وتحنُّ"(٣).

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: تشتاق إليهم"(٤).

قال القشيري:" واستجاب الله، دعاءه فيهم، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين به، وسكان ذلك البيت"(٥).

قال السدي :"يقول: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة"(٦).

قال ابن عباس:" إن إبراهيم سأل الله أن يجعل أناسا من الناس يهوون سكنى مكة"(٧).

قال ابن عباس:" لو إن إبراهيم عليه السلام حين دعا قال: اجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لازدحمت عليه اليهود والنصارى. ولكنه خص حين قال: {أفئدة من الناس}، فجعل ذلك أفئدة المؤمنين"(٨).

قوله تعالى:{وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم : ٣٧]، أي:" وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار؛ لكي يشكروا لك على عظيم نعمك"(٩).

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: أطعمهم من الثمرات، لكي يشكروا فيما رزقتهم"(١٠).

عن سعيد بن جبير قال ابن عباس: "أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله الذى أمرك بهذا قال نعم. قالت إذا لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال {ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع} حتى بلغ {يشكرون} . وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من، الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى ﷺ: فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت صه. تريد نفسها، ثم تسمعت، فسمعت أيضا،

---

(١) صفوة التفاسير:٩٢/٢.
(٢) لطائف الإشارات:٢٥٦/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٤) بحر العلوم:٢٤٦/٢.
(٥) لطائف الإشارات:٢٥٧/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٥):ص٢٢٥٠/٧.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٤):ص٢٢٥٠/٧.
(٨)أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٥):ص٢٢٥٠/٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٦٠.
(١٠) بحر العلوم:٢٤٦/٢.

فقالت قد أسمعت، إن كان عندك غواث. فإذا هى بالملك، عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبى ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا ، قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنى هذا الغلام، وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا. فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء. قالوا نعم. قال ابن عباس قال النبى ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل، وهى تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر، نحن فى ضيق وشدة. فشكت إليه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئا، فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال فهل أوصاك بشىء قالت نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك. قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه. فقالت خرج يبتغى لنا. قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم، وهيئتهم. فقالت نحن بخير وسعة. وأثنت على الله. فقال ما طعامكم قالت اللحم. قال فما شرابكم قالت الماء. فقال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبى ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال فأوصاك بشىء قالت نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر. قال فاصنع ما أمرك ربك. قال وتعيننى قال وأعينك. قال فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان :{ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}، قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}"[(١)].

---

(١) المسند الجامع(٦٩٦٠):ص ٥١٢/٩.
والحديث أخرجه أحمد ٢٥٣/١ (٢٢٨٥) قال: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا عطاء بن السائب. وفي ٣٤٧/١ (٣٢٥٠) قال: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر. وأخرجه "البخاري" ١٤٧/٣ (٢٣٦٨) و١٧٢/٤ (٣٣٦٤) قال: حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن يوب، وكثير بن كثير ، يزيد أحدهما على الآخر. وفي ١٧٥/٤ (٣٣٦٥) قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو. قال: حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير. وأخرجه "النسائي" في "الكبرى" ٨٣٢٠ قال: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى. قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر،

الفوائد:

١- أهمية إقام الصلاة وأن من لم يرد أن يصلي لا حق له في الغذاء ولذا يعدم إن أصر على ترك الصلاة.

٢- أن مكة نفسها لا يدفع البلاء عن أهلها ويجلب لهم الرزق إلا بطاعتهم لله ورسوله كما قال الخليل عليه السلام: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.

٣- بيان استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام فيما سال ربه تعالى فيه.

٤- أن التوسل المشروع سبب في استجابة الدعاء لا سيما إذا كان صادراً عن نبي كريم بل من أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام فلا شك أن ذلك كان تلقياً من الله تعالى وتعليماً منه لأن كل عمل يعمله النبي إنما هو وحي من الله سبحانه.

القرآن

{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)} [إبراهيم : ٣٨]

التفسير:

ربنا إنك تعلم كل ما نخفيه وما نظهره. وما يغيب عن علم الله شيء من الكائنات في الأرض ولا في السماء.

قوله تعالى:{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ} [إبراهيم : ٣٨]، أي:" ربنا إنك تعلم كل ما نخفيه وما نظهره"[(١)].

قال البغوي:أي: " من أمورنا"[(٢)].

قال الطبري: يقول:" ربنا إنك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا، فنجهر به وغير ذلك من أعمالنا"[(٣)].

قال الزمخشري:" النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، {إنك تعلم ما نخفي وما نعلن}، تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه، لأن غيبا من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك، وتخشعا لعظمتك، وتذللا

عن أيوب، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر. وفي (٨٣٢١) قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن المبارك. قال: حدثنا أبو عامر ، وعثمان بن عمر، عن إبراهيم بن نافع ، عن كثير بن كثير.
ثلاثتهم (عطاء بن السائب ، وكثير بن كثير ، وأيوب) عن سعيد بن جبير ، فذكره.

- وأخرجه أحمد ٣٦٠/١ (٣٣٩٠) قال: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب. قال: أنبئت عن سعيد بن جبير. قال: قال ابن عباس: فجاء الملك بها ، حتى انتهى إلى موضع زمزم ، فضرب بعقبه ، ففارت عينا ، فعجلت الإنسانة ، فجعلت تقدح في شنتها. فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أم إسماعيل ، لولا أنها عجلت ، لكانت زمزم عينا معينا.

- وأخرجه البخاري تعليقا ١٧٢/٤ (٣٣٦٣) قال: قال الأنصاري: حدثنا ابن جريج ، قال: أما كثير بن كثير ، فحدثني. قال: إني وعثمان بن أبي سليمان جلوس مع سعيد بن جبير. فقال: ما هكذا حدثني ابن عباس ، ولكنه قال: أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه ، عليهم السلام ، وهي ترضعه ، معها شنة ، لم يرفعه ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل.

- رواه وهب بن جرير بن حازم ، عن أبيه ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب؛ أن جبريل لما ركض زمزم بعقبه ، جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء ، فقال النبي ﷺ: رحم الله هاجر ، أم إسماعيل ، لو تركتها لكانت عينا معينا. مختصر.

ورواه أيضا وهب بن جرير ، عن أبيه ، عن أيوب ، عن عبد الله بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال: يرحم الله أم إسماعيل ، لولا أنها عجلت ، لكان زمزم عينا معينا. مختصر.

ليس فيه (أبي بن كعب) ، وزاد فيه: عبد الله بن سعيد بن جبير. وسلف في مسند أبي بن كعب ، برقم (٩٧).

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.

(٢) تفسير البغوي:٣٥٧/٤.

(٣) تفسير الطبري:٢٧/١٧.

لعزتك، وافتقارا إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك، وولها إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، ورغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصارا ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. وقيل: ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل: ما نخفى من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم. قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف"(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "{ربنا إنك تعلم ما نخفي}، من حب إسماعيل وأمه، {وما نعلن}، قال: وما نظهر من الجفاء لهما"(٢).

قال ابن عطية:" مقصد إبراهيم عليه السلام بقوله: {رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ}، التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم وغير ذلك"(٣).

قوله تعالى:{وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم : ٣٨]، أي:" وما يغيب عن علم الله شيء من الكائنات في الأرض ولا في السماء"(٤).

قال الطبري: أي:" وما يخفى عليك يا ربنا من شيء يكون في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهر لك متجل باد، لأنك مدبره وخالقه، فكيف يخفى عليك"(٥).

قال الزمخشري: هذا " من كلام الله عز وجل تصديقا لإبراهيم عليه السلام، كقوله {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [النمل : ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعنى: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. «ومن» للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما"(٦).

الفوائد:

١- التوسل إليه تعالى بذاته وأسمائه وصفاته.

٢- من صفاته تعالى: العلم(٧) الذي تنكشف له جميع المعلومات من الواجبات والجائزات والمستحيلات فيعلمها على ما هي عليه من الحالات؛ وتستوي عنده الجليات والخفيات،

- لقوله تعالى: { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب : ٤٠/ الفتح:٢٦].

- {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك : ١٤].

- {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم : ٣٨].

القرآن

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)} [إبراهيم : ٣٩]

التفسير:

يُثْني إبراهيم على الله تعالى، فيقول: الحمد لله الذي رزقني على كِبَر سني ولديَّ إسماعيل وإسحاق بعد دعائي أن يهب لي من الصالحين، إن ربي لسميع الدعاء ممن دعاه، وقد دعوته ولم يخيِّب رجائي.

قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [إبراهيم : ٣٩]، أي:" الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق"(١).

---

(١) الكشاف:٥٦٠/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٦):ص٢٢٥٠/٧.
(٣) المحرر الوجيز:٣٤٣/٣.
(٤) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٥) تفسير الطبري:٢٧/١٧.
(٦) الكشاف:٥٦٠/٢-٥٦١.
(٧)وهذه صفة انكشاف.

قال الطبري:" يقول: الحمد لله الذي رزقني على كبر من السن ولدا إسماعيل وإسحاق"[٢].

قال الزمخشري:" وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم"[٣].

قوله تعالى:{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم : ٣٩]، أي:" إن ربي لمجيبٌ لدعاء من دعاه"[٤].

قال الطبري:" يقول: إن ربي لسميع دعائي الذي أدعوه به، وقولي :{اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}، وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع ما نطق به ناطق لا يخفى عليه منه شيء"[٥].

قال ابن كثير:" أي : إنه ليستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد"[٦].

قال الزمخشري:" كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه. قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله. ومنه: سمع الله لمن حمده. وفي الحديث «٢» «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن[٧]»[٨].

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله :لسميع الدعاء"[٩].

قال ابن عباس: "ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة"[١٠].

وقال سعيد بن جبير: "بشر إبراهيم بعد سبع عشرة ومئة سنة"[١١].

وعن ابن عباس في قوله: "{الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق}، قال: هذا بعد ذاك بحين"[١٢].

عن الشعبي رضي الله عنه قال: "ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم"[١٣].

القرآن

{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)} [إبراهيم : ٤٠]

التفسير:

رب اجعلني مداومًا على أداء الصلاة على أتم وجوهها، واجعل من ذريتي مَن يحافظ عليها، ربنا واستجب دعائي وتقبَّل عبادتي.

---

(١)صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٧/١٧.
(٣) الكشاف:٥٦١/٢.
(٤) انظر: صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٥) تفسير الطبري:٢٧/١٧.
(٦) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٧)قوله «كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح: كاذنه لمن يتغنى ... الخ.
(٨) الحديث« ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».
رقم ٧٠٤٤) ، ومسلم (٥٤٥/١، رقم ٧٩٢) ، وأبو داود (٧٥/٢، رقم ١٤٧٣) ، والنسائى (١٨٠/٢، رقم ١٠١٧) ، وابن حبان (٣٠/٣، رقم ٧٥٢).
(٩) الكشاف:٥٦١/٢.
(١٠) تفسير البغوي:٣٥٧/٤.
(١١) أخرجه الطبري:٢٧/١٧.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٧):ص٢٢٥٠/٧.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٢٩٨):ص٢٢٥٠/٧.

قوله تعالى:{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} [إبراهيم : ٤٠]، أي:" رب اجعلني مداومًا على أداء الصلاة على أتم وجوهها"[١].

قال الطبري:" يقول: رب اجعلني مؤديا ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها علي من الصلاة"[٢].

قال ابن كثير:" أي : محافظا عليها مقيما لحدودها "[٣].

قال السمعاني:" يعني: ممن يقيم الصلاة بحدودها وأركانها، ويحافظ عليها"[٤].

قوله تعالى:{وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم : ٤٠]، أي:" رب واجعل من ذريتي مَن يحافظ على الصلاة"[٥].

قال أبو عبيدة والزجاج وانب أبي زمنين : معناه :" واجعل من ذرّيتّى من يقيم الصلاة"[٦].

قال ابن كثير:" أي : واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة"[٧].

قال الطبري:أي: " واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة لك"[٨].

قال الزمخشري:أي: "وبعض ذريتى، لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار، وذلك قوله: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين} [البقرة : ١٢٤]"[٩].

قوله تعالى:{رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم : ٤٠]، أي:" ربنا واستجب دعائي وتقبَّل عبادتي"[١٠].

قال السمعاني:" أي: واستجب دعائي"[١١].

قال الزمخشري: اي:" عبادتي"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : فيما سألتك فيه كله "[١٣].

قال الطبري:" يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك" [١٤].

قال مقاتل:" يقول: ربنا واستجب دعائي في إقامة الصلاة لنفسه ولذريته"[١٥].

فوائد الآيتين:[٣٩-٤٠]:

١- وجوب حمد الله وشكره على ما ينعم به على عبده.
٢- الجمهور على أن العبد له قدرة حقيقة وهو فاعل حقيقة والله خالق فعله، قال تعالى:{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}.
٣- اهتمام الدين الإسلامي بإقامة الصلاة والمحافظة عليها، وبين القرآن الكريم أن مشروعيتها كانت على الأمم السابقة، ففي دعاء إبراهيم عليه السلام: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء}[إبراهيم:٤٠].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٢) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٤) تفسير السمعاني:١٢١/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٦) انظر: مجاز القرآن:٣٤٢/١، ومعاني القرآن:١٦٥/٣، وتفسير ابن أبي زمنين:٣٧٣/٢
(٧) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٨) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٩) الكشاف:٥٦١/٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢٦٠.
(١١) تفسير السمعاني:١٢١/٣.
(١٢) الكشاف:٥٦١/٢-٥٦٢.
(١٣) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(١٤) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٩/٢.

وامتدح الله إسماعيل عليه السلام لإقامته لها وأمره لأهله بها، قال تعالى: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}[مريم:٥٥]

القرآن

{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)} [إبراهيم : ٤١]

التفسير:

ربنا اغفر لي ما وقع مني مما لا يسلم منه البشر واغفر لوالديَّ، (وهذا قبل أن يتبيَّن له أن والده عدو لله) واغفر للمؤمنين جميعًا يوم يقوم الناس للحساب والجزاء.

قوله تعالى:{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي} [إبراهيم : ٤١]،أي:" ربنا اغفر لى ما فرط منى من الذنوب"[١].

قوله تعالى:{وَلِوَالِدَيَّ} [إبراهيم : ٤١]،أي:" واغفر لأبوى"[٢].

قال مقاتل:" يعنى: أبويه"[٣].

قال الطبري:" وهذا دعاء من إبراهيم صلوات الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما. وقد أخبر الله عز ذكره أنه لم يكن {اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة : ١١٤] "[٤].

قال الزجاج:" هذا قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه، وقيل: إنه يعني بوالديه هنا «آدم وحواء»، وقيل أيضا :«ولولدي»، يعني: به إسماعيل وإسحاق، وهذه القراءة ليست بشيء، لأنها خلاف ما عليه أهل الأمصار من أهل القراءات"[٥].

قال ابن كثير:" كان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ، عز وجل"[٦].

قال السمعاني:" وفي تفسير الدمياطي: أن قوله: {ولوالدي} أي: لولدي، قال ابن فارس: ويجوز هذا في اللغة، وهو أن يذكر الوالد بمعنى المولود، كما يقال: ماء دافق أي: مدفوق"[٧].

قال البغوي:" فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟

قيل: قد قيل إن أمه أسلمت.

وقيل: أراد إن أسلما وتابا .

وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه، وقد بين الله تعالى عذر خليله ﷺ في استغفاره لأبيه في سورة التوبة"[٨].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت:.... [٩]. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل: بشرط الإسلام. ويأباه قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفارا صحيحا لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم"[١٠].

قراءة أبى: «ولأبوى». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»، على الإفراد، يعنى: أباه. وقرأ الحسن بن على رضى الله عنهما: «ولولدى»، يعنى: إسماعيل وإسحاق. وقرئ:

---

(١) تفسير المراغي:١٦٢/١٣.
(٢) تفسير المراغي:١٦٢/١٣.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٠٩/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٥) معاني القرآن:١٦٥/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٧) تفسير السمعاني:١٢٢/٣.
(٨) تفسير البغوي:٣٥٨/٤.
(٩) هنا ذكر مذهبه الإعتزالي، فقال:«هو من مجوزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف»، يعنى: على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم.
(١٠) الكشاف:٥٦٢/٢.

«لولدي»، بضم الواو. و«الولد» بمعنى: الولد، كالعدم والعدم. وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد[١].

قوله تعالى:{وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [إبراهيم : ٤١]،أي:" واغفر للمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك"[٢].

قال ابن كثير:" أي : كلهم"[٣].

قال الطبري:" يقول: وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك"[٤].

قوله تعالى:{يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم : ٤١]،أي:" يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر"[٥].

قال ابن كثير:" أي : يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر "[٦].

قال الطبري:" يعني: يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب من ذكر الناس، إذ كان مفهوما معناه"[٧].

قال الزجاج:" يعني: يوم القيامة"[٨].

قال الزمخشري:" {يوم يقوم الحساب}، أى: يثبت، وهو مستعار من :قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوؤها، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى «الحساب» قيام أهله إسنادا مجازيا، أو يكون مثل «وسئل القرية»"[٩].

قال مجاهد:" قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماما، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه"[١٠].

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم ربنا إني أسكنت الآية، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم"[١١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: مشروعية الاستغفار للنفس وللمؤمنين والمؤمنات.

٢- ومنها: انتفاع الأموات بعمل الأحياء:

فإن الأموات ينتفعون بدعاء الأحياء لهم بالمغفرة والرحمة ورفع الدرجات وتكفير السيئات، وكذلك ينتفعون بصدقات الأحياء عنهم، فإذا تصدق الولد عن والديه أو عن أحد من أقاربه؛ بل لو تصدق أجنبي عنه انتفع بذلك، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده أن جعل لمن يموت من المسلمين سببا في وصول الثواب والأجر لهم؛ لأنهم ينتفعون به في زيادة الأجور ورفع الدرجات وفي النجاة من العذاب، وقد شرع الله الدعاء للأموات وجوبا واستحبابا، فشرع الدعاء للميت وجوبا بالصلاة عليه بعد موته، فالصلاة على الميت فرض كفاية، وكذلك شُرع الدعاء للأموات عند زيارة

---

(١) انظر: الكشاف:٥٦٢/٢، وتفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٢) تفسير المراغي:١٦٢/١٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٤) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٥) تفسير المراغي:١٦٢/١٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٥١٤/٤.
(٧) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٨) معاني القرآن:١٦٥/٣.
(٩) الكشاف:٥٦٢/٢.
(١٠) الكشاف:٥٦٢/٢.
(١١) الكشاف:٥٦٢/٢.

القبور وعند دفن الميت، هذه كلها مواضع شرع الله فيها الدعاء لأموات المسلمين، والدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات مشروع، للأحياء والأموات، قال تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: ١٩]، وفي دعاء الأنبياء: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: ٤١] هذا دعاءُ إبراهيم، ونوح قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [نوح: ٢٨].

وكذلك الصدقة، فقد ثبت في الصحيح أن سعد بن عبادة - رضي الله عنه - توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إنْ تصدقت به عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أشهدك أنَّ حائطي الْمِخْرَافَ صدقةٌ عليها"[(١)][(٢)].

٣- تقرير عقيدة البعث والحساب والجزاء، لقوله تعالى:{يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}.

القرآن

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)} [إبراهيم : ٤٢]

التفسير:

ولا تحسبن -أيها الرسول- أن الله غافل عما يعمله الظالمون: من التكذيب بك وبغيرك من الرسل، وإيذاء المؤمنين وغير ذلك من المعاصي، إنما يؤخِّرُ عقابهم ليوم شديد ترتفع فيه عيونهم ولا تَغْمَض؛ مِن هول ما تراه.

قوله تعالى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم : ٤٢]، أي:" ولا تحسبن -أيها الرسول- أن الله غافل عما يعمله الظالمون: من التكذيب بك وبغيرك من الرسل، وإيذاء المؤمنين وغير ذلك من المعاصي"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {ولا تحسبن الله} يا محمد {غافلا} ساهيا {عما يعملْ هؤلاء المشركون من قومك، بل هو عالم بهم وبأعمالهم محصيا عليهم، ليجزيهم جزاءهم في الحين الذي قد سبق في علمه أن يجزيهم فيه"[(٤)].

قال ميمون بن مهران:" هي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم"[(٥)].

قال الزمخشري:" فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلا حتى قيل ولا تحسبن الله غافلا؟

قلت: إن كان خطابا لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا، كقوله: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام : ١٤/ يونس: ١٠٥/ القصص: ٨٧]، {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [القصص : ٨٨]، كما جاء في الأمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء : ١٣٦].

والثاني: أن المراد بالنهى عن حسبانه غافلا، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة : ٢٨٣، النور: ٢٨]، يريد الوعيد.

ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه.

وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له. من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه"[(١)].

---

(١)رواه البخاري (٢٧٦٢).
(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية للبراك:٣٣٩.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٠.
(٤) تفسير الطبري:٢٨/١٧.
(٥) أخرجه الطبري:٢٩/١٧.

قوله تعالى:{إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم : ٤٢]، أي:" إنما يؤخِّرُ عقابهم ليوم شديد ترتفع فيه عيونهم ولا تَغْمَض؛ مِن هول ما تراه"[٢].

قال الطبري:" يقول: إنما يؤخر عقابهم وإنزال العذاب بهم، إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيامة"[٣].

قال الزمخشري:" {تشخص فيه الأبصار}: أى أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى"[٤].

قال قتادة:" شخصت فيه والله أبصارهم، فلا ترتد إليهم"[٥].

وقرئ: «يؤخرهم»، بالنون والياء[٦].

الفوائد:

١- تأخير العذاب عن الظلمة في كل زمان ومكان لم يكن غفلة عنهم، وإنما هو تأخيرهم إلى يوم القيامة أو إلى أن يحين الوقت المحدد لأخذهم.

٢- أنه لشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم، فلا تطرف لشدة الرعب، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً.

القرآن

{مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)} [إبراهيم : ٤٣]

التفسير:

يوم يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول الموقف، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى.

قوله تعالى:{مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [إبراهيم : ٤٣]، أي:" يوم يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رءوسهم مع إدامة النظر"[٧].

قال الزجاج: " المعنى إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين، أي: مسرعين"[٨].

واختلف في قوله تعالى:{مُهْطِعِينَ} [إبراهيم : ٤٣]، على وجوه:

أحدها : معناه: مسرعين. قاله سعيد بن جبير[٩]، والحسن وقتادة[١٠]، وأبو عبيدة[١١]، والزجاج[١٢]، مأخوذ من أهطع يهطع إهطاعاً إذا أسرع ، ومنه قوله تعالى:{مهطعين إلى الداع}، أي: مسرعين . قال يزيد بن مفرّغ الحميريّ[١٣]:

بدجلة دارُهُم ولقد أراهم ... بدجلة مهطعين إلى السماع

وقال الآخر[١٤]:

بمهطع سرح كأنّ زمامه ... فى رأس جذع من أول مشذّب

---

(١) الكشاف:٥٦٢/٢-٥٦٣.

(٢) التفسير الميسر:٢٦٠.

(٣) تفسير الطبري:٢٩/١٧.

(٤) الكشاف:٥٦٣/٢.

(٥) أخرجه الطبري:٢٩/١٧.

(٦) انظر: الكشاف:٥٦٣/٢.

(٧) انظر: التفسير الميسر:٢٦١، وصفوة التفاسير:٩٣/٢.

(٨) معاني القرآن:١٦٥/٣-١٦٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٩/١٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٩/١٧.

(١١) انظر: مجاز القرآن:٣٤٢/١.

(١٢) انظر: معاني القرآ،:١٦٦/٣.

(١٣) البيت في مجاز القرآ،:٣٤٣/١، و معاني القرآن للزجاج:١٦٦٦/٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٧٦، و١٣٠/١٧، واللسان والتاج (هطع).

(١٤) انظر: مجاز القرآن:٣٤٢/١.

وقال الشاعر[١]:

بمستهطع رسل كأنّ جديله ... بقيدوم رعن من صؤام ممنّع

الثاني : أنه الدائم النظر لا يطرف، قاله ابن عباس[٢]، والضحاك[٣]، وأبو الضحى[٤].

وقال مجاهد:" مديمي النظر"[٥].

الثالث : أنه المطرِق الذي لا يرفع رأسه ، رواه ابن وهب عن ابن زيد[٦].

وفي قوله تعالى:{مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [إبراهيم : ٤٣]، وجهان:

أحدهما : رافعي رؤوسهم ، وإقناع الرأس رفْعُه ، قاله ابن عباس[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، ومجاهد[٩]، وقتادة[١٠]، والضحاك[١١]، وابن زيد[١٢]، وأبو عبيدة[١٣]، والزجاج[١٤]، وابن جرير جرير الطبري[١٥]، والقرطبي[١٦].

قال القرطبي:" أي رافعي رؤسهم ينظرون في ذل. وإقناع الرأس رفعه"[١٧].

ومنه قول الشاعر[١٨]:

أنغض رأسه نحوي وأقنعا ... كأنما أبصَرَ شيئاً أطمعَا

وقول الشمّاخ [١٩]:

يباكرن العضاه بمقنعات ... نواجذهن كالحدأ الوقيع

يصف إبلاً ترعى الشجر وأن أسنانها مرتفعة كالفؤوس.

قال قتادة:" «المقنع»: الذي يرفع رأسه شاخصا بصره لا يطرف"[٢٠].

قال القتيبي: "«المقنع»: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة"[٢١].

قال الحسن:" وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد"[٢٢].

الثاني : ناكسي رؤوسهم بلغة قريش ، قاله مؤرج السدوسي[٢٣]، وقتادة[٢٤].

---

(١) انظر: مجاز القرآن: ٣٤٣/١، والأساس (هطع) واللسان والتاج (قيدوم).
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٠٠):ص٢٢٥١/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٣٠/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٩/١٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٠١):ص٢٢٥١/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٣٠/١٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٠٠):ص٢٢٥١/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(١٣) انظر: مجاز القرآن:٣٤٣/١.
(١٤) انظر: معاني القرآ:١٦٦/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٣١/١٧.
(١٦) انظر: تفسير القرطبي:٣٧٦/٩.
(١٧) تفسير القرطبي:٣٧٦/٩.
(١٨) انظر: النكت والعيون:١٤١/٣.
(١٩)ديوانه ٥٦.، ومجاز القرآن:٣٤٣/١، و تفسير الطبري ١٣/ ١٤٢ واللسان والتاج (حدأ).
(٢٠) أخرجه الطبري:٣٢/١٧.
(٢١) الكشف والبيان:٣٢٥/٥.
(٢٢) أخرجه الطبري:٣٢/١٧.
(٢٣) انظر: النكت والعيون:١٤٠/٣.
(٢٤) انظر: النكت والعيون:١٤٠/٣.

قال القرطبي:" قال المهدوي: ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرد، والقول الأول أعرف"(١).

قوله تعالى:{لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} [إبراهيم : ٤٣]، أي:" لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع"(٢).

قال الطبري:" يقول: لا ترجع إليهم لشدة النظر أبصارهم"(٣).

عن ابن عباس:" {لا يرتد إليهم طرفهم}، قال: شاخصة أبصارهم"(٤).

قال القرطبي:" أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طرف الرجل يطرف طرفا إذا أطبق جفنه على الآخر، فسمي النظر طرفا لأنه به يكون. والطرف العين. قال عنترة(٥):

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

وقال جميل(٦):

أقصر طرفي دون جمل كرامة ... لجمل وللطرف الذي أنا قاصره"(٧).

قوله تعالى:{وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم : ٤٣]، أي:" وقلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع"(٨).

وفي قوله تعالى:{وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم : ٤٣]، وجوه:

أحدها : أنها تتردد في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه فكأنها تهوي ، قاله سعيد بن جبير(٩)، ومجاهد(١٠). قال الشاعر(١١):

كأن الرحل منها فوق صعل. . . من الظلمان جؤجؤه هواه

الثاني : أنها قد زالت عن أماكنها حتى بلغت الحناجر ، فلا تنفصل ولا تعود ، قاله قتادة(١٢).

وقال مقاتل:" وذلك أن الكفار إذا عاينوا النار شهقوا شهقة زالت منها قلوبهم عن أماكنها فتنشب في حلوقهم، فصارت قلوبهم «هواء» بين الصدور والحناجر فلا تخرج من أفواههم ولا ترجع إلى أماكنها فذلك قوله- سبحانه-: في «حم» المؤمن : {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِين} [غافر : ١٨]، يعني: مكروبين، فلما بلغت القلوب الحناجر ونشبت في حلوقهم انقطعت أصواتهم وغصت ألسنتهم"(١٣).

الثالث : أنها المتخرقة التي لا تعي شيئاً ، قاله مُرّة (١٤). وبه قال الزجاج(١٥).

الرابع : أنها خالية من الخير، وما كان خالياً فهو هواء، فهي كالخربة. قاله ابن عباس(١٦)، ومجاهد(١٧)، وابو صالح(١٨).

---

(١) تفسير القرطبي:٣٧٧/٩.
(٢) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٣) تفسير الطبري:٣٢/١٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٠٠):ص٢٢٥١/٧.
(٥) ديوانه: ٧٦.
(٦) لم اقف عليه في الديوان، وذكره الماوردي في النكت والعيون:١٤١/٣.
(٧) تفسير القرطبي:٣٧٧/٩.
(٨) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٣٤/١٧.
(١٠) انظر النت والعيون:١٤١/٣.
(١١) انظر: معاني القرآن للزجاج:١٦٦/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٣٤/١٧.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٠٢):ص٢٢٥١/٧، وتفسير الطبري:٣٣/١٧.
(١٥) انظر: معاني القرآن:١٦٦/٣.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٠٠):ص٢٢٥١/٧، وتفسير الطبري:٣٣/١٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٣٤/١٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:٣٤/١٧.

وقال ابن زيد: الأفئدة: القلوب هواء كما قال الله، ليس فيها عقل ولا منفعة"[١].
الخامس: معناه: جوف، ولا عقول لهم، قاله أبو عبيدة[٢]، واستشهد بقول حسّان بن ثابت[٣]:
ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوّف نخب هواء
وقول الآخر[٤]:
ولا تك من أخدان كل يراعة ... هواء كسقب البان جوف مكاسرة.
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: أنها خالية ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئا، وذلك أن العرب تسمي كل أجوف خاو: هواء"[٥].
الفوائد:
١- بيان أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه حتى يتمنى الظالمون الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا ويوحدوا ربهم في عبادته.
٢- لشدة أهوال يوم القيامة ولشدة خوف الظالمين تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل شيئاً.

القرآن
{وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)} [إبراهيم : ٤٤]
التفسير:
وأنذر -أيها الرسول- الناس الذين أرسلتُكَ إليهم عذاب الله يوم القيامة، وعند ذلك يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أَمْهِلْنا إلى وقت قريب نؤمن بك ونصدق رسلك. فيقال لهم توبيخًا: ألم تقسموا في حياتكم أنه لا زوال لكم عن الحياة الدنيا إلى الآخرة، فلم تصدِّقوا بهذا البعث؟
قوله تعالى:{وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ}[إبراهيم : ٤٤]، أي:" وأنذر -أيها الرسول- الناس الذين أرسلتُكَ إليهم عذاب الله يوم القيامة"[٦].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيا إلى الإسلام ما هو نازل بهم، يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة"[٧].
قال قتادة:" يقول: أنذرهم في الدنيا قبل أن يأتيهم العذاب"[٨].
قال الزمخشري:" أو أريد بـ«اليوم»: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب، كقوله لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق"[٩].
قوله تعالى:{فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}[إبراهيم : ٤٤]، أي:" وعند ذلك يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أَمْهِلْنا إلى وقت قريب"[١٠].
قال الطبري:" يقول: فيقول الذين كفروا بربهم، فظلموا بذلك أنفسهم (ربنا أخرنا) أي أخر عنا عذابك، وأمهلنا {إلى أجل قريب.."[١١].

---

(١) أخرجه الطبري:٣٤/١٧.
(٢) انظر: مجاز القرآن:٣٤٤/١.
(٣)ديوانه ٧، والطبري ١٣/ ١٤٤، واللسان والتاج (هوا، جوف).
(٤)هذا البيت منسوب فى نسخة إلى صخر الغى الهذلي، ولم أقف عليه فى ديوان الهذليين، وقد أنشده صاحب اللسان وقال: إن ابن برى أنشد هذا البيت لكعب الأمثال (هوا) ، وهو فى الطبري ١٣/ ١٤٤ والتاج (هوا).
(٥) تفسير الطبر:٣٤/١٧-٣٥.
(٦) التفسير الميسر:٢٦١.
(٧) تفسير الطبري:٣٥/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٣٦/١٧.
(٩) الكشاف:٥٦٥/٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢٦١.
(١١) تفسير الطبري:٣٥/١٧.

قال الزمخشري:" معنى أخرنا إلى أجل قريب ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك"(١).

قال البغوي:" أمهلنا، {إلى أجل قريب} هذا سؤالهم إلى الدنيا، أي: ارجعنا إليها"(٢).

عن مجاهد:" {فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب}، قال: مدة يعملون فيها من الدنيا"(٣).

قال الواحدي:" استمهلوا مدَّةً يسيرة"(٤).

قوله تعالى:{نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ}[إبراهيم : ٤٤]، أي:" نجب دعوتك لنا إلى الإيمان ونتّبع رسلك فيما جاءونا به"(٥).

قال الطبري:" فنؤمن بك، ولا نشرك بك شيئا، ونصدق رسلك فنتبعهم على ما دعوتنا إليه من طاعتك واتباع أمرك"(٦).

قال الواحدي:" كي يجيبوا الدَّعوة "(٧).

قوله تعالى:{أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم : ٤٤]، أي:" ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى؟"(٨).

قال الطبري:" وهذا تقريع من الله تعالى ذكره للمشركين من قريش، بعد أن دخلوا النار بإنكارهم في الدنيا البعث بعد الموت، يقول لهم: إذ سألوه رفع العذاب عنهم، وتأخيرهم لينيبوا ويتوبوا {أولم تكونوا} في الدنيا {أقسمتم من قبل ما لكم من زوال}، يقول: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تموتون، ثم لا تبعثون"(٩).

قال ابن كثير:" أي : أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال : أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذاك"(١٠).

قال الواحدي:أي:" حلفتم في الدُّنيا أنَّكم لا تُبعثون ولا تنتقلون إلى الآخرة وهو قوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ الله من يموت} الآية"(١١).

وفي قوله تعالى:{أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم : ٤٤]، وجهان:
أحدهما : ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، قاله مجاهد(١٢).
الثاني : ما لكم من زوال عن العذاب ، قاله الحسن(١٣).

قال الزمخشري:" {أولم تكونوا أقسمتم}، على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطرا وأشرا، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدا وأملوا بعيدا"(١٤).

الفوائد:

١- أنه تعالى جمع الدين كله في هاتين الكلمتين: {نُجِبْ دَعْوَتَكَ}: فيه التوحيد لانه الذي دعا إليه ودعت إليه رسله وفي قوله: {وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ} العمل بكتابة واتباع رسوله ﷺ لأن من

---

(١) الكشاف:٥٦٤/٢-٥٦٥.
(٢) تفسير البغوي:٣٥٩/٤-٣٦٠.
(٣) أخرجه الطبري:٣٦/١٧.
(٤) الوجيز:٥٨٥.
(٥) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣٥/١٧.
(٧) الوجيز:٥٨٥.
(٨) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٩) تفسير الطبري:٣٥/١٧.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥١٦/٤.
(١١) الوجيز:٥٨٥.
(١٢) أخرجه الطبري:٣٧/١٧.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٤٢/٣.
(١٤) الكشاف:٥٦٥/٢.

اتبع كتابه ورسوله فقد اتبع الرسل جميعهم فمن عمل بهاتين الكلمتين فيما كان طاعة لله ولرسوله فقد فاز ونجا وحصل ما تمناه المفرطون يوم القيامة فالله الله في الاهتمام بهذا الشأن والقيام به حسب الإمكان(١).

٢- ومن الفوائد: أن فكرة الرجعة إلى الدنيا بعد الموت مخالفة صريحة لنص القرآن، وباطلة بدلالة آيات عديدة من كتاب الله سبحانه، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[المؤمنون:٩٩-١٠٠] . فقوله سبحانه: {وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} صريح في نفي الرجعة مطلقًا(٢) .

وقال سبحانه: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [يس:٣١] . وقال سبحانه: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ}[إبراهيم:٤٤]، وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة:١٢]، وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[كالأنعام:٢٧-٢٨].

فهؤلاء جميعًا يسألون الرجوع عند الموت، وعند العرض على الجبار جل علاه، وعند رؤية النار فلا يجابون، لما سبق في قضائه أنهم إليها لا يرجعون ولذلك عدّ أهل العلم القول برجعة الإمام علي-رضي الله عنه- إلى الدنيا بعد الموت من أشد مراحل الغلو.

وقد جاء في مسند أحمد أن عاصم بن ضمرة -وكان من أصحاب علي رضي الله عنه- قال للحسن بن علي: "إن الشيعة يزعمون أن عليًا يرجع. قال الحسن: كذب أولئك الكذابون، لو علمنا ذاك ما تزوج نساؤه، ولا قسمنا ميراثه"(٣).

قال ابن حجر: "التشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويطلع عليه رافضي، وإلا فشيعي، فإن انضاف إلى ذلك السب أو التصريح بالبغض فغال في الرفض، وإن اعتقد الرجعة إلى الدنيا فأشد في الغلو"(٤).

القرآن

{وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)} [إبراهيم : ٤٥]

التفسير:

وحللتم في مساكن الكافرين السابقين الذين ظلموا أنفسهم كقوم هود وصالح، وعلمتم -بما رأيتم وأُخبرتم- ما أنزلناه بهم من الهلاك، وضربنا لكم الأمثال في القرآن، فلم تعتبروا؟

قوله تعالى:{وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم : ٤٥]، أي:" وحللتم في مساكن الكافرين السابقين الذين ظلموا أنفسهم كقوم هود وصالح"(٥).

قال البغوي:" {وسكنتم} في الدنيا، {في مساكن الذين ظلموا أنفسهم} بالكفر والعصيان، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم"(٦).

---

(١) انظر: المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد:٢٤٩-٢٥٠.
(٢) انظر: مختصر التحفة:٢٠١.
(٣)مسند أحمد: ٣١٢/٢ رقم (١٢٦٥) ، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر: طبقات ابن سعد: ٣/٣.
(٤)هدي الساري مقدمة فتح الباري: ص٤٥٩.
(٥) التفسير الميسر:٢٦١.
(٦) تفسير البغوي:٣٦٠/٤.

قال قتادة:" سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وثمود. وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم"[١].

قوله تعالى:{وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} [إبراهيم : ٤٥]، أي:" وعلمتم -بما رأيتم وأُخبرتم- ما أنزلناه بهم من الهلاك"[٢].

قال مقاتل:" يقول: كيف عذبناهم"[٣].

قال ابن أبي زمنين:أي: " كيف أهلكناهم؛ يخوفهم بذلك"[٤].

قال البغوي:" أي: بينا أن مثلكم كمثلهم"[٥].

قال السمعاتي:" يعني: عرفتم عقوبتنا إياهم"[٦].

قوله تعالى:{وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم : ٤٥]، أي:" وضربنا لكم الأمثال في القرآن، فلم تعتبروا؟"[٧].

قال البغوي:" أي: عرفتم عقوبتنا إياهم"[٨].

قال السمعاتي:" أي: الأشباه، ومعناه: بينا أن مثلكم كمثلهم"[٩].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: وصفنا لكم عذاب الأمم الخالية؛ يخوف كفار مكة"[١٠].

قال مقاتل:" يعني: ووصفنا لكم الأشياء، يقول: وبينا لكم العذاب لتوحدوا ربكم- عز وجل- يخوف كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لئلا يكذبوا بمحمد- ﷺ- "[١١].

عن قتادة:" {وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال}، قال: قد والله بعث الله رسله وأنزل كتبه وضرب لكم الأمثال، فلا يصم فيها إلا الأصم، ولا يخيب فيها إلا الخائب فاعقلوا عن الله أمره"[١٢].

الفوائد:

١- التنديد بالظلم وبيان عقاب الظالمين بذكر أحوالهم.

٢- إنما المقصود من ذكر ضلال الأمم الأولى هو تحذير الأحياء الموجودين لئلا يقعوا فيما وقعوا فيه، وزجر من وقع منهم عما وقع فيه لئلا يحل بهم ما حل بهم من النكال، كما أن الله سبحانه وتعالى ما قص علينا من أخبار الأمم الأولى إلا لنتعظ بهم ونعتبر بمصارعهم، ولنعلم أسباب هلاكهم فنتقيه، ونعلم سبل النجاة التي سلكها رسل الله وأولياؤه ففازوا بخيري الدنيا والآخرة، فنسلكها ونقفو أثرهم؛ ولهذا قال تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [الأعراف: ١٠٠] الآية، وقال تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ، وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ}، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ} [السجدة: ٢٦] وقال تعالى بعد أن قص علينا ما قص في سورة هود: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ،

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٠٦):ص٢٢٥٢/٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٦١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١١/٢.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٥/٢.
(٥) تفسير البغوي:٣٦٠/٤.
(٦) تفسير السمعاني:١٢٤/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٦١.
(٨) تفسير البغوي:٣٦٠/٤.
(٩) تفسير السمعاني:١٢٤/٣.
(١٠) تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٥/٢.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١١/٢.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٠٦):ص٢٢٥٢/٧.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٠-١٠٢] الآيات، وقد قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم"[١].

فإذا كان هذا الخطر على من دخل ديارهم فما ظنك بمن عمل مثل عملهم وزيادة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

القرآن

{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)} [إبراهيم : ٤٦]

التفسير:

وقد دبَّر المشركون الشرَّ للرسول ﷺ بقتله، وعند الله مكرهم فهو محيط به، وقد عاد مكرهم عليهم، وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ولا غيرها لضعفه ووَهَنه، ولم يضرُّوا الله شيئًا، وإنما ضرُّوا أنفسهم.

قوله تعالى:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ} [إبراهيم : ٤٦]، أي:" مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله"[٢].

قال علي-رضي الله عنه-:"الغدر: مكر، والمكر كفر"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ} [إبراهيم : ٤٦]، قولان:

أحدهما : أنه عنى بالمكر الشرك ، رواه عليّ عن ابن عباس[٤]، وبه قال قتادة[٥]، والضحاك[٦].
والضحاك[٦].

قال قتادة:" ذلك حين دعوا لله ولدا. وقال في آية أخرى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}"[٧].

الثاني : أنه عنى به العتو والتجبّر ، وهي فيمن تجبر في ملكه وصعد مع النسرين في الهواء ، قاله علي رضي الله عنه[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، ومجاهد[١٠].

قال علي-رضي الله عنه-:" كان ملك فره[١١] أخذ فروخ النسور، فعلفها اللحم حتى شبَّت واستعلجت واستغلظت. فقعد هو وصاحبه في التابوت وربطوا التابوت بأرجل النسور، وعلقوا اللحم فوق التابوت، فكانت كلما نظرت إلى اللحم صعدت وصعدت، فقال لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى الجبال مثل الدخان، قالا ما ترى؟ قال: ما أرى شيئا، قال: ويحك صوّب صوّب، قال: فذلك قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}"[١٢].

---

(١)البخاري "٦/ ٣٧٨، ٣٧٩" في الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا} . وفي المساجد، باب الصلاة في مواضع الخسف، وفي المغازي، باب نزول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحجر، وفي التفسير، باب {ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين} .

ومسلم "٤/ ٢٢٨٦/ ح٢٩٨٠" في الزهد والرقائق، باب "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين".

(٢) صفوة التفاسير:٩٣/٢.

(٣) أخرجه الطبري:٤٣/١٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري:٤١/١٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٤١/١٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري:٤١/١٧.

(٧)أخرجه الطبري:٤١/١٧ .

(٨) أخرجه الطبري:٣٨/١٧-٣٩.

(٩) أخرجه الطبري:٤٠/١٧-٤١.

(١٠) أخرجه الطبري:٣٩/١٧.

(١١)الفره: البطر الأشر. المتمادي في غيه.

(١٢) أخرجه الطبري:٣٨/١٧-٣٩.

وفي رواية عن علي-رضي الله عنه-:" أخذ ذلك الذي حاجّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما، ثم استغلظا واستعلجا وشبَّا، قال: فأوثق رجل كلّ واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم، قال: فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ماذا ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كأنها ذباب، فقال: صوّب العصا، فصوّبها فهبطا، قال: فهو قول الله تعالى {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ}- قال أبو إسحاق: وكذلك في قراءة عبد الله {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ} "(١).

وقال ابن عباس : "هو النمرود بن كنعان بن سنحاريب بن حام بن نوح بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل إلى السماء اتخذه حصناً وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصرح عليهم ، فهلكوا جميعاً ، فهذا معنى قوله {وقد مكروا مكرهم}"(٢).

وقال سعيد بن جبير:" نمرود صاحب النسور، أمر بتابوت فجعل وجعل معه رجلا ثم أمر بالنسور فاحتمل، فلما صعد قال لصاحبه: أي شيء ترى؟ قال: أرى الماء وجزيرة -يعني الدنيا- ثم صعد فقال لصاحبه: أي شيء ترى؟ قال: ما نزداد من السماء إلا بعدا، قال: اهبط -وقال غيره: نودي- أيها الطاغية أين تريد؟ قال: فسمعت الجبال حفيف النسور، فكانت ترى أنها أمر من السماء، فكادت تزول، فهو قوله: {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ}"(٣).

وقال مجاهد:" مكر فارس. وزعم أن بختنصر خرج بنسور، وجعل له تابوتا يدخله، وجعل رماحا في أطرافها واللحم فوقها. أراه قال: فعلت تذهب نحو اللحم حتى انقطع بصره من الأرض وأهلها، فنودي: أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق: ثم سمع الصوت فوقه، فصوّب الرماح، فتصوّبت النسور، ففزعت الجبال من هدّتها، وكادت الجبال أن تزول منه من حسّ ذلك، فذلك قوله: {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ}"(٤).

وعن أبي مالك رضي الله عنه في قوله: "{وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال}، قال: انطلق ناس وأخذوا هذه النسور فعلقوا عليها كهيئة التوابيت ثم أرسلوها في السماء، فرأتها الجبال فظنت أنه شيء نزل من السماء فتحركت لذلك"(٥).

وقال السدي:" أمر الذي حاج إبراهيم في ربه بإبراهيم، فأخرج من مدينته فلقي لوطا على باب المدينة وهو ابن أخيه، فدعاه فآمن به وقال: إني مهاجر إلى ربي. وحلف نمرود إن يطلب إله إبراهيم، فأخذ أربعة فراخ من فراخ النسور، فرباهن بالخبز واللحم ... حتى إذا كبرن وغلظن واستعلجن قرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت، ثم رفع رجلا من لحم لهن، فطرن حتى إذا دهم في السماء أشرف فنظر إلى الأرض وإلى الجبال تدب كدبيب النمل، ثم رفع لهن اللحم ثم نظر، فرأى الأرض محيطا بها بحر كأنها فلكة في ماء، ثم رفع طويلا فوقع في ظلمة، فلم ير ما فوقه ولم ير ما تحته، فألقي اللحم فأتبعته منقضات، فلما نظرت الجبال إليهن قد أقبلن منقضات وسمعن حفيفهن، فزعت الجبال وكادت إن تزول من أمكنتها، ولم يفعلن. فذلك قوله: وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال وهي في قراءة عبد الله بن مسعود «وإن كاد مكرهم» فكان طيورهن به من بيت المقدس، ووقوعهن في جبال الدخان. فلما رأى أنه لا يطيق شيئا، أخذ في بنيان الصرح فبناه حتى أسنده إلى السماء، ارتقى فوقه ينظر يزعم إلى إله إبراهيم، فأحدث ولم يكن يحدث، وأخذ الله بنيانه {مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النحل : ٢٦]، يقول: من مأمنهم وأخذهم

---

(١) أخرجه الطبري:٣٩/١٧.
(٢)انظر: النكت والعيون:١٤٢/٣ .
(٣) أخرجه الطبري:٤٠/١٧-٤١.
(٤) أخرجه الطبري:٣٩/١٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٠٩):ص٢٢٥٣/٧.

من أساس الصرح، فانتقض بهم ... وسقط، فتبلبلت ألسنة الناس يومئذ من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا، فلذلك سمت بابل وكان قبل ذلك بالسريانية"(١).

قال الثعلبي:" ذكره علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره قالوا: نمرود الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقا فلا انتهي حتى أعلم ما في السماء، فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور وعلفها اللحم ورباها حتى شبت واستعلجت ثم قعد في تابوت وجعل معه رجلا آخر، وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل وربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم فوق التابوت على عصا ثم خلى النسور فطرن وصعدن طمعا في اللحم حتى بعدن في الهواء.

قال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأول وانظر في السماء هل ترى منه شيئا ففتح ونظر، فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل ذلك فقال أرى الأرض مثل اللجة البيضاء، والجبال مثل الدخان، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت بينها وبين التابوت فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودي: أيها الطاغية أين تريد.

قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى عليهم فعاد إليه السهم متلطخا بدم. فقال: كفيت نفسك إله السماء واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ.

قال عكرمة: سمكة فدت نفسها لله من بحر في الهواء معلق.

وقال بعضهم: من طائر من الطيور أصابه السهم.

قالوا: ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن ينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت في النسور ففزعت وظنت أن قد حدث بها حدث في السماء أو أن القيامة قد قامت فذلك قوله :{وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال}"(٢).

قوله تعالى:{وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ} [إبراهيم : ٤٦]، أي:" وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم"(٣).

وفي قوله تعالى:{وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ} [إبراهيم : ٤٦]، وجهان:

أحدهما : وعند الله مكرهم عالماً به لا يخفى عليه ، حكاه الماوردي عن علي بن عيسى(٤).

الثاني : وعند الله مكرهم محفوظاً عليهم حتى يجازيهم عليه ، قاله الحسن(٥)، وقتادة(٦)، والقشيري(٧).

قال الثعلبي: معناه: " جزاء مكرهم"(٨).

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم : ٤٦]، أي:" وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ولكنَّ الله عصَم ووقى منه"(٩).

قال الثعلبي:" أمر النبي ﷺ وأمر الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسخة لأن الله وعده إظهار دينه على الأديان كلها، وقيل معناه: كان مكرهم"(١٠).

وقال الحسن:" وإن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال"(١١).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣١٠):ص٢٢٥٣/٧.
(٢) الكشف والبيان:٣٢/٥.
(٣) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(٧) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٣٨١/٩.
(٨) الكشف والبيان:٣٢٦/٥.
(٩) صفوة التفاسير:٩٣/٢.
(١٠) الكشف والبيان:٣٢٦/٥.
(١١) أخرجه الطبري:٤٣/١٧.

وقال الحسن:" أربع في القرآن: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وقوله {لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} ما كنا فاعلين، وقوله {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} ما كان للرحمن ولد، وقوله {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ} ما مكناكم فيه. قال هارون: وحدثني بهنّ عمرو بن أسباط، عن الحسن، وزاد فيهنّ واحدة {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ} ما كنت في شكّ {مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ}"(1).

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم : ٤٦]، قراءتان(2):

إحداهما : بكسر اللام الأولى وفتح الثانية: «لِتَزُولَ»، وهي قراءة عامَّة قرّاء الحجاز والمدينة والعراق ما خلا الكسائي، ومعناها: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، احتقاراً له ، قاله ابن عباس والحسن(3) .

الثانية : بفتح اللام الأولى وضم الثانية«لَتَزُولُ»، وهي قراءة الكسائي، ومعناها: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال استعظاماً له. وهي قراءة علي-رضي الله عنه-(4)، وعبدالله بن مسعود(5)، وأنس(6).

وقرأ عمر بن الخطاب(7)، وعلي بن أبي طالب(8)، وعبدالله بن مسعود(9)، وعبدالله بن بن عباس وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم: « وَإِنْ كادَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ»(10).

وفي «الجبال» التي عنى زوالها بمكرهم قولان(11):

أحدهما : جبال الأرض .

الثاني : الإسلام والقرآن ، لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال .

الفوائد:

١- تقرير جريمة قريش في ائتمارها على قتل رسول الله ﷺ.

٢- أن مكر الماكرين ليس غائباً عن رب العالمين، فإن مكر الأعداء وكيدهم، وما عندهم من القوة والعدة والوسائل، فإنه لا يسواي شيئا بإزاء قدرة الله عزّ وجلّ.

القرآن

{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧)} [إبراهيم : ٤٧]

التفسير:

فلا تحسبن -أيها الرسول- أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وإهلاك مكذبيهم. إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، منتقم من أعدائه أشد انتقام.

قوله تعالى:{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} [إبراهيم : ٤٧]، أي:" فلا تحسبن -أيها الرسول- أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وإهلاك مكذبيهم"(12).

قال الثعلبي: أي:" بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه"(13).

قال ابن كثير:" أي : من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"(14).

---

(١) أخرجه الطبري:٤٣/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٤٢/١٧، والنكت والعيون:١٤٣/٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٣٨/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٣٩/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٤١/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٤٠/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٤٠/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:٤١/١٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣، وتفسير القرطبي:٣٨١/٩.
(١٢) التفسير الميسر:٢٦١.
(١٣)الكشف والبيان:٣٢٧/٥ .
(١٤) تفسير ابن كثير:٥١٨/٤.

قال البغوي:" وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده"[(١)].

قال القشيري:" أي: لا تحسبنّه يخلف رسله وعده لأنه لا يخلف الوعد لصدقه فى قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقّه فى ملكه"[(٢)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {فلا تحسبن الله مخلف وعده} الذي وعدهم من كذبهم، وجحد ما أتوهم به من عنده، وإنما قاله تعالى ذكره لنبيه تثبيتا وتشديدا لعزيمته، ومعرفه أنه منزل من سخطه بمن كذبه وجحد نبوته، ورد عليه ما أتاه به من عند الله، مثال ما أنزل بمن سلكوا سبيلهم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجهم من تكذيب رسلهم وجحود نبوتهم ورد ما جاءوهم به من عند الله عليهم"[(٣)].

قال النسفي:" يعني: قوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} [غافر : ٥١]، {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]، {مخلف} مفعول ثان {لتحسبن} وأضاف {مخلف} إلى {وعده} وهو المفعول الثاني له والأول {رسله} والتقدير: مخلف رسله وعده. وإنما قدم المفعول الثاني على الأول، ليعلم انه لا يخاف الوعد أصلا كقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران : ٩/ الرعد: ٣١]، ثم قال:{رسله}، ليوذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته"[(٤)].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم : ٤٧]، أي:" إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، منتقم من أعدائه أشد انتقام"[(٥)].

قال الطبري:" {عزيز} لا يمانع منه شيء أراد عقوبته، قادر على كل من طلبه، لا يفوته بالهرب منه. {ذو انتقام} ممن كفر برسله وكذبهم، وجحد نبوتهم، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره"[(٦)].

قال النسفي:" {إن الله عزيز} غالب لا يماكر {ذو انتقام} لأوليائه من أعدائه"[(٧)].

قال ابن كثير:" ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع (١) عليه شيء أراده ، ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [الطور : ١١]"[(٨)].

الفوائد:

١- بيان صدق وعد الله من وعدهم من رسله وأوليائه.

٢- ومن الفوائد: إثبات اسم من أسماء الله. وهو«العزيز»: أي:" المنيع الذي لا يغلب"[(٩)].

القرآن

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)} [إبراهيم : ٤٨]

التفسير:

وانتقام الله تعالى مِن أعدائه في يوم القيامة يوم تُبَدَّل هذه الأرض بأرض أخرى بيضاء نقيَّة كالفضة، وكذلك تُبَدَّل السموات بغيرها، وتخرج الخلائق من قبورها أحياء ظاهرين للقاء الله الواحد القهار، المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله وقهره لكل شيء.

قوله تعالى:{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم : ٤٨]، أي:" وانتقام الله تعالى مِن أعدائه في يوم القيامة يوم تُبَدَّل هذه الأرض بأرض أخرى بيضاء نقيَّة كالفضة، وكذلك تُبَدَّل السموات بغيرها"[(١)].

---

(١) تفسير البغوي:٣٦١/٤.
(٢) لطائف الإشارات:٢٦٠/٢.
(٣) تفسير الطبري:٤٤/١٧.
(٤) تفسير النسفي:١٧٩/٢-١٨٠.
(٥) التفسير الميسر:٢٦١.
(٦) تفسير الطبري:٤٤/١٧.
(٧) تفسير النسفي:١٨٠/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥١٨/٤.
(٩) شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.

قال ابن كثير:" أي : وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء في الصحيحين ، من حديث أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقي ، ليس فيها معلم لأحد»(٢)"(٣).

قال مقاتل:" يقول: تبدل صورة الأرض التي عليها بنو آدم بأرض بيضاء نقية لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها معصية وهي أرض الصراط وعمق الصراط خمسمائة عام وتبدل السماوات فلا تكون شيئا"(٤).

قال ابن زيد:" هذا يوم القيامة، خلق سوى الخلق الأول"(٥).

قال أبو عبدالله الحليمي:" وأما قوله عز وجل: {يوم تبدل الأرض غير الأرض} فليس معناه أنها تجعل شيئا آخر سوى الأرض، فكون مكان الأرض مرفقا ليس بأرض. وإنما هو أنها تهيأ هيئة أخرى، حتى تكون المنظر غير هذه التي تشاهدونها، وهو الرجل بغير خلقه وسيرته مع صديقه، فيقول تبدلت وتغيرت، ولست الرجل الذي كنت، والله أعلم"(٦).

وفي قوله تعالى:{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ} [إبراهيم : ٤٨]، وجوه من التفسير:

أحدها : أنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة، لم تعمل عليها خطيئة ، قاله ابن مسعود(٧)، ومجاهد(٨).

قال عبدالله بن مسعود:" يجاء بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، قال: فأول ما يحكم بين الناس فيه في الدماء"(٩).

قال أنس بن مالك:" يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة لم تعمل عليها الخطايا، ينزل الجبار تبارك وتعالى عليها"(١٠).

وقال ابن عباس : "تبدل الأرض من فضة بيضاء"(١١).

الثاني : أنها تبدل أرضا من فضة. وهذا قول علي-رضي الله عنه(١٢)، وابن عباس(١٣)، وأنس(١٤).

قال علي:" الأرض من فضة، والجنة من ذهب"(١٥).

قال أنس:" يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة"(١٦).

الثالث: أنها تبدل نارا. وهذا مروي عن عبدالله بن مسعود(١٧).

قال عبدالله:" الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا، حتى يرشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى

---

(١) التفسير الميسر:٢٦١.
(٢)صحيح البخاري برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).
(٣) تفسير ابن كثير:٥١٨/٤.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣١٣):ص٢٢٥٤/٧.
(٦) المنهاج في شعب الإيمان:٤٤٩/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٤٦/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٤٧/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:٤٦/١٧.
(١٠) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب(٢١٥):ص١٠٩/٢.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٤٨/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(١٥) أخرجه الطبري:٤٨/١٧.
(١٦) أخرجه الطبري:٤٩/١٧.
(١٧) انظر تفسير الطبري:٤٨/١٧.

يبلغ أنفه وما مسه الحساب، فقالوا: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون"[١].
ويلقون"[١].

الرابع: يبدلها خبزة. وهذا قول سعيد بن جبير[٢]، وهو مروي عن محمد بن كعب القرظي[٣]، أو عن محمد بن قيس-شكّ الراوي-[٤].

قال سعيد بن جبير:" تبدل خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه"[٥].

الخامس: أنها تبدل غير الأرض، ويصير مكان البحر النار. قاله كعب[٦].

وقال الحسن :"أنها هي هذه الأرض، وإنما تبدل صورتها ويطهر دنسها"[٧].

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى ما كان في بطنها كان في بطنها وما كان على ظهرها كان على ظهرها، وذلك حين يطوي السماوات كطي السجل للكتاب، ثم يدحو بهما، ثم تبدل الأرض غير الأرض والسموات"[٨].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم. فإذا كان ذلك قبضت هذه السماء الدنيا على أهلها فنثروا على وجه الأرض، فإذا أهل السماء الدنيا أكثر من جميع أهل الأرض، فإذا رآهم أهل الأرض فزعوا، وقالوا: أفيكم ربنا؟ فيقولون: ليس فينا وهو آت. قال: ثم يقبض السماء الثانية -وساق إلى السماء السابعة- قال: فلأهل السماء السابعة وحدهم أكثر من أهل ست سماوات، ومن جميع أهل الأرض بالضعف، قال: ويجيء الله تعالى فيهم، والأمم جثا صفوف قال: فينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم»[٩].

قال عمرو بن ميمون الأودي: "يجمع الناس يوم القيامة في أرض بيضاء، لم يعمل فيها خطيئة مقدار أربعين سنة يلجمهم العرق"[١٠].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: يوم تبدل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها، وكذلك السماوات اليوم تبدل غيرها، كما قال جل ثناؤه، وجائز أن تكون المبدلة أرضا أخرى من فضة، وجائز أن تكون نارا وجائز أن تكون خبزا، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي ذلك يكون، فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل"[١١].

وفي قوله تعالى:{ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم : ٤٨]، وجوه:

أحدها : أن السموات تبدل بغيرها كالأرض فتجعل السماء من ذهب، والأرض من فضة ، قاله علي بن أبي طالب[١٢]، ومجاهد[١].

---

(١) أخرجه الطبري:٤٨/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(٥) أخرجه الطبري:٤٩/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٤٩/١٧.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٤٣/٣.
(٨) أخرجه الطبري: ٤٩/١٧-٥٠.
(٩)أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٣٨٤)، من طريق محمد بن جعفر، والحارث في مسنده (١١٢٢ - بغية)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٢) عن هوذة بن خليفة، وابن أبي= ... = الدنيا في الأهوال (١٧٣)، من طريق ابن المبارك، ثلا ثتهم عن عوف هو ابن أبي جميلة الأعرابي، به. ...
ورجاله ثقات غير شهر بن حوشب فهو متكلم فيه، وقد حسن إسناد هذا الأثر البوصيري في إتحاف الخيرة (٨/ ١٦٢)، والحافظ في المطالب العالية (٤٥٥٧).
(١٠) أخرجه الطبري:٥٠/١٧.
(١١) تفسير الطبري:٥٢/١٧.
(١٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٤٤/٣، وابن كثير في تفسيره:٥٢٠/٤

الثاني : أن السموات تبدل بغيرها كالأرض، فتصير السموات جناناً والبحار نيراناً وتبدل الأرض بغيرها ، قاله كعب الأحبار(٢).

وفي الحديث الذي رواه أبو داود : "لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر ، فإن تحت البحر نارا، و تحت النار بحرا"(٣).

الثالث : أن تبديل السموات تكوير شمسها وتكاثر نجومها ، قاله ابن عيسى(٤).

الرابع : أن تبديل السماوات انتثار كواكبها وانفطارها وانشقاقها وتكوير شمسها وخسوف قمرها. قاله الزجاج(٥).

أن تبديلها أن تطوى كطي السجل للكتب ، قاله القاسم بن يحيى(٦).

الخامس : أن تبديلها أن تنشق فلا تظل ، قاله ابن شجرة(٧).

السادس : أن تبديلها اختلاف أحوالها ، تكون في حال كالمهل ، وفي حال كالوردة ، وفي حال كالدهان ، حكاه ابن الأنباري(٨).

قوله تعالى:{وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم : ٤٨]، أي:" وتخرج الخلائق من قبورها أحياء ظاهرين للقاء الله الواحد القهار، المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله وقهره لكل شيء"(٩).

قال الزجاج:" أي: خرجوا من قبورهم بارزين"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله { الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }، أي : الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب"(١١).

قال الطبري:" يقول: وظهروا لله المنفرد بالربوبية، الذي يقهر كل شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاء كيف يشاء، فيحيي خلقه إذا شاء، ويميتهم إذا شاء، لا يغلبه شيء، ولا يقهره من قبورهم أحياء لموقف القيامة"(١٢).

قال مقاتل:" يقول: وخرجوا من قبورهم، ولا يستترون من الله بشيء في أرض مستوية مثل الأدم ممدودة ليس عليها جبل، ولا بناء، ولا نبت ولا شيء، {الواحد لا شريك له القهار} يعني: القاهر لخلقه"(١٣).

عن عائشة سألت رسول الله عن هذه الآية: "{يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار}، قالت: فأين الناس يومئذ، يا رسول الله، قال: سبقت الناس بالسؤال عن هذه الآية، يا عائشة، الناس يومئذ على الصراط، فمنهم من يمشي منكبا على وجهه، ومنهم من يمشي سويا على صراط المستقيم، ويعطى كل مؤمن ومنافق نورا، فأما المؤمن فيبقى فيضيء له نوره حتى يدخله الجنة، وأما الكافر والمنافق فيغطى نوره ويختطف"(١٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٥٢/١٧.

(٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٤٤/٣، وابن كثير في تفسيره:٥٢١/٤

(٣)سنن أبي داود برقم (٢٤٨٩)، رواه من طريق بشر أبي عبد الله ، عن بشير بن مسلم ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا ، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم في : السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).

(٤) انظر: النكت والعيون:١٤٤/٣.

(٥) انظر: معاني القرآن: ١٦٩/٣.

(٦) انظر: النكت والعيون:١٤٤/٣.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٤٤/٣.

(٨) انظر: النكت والعيون:١٤٤/٣.

(٩) التفسير الميسر:٢٦١.

(١٠) معاني القرآن:١٦٩/٣.

(١١) تفسير ابن كثير:٥٢١/٤-٥٢٢.

(١٢) تفسير الطبري:٥٢/١٧.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢.

(١٤) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب(٥٤):ص٣٢/٢.

وفي رواية عن عائشة أنها قالت : "أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : «على الصراط»"(١).

وعن ابن عباس:"حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ ، عن قوله تعالى : { وَالأرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [الزمر : ٦٧] ، فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال :«هم على متن جهنم»"(٢).

وعن أبي أيوب الأنصاري: قال: "أتي النبي ﷺ حبر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فأين الخلق عند ذلك؟ فقال أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه"(٣).

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : "كنت قائما عند رسول الله ﷺ ، فجاءه حَبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يُصرَع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : يا رسول الله ؟! فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سَمّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ : "إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي". فقال اليهودي : جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ : "أينفعك شيء إن حدثتك ؟" فقال : أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه ، فقال : "سل". فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : "هم في الظلمة دون الجسر" قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقال : "فقراء المهاجرين". قال اليهودي : فما تُحْفَتهُم حين يدخلون الجنة ؟ قال : "زيادة كبد النون" قال : فما غذاؤهم في أثرها ؟ قال : "ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها". قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : "من عين فيها تسمى سلسبيلا". قال : صدقت. قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان ؟ قال : "أينفعك إن حدثتك ؟" قال : أسمع بأذني. قال : جئت أسألك عن الولد. قال : "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنَّثا بإذن الله" قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي. ثم انصرف ، فقال رسول الله ﷺ : "لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه ، وما لي علم بشيء منه ، حتى أتاني الله به"(٤).

الفوائد:

٢- إنتهاء الوجود الدنيوي وحدوث الوجود الأخروي:

نؤمن بانتهاء وجود هذا العالم الدنيوي، عند انتهاء أجل وجوده في علم الله: فينحل نظام هذا الكون، فيخرب الكون العلوي، كما يخرب الكون السفلي، ليكون وجود العالم الأخروي في كون آخر، ونظام آخر، إذ الذي قدر على خلقه ونظامه، قادر على إعدامه وإبطال نظامه، وعلى خلق مثله ونظامه، قال تعالى: {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... }(٥).

٣- أنه لم يجئ في كتاب الله تعالى ولا عن رسول الله - ﷺ - أن للأرض عمرا معلوما إذا انتهى زالت من مكانها وذهبت بالكلية. بل الذي يدل عليه القرآن العظيم أن الأرض لا تزال باقية إلى الأبد إلا أنها تبدل يوم القيامة. قال الله تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، فقد دلت هذه الآيات على أن الأرض لا

---

(١)المسند (٣٥/٦) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذي برقم (٣١٢١) وابن ماجة برقم (٤٢٧٩).
(٢)المسند (١١٧/٦).
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣١٢):ص٢٢٥٣/٧.
(٤)صحيح مسلم برقم : (٣١٥).
(٥) انظر: العقائد الإسلامية لابن باديس:١١٨.

تزال باقية على الأبد(١٠٧) وأما تبديلها يوم القيامة فقد قال تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[هود: ١٠٧-١٠٨].

٤- ومن الفوائد: إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الواحد»، و«القهار»:

- فـ«الواحد»: " هو الذي توحّد بجميع الكمالات، وتفرّد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال، وحمد، وحكمة، ورحمة، وغيرها من صفات الكمال فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته، وقيوميته، وعلمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وجماله، وحمده، وحكمته، ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال، ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب على العبيد توحيده، عقداً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة"[(١)].

قال الخطابي:" هو الفرد الذي لم يزل وحده؛ و لم يكن معه آخر. وقيل هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك، والنظير، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة؛ إذ كل شيء سواه يدعى واحدا فهو واحد من جهة غير واحد من جهات، والله -سبحانه- الواحد الذي ليس كمثله شيء، والواحد لا يثنى من لفظه ولا يقال واحدان"[(٢)].

- ومن أسمائه تعالى«القهار»: و" هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت"[(٣)].

القرآن

{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)} [إبراهيم : ٤٩]

التفسير:

وتُبْصِرُ -أيها الرسول- المجرمين يوم القيامة مقيدين بالقيود، قد قُرِنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وهم في ذُلٍّ وهوان.

قوله تعالى:{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [إبراهيم : ٤٩]، أي:" وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال"[(٤)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ، يعني: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. {مقرنين في الأصفاد} يقول: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غل وسلسلة"[(٥)].

قال ابن كثير:" ترى يا محمد يومئذ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ، { مقرنين } أي : بعضهم إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } [الصافات : ٢٢] ، وقال : { وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ } [التكوير : ٧] ، وقال : { وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا } [الفرقان : ١٣] ، وقال : { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ } [ص : ٣٧ ، ٣٨]"[(٦)].

عن ابن عباس، قوله :"{مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، يقول: في وثاق"[(٧)].

عن قتادة :"{مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، قال: مقرّنين في القيود والأغلال"[(٨)].

---

(١) اسماء الله الحسنى للسعدي:١٦٧، وانظر: التفسير: ٥/ ٦٢١،٦٢٠، وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع =الأخبار :١٦٥.
(٢) شأن الدعاء: ٨٢.
(٣) شان الدعاء:٥٣.
(٤) صفوة التفاسير:٩٤/٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٢/١٧.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٢٢/٤.
(٧) أخرجه الطبري:٥٣/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٥٣/١٧.

عن الضحاك، قال: "«الأصفاد»: السلاسل"[١].
قال ابن زيد، في قوله "{مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، قال: صفدت فيها أيديهم وأرجلهم ورقابهم، والأصفاد: الأغلال"[٢].
وفي قوله تعالى:{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [إبراهيم : ٤٩]، وجهان:
أحدهما : أن «الأصفاد»: الأغلال ، واحدها :«صفد». قاله أبو عبيدة[٣]، وابن قتيبة[٤].
قال ابن قتيبة:" أي: قد قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال"[٥].
قال مقاتل:" يعني: موثقين في السلاسل والأغلال صفدت أيديهم إلى أعناقهم في الحديد"[٦].
ومنه قول حسان[٧]:
ما بين مأسورٍ يشد صِفادُهُ .. صقرٍ إذا لاقى الكريهة حامي
الثاني : أنها: القيود ، قاله الأعمش[٨]. ومنه قول عمرو بن كلثوم[٩]:
فَآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا ... وأُبْنا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينا
أي: مقيّدين . وأما قول النابغة الذبياني[١٠]:
هَذَا الثَّناءُ فإنْ تَسْمَعْ لِقَائِلِهِ ... فَمَا عَرَضْتُ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَد
فأراد بالصفد «العطية»، وقيل: لها صف لأنها تقيد المودة .
وفي المجرمين المقرنين في الأصفاد قولان[١١]:
أحدهما : أنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي .
الثاني : أنه يجمع بين الكافر والشيطان في الأصفاد.
الفوائد:
١- صفة النار والترهيب منها وصفة أهلها.
عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار "[١٢]، وفي رواية لأحمد: قال رسول الله ﷺ: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار»[١٣]، حتى لو كان رجل في أقصى السوق سمعه وسمع أهل السوق صوته وهو على المنبر.
٢- بيان أحوال المجرمين في العرض وفي جهنم.
القرآن

---

(١) أخرجه الطبري:٥٣/١٧.
(٢) أخرجه الطبري:٥٤/١٧.
(٣) انظر: مجاز القرآن:٣٤٥/١.
(٤) انظر: غريب القرآن:٢٣٤.
(٥) غريب القرآن:٢٣٤.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢.
(٧) البيت له في النكت والعيون:١٤٤/٣، وتفسير القرطبي: ٣٨٤/٩.
(٨) أخرجه الطبري:٥٤/١٧.
(٩)البيت لعمرو بن كلثوم في معلقته. وآبوا: رجعوا. والنهاب: جمع نهب. والمصفدون: المغللون بالأصفاد، الواحد: صفد، وهو الغل. يقول: ظفرنا بهم، فلم نلتفت إلى أسلابهم، ولا أموالهم، وعمدنا إلى ملوكهم، فصفدناهم في الحديد. وفي (اللسان: صفه) : الصفاد: حبل يوثق به أو غل. وهو الصفد، والصفد (بتسكين الفاء وتحريكها) . والجمع: الأصفاد. قال ابن سيده: لا نعمله كسر على غير ذلك. وفي التنزيل " مقرنين في الأصفاد ". قيل: هي الأغلال. وقيل: القيود. واحدها صفد. وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني، وشرح القصائد العشر للتبريزي.
(١٠)هذا البيت للنابغة الذبياني (مختار الشعر الجاهلي بشرح مصطفى السقا طبعة الحلبي ص ١٥٥).
(١١) انظر: النكت والعيون:١٤٥/٣.
(١٢)أخرجه أحمد (٢٦٨/٤، رقم ١٨٣٨٦) ، قال الهيثمى (١٨٧/٢) : رجاله رجال الصحيح. والبيهقى (٢٠٧/٣، رقم ٥٥٤٦) . وأخرجه أيضا: الطيالسى (ص ١٠٧، رقم ٧٩٢) ، والدارمى (٤٢٥/٢، رقم ٢٨١٢) ، والحاكم (٤٢٣/١، رقم ١٠٥٨) ، وقال: صحيح على شرط مسلم.
(١٣)أخرجه أحمد (٢٦٨/٤، رقم ١٨٣٨٦).

{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)} [إبراهيم : ٥٠]

التفسير:

ثيابهم من القَطِران الشديد الاشتعال، وتلفح وجوههم النار فتحرقها.

قوله تعالى:{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ} [إبراهيم : ٥٠]، أي:" ثيابهم من القَطِران الشديد الاشتعال"(١).

قال أبو عبيدة وابن قتيبة:" أي: قمصهم، وواحدها «سربال»"(٢).

قال ابن كثير:" أي : ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران ، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي : تطلى ، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار"(٣).

قال الطبري:" يقول: قمصهم التي يلبسونها، واحدها: سربال، كما قال امرؤ القيس(٤):

لَعُوبٌ تُنَسِّيني إذَا قُمْتُ سِرْبالي"(٥).

قال ابن زيد:" السرابيل: القُمُص"(٦).

وفي «القطران» -ها هنا- قولان :

أحدهما : أنه القطران الذي تهنأ به الجمال، قاله الحسن(٧)، وابن زيد(٨)، وإنما جعلت سرابيلهم من قطران لإسراع النار إليها .

الثاني : أنه النحاس الحامي، قاله ابن عباس(٩)، وسعيد بن جبير(١٠)، ومجاهد(١١)، وقتادة(١٢).

قال ابن عباس:" هو النحاس المذاب"(١٣).

وقال مقاتل:" يعني: قمصهم من نحاس ذائب"(١٤).

عن قتادة " :«مِنْ قَطْرٍ آنٍ»، يعني: الصِّفر المذاب"(١٥).

وعن قتادة أنه كان يقرأ " «مِنْ قَطْرٍ آنٍ»، قال: من صفر قد انتهى حرّه"(١٦).

قال ابن قتيبة:" من قرأ: «من قطر آن» أراد: نحاسا قد بلغ منتهى حره، أنى فهو آن"(١٧).

---

(١) التفسير الميسر:٢٦١.

(٢) مجاز القرآن:٣٤٥/١، وغريب القرآن:٢٣٤

(٣) تفسير ابن كثير:٥٢٢/٤.

(٤)هذا عجز بيت لامرئ القيس بن حجر من لاميته المطولة (٥٤ بيتا) ، وصدره " ومثلك بيضاء العوارض طفلة " (انظر مختار الشعر الجاهلي، بشرح مصطفى السقا طبعة الحلبي ص ٣٧) . وهذا البيت ساقط من نسخة الديوان بشرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، وثابت في نسخة الأعلم الشنتمري، وفيما نقله البغدادي في خزانة الأدب الكبرى من أبيات القصيدة (ج ١: ١٩٧) أورده بعد قول امرئ القيس: " وأمنع عرسي أن يزن بها الخالي ". والواو في البيت: واو رب. والخطاب لبسباسة. والعارض والعارضة صفحة الخد وصفحة العنق، وجانب الوجه، وما يستقبلك من الشيء، ومن الوجه ما يبدو عن الضحك، والطفلة (بالفتح) : الناعمة البدن. واللعوب: الحسنة الدل. والسربال: القميص، يريد: تذهب بفؤادي، حتى أنسى قميصي، والشاهد فيه عند الطبري، أن السربال: هو القميص عند العرب.

(٥) تفسير الطبري:٥٤/١٧.

(٦) أخرجه الطبري:٥٤/١٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٥٥/١٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٥٤/١٧.

(٩) انظر: تفسير الطبري:٥٥/١٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:٥٥/١٧-٥٦.

(١١) انظر: تفسير الطبري:٥٥/١٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري:٥٦/١٧.

(١٣) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢.

(١٥) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.

(١٦) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.

(١٧) غريب القرآن:٢٣٤.

عن سعيد بن جبير في قوله "{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرٍ آنٍ}، قال: قطر، والآن: الذي قد انتهى حرّه"[1].

وقرئ: «من قطران»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. و«الآنى»: المتناهي حره[2].

قال الطبري:" وقد رُوي عن بعض المتقدمين أنه كان يقرأ ذلك: "مِنْ قَطْرٍ آنٍ" بفتح القاف وتسكين الطاء وتنوين الراء وتصيير آن من نعتِه، وتوجيه معنى القَطر إلى أنه النحاس، ومعنى الآن، إلى أنه الذي قد انتهى حرّه في الشدّة. وممن كان يقرأ ذلك كذلك فيما ذكر لنا عكرمة مولى ابن عباس"[3].

قال الحسن:" كانت العرب تقول للشيء إذا انتهى حرّه: قد أنى حرّ هذا، قد أوقدت عليه جهنم منذ خلقت فأنى حرّها"[4].

قال الربيع بن أنس:" القطر: النحاس، والآن: يقول: قد أنى حرّه، وذلك أنه يقول: حميمٌ آن"[5].

عن عكرمة، عن ابن عباس، في هذه الآية "{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرٍ آنٍ}، قال: من نحاس، قال: آن أنى لهم أن يعذّبوا به"[6].

قال عكرمة:" الآني: الذي قد انتهى حرّه"[7].

وكان الحسن يقرؤها :«مِنْ قَطْرٍ آنٍ»"[8].

وقيل: "إن عيسى بن عمر كان يقرأ «مِنْ قِطْرَانٍ»بكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم[9]:

جَوْنٌ كأَنَّ العَرَقَ المَنْتُوحا ... لَبَّسُه القِطْرَانَ والمُسُوحا

بكسر القاف، وقال أيضا[10]:

كأَنَّ قِطْرَانا إذَا تَلاهَا ... تَرْمي بِهِ الرّيحُ إلى مَجْرَاها

بالكسر"[11].

قال الزمخشري:" القطران: فيه ثلاثة لغات: قطران، وقطران، وقطران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربي، فيحرق الجرب بحره وحدته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه من لا يقادر قدره، وكأنه

---

(١) أخرجه الطبري:٥٥/١٧.
(٢) انظر: الكشاف:٥٦٧/٢.
(٣) تفسير الطبري:٥٥/١٧.
(٤) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.
(٥) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٥٦/١٧.
(٩)البيت في (لسان العرب: نتح) قال: النتح: خروج العرق من الجلد، والدسم من النحي، والندي من الثرى. نتح نتح ينتح نتحا ونتوحا. وقال الجوهري: النتح: الرشح. ومناتح العرق: مخارجه من الجلد، وأنشد: جون ... الخ. والقطران (بالفتح وبالكسر وكظربان) : عصارة الأرز، وهو الصنوبر، يطبخ ثم تهنأ به الإبل، وإنما جعلت سرابيلهم منه، لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود (عن تاج العروس) . والمسوح: جمع مسح، بكسر الميم، وهو الكساء من الشعر: جمعه أمساح ومسوح.
(١٠) .انظر: تفسير الطبري:٥٤/١٧، هذا الشاهد كالذي قبله، على أن القطران، بكسر القاف.
(١١) تفسير الطبري:٥٤/١٧.

ما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه"[١].

قوله تعالى:{وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم : ٥٠]، أي:" وتلفح وجوههم النار فتحرقها"[٢].

قال الطبري:" يقول: وتلفَحُ وجوههم النار فتحرقها"[٣].

قال السمعاني:" معناه: وتعلو وجوههم النار، وقيل: تصلى"[٤].

وقال مقاتل:" لأنهم يتقون النار بوجوههم"[٥].

قال الزمخشري:" لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال تطلع على الأفئدة"[٦].

عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : "أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرْع من جَرَب"[٧].

عن أبي أمامة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : "النائحة إذا لم تتب ، توقف في طريق بين الجنة والنار ، وسرابيلها من قطران ، وتغشى وجهها النار"[٨].

وقرئ: «وتغشى وجوههم»، بمعنى: تتغشى[٩].

الفوائد:

١- أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفصّل لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالى: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} [الحج: ١٩].

وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: "سبحان من خلق من النار ثياباً"[١٠].

وقال تعالى:{سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النارُ} [إبراهيم: ٤٨ - ٤٩]. و«القطران»: هو النحاس المذاب.

عن أبي مالك الأشعري عن النبي - ﷺ - قال: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب"[١١].

٢- أن أهل النار تلفح النار وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها.

فإن أكرم ما في الإنسان وجهه، ولذلك نهانا الرسول - ﷺ - عن ضرب الوجه، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عميا وصما وبكما: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء : ٩٧] ، ويلقون في النار على وجوههم، {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل : ٩٠].

---

(١) الكشاف:٥٦٧/٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٦١.
(٣) تفسير الطبري:٥٦/١٧.
(٤) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢.
(٦) الكشاف:٥٦٨/٢.
(٧)المسند (٣٤٢/٥) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).
(٨)رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٨/٨) من طريق عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، ، وكلهم ضعفاء - عن أبي أمامة به. وقد قال ابن حبان : "إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، فهو مما صنعته أيديهم".
(٩) انظر: الكشاف:٥٦٨/٢.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٣٨٢١):ص٢٤٨١/٨.
(١١)رواه مسلم (٩٣٤).

وتلفح النار وجوههم وتغشاها أبدا لا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم : ٥٠]، {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [الأنبياء : ٣٩]، {أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الزمر : ٢٤]،

وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا} [الأحزاب : ٦٦] ، أرأيت كيف يقلب اللحم على النار، والسمك في المقلي، كذلك تقلب وجوههم في النار، نعوذ بالله من عذاب أهل النار.

٣- أنه يؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل، وتمردوا على ربهم، واستعلوا في الأرض - مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران.

القرآن

{لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)} [إبراهيم : ٥١]

التفسير:

فَعَل الله ذلك بهم؛ جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، والله يجازي كل إنسان بما عمل مِن خير أو شر، إن الله سريع الحساب.

قوله تعالى:{لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} [إبراهيم : ٥١]، أي:" فَعَل الله ذلك بهم؛ جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا ، والله يجازي كل إنسان بما عمل مِن خير أو شر"(١).

قال ابن أبي زمنين: {ما كسبت}، أي:" ما عملت"(٢).

قال أبو الليث:أي:" من خير أو شر"(٣).

قال السمعاني:" يعني: ما كسبت من خير وشر"(٤).

قال الطبري:" يقول: فعل الله ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يثيب كلّ نفس بما كسبت من خير وشرّ، فيَجْزِي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته"(٥).

قال الزمخشري:" أى يفعل بالمجرمين ما يفعل {ليجزي الله كل نفس} مجرمة {ما كسبت}، أو كل نفس من مجرمة ومطيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم على أنه يثيب المطيعين لطاعتهم"(٦).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم : ٥١]، أي:" إن الله لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان"(٧).

قال أبو الليث:" يقول: إذا حاسب، فحسابه سريع"(٨).

قال السمعاني:" معناه: سريع المجازاة، وحقيقة الحساب إحصاء ما عمله الإنسان من خير أو شر ليجازي عليه"(٩).

قال الطبري:" يقول: إن الله عالم بعمل كلّ عامل، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم إلى عقد كفّ ولا معاناة، وهو سريع حسابه لأعمالهم، قد أحاط بها علما، لا يعزب عنه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك صغيره وكبيره"(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٦١.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٨/٢.
(٣) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(٤) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.
(٥) تفسير الطبري:٥٧/١٧.
(٦) الكشاف:٥٦٨/٢.
(٧) صفوة التفاسير:٩٤/٢.
(٨) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(٩) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.

قال مقاتل:" فإذا أخذ الله- عز وجل- فى حسابهم فرغ من حساب الخلائق على مقدار نصف يوم من أيام الدنيا"[٢].

قال ابن أبي زمنين: عن "يحيى: سمعت بعض الكوفيين يقول: يقضى بين الخلق يوم القيامة في قدر نصف يوم من أيام الدنيا"[٣].

قال ابن كثير:" يحتمل أن يكون كقوله تعالى : { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز ؛ لأنه يعلم كل شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى : { مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [لقمان : ٢٨] ، وهذا معنى قول مجاهد : { سَرِيعُ الْحِسَابِ } إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين ، والله أعلم"[٤].

الفوائد:

١- بيان العلة في المعاد الآخر وهو الجزاء على الكسب في الدنيا.

٢- أن «السرعة»: صفةٌ فعليَّةٌ اختياريةٌ ثابتة لله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم : ٥١]، فالله عَزَّ وجَلَّ سريعٌ في حسابه، سريعٌ عقابه.

القرآن

{هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)} [إبراهيم : ٥٢]

التفسير:

هذا القرآن الذي أنزلناه إليك -أيها الرسول- بلاغ وإعلام للناس؛ لنصحهم وتخويفهم، ولكي يوقنوا أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة.

سبب النزول:

روى يمان بن رئاب:" أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه"[٥].

قوله تعالى:{هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} [إبراهيم : ٥٢]، أي:" هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات"[٦].

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة"[٧].

قال أبو الليث:" يعني: هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى. ويقال: أبلغكم عن الله تعالى"[٨].

قال السمعاني:" يعني: هذا القرآن، وهذا الذي أنزلته عليك بلاغ للناس، أي: فيه تبليغ للناس"[٩].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره"[١٠].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : هذا القرآن بلاغ للناس ، كقوله : { لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } [الأنعام : ١٩] ، أي : هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان ، كما قال في أول السورة : { الر كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ }"[١١].

---

(١) تفسير الطبري:٥٧/١٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٣/٢-٤١٤.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٣٧٨/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٢٣/٤.
(٥) النكت والعيون:١٤٦/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٩٤/٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٤/٢.
(٨) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(٩) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٥٧/١٧.
(١١) تفسير ابن كثير:٥٢٣/٤.

قال الزمخشري:أي:" كفاية في التذكير والمواعظة، يعنى بـ«هذا»: ما وصفه من قوله {فلا تحسبن}، إلى قوله {سريع الحساب}"[١].

قال السعدي:" فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: {هذا بلاغ للناس} أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد"[٢].

عن ابن زيد قوله :"{هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ}، قال: القرآن"[٣].

قوله تعالى:{وَلِيُنْذَرُوا بِهِ} [إبراهيم : ٥٢]، أي:" لكي يُنصحوا به ويخوّفوا من عقاب الله"[٤].

قال الزمخشري:" أى: لينصحوا ولينذروا به بهذا البلاغ"[٥].

قال الطبري:" يقول: ولينذروا عقاب الله، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ"[٦].

قال مقاتل:" يعني: لينذروا بما في القرآن"[٧].

قال ابن كثير:" أي : ليتعظوا به"[٨].

قال أبو الليث:" يعني: ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى"[٩].

قال السمعاني:" أي: و ليخوفوا به"[١٠].

عن ابن زيد قوله :"{ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ}، قال: بالقرآن"[١١].

قال السعدي:" لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب"[١٢].

وقرئ: «ولينذروا»، بفتح الياء، من نذر به إذا علمه واستعد له[١٣].

قوله تعالى:{وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [إبراهيم : ٥٢]، أي:" ولكي يوقنوا أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له"[١٤].

قال مقاتل:أي:" لا شريك له"[١٥].

قال أبو الليث:" يعني: لكي يعلموا أنما هو إله واحد صادق"[١٦].

قال السمعاني والبغوي:" أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى"[١٧].

قال الطبري:" يقول: وليعلموا بما احتجّ به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد، لا آلهة شتى، كما يقول المشركون بالله، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، الذي سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم، وسخر لهم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لهم الأنهار"[١٨].

---

(١) الكشاف:٥٦٨/٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٢٨.
(٣) أخرجه الطبري:٥٧/١٧.
(٤) صفوة التفاسير:٩٤/٢.
(٥) الكشاف:٥٦٨/٢.
(٦) تفسير الطبري:٥٧/١٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٤/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٢٣/٤.
(٩) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(١٠) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.
(١١) أخرجه الطبري:٥٧/١٧.
(١٢) تفسير السعدي:٤٢٨.
(١٣) انظر: الكشاف:٥٦٨/٢.
(١٤) التفسير الميسر:٢٦١.
(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٤/٢.
(١٦) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(١٧) تفسير السمعاني:١٢٧/٣، وتفسير البغوي:٣٦٣/٤.
(١٨) تفسير الطبري:٥٧/١٧.

قال ابن كثير:" أي : يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو"(١).
قال السعدي:" حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين"(٢).
قال أبو السعود:" بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق {إنما هو إله واحد} لا شريك له وتقديم الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور"(٣).
قوله تعالى:{وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم : ٥٢]، أي:" وليتعظ به أصحاب العقول السليمة"(٤).
قال أبو الليث:" أي: ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ذوو العقول من الناس"(٥).
قال الطبري:" يقول: وليتذكر فيتعظ بما احتجّ الله به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلها غيره، ويُشْرِك في عبادته شيئا سواه أهلُ الحجى والعقول، فإنهم أهل الاعتبار والادّكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام، فإنهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا"(٦).
قال مقاتل:{وَلِيَذَّكَّرَ}" فيما يسمع من مواعظ القرآن، أهل اللب والعقل"(٧).
قال ابن كثير:" أي : ذوو العقول "(٨).
قال البغوي:" أي: ليتعظ أولو العقول"(٩).
قال السعدي:" أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضا طريا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة"(١٠).
قال أبو السعود:" أي: ليتذكروا ما كانوا يعلموبه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التي ينصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والأعمال الصالحة وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سبق للمؤمنين أيضا فإن فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير إليه عبر عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكير وروعي ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى"(١١).
قال السمعاني:" معناه: وليتعظ أولو الألباب - أي أولو العقول -، وفي بعض التفاسير: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. والله أعلم"(١٢).
الفوائد:

(١) تفسير ابن كثير:٥٢٣/٤.
(٢) الكشاف:٥٦٨/٢.
(٣) تفسير ابي السعود:٦٢/٥.
(٤) التفسير الميسر:٢٦١.
(٥) بحر العلوم:٢٤٩/٢.
(٦) تفسير الطبري:٥٧/١٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٤/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٢٣/٤.
(٩) تفسير البغوي:٣٦٣/٤.
(١٠) تفسير السعدي:٤٢٨.
(١١) تفسير ابي السعود:٦٢/٥.
(١٢) تفسير السمعاني:١٢٧/٣.

١- أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، وقال تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: قال الله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: ٦٩ - ٧٠].وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١].

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} أن النبي - ﷺ - قال: «بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله»(١).

وقال ابن عباس: "من بلغه القرآن فهو له نذير من الناس"(٢).

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: {وَمَنْ بَلَغَ} قال: "من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي - ﷺ - وكلمه"(٣).

وقال مقاتل: "من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له"(٤).

وقال البغوي: "يعني من بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة"(٥).

٢- بين سبحانه أن من الحكمة في إنزال القرآن ليعلم الناس بما فيه من الحجج والبراهين أنه هو المستحق للألوهية وحده ففرض على عباده العلم لأنه الإله وحده وأخبر أنه ضمن كتابه من الأدلة والبراهين ما يدل على ذلك فتعيَّن على كل مكلف معرفة لا إله إلا الله الذي هو أصل الأصول وأوجب العلوم.

فإن العلم بمعنى: «لا إله إلا الله»، أول واجب. ثم بعد ذلك القول والعمل، قال الله تعالى: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، لم يقل: ليقولوا: إنما هو إله واحد، فالله سبحانه فرض على عباده معرفة معنى: لا إله إلا الله، وأن يعلموا أن لا إله إلا هو، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد : ١٩].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: " من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"(٦)، فرتب دخول الجنة على العلم بأن لا إله إلا الله وهذا يبين معنى أحاديث أُخر كقوله ﷺ: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"(٧)، "ومن قال لا إله إلا الله صدقاً من قلبه دخل الجنة" (٨). وغير ذلك من الأحاديث.

---

(١)تفسير عبد الرزاق (ص٢٠٥)، وانظر ابن جرير (٥/ ١٦١).
(٢)تفسير ابن أبي حاتم (رقم ٧١٦٣).
(٣)تفسير ابن أبي حاتم (رقم ٧١٦٥)، وابن جرير (رقم ١٣١٢٠).
(٤)ذكره البغوي في تفسيره :٣/ ١٣٤.
(٥)انظر: تفسير البغوي :٣/ ١٣٣.
(٦)صحيح: صحيح مسلم "٢٦" من خديث عثمان رضي الله عنه.
(٧)حسن: أخرجه أحمد في "مسنده" "٢٣٣/٥"، وأبو داود والحاكم في "المستدرك" "٥٠٣/١، ٦٧٨"، وفي "معرفة علوم الحديث" "ص ٧٦"، والبزار في "مسنده" "٢٦٢٦"، والبيهقي في "شعب الإيمان" "٩٤، ٩٢٣٧"، و "الاعتقاد" " ص ٣٧". كلهم من طريق عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي بن أبي عريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل مرفوعاً. وحسَّنه العلامة الألباني رحمه الله في "أحكام الجنائز" "ص ٤٨".
(٨)صحيح: أخرجه أحمد في "مسنده" "١٦/٤"، والطيالسي من طريق هشام الدستوائي عن يحي بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن رفاعة الجهني مرفوعاً بلفظ: "لا يموت عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه ثم يُسدد إلا سلك في الجنة". وهذا إسناد حسن. وقد أخرجه أبو يعلي في "مسنده" "٣٢٢٨" بلفظ قريب منه بإسناد صحيح من حديث أنس. ومعناه ثابت في صحيح البخاري من حديث معاذ رضي الله عنه.

٣- أنه تعالى خصَّ ذوي الألباب بإرادة التذكر، قال تعالى:{وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٥٢].

«آخر تفسير سورة (إبراهيم)، والحمد لله وحده»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة « الحِجْر»

سورة «الحِجْر»: هي السورة الرابعة عشر في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة «يوسف»[(١)]، وعدد آياتها (٩٩) تسع وتسعون بلاخلاف على عدد الأسماء الحسنى، وكلماتها (٦٥٤) ستمائة وأربع وخمسون. وحروفها (٢٧٦٠) ألفان وسبعمائة وستون [(٢)].

ومجموع فواصل آياتها يجمعها:« ملن»، على اللام منها آيتان: {حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل} [الحجر : ٧٤]، {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيل} [الحجر : ٨٥][(٣)].

- **أسماء السورة:**
- **اسمها التوقيفي: سورة «الحجر»:**

«الحجر» -بتثليث الحاء-: المنع[(٤)].و«المحجور»:الممنوع، قال الله تعالى: {وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان : ٥٣]، أي: "حراما محرما ممنوعا"[(٥)] ، و"يقال للرجل إذا كان مالكا قاهرا ضابطا له: إنه لذو حجر، ومنه قولهم: حجر الحاكم على فلان"[(٦)].

و«الحِجْرُ» و«الحُجْرُ»: لغتانِ في معنى «الحرام»؛ ولذا كانت العرب تحتمي من بأس بعضها في الأشهر الحُرُم.

«الحِجْر»: اسم ديار ثمود بوادي القرى، بين المدينة والشام[(٧)]، وهم قوم صالح النبي-عليه السلام-، وسورة«الحجر»، هو الاسم الذي اشتهرت به فهو توفيقي، وبذلك كتبت في المصاحف وكتب التفسير والحديث، كما جاء في كلام بعض الصحابة:

- إذ روي عن ابن عباس-رضي الله عنه-، قال:" نزلت سورة الحجر بمكة"[(٨)].
- وعن ابن الزبير-رضي الله عنهما- قال:" نزلت سورة الحجر بمكة"[(٩)].

- **وجه التسمية:**

اختير اسم السورة من الآية الثمانين، في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر : ٨٠]، فقد ذكرت الآية قوم صالح بـ«أصحاب الحِجْر»، وتناولت السورة الحديث عنهم في خمس آيات، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي ذكرتهم بهذه

---

(١) انظر: الكشاف: ٥٦٩/٢.
(٢)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٧٢، وتفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٣/٢.
(٣)انظر: المصد نفسه والصحيفة نفسها.
(٤) انظر: انظر مجاز القرآن: ٢/ ٧٣ ومعانى الفراء: ٢/ ٢٦٠، والمخصص لابن سيدة:٦٨/٤، وتأويلات أهل السنة:٢٦٩/٤.
(٥) النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب:٢٦٩/١.
(٦) الكشف والبيان:١٩٥/١٠.
(٧) انظر: معجم البلدان:٢٢١/٢.
(٨) أورده السيوطي في الدر المنثور:٦١/٥، وعزاه إلى النحاس وابن مردويه.
(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور:٦١/٥، وعزاه إلى ابن مردويه.

التسمية. و«أصحاب الحِجر» هي منازل ثمود ونبيهم صالح عليه السلام، ومساكنهم موجودة إلى اليوم تحت مسمى مدائن صالح في الأردن.

وقوم صالح[(١)]، وهم قبيلة ثمود وديارهم في الحجر، كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح، قال تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الحجر : ٨٤].

قال الفيروزآبادي:" ووجه تسميتها بسورة«الحجر»، لاشتمالها على قصتهم، وقوله: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر : ٨٠]"[(٢)].

قال المهايمي:" سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر : ٨٠]، إلى قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الحجر : ٨٤]، الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله، بأدنى وجوه المؤاخذة، مع غاية تحصنهم، ففيه تعظيم الرسل والآيات"[(٣)].

وقد ورد لفظ«حجر» في القرآن الكريم-في غير هذه السورة- مرتين:

أ- المرة الأولى في سورة «الأنعام»- قال تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام : ١٣٨]، بمعنى: حرام ممنوع[(٤)]،وقيل للحرام للحرام «حجر»؛ لأنه ممنوع منه، وهو بمعنى المحجور، كما يقال طحن للمطحون، وقطف للمقطوف[(٥)].

ب- والثانية في سورة«الفجر»، قال تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر : ٥]، بمعنى «عقل»[(٦)]، وإنما سمى العقل حجرا؛ لأنه يمنع صاحبه من ارتكاب ما لا يجوز، ولهذا سمى حجر البيت حجرا؛ لأنه يمنع من الطواف فيه. و«المحجور عليه» ممنوع من التصرف فى ماله، وحجر عليه الحاكم، أى: منعه التصرف[(٧)].

وقد ذكر ابن عاشور اسما آخر للسورة، فقال:" والمكتبون في كتاتيب تونس يدعونها سورة ربما لأن كلمة «ربما» لم تقع في القرآن كله إلا في أول هذه السورة"[(٨)].

ولم يثبت نص صحيح على هذه التسمية، إنما هو مأخوذ من لفظة وقعت في السورة.

- **مكية السورة ومدنيتها:**

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على ثلاثة أقوال:

---

(١)هو نبي الله ورسوله صالح عليه السلام قيل: هو ابن عبيد بن آسف بن ما شج بن عبيد بن جادر بن ثمود، بعثه الله تعالى إلى ثمود وهي قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهو من العرب العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام فدعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله وحده فآمنت طائفة وكفرت طائفة وما زال ينصح لهم فآذوه بالمقال والفعل وهموا بقتله، ثم إنهم طلبوا منه أن يخرج لهم من قلب الجبل ناقة كي يصدقوه فسأل الله ذلك فاستجاب ولكنهم عقروا الناقة فأنزل الله عليهم الصيحة فأهلكتهم ونجى صالحا ومن معه، وذكر أن صالحا عليه السلام إلى الشام فنزل فلسطين، ثم انتقل الى مكة فأقام بها يعبد الله حتى مات وهو ابن ٥٨ سنة، ورد فذكر في القرآن نحو من تسع مرات في سور: الأعراف وهود والشعراء والنمل، وانظر: البخاري بشرحه الفتح، باب قول الله تعالى {وإلى ثمود أخاهم صالحا} ٦/ ٣٧٨-٣٨١، والكامل في التاريخ ١/ ٨٩-٩٣، وابن كثير في البداية والنهاية ١/ ١٣٠-١٣٨، ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم ٢/ ١٤.

(٢) البصائر:٢٧٢/١.

(٣) تفسير المهايمي:٣٩٥/١.

(٤) انظر: البحر المحيط:٦٥٩/٤.

(٥) انظر: النَّظْمُ المُسْتَعْذَبُ فِي تفْسِير غريبِ أَلْفَاظِ المهَذّبِ:٢٦٩/١.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير:٨٠١/٤.

(٧) انظر: النَّظْمُ المُسْتَعْذَبُ فِي تفْسِير غريبِ أَلْفَاظِ المهَذّبِ:٢٦٩/١.

(٨) التحرير والتنوير:٥/١٤.

أحدها: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس[١]، وابن زبير[٢]، ومقاتل[٣]، وبه قال ابن قتيبة[٤]، والثعلبي[٥]، وأبو الليث السمرقندي[٦]، وابن ابي زمنين[٧]، والسمعاني[٨]، وابن عطية[٩]، والبيضاوي[١٠]، والنسفي[١١]، والثعالبي[١٢]، والفيروزآبادي[١٣]، وابن كثير[١٤]، والسيوطي[١٥]، وغيرهم.

قال ابن الجوزي:" هي مكية كلها من غير خلاف نعلمه"[١٦].

قال العز بن عبدالسلام:"سورة الحجر مكية اتفاقا"[١٧].

قال الفيروزآبادي:" السورة مكية إجماعا"[١٨].

قال ابن عاشور:" وهي مكية كلها وحكي الاتفاق عليه"[١٩].

والثاني: أنها مكية إلا آية واحدة، هي: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)} [الحجر : ٨٧]. قاله الحسن[٢٠]، وبه قال الزمخشري[٢١]، والفخر الرازي[٢٢]، وأبو السعود[٢٣].

قال ابن عاشور: وذلك" بناء على أن سبعا من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنها مدنية. وهذا لا يصح، لأن الأصح أن الفاتحة مكية"[٢٤].

الثالث: أنها مكية إلا آيتين منها، وهما: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} [الحجر : ٩٠ - ٩١]. ذكره ابن عاشور[٢٥].

قال ابن عاشور:" واستثناء قوله تعالى: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} [الحجر : ٩٠ - ٩١] بناء على تفسيرهم «المقتسمين» بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير «جعلوا القرآن عضين» أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصححه"[٢٦].

▪ **مناسبة سورة«الحجر» مع سورة «إبراهيم»:**

من وجوه المناسبة بين السورتين:

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور:٦١/٥، وعزاه إلى النحاس وابن مردويه.
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور:٦١/٥، وعزاه إلى ابن مردويه.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٣/٢.
(٤) انظر: غريب القرآن:٢٣٥.
(٥) انظر: الكشف والبيان:٢٣٠/٥.
(٦) انظر: بحر العلوم:٢٥٠/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي زمنين:٣٧٩/٢.
(٨) انظر: تفسير السمعاني:١٢٨/٣.
(٩) انظر: المحرر الوجيز:٣٤٩/٣.
(١٠) انظر: تفسير البيضاوي:٢٠٦/٣.
(١١) انظر: تفسير النسفي:١٨٢/٢.
(١٢) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن:٣٩٣/٣.
(١٣) البصائر:٢٧٢/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن كثير:٥٢٤/٤.
(١٥) انظر: الدر المنثور:٦١/٥.
(١٦) زاد المسير:٥٢٢/٢.
(١٧) تفسير العز بن عبدالسلام:١٧٠/٢.
(١٨) البصائر:٢٧٢/١.
(١٩) التحرير والتنوير:٥/١٤.
(٢٠) انظر: التحرير والتنوير:٥/١٤.
(٢١) انظر: الكشاف:٥٦٩/٢.
(٢٢) انظر: مفاتيح الغيب:١١٦/١٩.
(٢٣) انظر: تفسير أبي السعود:٦٣/٥.
(٢٤) التحرير والتنوير:٥/١٤.
(٢٥) انظر: التحرير والتنوير:٥/١٤.
(٢٦) التحرير والتنوير:٥/١٤.

١- إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين.
قال ابن عجيبة:" ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاس} [إبراهيم : ٥٢]، مع قوله ﷻ:{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الحجر : ١]، فهى تتميم لعنوان القرآن، وتفسير له"[(١)].
٢- إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك.
٣- إن فى كل منهما وصف السموات والأرض.
٤- إن فى كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام.
٥- إن فى كل منهما تسلية لرسوله ﷺ بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين[(٢)].

- **أغراض السورة ومقاصدها**

لم تشذ سورة الحِجر في سياقها ومضمونها عن السور المكية السابقة لها؛ فإن السور المكية تشتمل على جمل من أصول الدين كالتوحيد والمعاد، وإنذار المشركين والعاصين والظالمين، إضافة إلى ما يحمله تاريخ الأقوام السالفة من دروس العبرة والموعظة .

ويمكننا تلخيص المقاصد التي تضمنتها هذه السورة، ودارت حولها وفق التالي :

١- أن طبيعة هذا الكتاب الذي يكذب به المشركون والجاحدون أنه كتاب مبين، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فمن أخذ بما فيه فاز ونجا، ومن أعرض عنه فقد ضل وغوى .
٢- الحث على انتهاز فرصة الالتحاق بقافلة الإسلام والنجاة قبل أن تضيع، ويأتي اليوم الذي يود فيه المعرضون لو كانوا مسلمين؛ فما ينفعهم يومئذ ذلك ، ولن يغني عنهم من عذاب الله من شيء .
٣- تصور السورة الأمل الملهي بصورة إنسانية حية؛ فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان، وهو يجري وراءه، وينشغل به، ويغتر فيه، حتى يجاوز المنطقة المأمونة؛ وحتى يغفل عن الله، وعن القدر، وعن الأجل؛ وحتى ينسى أن هنالك واجباً، وأن هنالك محظوراً؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلهاً، وأن هنالك موتاً، وأن هناك نشوراً .
٤- بينت السورة أن سنن الله ماضية لا تتخلف؛ وأن هلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها، ومترتب على سلوكها الذي تنفذ به سنة الله ومشيئته، قال تعالى: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ} [الحجر : ٤]؛ وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم، يمنحه الله للقرى والأمم لتعمل، وعلى حسب العمل يكون المصير. فإذا هي آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت، مد الله في أجلها، حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى، عندئذ تبلغ أجلها، وينتهي وجودها، إما نهائياً بالهلاك والدثور، وإما وقتياً بالضعف والفتور .
٥- أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله له، ونصوصه باقية كما أنزلها الله؛ وهي حجة على كل محرف وكل مؤول؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الكتاب المحفوظ .
٦- بينت السورة نموذج الإنسان حين تفسد فطرته، وتستغلق بصيرته، وتتعطل فيه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحي من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته، قال تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)} [الحجر : ١٤ - ١٥] .*

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد:٧٧/٣.
(٢) انظر: تفسير المراغي:٣/١٤.

٧- أن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، وهو الذي ينتظم مظاهر الكون جميعاً، وينشأ من تناسقها جميعاً. وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ، لا يناله دنس ولا رجس، ولا يعبث فيه شيطان، إلا طورد وحيل بينه وبين ما يريد .
٨- أن أرزاق العباد -ككل شيء- مقدرة في علم الله، تابعة لأمره ومشيئته، يصرفها حيث يشاء وكما يريد، في الوقت الذي يريد، حسب سننه التي ارتضاها، وأجراها في الناس والأرزاق، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)} [الحجر : ٢٠ - ٢١]. فما من مخلوق يقدر على شيء، أو يملك شيئاً، إنما خزائن كل شيء عند الله. ينزله على الخلق {بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر : ٢١]، فليس من شيء ينزل جزافاً، وليس من شيء يتم اعتباطاً .
٩- أن الحياة والموت بيد الله وحده، وأن الله هو الوارث بعد الحياة. وأنه سبحانه يعلم من كتب عليهم أن يَستقدِموا فيتوفوا، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا في الوفاة. وأنه هو الذي يحشرهم في النهاية، وإليه المصير .
١٠- أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض؛ ومن عناصره الرئيسة التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي، وتركيب الأحياء أجمعين. وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان .
١١- أن المعركة الخالدة والمصيرية بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض، تنطلق ابتداء من استدراج الشيطان للإنسان بعيداً عن منهج الله؛ والتزيين له فيما عداه، استدراجه إلى الخروج من الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور، وشعيرة ونسك، وشريعة ونظام .
١٢- أن الذين يدينون لله وحده، ويخلصون له في عبادتهم، ليس للشيطان عليهم من سبيل؛ لأنهم يعلقون أبصارهم بالله، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله. وإنما سبيل الشيطان على الغاوين والضالين عن منهج الله وطريقه القويم .
١٣- أن المتقين هم الذين يراقبون الله في جميع تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم، ويقون أنفسهم وأهليهم عذابه وأسبابه، وهؤلاء في جنات النعيم، لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب، ولا يخافون منها خروجاً؛ جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا، فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم .
١٤- قدمت السورة المباركة نماذج من رحمة الله وعذابه، ممثلة في قصص إبراهيم عليه السلام وبشارته على الكبر بغلام عليم، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وما حل بهم من عذاب أليم .
١٥- أكدت السورة على طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما. وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها. وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول ﷺ، وقد حملها الرسل قبله، وأن ذلك الحق متلبس بالخلق، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)} [الحجر : ٨٦]. فسنة الله ماضية في طريقها لا تتخلف. والحق الأكبر من ورائها متلبس بالدعوة، وبالساعة، وبخلق السماوات والأرض، وبكل ما في الوجود الصادر عن الخلاق العليم .
١٦- بينت السورة أن الحق عميق في تصميم هذا الوجود، عميق في تكوينه، عميق في تدبيره، عميق في مصيره، وما فيه ومن فيه. فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة؛ وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق .
١٧- أن القرآن الكريم من عناصر ذلك الحق، وهو يكشف سنن الخالق، ويوجه القلوب إليها، ويكشف آياته في الأنفس والآفاق، ويستجيش القلوب لإدراكها، ويكشف أسباب الهدى والضلال، ومصير الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والفساد، فهو من مادة ذلك

الحق، ومن وسائل كشفه وتبيانه، وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض، ثابت ثبوت نواميس الوجود، مرتبط بتلك النواميس .

١٨- دعت السورة رسول هذه الأمة ﷺ ألا يحفل بذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجالاً ونساء؛ امتحاناً وابتلاء، وألا يلقي إليه نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال، أو نظرة تمنٍ، فهو شيء زائل، وزخرف باطل، وأن ما معه من المثاني والقرآن العظيم هو الحق الباقي .

١٩- خطاب الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه، يجهر بما أمره الله أن يبلغه للناس، لا يقعده عن الجهر بدعوته شرك مشرك، فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم، ولا يصده عن المضي إلى ما هو بسبيله استهزاء مستهزئ، فقد كفاه الله شر المستهزئين. وهذا الذي يجب على أصحاب الدعوة الإسلامية، أن يصدعوا بحقيقة هذه الدعوة، لا يخفوا منها شيئاً؛ وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت، وتململ الجماهير، { وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف : ٨].

٢٠- خطاب الرسول ﷺ أن يسبح بحمد ربه ويعبده، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من قومه، ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة، حتى يأتيه الأجل، فيمضي إلى جوار ربه الكريم آمناً مطمئناً[١] .

- **فضائل السورة:**

ومما وردت به الروايات من فضائل هذه السورة:

- عن الأغر أبي مسلم - وهو الكوفي - :"أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف ، فلما رأى النبي ﷺ سكت ، فقال رسول الله ﷺ :«هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»"[٢].
- عن عبد الله بن عمرو، قال: "أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثا من ذوات الر»، فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثا من ذوات حاميم»، فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثا من المسبحات»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي -ﷺ- «إذا زلزلت الأرض» حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «أفلح الرويجل» مرتين"[٣].

---

(١) انظر: اسلام ويب[موقع الكتروني].

(٢)مسند البزار برقم (٥٢٣٢ ، ٢٣٢٦) "كشف الأستار" ، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٤/٧) : "وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدام وهو متروك".

(٣) أخرجه أبو داود في"باب تحزيب القرآن"(١٣٩٩):ص٥٧/٢. والبيهقي في الشعب، في تعظيم القرن، فصل"في فضائل السور والآيات"(٢٥١٢):ص٤٩٦/٢، والنسائي في عمل اليوم والليلة(٧٢١):ص٢١٦-٢١٧.
وقوله: من ذوات (الر)، أي: من السور التي تبدأ بهذه الأحرف الثلاثة التي تقرأ مقطعة: ألف، لام، را، والذي في القرآن منها خمس سور: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.
وقوله من ذوات {حم}، أي: من السور التي تبدأ بهذين الحرفين: حا، ميم، وهي في القرآن سبع سور: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.
وقوله: من المسبحات، أي: السور التي أولها سَبَّح ويُسَبحُ وسَبح، وهي الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى.
وحكم الألباني«ضعيف»، انظر: «ضعيف أبي داود» (٢٤٧).
[تعليق شعيب الأرنؤوط]
إسناده صحيح، عيسى بن هلال الصدفي، روى عنه غير واحد وذكره المؤلف في الثقات، وهو صدوق كما قال الحافظ في التقريب(ص٤٤١)، وقال الحاكم:"حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقوله:«بل صحيح»، أي: فقط من غير أن يكون على شرط الشيخين(٥٨٠/٢)، وأورده الفسوي في تاريخه: ٢/ ٥١٥ - ٥١٦ في ثقات التابعين من أهل مصر، وباقي رجاله ثقات من رجال الصحيح.

- أخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه:" سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات[1] إلى الطواسين مكان الإنجيل»"[2]. وهذه السورة مفتتحة بـ«الر».
- عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله، ﷺ: «من قرأ الحجر، أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين»[3].
- وروى الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ :" إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا فى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا فذلك قوله : {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر : ٢]"[4].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

---

(١)الرائيات: هي السور المبدوءة ب «الر».
(٢) الدر المنثور:٣٣٩/٤.
الرائيات: هي السور المبدوءة بـ«الر» والطواسين: هي السور المبدوءة بـ «طسم» أو «طس».
(٣) أخرجه الواحدي في التفسير الوسيط(٥٠٣):ص٣٨/٣، وانظر: تفسير الثعلبي:٣٣٠/٥، رواه من طريق أبى الخليل عن على بن زيد عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب.
(٤)أخرجه ابن أبى عاصم (٤٠٥/٢، رقم ٨٤٣) ، وابن جرير فى التفسير (١١٠٥):ص١٨٠/٢ ، والحاكم (٢٦٥/٢، رقم ٢٩٥٤) ،
وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبى. والبيهقى فى البعث والنشور (ص ٩١، رقم ٧٩) . وعزاه ابن كثير فى التفسير.

القرآن

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)} [الحجر : ١]

التفسير:

(الر) سبق الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة.

تلك الآيات العظيمة هي آيات الكتاب العزيز المنزل على محمد ﷺ، وهي آيات قرآن موضِّح للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدلِّه على المقصود.

قوله تعالى:{الر} [الحجر : ١]، الله تعالى أعلم بمراده بذلك.

عن مجاهد:" {الر}، فواتح يفتتح بها كلامه"[١].

عن ابن عباس:" {الر}: قال: أنا الله أرى"[٢]. وروي عن الضحاك مثله[٣].

وعن ابن عباس: "{الر}: حروف الرحمن مفرقة"[٤]

عن قتادة قال: "{الر}: اسم من أسماء القرآن"[٥]

قوله تعالى:{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الحجر : ١]، أي:" تلك الآيات العظيمة هي آيات الكتاب العزيز المنزل على محمد ﷺ"[٦].

قال الطبري:" يعني: هذه الآيات، آيات الكتب التي كانت قبل القرآن كالتوراة والإنجيل"[٧].

قال الزمخشري:" {تلك}، إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابا"[٨].

عن مجاهد:" { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، قال: التوراة والإنجيل"[٩].

عن قتادة، قوله :"{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، قال: الكتُب التي كانت قبل القرآن"[١٠].

قوله تعالى:{وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} [الحجر : ١]، أي:" وهي آيات قرآن موضِّح للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدلِّه على المقصود"[١١].

قال الطبري:" يقول: وآيات قرآنٍ يُبِين من تأمله وتدبَّره رشدَه وهداه"[١٢].

قال مقاتل:" يعني: بين ما فيه"[١٣].

---

(١) أخرجه الطبري:٥٩/١٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٨٤):ص١٩٢١/٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠١٨٥):ص١٩٢١/٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٨٦):ص١٩٢١/٦.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠١٨٧):ص١٩٢١/٦.
(٦) التفسيرالميسر:٢٦٢.
(٧) تفسير الطبري:٥٩/١٧.
(٨) الكشاف:٥٦٩/٢.
(٩) أخرجه الطبري:٥٩/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٥٩/١٧.
(١١) التفسيرالميسر:٢٦٢.
(١٢) تفسير الطبري:٥٩/١٧.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/٢.

عن قتادة :"{وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}، قال: تبين والله هداه ورشده وخيره"[1].
قال الزمخشري:أي:" وأي قرآن مبين، وتنكير «القرآن»، للتفخيم"[2].
الفوائد:
١- القرآن الكريم مبين لكل ما يحتاج إليه في إسعاد الإنسان وإكماله.
٢- أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه، فإن الإشارة في قوله تعالى:{ تِلْكَ آيَاتُ} تعود إلى ما يقرأه المسلمون من قول تلقوه عن النبي ﷺ وهو «القرآن»، فالحروف والمعاني كلها من الله جل وعلا.

القرآن

{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)} [الحجر : ٢]

التفسير:
سيتمنى الكفار حين يرون خروج عصاة المؤمنين من النار أن لو كانوا موحدين؛ ليخرجوا كما خرجوا.

قال الطبري:" ربما يودّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيته لو كانوا في دار الدنيا مسلمين"[3].

قال ابن كثير:" إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا"[4].

قال ابن عباس:" ذلك يوم القيامة يتمنى الذين كفروا لو كانوا موحدين"[5].

قال عبدالله:" هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار"[6].

قال أبو العالية:" نزلت في الذين يخرجون من النار"[7].

قال مجاهد:" إذا فرغ الله من القضاء بين خلقه، قال: من كان مسلما فليدخل الجنة، فعند ذلك"[8].

قال قتادة:" وذلك والله يوم القيامة، ودّوا لو كانوا في الدنيا مسلمين"[9].

قال الزمخشري:" فإن قلت: متى تكون ودادتهم؟

قلت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين. وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضا باب من الودادة. فإن قلت: فما معنى التقليل؟

قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، فبالحرى أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة لو كانوا مسلمين حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلن. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنا مسلمين، لكان حسنا سديدا. وقيل: تدهشهم

---

(١) أخرجه الطبري:٥٩/١٧.
(٢) الكشاف:٥٦٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٦١/١٧.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٢٤/٤.
(٥) أخرجه الطبري:٦٢/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٦٢/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٦٤/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٦٣/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:٦٤/١٧.

أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكوتهم تمنوا"[1].
تمنوا"[1].

عن هشام بن حماد قال: "سألت إبراهيم عن هذه الآية: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}؛ قال: حدثت أن أهل الشرك قالوا لمن دخل النار من أهل الإسلام: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، قال: فيغضب الله لهم فيقول الملائكة والنبيين: أشفعوا، قال: فيشفعون لهم فيخرجون حتى إن إبليس يتطاول ورجاء أن يخرج معهم، فعند ذلك {يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}"[2].

عن أبي موسى، قال: "بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة، واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فأخرجوا، فقال من في النار من الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين، ثم قرأ رسول الله ﷺ {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}"[3].

عن ابن عباس، في قوله :"{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}، قال: يدخل الجنة ويرحم حتى يقول في آخر ذلك: من كان مسلما فليدخل الجنة، قال: فذلك قوله {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}"[4].

وعن الضحاك في قوله:" {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}، قال: فيها وجهان اثنان، يقولون: إذا حضر الكافر الموت ودّ لو كان مسلما. ويقول آخرون: بل يعذّب الله ناسا من أهل التوحيد في النار بذنوبهم، فيعرفهم المشركون فيقولون: ما أغنت عنكم عبادة ربكم، وقد ألقاكم في النار، فيغضب لهم فيخرجهم، فيقول :{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}"[5].

وأخرج ابن ابي حاتم بسنده عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: "{ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}، قالوا: ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ"[6].

وأخرج ابن ابي حاتم عن زكريا بن يحيى صاحب القضيب قال: "سألت أبا غالب رضي الله عنه عن هذه الآية ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين فقال: حدثني أبو أمامة أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إنها نزلت في الخوارج حين رأوا تجاوز الله عن المسلمين وعن الأمة والجماعة، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين»"[7].

وعن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى إن تفنى، فإذا أراد الله إن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من اهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}"[8].

---

(١) الكشاف:٥٦٩/٢-٥٧٠.
(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب(٦٤):ص٣١/١.
(٣) أخرجه الطبري:٦١/١٧.
(٤) أخرجه الطبري:٦١/١٧-٦٢.
(٥) أخرجه الطبري:٦٤/١٧.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٢٥):ص٢٢٥٥/٧.
(٧) تفسير ابن ابي حاتم(١٢٣٢٩):ص٢٢٥٧/٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٢٦):ص٢٢٥٥/٧-٢٢٥٦.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها، الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين ولا تائبين، من دخل منهم جهنم لا تزرق أعينهم ولا تسود وجوههم، ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل، ولا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران، حرم الله أجسادهم على الخلود من أجل التوحيد وصورهم على النار من أجل السجود، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى إن تفنى فإذا أراد الله أن يخرجهم منها. قالت اليهود والنصارى ومن في النار من اهل الأديان والأوثان، لمن في النار من اهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء. فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين بين الجنة والصراط فينبتون فيها نبات الطراثيث في حميل السيل، ثم يدخلون الجنة ... مكتوب في جباههم: هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن. فيمكثون في الجنة ما شاء الله أن يمكثوا، ثم يسألون الله تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم، فيبعث الله ملكا فيمحوه، ثم يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار فيطبقونها على من بقي فيها، يسمرونها بتلك المسامير فينساهم الله على عرضه ويشتغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم. وذلك قوله: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}"[(١)].

قرأت ذلك عامة قرّاء أهل المدينة وبعض الكوفيين «رُبَمَا» بتخفيف الباء، وقرأته عامة قرّاء الكوفة والبصرة بتشديدها[(٢)].

القرآن

{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)} [الحجر : ٣]

التفسير:

اترك -أيها الرسول- الكفار يأكلوا، ويستمتعوا بدنياهم، ويشغلهم الطمع فيها عن طاعة الله، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم الخاسرة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ} [الحجر : ٣]، أي:" اترك -أيها الرسول- الكفار يأكلوا، ويستمتعوا بدنياهم، ويشغلهم الطمع فيها عن طاعة الله"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هم آكلوه، ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها، وتزوّدهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم"[(٤)].

قال البغوي:" {ذرهم} يا محمد، يعني: الذين كفروا {يأكلوا} في الدنيا {ويتمتعوا} من لذاتهم {ويلههم} يشغلهم {الأمل} عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة"[(٥)].

قال الزمخشري:" يعنى: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيرا"[(٦)].

قال ابن كثير:" تهديد لهم شديد ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : { قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [إبراهيم : ٣٠] وقوله : { كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } [المرسلات : ٤٦] ولهذا قال : { وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ } أي : عن التوبة والإنابة "[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٢٨):ص٧/٢٢٥٦-٢٢٥٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٧/٥٩.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٤) تفسير الطبري:١٧/٦٥.
(٥) تفسير البغوي:٤/٣٦٨.
(٦) الكشاف:٢/٥٧٠.
(٧) تفسير ابن كثير:٤/٥٢٤.

قال ابن زيد:" هؤلاء الكفرة"[١].

عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله: "{ذرهم}، قال: خل عنهم"[٢].

قال القشيري:" قيمة كل امرئ على حسب همّته فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب فالتّكليف يتبعه التشريف!"[٣].

قوله تعالى:{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر : ٣]، أي:" فسوف يعلمون عاقبة أمرهم الخاسرة في الدنيا والآخرة"[٤].

قال ابن كثير:" أي : عاقبة أمرهم "[٥].

قال الطبري:" فسوف يعلمون غدا إذا وردوا عليه. وقد هلكوا على كفرهم بالله وشركهم حين يُعاينون عذاب الله أنهم كانوا من تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذّات والشهوات كانوا في خسار وتباب"[٦].

قال الزمخشري:{فسوف يعلمون}، أي:" سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل. وهذه هجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين. وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين"[٧].

قال البغوي:" إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد. وقال بعض أهل العلم: "ذرهم" تهديد، وقوله: "فسوف يعلمون" تهديد آخر، فمتى (٥) يهنأ العيش بين تهديدين؟"[٨].

قال سهل بن عبدالله:" إذا اجتمعت أربعة في عبد قيل له: إنك لن تنال شيئا من هذا الأمر، إذا أحب أن يأكل شيئا طيبا، ويلبس ثوبا لينا، وينفذ أمره، ويكثر شيئه يقال: هيهات هذا الذي قطع الخلق عن الله تعالى.

وقد حكي أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة «١» . وقال سهل: الأمل أرض كل معصية، والحرص بذر كل معصية، والتسويف ماء كل معصية، والقدرة أرض كل طاعة، واليقين بذر كل طاعة، والعمل ماء كل طاعة. قال: وكان سهل يقوى على الوجد سبعين يوما لا يأكل فيها طعاما، وكان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم في كل جمعة مرة، كيلا يضعفوا عن العبادة، وكان إذا أكل ضعف، وإذا جاع قوي، وكان يعرق في البرد الشديد في الشتاء وعليه قميص واحد، وكان إذا سألوه عن شيء من العلم يقول: لا تسألوني فإنكم لا تنتفعون في هذا الوقت بكلامي. وفد عباس بن عصام يوما وهو يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله، والناس يتوهمون أني أكلمهم عمر رضي الله عنه لسارية[٩]: «الجبل الجبل»[١٠]"[١١].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٣١):ص٢٢٥٧/٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٣٢):ص٢٢٥٧/٧.
(٣) لطائف الإشارات:٢٦٣/٢.
(٤) التفسيرالميسر:٢٦٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٢٤/٤.
(٦) تفسير الطبري:٦٥/١٧.
(٧) الكشاف:٥٧٠/٢.
(٨) تفسير البغوي:٣٦٨/٤.
(٩)سارية بن زنيم الدؤلي (... - نحو ٣٠ هـ) : صحابي، من الشعراء، القادة، الفاتحين. كان من العدائين، جعله عمر أميرا على جيش، وسيره إلى بلاد فارس، ففتح بلادا، منها: أصبهان. (الأعلام ٣/ ٦٩- ٧٠).
(١٠)كشف الخفاء ٢/ ٥١٤- ٥١٥ وفضائل الصحابة ١/ ٢٦٩ والإصابة ٣/ ٥، ٦.
(١١) تفسير التستري:٨٩.

وفي حكم الآية قولان:
أحدهما: انها محكمة. وهو الصحيح.
الثاني: أنها منسوخة بآية السيف. قاله به ابن حزم الانصاري[١]، وابن سلامة[٢]، وابن هلال[٣].
هلال[٣].
قال ابن الجوزي:" والتحقيق أنها وعيد وتهديد، وذلك لا ينافي قتالهم فلا وجه للنسخ"[٤].
للنسخ"[٤].
ويجدر القول بأن بعض العلماء توسعوا كثيرا في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدهم بالعذاب بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح[٥].

فوائد الآيتين:[٢-٣]:

١- إنذار الكافرين وتحذيرهم من مواصلة كفرهم وحربهم للإسلام فإن يوما سيأتي يتمنون فيه أن لو كانوا مسلمين.
٢- تحريم التمتع، يؤخذ من قوله تعالى:{ {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا}، فإنه داخل في عمومه.

القرآن

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)} [الحجر : ٤]

التفسير:

وإذا طلبوا نزول العذاب بهم تكذيبًا لك -أيها الرسول- فإنا لا نُهْلك قرية إلا ولإهلاكها أجل مقدَّر، لا نُهْلكهم حتى يبلغوه، مثل مَن سبقهم.

قال ابن الجووي:" أي: ما عذبنا من أهل قرية إلا ولها {كتاب معلوم}، أي: أجل موقت لا يتقدم ولا يتأخر عنه"[٦].

قال البغوي:" أي: من أهل قرية {إلا ولها كتاب معلوم} أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {وَمَا أَهْلَكْنَا} يا محمد {مِنْ} أهل {قَرْيَةٍ} من أهل القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى إلا ولها أجل مؤقَّت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيه محمد ﷺ، فكذلك أهل قريتك التي أنت منها وهي مكة، لا نهلك مشركي أهلها إلا بعد بلوغ كتابهم أجله، لأن مِنْ قضائي أن لا أهلك أهل قرية إلا بعد بلوغ كتابهم أجله"[٨].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها"[٩].

قال الزمخشري:" {كتاب معلوم}: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين"[١٠].

---

[١] في ناسخه:٢٤٧.
[٢] في ناسخه: ٥٨.
[٣] في ناسخه"المخطوط"، ورقة: ٢٧.
[٤] نواسخ القرآن:٤٨٧/٢.
[٥]انظر: علوم القرآن، للدكتور عدنان محمد زرزور ص (٢١٠-٢١٢) واقرأ الفصل بكامله عن "الناسخ والمنسوخ".
(٦) زاد المسير:٥٢٤/٢.
(٧) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.
(٨) تفسير الطبري:٦٥/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٢٥/٤-٥٢٦
(١٠) الكشاف:٥٧٠/٢-٥٧١

القرآن
{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)} [الحجر : ٥]
التفسير:
لا تتجاوز أمة أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدم عليه، فتنقص منه.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما يتقدّم هلاك أمة قبل أجلها الذي جعله الله أجلا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي جعل لها أجلا"[١].
قال البغوي:" أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب"[٢].
قال ابن كثير:أي:" وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد ، الذي يستحقون به الهلاك"[٣].
عن الزهري، في قوله "{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}، قال: نرى أنه إذا حضر أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم. وأما ما لم يحضر أجله، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدّم ما شاء"[٤].
فوائد الآيتين:[٤-٥]:
١- تقرير عقيدة القضاء والقدر فما من شيء إلا وسبق به علم الله وكتبه عنده في كتاب المقادير الحياة كالموت، والربح كالخسارة، والسعادة كالشقاء، جميع ما كان وما هو كائن وما سكون سبق به علم الله وكتب في اللوح المحفوظ.
٢- أن الآجال محدودة: فإن الله تعالى جعل لكل أحد من الخلق أجلاً معيناً ووقتاً محدوداً، فإذا جاء أجله وحلّ وقت زواله لا يتقدم عنه برهة من الزمن ولا يتأخر، لا الأمم مجتمعة ولا أفرادها، قال تعالى:" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}[الأعراف: ٣٤]، وقال سبحانه:{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } (الحجر:٤- ٥).

القرآن
{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)} [الحجر : ٦]
التفسير:
وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً: يا أيها الذي نُزِّل عليه القرآن إنك لذاهب العقل.
سبب النزول:
قال مقاتل:" نزلت في عبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومي، والنضر بن الحارث هو ابن علقمة من بني عبد الدار بن قصي ونوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، كلهم من قريش والوليد بن المغيرة، قالوا للنبي- ﷺ-: إنك لمجنون"[٥].
قوله تعالى:{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [الحجر : ٦]، أي:" وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً: يا أيها الذي نُزِّل عليه القرآن"[٦].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون لك من قومك يا محمد {يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} وهو القرآن الذي ذكر الله فيه مواعظ خلقه"[٧].

---
(١) تفسير الطبري:٦٥/١٧.
(٢) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٢٥/٤-٥٢٦
(٤) أخرجه الطبر:٦٦/١٧.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٧) تفسير الطبري:٦٦/١٧.

قال البغوي:" {وقالوا} يعني: مشركي مكة {يا أيها الذي نزل عليه الذكر} أي: القرآن، وأرادوا به محمدا ﷺ {إنك لمجنون} وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء"(١).

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم : { يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } أي : الذي يدعي ذلك"(٢).

قال الزمخشري:" وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء : ٢٧]، وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها : {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران : ٢١/التوبة:٣٤/ الإنشقاق:٢٤] ، {إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود : ٨٧]، وقد يوجد كثيرا في كلام العجم"(٣).

قال السمعاني:" «الذكر»، هو القرآن"(٤).

عن الضحاك: "{نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، قال: القرآن"(٥).

قرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقى عليه الذكر»(٦).

قوله تعالى:{إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر : ٦]، أي:" إنك لذاهب العقل"(٧).

قال الطبري:أي: " في دعائك إيانا إلى أن نتَّبعك، ونذر آلهتنا "(٨).

قال ابن كثير:" أي : في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا "(٩).

قال الكَرَجي القصَّاب: " أي: أنت مجنون في ادعائك أن الذكر تنزل عليك من السماء أمره"(١٠).

قال السمعاني: "قوله: {إنك لمجنون} خطابهم مع النبي"(١١).

قال الزمخشري:"المعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أن الله نزل عليك الذكر "(١٢).

الفوائد:

١- بيان ما كان يلقاه رسول الله ﷺ من استهزاء وسخرية من المشركين.

٢- عند تأمل الاعتراضات الواردة على الرسل نجد سببها هو مخالفة هذا الأمر لما تعودوه وتعارفوا عليه من ألوان المعرفة العادية، ولما كانت الكهانة والسحر من الأمور الشائعة بينهم، فقد نسبوا الوحي إلى هذه الظاهرة فقالوا: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} ، {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}، وفرعون -قديما- لم يجد عنده ما يعارض به نبي الله موسى إلا اتهامه بالسحر؛ ولذلك جمع له كبار قومه في فنون السحر. ولما وقفوا على حقيقة ما مع موسى -عليه السلام- أدركوا أنه ليس من جنس بضاعتهم؛ ولهذا كانوا أول من آمن برب العالمين رب موسى وهارون، وقال فرعون لهم: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين} [الشعراء: ٤٩] . إلى غير ذلك من وسائل التهديد بالعذاب والهلاك، فما كان جوابهم إلا أن قالوا لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ

---

(١) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.
(٣) الكشاف:٥٧١/٢.
(٤) تفسير السمعاني:١٣٠/٣.
(٥) أخرجه الطبري:٦٦/١٧.
(٦) انظر: الكشاف:٥٧١/٢.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٨) تفسير الطبري:٦٦/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.
(١٠) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والحكم:٥٠٥/٤.
(١١) تفسير السمعاني:١٣٠/٣.
(١٢) الكشاف:٥٧١/٢.

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ٧٢، ٧٣] .

وعلى هذا النحو كانت قضية الرسل مع أقوامهم، فالنبوة أصلا أمر غير عادي.

والوحي كوسيلة معرفية غيبية أمر غير عادي، ودعوى الأنبياء أنهم يخاطبون بوحي من السماء أمر غير عادي، ودلائل صدق الأنبياء من الآيات والمعجزات أمر غير عادي، ولكن السؤال الضروري هنا: هل لأن هذه الأمور كلها فوق عادة البشر تكون بالضرورة مما يحكم العقل باستحالتها؟ الجواب هنا بالقطع لا؛ فإن العقل لا يحكم باستحالة هذه الأشياء. ومن يملك برهانا قاطعا على القول بأن هذه الأمور مستحيلة عقلا فليظهره.

إن كل ما يدعيه الرافضون للوحي أنهم لا يعرفون دليلا عليه ولا يملكون برهانا على صحته. وقد يضيفون إلى ذلك دعواهم أن هذه القضية لا تخضع للتجربة الحسية؛ وبالتالي فهي ليست قابلة للصدق.

وهذا أقصى ما ينبهون إليه من دعاوى الإنكار[١].

القرآن

{لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)} [الحجر : ٧]

التفسير:

هلا تأتينا بالملائكة -إن كنت صادقًا-؛ لتشهد أن الله أرسلك.

قوله تعالى:{لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ} [الحجر : ٧]، أي:" هلا تأتينا بالملائكة لتشهد أن الله أرسلك"[٢].

قال مقاتل:" يعني: أفلا تجيئنا بالملائكة فتخبرنا بأنك نبي مرسل"[٣].

قال السمعاني:" أي: هلا تأتينا بالملائكة"[٤].

قال البغوي:" شاهدين لك بالصدق على ما تقول"[٥].

قال ابن كثير:" أي : هلا { تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ } أي : يشهدون لك بصحة ما جئت به "[٦].

قال الطبري:" قالوا: هلا تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول؟ ...والعرب تضع موضع «لوما»: «لولا» وموضع «لولا» «لوما»، من ذلك قول ابن مقبل[٧]:

لَوْما الحَياءُ وَلَوْمَا الدّينُ عِبْتُكما ... ببَعْضِ ما فيكُما إذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

يريد: لولا الحياء"[٨].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الحجر : ٧]، أي:" إن كنت صادقا في أن الله تعالى بعثك إلينا"[٩].

قال مقاتل:" بأنك نبي مرسل "[١٠].

قال الواحدي:أي:" أنَّك نبي"[١١].

---

(١) انظر: الوحي والإنسان:٢٣٤-٢٣٥.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
(٤) تفسير السمعاني:١٣٠/٣.
(٥) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.
(٧)البيت لابن مقبل من كلمة له، من أولها أبيات في الحماسة (د: ١١٣) وهو شاهد على أن (لوما) تستعمل بمعنى لولا: في امتناع الشيء لوجود غيره، وهي في الآية: بمعنى التحضيض، قال أبو عبيدة في معاني القرآن: " لوما " مجازها ومجاز " لولا " واحد. واستشهد ببيت ابن مقبل، وعنه أخذه المؤلف.
(٨) تفسير الطبري:٦٦/١٧.
(٩) تفسير الطبري:٦٦/١٧.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
(١١) الوجيز:٥٨٩.

قال الطبري:" إن كنت صادقا في أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا، فإن الربّ الذي فعل ما تقول بك، لا يتعذّر عليه إرسال ملك من ملائكته معك حجة لك علينا، وآية لك على نبوّتك، وصدق مقالتك [١].

القرآن

{مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨)} [الحجر : ٨]

التفسير:

وردَّ الله عليهم: إننا لا ننزل الملائكة إلا بالعذاب الذي لا إمهال فيه لمن لم يؤمن، وما كانوا حين تنزل الملائكة بالعذاب بِمُمْهلين.

قوله تعالى:{مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الحجر : ٨]، أي:" إننا لا ننزل الملائكة إلا بالعذاب الذي لا إمهال فيه لمن لم يؤمن"[٢].

قال الواحدي:" أَيْ: بالعذاب"[٣].

قال الطبري:أي:" ما ننزل ملائكتنا إلا بالحقّ، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه"[٤].

قال السمعاني:" الحق الذي تنزل به الملائكة هو الوحي، وقبض [أرواح] العباد، وإهلاك الكفار، وكتبة الأعمال، وما أشبه ذلك"[٥].

عن مجاهد، قوله: "{مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ}، قال: بالرسالة والعذاب"[٦].

وقرأ بعض قراء أهل الكوفة «مَا تُنزلُ المَلائِكَةُ»، برفع «الملائكة» والتاء في «تنزل» وضمها، على وجه ما لم يسمّ فاعله[٧].

قوله تعالى:{وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} [الحجر : ٨]، أي:" وما كانوا حين تنزل الملائكة بالعذاب بِمُمْهلين"[٨].

قال البغوي:" أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانا فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه: إنهم لو نزلوا أعيانا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال"[٩].

قال الواحدي:" أي: لو نزلت الملائكة لم يُنظروا ولم يُمهلوا"[١٠].

قال الطبري:أي:" ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم يُنظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين آتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة"[١١].

قال السمعاني:" أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانا، فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: أنهم لو نزلوا عيانا زال الإمهال عن الكفار وعذبوا في الحال"[١٢].

فوائد الآيتين:[٧-٨]:

١- مظهر من مظاهر رحمة الله بالإنسان، يطلب نزول العذاب والله ينزل الرحمة.

٢- أن قضية الوحي في أساسها لا يملك العقل برهانا على إنكارها، فهي في أصل ثبوتها ليست مما يحيله العقل ولكنها ليست مما جرت به العادة بين العقلاء، وهذا أمر لازم

---

(١) تفسير الطبري:٦٦/١٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٣) الوجيز:٥٨٩.
(٤) تفسير الطبري:٦٧/١٧.
(٥) تفسير السمعاني:١٣٠/٣.
(٦) أخرجه الطبري:٦٨/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٦٧/١٧.
(٨) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٩) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.
(١٠) الوجيز:٥٨٩.
(١١) تفسير الطبري:٦٧/١٧.
(١٢) تفسير السمعاني:١٣٠/٣-١٣١.

لها، فهي ليست من قبيل العادات ولا الأعراف التي تعوّد الناس على معايشتها حتى يتقبلوها بسهولة. ومن هنا كانت محل إنكار من الكافرين بقضية النبوة، والسبب الرئيسي في هذا الإنكار هو عدم التعود على مشاهدة هذه الحالة، وهناك فارق كبير بين المستحيل العقلي والمستحيل عادة. ومن الخطأ منهجيا أن يحمل الناس المستحيل العادي على المستحيل العقلي، وهذا يفسر لنا موقف المشركين من الرسل جميعا حين دعوهم إلى الإيمان بهذا الوحي، فقالوا للرسول: {مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} [يس: ١٥]، وقالوا: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠]، وقالوا: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الحجر: ٦، ٧]، وقال بعضهم لبعض: {وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [المؤمنون: ٣٤]، وقالوا: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان: ٧] .

٣- استدل البعض بهذه الآية على بطلان قصة الملكين هاروت وماروت، قال ابن حزم الأندلسي:"دلت الآية على أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق وليس شرب الخمر ولا الزنا ولا قتل النفس المحرمة ولا تعليم العواهر أسماءه عز وجل التي يرتفع بها إلى السماء ولا السحر من الحق بل كل ذلك من الباطل ونحن نشهد أن الملائكة ما نزلت قط بشيء من هذه الفواحش والباطل وإذا لم تنزل به فقد بطل أن تفعله لأنها لو فعلته في الأرض لنزلت به وهذا باطل وشهد عز وجل أنه لو أنزل علينا الملائكة لما نظرنا فصح أنه لم ينزل قط ملك ظاهر إلا للنبي بالوحي فقط"(١).

ثم قال:" هاروت وماروت لم يكونا ملكين وأن ما في قوله وما أنزل على الملكين نفى لأن... ينزل على الملكين ويكون هاروت وماروت حيئذ بدلا من الشياطين كأنه قال ولكن الشياطين هاروت وماروت ويكون هاروت وماروت قبيلتان من قبائل الجن كانتا يعلمان الناس السحر"(٢).

قال الحافظ ابن حجر: " وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر(٣) في مسند أحمد(٤)، وأطنب الطبري(٥) في إيراد طرقها بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً خلافاً لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه(٦)،

---

(١)الفصل في الملل والأهواء والنحل:٢٦/٤.

(٢) المصدر نفسه:٢٦/٤-٢٧.

(٣) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، صحابي مشهور، عالم فقيه، عابد زاهد، من أهل بيعة الرضوان، هاجر مع أبيه، أول غزواته الخندق ورد قبلها لصغره، أحد المكثرين من الرواية، توفي عام: ٧٣ هـ. انظر: الطبقات لابن سعد: ١٤٢/٤، أسد الغابة لابن الأثير: ٢٢٧/٣، سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١٣/٣، الإصابة لابن حجر: ٣٣٨/٢.

(٤) المسند-تحقيق الأرناؤوط وآخرين-: ٣١٧/١١٠-٣١٨ رقم: ٦١٧٨ وسيأتي الكلام على هذا الحديث وما يشبهه بعد في هامش: ١ ص: ٣٩٤-٣٩٦.

(٥) انظر: جامع البيان للطبري: ٤٢٧/٢-٤٣٥.

(٦) بلغت طرق قصة هاروت وماروت نيفاً وعشرين طريقاً كما ذكر ذلك الألوسي في روح المعاني: ٣٤١/١، ٣٤١/١، وذكر جلها الحافظ ابن حجر في العجاب-تحقيق: الأنيس-: ٣١٤-٣٤٣ عند حديثه عن سبب نزول هذه الآية. وقد اختلف العلماء في ثبوتها، فمن من أثبتها الحافظ هنا وفي القول المسدد في الذب عن المسند: ٨٩-٩٠ إذ قال: "وله طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد يكون الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها، والله أعلم". كما أخرج حديثها ابن حبان في صحيحه: ٦٣/١٤-٦٤ رقم: ٦١٨٦، والحاكم في مستدركه: ٦٠٧/٤-٦٠٨ مصححاً له ووافقه الذهبي في التلخيص. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣١٤/٦: "ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن جبير، وهو ثقة". وصححه أيضاً ابن حجر الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١٧٢/٢، وأفرد السيوطي في قصتهما جزءاً كما ذكر ذلك في الإتقان: ١٨٠/٢، ويظهر أن الألوسي في روح المعاني: ٣٤٣/١ نقل عنه اعتراضه على من أنكر القصة بأن "الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم رووها مرفوعة وموقوفة على علي وابن عباس وابن عمر وابن مسعود-

رضي الله عنهم-بأسانيد عديدة صحيحة يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخرجيها". وعلي القارئ في شرح الشفا: ٣٢٠/٢-٣٢١ إذ قال بعد إيراده لبعض الطرق: "ولا يخفى أن الحديث كما تراه مرفوعاً وموقوفاً له أصل ثابت في الجملة لتعدد طرقه واختلاف سنده... وموقوفاً على علي وابن عباس كما مر، وعن ابن عمر وابن مسعود بأسانيد صحيحة وقد قيل: لهذه القصة طرق تفيد العلم لصحتها". وقد ضعف هذه الروايات القاضي عياض في الشفا-مع الشرح لعلي القاري-: ٣١٨/٢-٣٢٢ إذ قال: "فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم (أي: الملائكة) قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما فاعلم-أكرمك الله-أن هذه الأخبار لم يرد منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيء يؤخذ بقياس والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما قصه الله تعالى أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه وقد انطوت القصة على شُنَع عظيمة وها نحن نخبر في ذلك ما يكشف غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله". ثم شرع في ذكر ما يزيف القصة ويبطلها من وجوه. ووافقه ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٣٢/٤-٣٤ فقال: (إن قوماً نسبوا إلى الله تعالى ما لم يأت به قط أثر يجب أن يشتغل به وإنما هو كذب مفترى-إلى أن قال-فصح أنها خرافة موضوعة) وابن العربي في أحكام القرآن: ٣٠/١ إذ قال: "وتحقيق القول فيه أنه لم يصح سنده ولكنه جائز كله في العقل لو صح النقل". وابن عطية في المحرر الوجيز: ٣١٨/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٥٢/٢ إذ قال: "قلنا: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شيء فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله، ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ففي الخبر "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشتري وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر" وهذا معنى قول الله تعالى: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٤٠]، فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلاً قد كانا قبل خلق آدم". وأبو حيان في البحر المحيط: ٣٢٩/١، وابن كثير في البداية والنهاية: ٣٧/١-٣٨ إذ قال: "وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت... فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل..."، وجعل في تفسيره: ١٧٥/١ رواية سالم عن ابن عمر عن كعب عند عبد الرازق في التفسير: ٥٣/١-٥٤ أصح وأثبت من رواية نافع عن ابن عمر في المسند وغيره لأن سالماً أثبت في أبيه من مولاه نافع قال: "فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل والله أعلم". وقال في تفسيره أيضاً: ١٧٨/١: "وقد رويت قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال"، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٤/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ٢٣٧/٣ إذ قال: "واعلم بأن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة" ثم أخذ يعدد وجوه بطلانها، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ١٣٨/١. ومن المعاصرين الألوسي في روح المعاني: ٣٤١/١ والعلامة أحمد شاكر في تخريجه لأحاديث الطبري: ٤٣٣/٢ رقم: ١٦٨٨ وفي تخريجه لأحاديث المسند: ٢٩/٩-٣٣ رقم: ٦١٧٨، وقال في: ٣٢/٩ معقباً على كلام ابن حجر السابق في القول المسدد "أما هذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هذه القصة صحة قريبة من القطع لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها فلا، فإنها كلها طرق معلولة أو واهية بالإضافة إلى مخالفتها الواضحة للعقل لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف جسم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة". وعزا في نفس الموضع القول بوضع بني إسرائيل لها وأنها حكاية خرافية لأستاذه رشيد رضا. وكذا قال أبو شهبة في كتابه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: ١٦٢-١٦٣، وضعف شعيب الأرناؤوط في تخريجه أحاديث ابن حبان: ١٦٤/١٤ رقم: ٦١٨٦ حديث ابن عمر المرفوع، وقال عنه هو وزميلاه في تخريج أحاديث المسند: ٣١٨/١٠ رقم: ٦١٨٦ "إسناده ضعيف ومتنه باطل". والأظهر-والله أعلم-في هذه المسألة ثبوت الحادثة لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها ولا ينبغي رد الأسانيد الثابتة بمثل تلك الاعتراضات، بل الواجب جمع تلك الروايات وأخذ التفاصيل الصحيحة ورد الضعيفة، قال ابن حجر في العجاب-تحقيق الأنيس-: ٣٣٢/١-٣٤٣ عند ذكره سبب نزول هذه الآية: "طعن في هذه القصة من أصلها بعض أهل العلم... وليس العجب من المتكلم والفقيه إنما العجب ممن ينتسب إلى الحديث كيف يطلق على خبر ورد بهذه الأسانيد القوية مع كثرة طرقها وتباين أسانيدها أنه باطل أو نحو ذلك من العبارة مع دعواهم تقوية أحاديث غريبة أو واردة من أوجه لكنها واهية، واحتجاجهم بها والعمل بمقتضاها-إلى أن قال-وأقول: إن في طرق هذه القصة القوي والضعيف ولا سبيل إلى رد الجميع فإنه ينادي على من أطلقه بقلة الاطلاع والإقدام على رد مالا يعلمه، لكن الأولى أن يُنظر

ومحصلها: أن الله ركب الشهوة في ملكين من الملائكة اختباراً لهما، وأمرهما أن يحكما في الأرض، فنزلا على صورة البشر وحكما بالعدل مدة، ثم افتتنا بامرأة جميلة فعوقبا بسبب ذلك بأن حبسا في بئر ببابل منكسين وابتليا بالنطق بعلم السحر، فصار يقصدهما من يطلب ذلك فلا ينطقان بحضرة أحد حتى يحذراه وينهياه، فإذا أصر تكلما بذلك ليتعلم منهما ذلك، وهما قد عرفا ذلك، فيتعلم منهما ما قص الله عنهما، والله أعلم"[1].

القرآن

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر : ٩]

التفسير:

إنَّا نحن نزَّلنا القرآن على النبي محمد ﷺ، وإنَّا نتعهد بحفظه مِن أن يُزاد فيه أو يُنْقَص منه، أو يضيع منه شيء.

قوله تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} [الحجر : ٩]، أي:" إنَّا نحن نزَّلنا القرآن على النبي محمد ﷺ"[2].

قال ابن أبي زمنين والواحدي والبغوي:" يعني: القرآن"[3].

قال مقاتل:" يعني القرآن على محمد- ﷺ- "[4].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْر}، وهو القرآن"[5].

قال ابن كثير:" ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر ، وهو القرآن "[6].

قوله تعالى:{وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر : ٩]، أي:" وإنَّا نتعهد بحفظه مِن أن يُزاد فيه أو يُنْقَص منه، أو يضيع منه شيء"[7].

قال الواحدي:" من أن يُزاد فيه أو يُنقص"[8].

قال الطبري:" قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه"[9].

قال ابن أبي زمنين:" حفظه الله من إبليس أن يزيد فيه شيئا، أو ينقص منه"[10].

إلى ما اختلفت فيه بالزيادة والنقص فيؤخذ بما اجتمعت عليه، ويؤخذ من المختلف بما قوي، ويطرح ما ضعف، أو ما اضطرب فإن الاضطراب إذا بعد به الجمع بين المختلف ولم يترجح شيء منه التحق بالضعيف المردود والله المستعان". أما ما قيل من عصمة الملائكة لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ويفعلون ما يؤمرون فهو صدق لا خلاف فيه لكنه خبر عن حالهم وهو ما يجوز أن تتغير لاحقاً فيتم الإخبار عنها بذلك أيضاً بعد، وكله حق وصدق لا خلاف فيه. أو يكون من العام الذي دخله التخصيص ولا وجه لمنع ذلك، أو أن هذين الملكان قد خرجا عن صفة الملائكة لإلقاء نعت البشرية من الشهوة النفسية عليهما ابتلاء لهم في القضية، والعلم لله تعالى.
انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٣٠/١، فتح القدير للشوكاني: ١٨٢/١-١٨٣، شرح الشفا لعلي القاري: ٣٢١/٢. وأما تحول المرأة إلى كوكب الزهرة فقد أخرج ابن أبي حاتم: ٣٠٥/١ رقم: ١٠١٢ عن ابن عباس القصة وفيها: (وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب"، قال ابن كثير في تفسيره: ٢٧٦/١-٢٧٧ بعد إيراداه لها: "وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العنبري... ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم). أما بقية الوجوه التي ذكرها من ضَعَّف هذه القصة مطلقاً سواء أكانت وجوهاً عقلية أم إسنادية فلا تقوم في وجه الأسانيد القوية التي وردت بها القصة، والله أعلم.

(١)الفتح: ٢٣٥/١٠.

(٢) التفسير الميسر:٢٦٢.

(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٠/٢، والوجيز للواحدي:٥٨٩، وتفسير البغوي:٣٦٩/٤

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.

(٥) تفسير الطبري:٦٨/١٧.

(٦) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.

(٧) التفسير الميسر:٢٦٢.

(٨) الوجيز:٥٨٩.

(٩) تفسير الطبري:٦٨/١٧.

(١٠) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٠/٢.

قال ابن كثير:" وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى : { لَهُ لَحَافِظُونَ } على النبي ﷺ ، كقوله : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة : ٦٧] والمعنى الأول أولى ، وهو ظاهر السياق"(١).

قال البغوي:" أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدلوا، قال الله تعالى: {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} [فصلت:٤٢]، و«الباطل»: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه. وقيل الهاء في {له} راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جل ذكره: {والله يعصمك من الناس} [المائدة:٦٧]"(٢).

عن قتادة، قوله :"{إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ، قال في آية أخرى {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ}، والباطل: إبليس {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ}، فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلا ولا ينتقص منه حقا، حفظه الله من ذلك"(٣).

وقال قتادة:" وقيل: الهاء في قوله {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، من ذكر محمد ﷺ بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه"(٤).

قال السمعاني:" {وإنا له لحافظون} فيه قولان: أحدهما: أنا نحفظ محمدا، والآخر: أنا نحفظ القرآن، وهو الأليق بظاهر اللفظ، ومعنى حفظ القرآن أنه يمنع من الزيادة فيه أو النقصان عنه، قال الله تعالى {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} والباطل هو إبليس، ومعناه: أن إبليس لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه، ولا أن ينقص عنه ما هو منه"(٥).

الفوائد:

١- بيان حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من الزيادة والنقصان ومن الضياع.

٢- أن القرآن الكريم محفوظ من تغيير الأعداء والمخالفين وتبديلهم إلى قيام الساعة. هذا مع اشتماله على هتك أستارهم وإبداء عوارهم. وأنى يقدرون ويستطيعون إضاعة ما تكفل الله بحفظه!.

٣- أن من وجوه إعجازه كونه آية باقية ما بقيت الدنيا، محفوظا من التغيير والتبديل الواقعين في الكتب قبله، كما قال - تعالى -: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} . وقال: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} .

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، ولم يبق إلا خبرها. والقرآن العزيز، الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته، الذي هو أعظم من كل معجزة، وأبهر من كل آية باق على ما كان، غضا طريا لم يتغير منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وجميع وجوه إعجازه التي ذكرناها ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة تأتي.

لا يخفى وجه ذلك على من نظر إليه، وتأمل وجوه إعجازه، وما أخبر به من الغيوب يقع كل وقت على الوجه الذي أخبر به، حتى كأنه يشاهد عيانا، فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان، وليس الخبر كالعيان.

والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين، وإن كان كل عندها حقا(٦).

القرآن

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)} [الحجر : ١٠]

التفسير:

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.

(٢) تفسير البغوي:٣٦٩/٤.

(٣) أخرجه الطبري:٦٨/١٧.

(٤) أخرجه الطبري:٦٨/١٧-٦٩.

(٥) تفسير السمعاني:١٣١/٣.

(٦) انظر: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب:٤٤٧/٢.

ولقد أرسلنا من قبلك -أيها الرسول- رسلا في فِرَق الأولين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك في الأمم الأوّلين رسلا، وترك ذكر الرسل اكتفاء بدلالة قوله {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ} عليه، وعنى بـ«شيع الأوّلين»: أمم الأوّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياء الرجل: شيعته"(١).

قال ابن أبي زمنين:" أي: في قرن؛ يعني: قوم نوح وسائر الأمم"(٢).

قال الواحدي:" أَيْ: رسلاً {في شيع الأوَّلين} أَيْ: فِرَقِهم"(٣).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مسليًا لرسوله في تكذيب من كذَّبه من كفار قريش : إنه أرسل من قَبْله في الأمم الماضية "(٤).

قال السمعاني:" «الشيعة»: هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم، ومعناه هاهنا: في أمم الأولين"(٥).

عن ابن عباس: "{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، يقول: أمم الأولين"(٦).

عن قتادة، قوله :"{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، قال: في الأمم"(٧).

القرآن

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١)} [الحجر : ١١]

التفسير:

فما من رسولٍ جاءهم إلا كانوا منه يسخرون. وفي هذا تسلية للرسول ﷺ. فكما فَعَل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعِلَ بمن قبلك من الرسل.

قال الطبري:" يقول: وما يأتي شيع الأوّلين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته،إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتُوّا منهم وتمرّدا على ربهم"(٨).

قال ابن كثير:" وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به "(٩).

قال الواحدي:" تعزية للنبي ﷺ"(١٠).

قال السمعاني:" هذا تسلية للنبي، ومعناه: أنهم كما استهزءوا بك فقد استهزىء بالأنبياء من قبلك"(١١).

فوائد الآيتين:[١٠-١١]:

١- بيان أن المكذبين دائما في عنادهم الذميم.

٢- بيان سنة الله تعالى في الأمم والشعوب وهي أنهم ما يأتيهم من رسول ينكر عليهم مألوفهم ويدعوهم إلى جديد من الخير والهدى إلا وينكرون ويستهزئون.

٣- في الآية دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية، فعصوا الرسل فهلكوا كما قال تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنعام:١١٦] وقال: {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف : ١٠٢]، وقال: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} [الروم:٤٢]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير. والناجون -

---

(١) تفسير الطبري:٦٩/١٧.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٠/٢.
(٣) الوجيز:٥٨٩.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.
(٥) تفسير السمعاني:١٣١/٣.
(٦) أخرجه الطبري:٦٩/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٦٩/١٧.
(٨) تفسير الطبري:٦٩/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٢٧/٤.
(١٠) الوجيز:٥٨٩.
(١١) تفسير السمعاني:١٣١/٣.

وإن كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم، فإنهم الأعظمون قدرا عند الله وإن قلوا. فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة، وقد اغتر بهم كثيرون.

القرآن

{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢)} [الحجر : ١٢]

التفسير:

كما أدخلنا الكفر في قلوب الأمم السابقة بالاستهزاء بالرسل وتكذيبهم، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله وتكذيب رسوله.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله"[١].

قال الزجاج:" أي: كما فعل بالمجرمين الذين استهزأوا بمن تقدم من الرسل كذلك نسلك الإضلال في قلوب المجرمين"[٢].

قال البيضاوي:" {كذلك نسلكه}: ندخله. {في قلوب المجرمين}، و«السلك»: إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون والضمير للاستهزاء. وفيه دليل على أن الله يوجد الباطل في قلوبهم"[٣].

قال السعدي:" أي: ندخل التكذيب {في قلوب المجرمين} أي: الذين وصفهم لظلم والبهت، عاقبناهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان"[٤].

عن الحسن، قوله: "{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، قال: الشرك"[٥].

عن ابن جريج :"{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، قال: التكذيب"[٦].

عن قتادة :"{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، لا يؤمنون به، قال: إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به"[٧].

عن حميد، قال: "قرأت القرآن كله على الحسن في بيت أبي خليفة، ففسره أجمع على الإثبات، فسألته عن قوله :{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، قال: أعمال سيعملونها لم يعملوها"[٨].

وعن حميد الطويل، قال: "قرأت القرآن كله على الحسن، فما كان يفسره إلا على الإثبات، قال: وقفته على نسلكه، قال: الشرك"[٩].

قال: ابن المبارك: "سمعت سفيان في قوله {نَسْلُكُهُ}، قال: نجعله"[١٠].

قال ابن زيد:" هم كما قال الله، هو أضلهم ومنعهم الإيمان، يقال منه: سلكه يسلكه سلكا وسلوكا، وأسلكه يسلكه إسلاكا، ومن السلوك قول عديّ بن زيد[١١]:

---

[١] تفسير الطبري:٧٠/١٧.
[٢] معاني القرآن:١٧٤/٣.
[٣] تفسير البيضاوي:٢٠٨/٣.
[٤] تفسير السعدي:٤٢٩.
[٥] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[٦] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[٧] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[٨] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[٩] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[١٠] أخرجه الطبري:٧٠/١٧.
[١١]الأغاني ٢: ١١١، مجاز القرآن ١: ٢٩٤، اللسان (سلك).

وكنْت لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أعرّدْ ... وَقَدْ سَلَكوكَ فِي يَوْم عَصِيبٍ
ومن الإسلاك قول الآخر[1]:
حتى إذَا أسْلَكُوهُمْ في قُتَائِدَةٍ ... شَلا كَما تَطْرد الجَمالَة الشرِدَا"[2].

القرآن

{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)} [الحجر : ١٣]

التفسير:

لا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل إليك، وقد مضت سنَّة الأولين بإهلاك الكفار، وهؤلاء مِثْلهم، سَيُهْلك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب.

قوله تعالى:{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ} [الحجر : ١٣]، أي:" لا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل إليك"[3].

قال الطبري:" يقول: لا يصدّقون بالذكر الذي أنزل إليك"[4].

قوله تعالى:{وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} [الحجر : ١٣]، أي:" وقد مضت سنَّة الأولين بإهلاك الكفار، وهؤلاء مِثْلهم، سَيُهْلك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب"[5].

قال قتادة:" وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم"[6].

قال البيضاوي:" أي: سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، أو بإهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيدا لأهل مكة"[7].

قال الزجاج:" أي: وقد مضت سنة الأولين بمثل ما فعله هؤلاء، فهم يقتفون آثارهم في الكفر"[8].

قال السعدي:" {سنة الأولين}، أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله"[9].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لا يؤمن بهذا القرآن قومك الذين سلكت في قلوبهم التكذيب {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ}، أخذا منهم سنة أسلافهم من المشركين قبلهم من قوم عاد وثمود وضربائهم من الأمم التي كذّبت رسلها، فلم تؤمن بما جاءها من عند الله حتى حلّ بها سخط الله فهلكت"[10].

---

[1]ديوان الهذليين ٢: ٤٢، ويأتي في تفسير الطبري ١٤: ٨، ١٨: ١٣، ٢٤: ٢٥ (طبعة بولاق) والخزانة ٣: ١٧٠ - ١٧٤، وأمالى ابن الشجري ١: ٣٥٨، ٢: ٢٨٩، وكثير غيرها. وسلك الرجل الطريق، وسلكه غيره فيه، وأسلكه الطريق: أدخله فيه أو اضطره إليه. وقتائدة: جبل بين المنصرف والروحاء، أي في الطريق بين مكة والمدينة. وشل السائق الإبل: طردها أمامه طردًا. ومر فلان يشل العدو بالسيف: يطردهم طردًا يفرون أمامه. والجمالة: أصحاب الجمال. وشرد البعير فهو شارد وشرود: نفر وذهب في الأرض، وجمع شارد شرد (بفتحتين) مثل خادم وخدم. وجمع شرود شرد (بضمتين) . ويذكر عبد مناف قومًا أغاروا على عدو لهم، فأزعجوهم عن منازلهم، واضطروهم إلى"قتائدة" يطردونهم بالسيوف والرماح والنبال، كما تطرد الإبل الشوارد. وجواب"إذا" تقديره: شلوهم شلا، فعل محذوف دل عليه المصدر.

[2] تفسير الطبري:١٧/٧٠-٧١.

[3] التفسير الميسر:٢٦٢.

[4] تفسير الطبري:١٧/٧٠.

[5] التفسير الميسر:٢٦٢.

[6] أخرجه الطبري:١٧/٧١.

[7] تفسير البيضاوي:٣/٢٠٨.

[8] معاني القرآن:٣/١٧٤.

[9] تفسير السعدي:٤٢٩.

[10] تفسير الطبري:١٧/٧١.

قال القشيري:" أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سنّته معهم فى التعذيب"[١].

القرآن

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)} [الحجر : ١٤]

التفسير:

ولو فتحنا على كفار «مكة» بابًا من السماء فاستمروا صاعدين فيه حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب ملكوت الله.

قوله تعالى:{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [الحجر : ١٤]، أي:" ولو فتحنا على كفار «مكة» بابًا من السماء"[٢].

قال مقاتل:" يعني: على كفار مكة {بابا من السماء} فينظرون إلى الملائكة عيانا كيف يصعدون إلى السماء"[٣].

قال البيضاوي:" أي: على هؤلاء المقترحين. {بابا من السماء}"[٤].

قال السعدي:" أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء}"[٥].

قوله تعالى:{فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} [الحجر : ١٤]، أي:" فاستمروا صاعدين فيه حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب ملكوت الله"[٦].

قال مقاتل:" يقول: فمالوا في الباب يصعدون"[٧].

قال البيضاوي:أي:" يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون"[٨].

قال السعدي:أي:" فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم"[٩].

قال الزمخشري:" وذكر «الظلول» ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: إنما، ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيرا للأبصار"[١٠].

وفي قوله تعالى:{فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} [الحجر : ١٤]، وجهان:

أحدهما : فظل هؤلاء المشركون يعرجون فيه ، قاله الحسن[١١]، وقتادة[١٢]، ومقاتل[١٣].

قال الحسن:" لو فعل هذا ببني آدم فظلوا فيه يعرجون أي يختلفون"[١٤].

قال الزمخشري:" «سكرت» من :السكر، أى: حارت كما يحار السكران. والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم

---

[١] لطائف الإشارات:٢٦٤/٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٦٢.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
[٤] تفسير البيضاوي:٢٠٨/٣.
[٥] تفسير السعدي:٤٣٠.
[٦] التفسير الميسر:٢٦٢.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
[٨] تفسير البيضاوي:٢٠٨/٣.
[٩] تفسير السعدي:٤٣٠.
[١٠] الكشاف:٥٧٣/٢.
[١١] انظر: تفسير الطبري:٧٣/١٧.
[١٢] انظر: النكت والعيون:١٥١/٣.
[١٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
[١٤] أخرجه الطبري:٧٣/١٧.

معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك"[١].

الثاني : فظلت الملائكة فيه يعرجون وهم يرونهم ، قاله ابن عباس[٢]، والضحاك[٣].

والمعنى على هذا القول: "لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك"[٤].

ذلك"[٤].

قال ابن عباس:" فظلت الملائكة يعرجون فيه يراهم بنو آدم عيانا"[٥].

وقال ابن عباس :" قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم"[٦].

وقال ابن عباس:" "لو فتح الله عليهم من السماء بابا فظلت الملائكة تعرج فيه، يقول: يختلفون فيه جائين وذاهبين"[٧].

قال الضحاك:" يعني: الملائكة: يقول: لو فتحتُ على المشركين بابا من السماء، فنظروا إلى الملائكة تعرج بين السماء والأرض"[٨].

القرآن

{لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)} [الحجر : ١٥]

التفسير:

لقالوا: سُحِرَتْ أبصارنا، حتى رأينا ما لم نرَ، وما نحن إلا مسحورون في عقولنا من محمد.

قوله تعالى:{لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا} [الحجر : ١٥]، أي:" لقالوا: سُحِرَتْ أبصارنا، حتى رأينا ما لم نرَ"[٩].

قال الطبري:" يقول: لقال هؤلاء المشركون الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم: ما هذا بحقّ إنما سكِّرت أبصارنا"[١٠].

قال السعدي:أي:" فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم"[١١].

قال ابن عباس:" لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: {إنما سكرت أبصارنا} أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر"[١٢].

وفي رواية:" قريش تقوله"[١٣].

قال الزجاج:" ثم أعلمم تعالى أنهم إذا وردت عليهم الآية المعجزة قالوا سحر، وقالوا: {سكرت أبصارنا}، كماقالوا حين انشق القمر: هذا {سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ} [القمر : ٢]»"[١٤].

---

[١] الكشاف:٥٧٣/٢.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٤٣):ص٢٢٥٩/٧، وتفسير الطبري:٧٢/١٧.
[٣] انظر: تفسير الطبري:٧٢/١٧-٧٣.
[٤] الكشاف:٥٧٣/٢.
[٥] أخرجه الطبري:٧٢/١٧.
[٦] أخرجه الطبري:٧٢/١٧.
[٧] أخرجه الطبري:٧٢/١٧.
[٨] أخرجه الطبري:٧٣/١٧.
[٩] التفسير الميسر:٢٦٢.
[١٠] تفسير الطبري:٧٣/١٧-٧٤.
[١١] تفسير السعدي:٤٣٠.
[١٢] أخرجه الطبري:٧٢/١٧.
[١٣] أخرجه الطبري:٧٢/١٧.
[١٤] معاني القرآن:١٧٤/٣.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق : أنه لو فتح لهم بابًا من السماء ، فجعلوا يصعدون فيه ، لما صدّقوا بذلك ، بل قالوا : { سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا }"[١].

وفي قوله تعالى:{سُكِّرَتْ} [الحجر : ١٥]، قراءتان[٢]:

إحداهما:{سُكِّرَتْ} بتشديد الكاف. وهي قراءة أهل المدينة والعراق.

والثانية: «سُكِرَتْ». بتخفيف الكاف. قرأ بها مجاهد[٣].

وفي اختلاف القرائتين، وجهان[٤]:

أحدهما : معناهما واحد ، فعلى هذا وجوه من التفسير:

أحدها : سُدّت أَبْصَارُنَا، قاله مجاهد[٥]، والضحاك[٦]، ورواه ابن جريج عن ابن كثير[٧]، وبه قال مقاتل[٨].

قال الطبري:" فكأن مجاهدا ذهب في قوله، وتأويله ذلك بمعنى: سدّت، إلى أنه بمعنى: منعت النظر، كما يُسكر الماء فيمنع من الجري بحبسه في مكان بالسكر الذي يسَّكر به"[٩].

الثاني : عميت ، رواه عبدالوهاب بن عطاء عن الكلبي[١٠].

الثالث : أخذت أَبْصَارُنَا، قاله ابن عباس[١١]، وقتادة[١٢].

قال ابن عباس:" إنما أخذ أبصارنا، وشبَّه علينا، وإنما سحرنا"[١٣].

قال الطبري:" وكأن هؤلاء وجَّهوا معنى قوله «سُكِّرَتْ» إلى أن أبصارهم سُحرت، فشبه عليهم ما يبصرون، فلا يميزون بين الصحيح مما يرون وغيره من قول العرب: سُكِّر على فلان رأيه: إذا اختلط عليه رأيه فيما يريد، فلم يدر الصواب فيه من غيره، فإذا عزم على الرأي قالوا: ذهب عنه التسكير"[١٤].

الرابع : خدعت ، قاله جويبر[١٥].

الخامس : تحيرت وسكنت عن أن تنظر. ذكره الزجاج[١٦].

السادس: أنه مأخوذ من «السكر»، ومعناه: غشي على أبصارنا فلا نبصر، كما يفعل السكر بصاحبه، فذلك إذا دير به وغشي بصره كالسمادير فلم يبصر. وهذا قول ابن زيد[١٧].

السابع: معناه حبست ، قاله مجاهد [١٨]، وأبو عبيدة[١]، ومنه قول أوس بن حجر[٢]:

---

[١] تفسير ابن كثير:٥٢٨/٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري:٧٤/١٧، ومعاني القرآن للزجاج: ١٧٤/٣، والنكت والعيون:١٥١/٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري:٧٤/١٧.
[٤] انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧٤/٣، والنكت والعيون:١٥١/٣.
[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٤٤):ص٢٢٥٩/٧، وتفسير الطبري:٧٤/١٧.
[٦] تفسير الطبري:٧٤/١٧.
[٧] تفسير الطبري:٧٤/١٧.
[٨] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/٢.
[٩] تفسير الطبري:٧٤/١٧.
[١٠] انظر: تفسير الطبري:٧٥/١٧.
[١١] انظر: تفسير الطبري:٧٥/١٧.
[١٢] انظر: تفسير الطبري:٧٥/١٧.
[١٣] أخرجه الطبري:٧٥/١٧.
[١٤] تفسير الطبري:٧٥/١٧.
[١٥] النكت والعيون:١٥١/٣.
[١٦] انظر: معاني القرآن:١٧٥/٣.
[١٧] انظر: تفسير الطبري:٧٥/١٧.
[١٨] النكت والعيون:١٥١/٣.

تُزَادُ لَيَاليَّ في طُولِهَا ... فلَيْسَتْ بِطَلْقٍ ولا ساكِرهْ

قال أبو عبيدة:" العرب: تقول: قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت"[٣].

الثامن : غُشيت وغطيت، قاله أبو عمرو بن العلاء[٤]، ومنه قول الشاعر[٥]:

وطلعت شمسٌ عليها مغفر ... وجَعَلَتْ عين الحرور وتسكر

قال أبو عبيدة:" فالغشاء والحيس قريب من السواء"[٦].

والوجه الثاني : أن معنى «سكرت» بالتشديد والتخفيف مختلف ، وفي اختلافهما وجوه[٧]:

أحدها : أن معناه- بالتخفيف-: سُحِرَتْ ، وبالتشديد : أخذت .

الثاني : أن «سُكرَتْ» مخففة، يعني: سحرت، و{سُكِّرَتْ} مشددة: يعني: سدّت. قاله قتادة[٨].

الثالث: أنه بالتخفيف من: سُكر الشراب ، وبالتشديد مأخوذ من: سكرت الماء.

قال أبو عبيدة:" معناهما متقارب"[٩].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: أخذت أبصارنا وسحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحارّ إذا ذهبت فورته، وسكن حدّ حرّه، قد سكر يسكر، قال المثنى بن جندل الطُّهوي[١٠]:

جاءَ الشِّتاءُ واجْثَألَّ القُبَّرُ ... واستَخْفَتِ الأفْعَى وكانت تَظْهَرُ

وجَعَلَتْ عينُ الحَرُور تَسْكُرُ

أي: تسكن وتذهب وتنطفئ، وقال ذو الرّمَّة[١١]:

---

[١] انظر: مجاز القرآن:٨٦/٢.

[٢]ديوان أوس: ٣٤، ورد في "تهذيب اللغة" (سكر) ٢/ ١٧١٩، "تفسير الماوردي" ٣/ ١٥١ بدايته "فصرن"، "الاقتضاب" ص ٤١٢، "شرح الجواليقي" ص ٢٣٩ ورد فيهما برواية الديوان، "تفسير الفخر الرازي" ١٩/ ١٦٧، "تفسير القرطبي" ١٠/ ٨ بدايته (فصرت)، "اللسان" (سكر) ٤/ ٢٠٤٨.

يقول: خذلت على أن ليلتي ساهرة؛ أي ساهر صاحبها؛ كما تقول نهاره: صائم؛ أي يصوم فيه، والطلق: اليوم الطيب الذي لا حرّ فيه ولا برد، واستطال الليلة لما لقي فيها من الألم والشدة، وذلك أن أوس بن حجر انطلق مسافراً حتى إذا كان بأرض بني أسد بين مكانين يقال لأحدهما شرج، وللآخر ناظره، جالت به ناقته فصرعته فانكسرت فخذه.

[٣] مجاز القرآن:٨٦/٢.

[٤] انظر: تفسير الطبري:٧٤/١٧، والنكت والعيون:١٥١/٣.

[٥] الشعر لجندل بن المثنى الطهوي، كما في اللسان والتاج (سكر) (قبر).

[٦] مجاز القرآن:٨٦/٢.

[٧] انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧٤/٣، والنكت والعيون:١٥١/٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري:٧٥/١٧.

[٩] مجاز القرآن:٨٦/٢.

[١٠]هذه ثلاثة أبيات لجندل بن المثنى الطهوي، واجثأل: اجتمع وتقبض، والقبر كالقنبر: ضرب من الطير كالعصافير، واحده قبرة وقنبرة، والحرور: الحر. ويقال سكرت عينه تسكر: إذا تحيرت وسكنت عن النظر وسكر الحر يسكر: سكن وخبأ، وقد استشهد بها أبو عبيدة في مجاز القرآن (١: ٣٣٧، ٣٣٨) عند قوله تعالى " سكرت أبصارنا " قال: أي غشيت سمادير، فذهبت وخبا نظرها، قال: جاء الشتاء، الخ وزاد فيها بيتا قبل الآخر، وهو: " وطلعت شمس عليها مغفر ". وفسر البيت الأخير وهو الشاهد بقوله: أي يذهب حرها ويخبو. وقال أبو عمرو بن العلاء: " سكرت أبصارنا ": مأخوذ عن سكر الشراب، كأن العين لحقها ما يلحق شارب المسكر إذا سكر، وقال الفراء، معناه: حبست ومنعت عن النظر .

[١١]البيت في ديوان ذي الرمة (طبعة كيمبردج سنة ١٩١٩) ص ٢٠٢ وقبله: أتَتْكَ بالقَوْمِ مَهارٍ ضُمَّرُ ... خُوصٌ بَرَى أشْرافَها التَّبَكُّرُ

خوص: غائرات العيون، وأشرافها: أسنمها، والتبكر: سير البكرة، والتهجو: سير الهاجرة، ويسكر: يتسكر الأبصار بظلامه، قوله: والتهجر، بالرفع: معطوف على قوله التبكر، في البيت السابق عليه.

قَبْلَ انْصِداعِ الفَجْرِ والتَّهَجْرِ ... وخَوْضُهُنَّ اللَّيلَ حينَ يَسْكُرُ

يعني: حين تسكن فورته. وذُكر عن قيس أنها تقول: سكرت الريح تسكر سكورا، بمعنى: سكنت، وإن كان ذلك عنها صحيحا، فإن معنى سُكِرَت وسُكِّرَتْ بالتخفيف والتشديد متقاربان"[١].

قال الراغب الأصفهاني:" السكر: حبس الماء، وذلك باعتبار ما يعرض من السد بين المرء وعقله، والسكر: الموضع المسدود، وقوله تعالى: {إنما سكرت أبصارنا} [الحجر: ١٥] ، قيل: هو من السكر، وقيل: هو من السكر، وليلة ساكرة، أي: ساكنة اعتبارا بالسكون العارض من السكر"[٢].

قوله تعالى:{بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر : ١٥]، أي:" وما نحن إلا مسحورون في عقولنا من محمد"[٣].

قال السعدي:" أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء"[٤].

قال ابن عباس:" لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: {إنما سكرت أبصارنا} أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر"[٥].

قال الضحاك:" لقال المشركون: {نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}، سحرنا وليس هذا بالحقّ. ألا ترى أنهم قالوا قبل هذه الآية {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}"[٦].

فوائد الآيات:[١٢-١٥]:

١- بيان سنة الله تعالى في المكذبين المعاندين وهي أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.
٢- أن الإجرام سبب في الضلال، وسبب في حلول سنة الله فيمن هذه صفته.
٣- مطالبة المكذبين المجرمين بالآيات كرؤية الملائكة لا معنى لها إذ القرآن أكبر آية ولم يؤمنوا به فلذا لو فتح باب من السماء فظلوا فيه يعرجون لما آمنوا.
٤- ومن الفوائد: أنه لو جاز أن يكون للسحر حقيقة ويشبه ما يأتي به الأنبياء عليهم السلام وأمكن أن يشبه على البصر ما ذمهم الله عز وجل بأن قالوا شيئا يمكن كونه لكنهم لما قالوا ما لا يمكن البتة وتعلقوا بذلك في دفع الحقائق عابهم الله تعالى بذلك وأنكره عليهم[٧].
٥- أن الله تعالى علم أنه ليس السبب في عدم إيمانهم التباس أو غموض في صدق الدعوة، وإنّما السبب هو ما انطوت عليه نواياهم من عدم الرغبة في قبول الحق، بحيث لو أنزل الله تعالى عليهم أعظم الآيات لما آمنوا.

فهؤلاء المكذبين:" مهما يعطون: إن فتحت لهم في الأرض أنفاقاً فمشوا فيها، وإن عرج بهم في السماء، ولو رأوا الجنة والنار؛ لقالوا سحر محمد أعيننا فرأينا أشياء ثم

---

[١] تفسير الطبري:١٧/٧٥-٧٦.
[٢] المفردات:٤١٦-٤١٧.
[٣] التفسير الميسر:٢٦٢.
[٤] تفسير السعدي:٤٣٠.
[٥] أخرجه الطبري:١٧/٧٢.
[٦] أخرجه الطبري:١٧/٧٣.
[٧] انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل:٥/٧.

لما ذهب عنا السحر ذهب ما كنَّا نرى، ليس هناك مجال لأن يقتنع من لم يرد أن يهتدي"[1].

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء العشرون من التفسير ويليه الجزء الواحد والعشرون بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (١٦) من سورة «الحجر».

---

[1] انظر: شرح الطحاوية للحوالي:٦٤٠.